2020
7.1.2020

رواية

أطفال الإمبراطور

كلير مسعود

ترجمة سلمى وعمرو

كلير مسعود

أطفال الإمبراطور

ترجمة: سلمى وعمرو


أطفال الإمبراطور

هذا الكتاب بدعم من:



أطفال الإمبراطور

تأليف: كلير مسعود
ترجمة: سلمى وعمرو
تحرير: أحمد العلي

الترقيم الدولي (ISBN): 978-9948-38-606-3



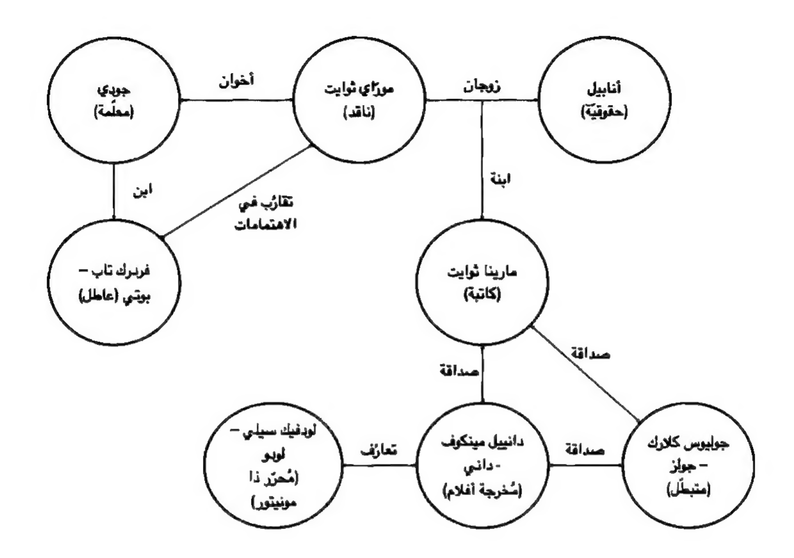
إصدارات روايات (إحدى شركات مجموعة كلمات)
الطبعة الأولى 2020

القصباء - مبنى D
هاتف: 5566696 6 971+ فاكس: 5566691 6 971+
ص. ب. 21969 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
info@rewayat.ae
www.rewayat.ae

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
THE EMPEROR'S CHILDREN



لليفيا ولوسيان، اللذين غيّرا كل شيء، وكما العادة، لـ ج. و.



- باوباو ونانا: والِدا موراي وجودي
- بيرت: زوج جودي ووالد بوتي
- إيلي (تريبلِت): بروفسور، صديق موراي
- روان ليفين: طالبة جامعية عند إيلي
- شُكُت: مُحرّر كتاب مارينا
- بابا: قطّة مارينا
- فرانكلين وثو: والِدا جوليوس
- ديفِد: رفيق جوليوس
- مويرا وجون: أصدقاء مشتركين لدانييل ولودفيك سيلي في سيدني
- راندي: والدة دانييل

إن الرأي العام الذي يتبادر إلى ذهن المرء، عادة بكل ثقة، يقضي دوما أنك إن تحفّظت بما يكفي على تجاربك الشخصية، فلا شيء آخر في الحياة قد يعني شيئًا. ليس ما يحدث للناس هو المهم بل ما يعتقدون أنه قد حدث لهم.

- أنثوني بويل. الكتب تؤثث الغرف حقا.


آذار

الفصل الأوّل

رئيس طُهاتنا شهير في لندن

«أعزائي! أهلا! لابد أنّكِ دانييل؟» كم بدَت أنيقة وصغيرة حين قالت ذلك لدانييل. عيناها الواسعتان صارتا كبيرتين بفعل الكحل. إنّها مُضيفة الحفْل الليلة: لوسي ليفيريت. رغم شبهها بصغير الفقمة، فإن صوتها حاد بشكل عجيب. قرطاها الدائريان جلجلا بمحاذاة عنقها وهي تنحني لتقبل كلاً منهم: دانييل وموبرا وجون، ورغم أنها أبعدت سيجارتها في حاملتها اللؤلئيّة مسافةَ ذراع، فقد انبعث دخانها بينهم مُدمعًا عيني دانييل.

دانييل لم تمسحهما خوفَ إفساد زينتها. لقد قضت نصف ساعة في إعداد نفسها قبالة مرآة حمام مويرا وجون المرقطة، تحملق في عيوبها وتضع مستحضرات إخفاء عيوب قوية - تحتها تقبع عيناها المتعبتان البيضَويّتان منتفختين في زرقة، انحناءات أنفها محمرة بغرابة، جبهتها متقشرة - لم تكن تحمل أيّ نية في كشف عيوبها المخفاة تحت الأصباغ للغرباء.

«تفضلوا أعزائي، تفضلوا.» تحرّكت لوسي خلفهم وهي تدفع ثلاثتهم نحو الحفلة. كانت غرفة الجلوس مطليّة بلون أرجواني داكن - باذنجانيّ حسب المنطوق المحلّي. أما النوافذ فكانت مغلفة بالمخمل. من السقف تتدلى ثريا معدنية صادمة، وكأنها غنيمة من قصر من القرون الوسطى.

يتسكع ثلاثة رجال قرب حافة النافذة، يتحدث بعضهم إلى بعض ناظرين إلى الشارع، بينما تلمع كؤوس نبيذهم الأحمر تحت ضوء المساء المنعكس على الزّجاج. على طول الحائط تمتد أريكة ممتلئة، تجلس عليها أربع نساء تموضعن كجاريات من حريم، احتلّت اثنتان نهايتي الأريكة، تخفيان سيقانهما تحتهما وتربتان على المخدات بأذرع منبسطة، وبينهما تمدّدت امرأتان أخريان، إحداهن مبتسمة بعينين مغلقتين، تهمس نحو السقف فيما صديقتها تربت على شعرها الكثيف. كان كل شيء بالنسبة لدانييل سرابيًّا وكأنها اقتحمت حلم شخص آخر. لطالما انتابها هذا الإحساس كلّما زارت هذه المدينة: سيدني، بعيدًا عن بلدها الأم. لم يكن في مقدورها أن تحسم ما إذا كان كلّ هذا خيالًا، لكنه لم يكن واقعها على أيّ حال.

«روج (روجر)؟ يا روج... مزيدا من النبيذ من فضلك!» نادت المُضيفةُ لوسي داخل المنزل، ثم التفتت إلى ضيوفها واضعة يدًا متملّكة على خصر دانييل «نبيذ أحمر أم أبيض؟ هنالك نبيذ وردي كذلك، إذا كنت تحبذينه، أنا لا أطيقه – كاليفورنيٌّ للغاية!» ابتسمت، ومن تجاعيد عينها التي انكشفت، توقعت دانييل أنها في سنّ الأربعين أو حوله.

من ضوء الشموع الخافت في غرفة الطعام ظهر رجلان يحملان قناني الشراب، كلاهما رشيق، وبدا من الوهلة الأولى أنهما شاردا الذهن. توقعت دانييل أن الرجل الذي يواجهها – بقميصه البنفسجي الضيق، يعلو عينيه المرتخيتين حاجِبٌ نابوكوفيّ – هو مُضيفها.

«أُدعى دانييل.»

وجدت أصابعه رشيقة عندما تصافحا، أمّا راحة يده فكانت باردة.

«وهل أنتِ كذلك الآن[1]؟» قال.

فقال الرجل الآخر خلف كتفه: «اسمي روجر.» كان يكبرها بعقد من الزمن على الأقل، أسنانه مائلة قليلا ولحيته مدبّبة نحو الأمام. «سُررت

---

1) دانييل هو اسم من أصل عِبْري، يعني: الله هو حاكمي.

بمعرفتك. لا تهتمي بشأن لودو (لودفيك)، لكم أحبّ التظاهر بالتمنّع!»

«هذا لودفيك سيلي» تقدّمت بينهما لوسي. «هذه دانييل...»

«دانييل مينكوف» قالت دانييل.

«إنها صديقة مويرا وجون، من نيويورك» قالت لوسي.

«نيويورك،» قال لودفيك ناظرًا إلى سيلي. «سأنتقل إلى هناك الشهر المقبل!»

«أحمر أم أبيض؟» سأل روجر الذي كشف قميصه المفتوح عن صدر أسمر ذي شيب خفيف، تقسمه سلسلة ذهبية.

«أحمر، رجاءً.» قالت دانييل.

«اختيار موفق»، قال لودفيك سيلي، في ما يشبه همسة. بالرغم من أن عينيه المرتخيتين لم تكشفا عن أيّ التفاتة، فقد أحسّت دانييل به وهو يتحسّسها بنظراته صعودا ونزولا. وتمنّت أن زينتها مدموجة بعناية، وألّا توجد أيّ بودرة متكتلة على ذقنها أو خدّها.

بدا لدانييل أن لحظة التعارف جرَت بعفويّة وفوريّة نادرة. هنا، من دون كل الأماكن، في هذا الحصار الغريب العبثيّ، التقت هذا الشخص الذي بدا لها مألوفًا تمامًا، وتساءلت إن كان هو الآخر قد شعر بالمثل: بأهميّة هذا التعارف. لودفيك سيلي: لم تكن تعرفه، لكنها شعرت أنها تعرفه، أو أنها كانت تنتظره طويلًا. لم يكن حضوره الجسدي فحسب هو السبب – ليست متأكدة من ذلك– ولا صوته الجهوريّ العميق دون جلجلة، ولا لكنته الأسترالية الخفيفة الأشبه بالبريطانية. لقد حسمت أمرها، إنّه ملْمَح ما في وجهه: إنّه يعرف كل ما أرادت أن تبوح به له. وأيضًا عيناه، لهما لون رماديّ مذهّب وعميق، في تفاصيلهما تعابير كآبة مَرِحَة. والجعدة المميزة التي تقطع خدّه الأيمن كلّما ابتسم ولو قليلا. أذناه القريبتان من رأسه منحتاه مظهرا مرتّبا، شعره الداكن المقصوص قصيرا يسمح لزُرقة فروة رأسه باللمعان، عززت القَصّة حِسّ سخريته وتحفّظه في آن. بشرته شاحبة، تكاد تكون بقدر

شحوب بشرة دانييل، أما أنفه فكان دقيقا وممدودا. وجهه المميز للغاية بدا مثل بورتريه من القرن التاسع عشر، بورتريه لسارجنت ربما[2]، تجسيدًا للحكمة الساخرة والمجتمع، للكياسة الأرستقراطية. مع ذلك، في انحناء قميصه، في خطوط جسده، في الحركات الرشيقة الرجولية لأصابعه (مُخفيًا الشُّعيرات في ظهر يده، لكنّها موجودة، وهو أمرٌ أعجبها: على الرّجال ألّا يكونوا خالين من الشعر). لم يتواجد هذا الرجل في خيالها، بل في حاضرها دون رِيبة. إنّه يعرف ما يرغب فيه.

«هيا عزيزتي» أخذتها لوسي من ذراعها، «لأعرفك على بقيّة المجموعة.»

صادفَ حفْل العشاء هذا آخر مساء لدانييل في سيدني، قبل العودة إلى ديارها. صباحًا ستركب الطائرة وتنام طيلة رحلتها نحو البارحة، أو الغد، أو اليوم، إلى نيويورك. لقد غابت منذ أسبوع، تبحث إمكانية إنجاز برنامج تلفَزيّ بمساعدة صديقتها مويرا. لن يُصَوّر قبل مرور عدّة أشهر، هذا إن صُوّر أصلًا. برنامج حول العلاقة التي تجمع سكّان أستراليا الأصليين بحكومة بلادهم: الاعتذارات الرسمية التي قدّمتها لهم والتعويضات عن سنوات الظُّلم التي خلت. تتعلق الفكرة ببحث إمكانية التعويضات للأمريكيين من أصول أفريقية، فقد نشر بروفيسور معروف كتابًا يتناول الأمر في دار نشر أسترالية. لم يكن من الواضح حتى لدانييل إن كان الأمر سينجح. هل سيهتم جمهور أمريكي بسكّان أستراليا الأصليين؟ هل هنالك مجال للمقارنة حتى؟ اكتظّ الأسبوع بالاجتماعات والضجيج. الحماس المتّقد لعملها، والتظاهر باليقين بينما في الحقيقة ليس هنالك من يقين أبدا. آمنت صديقتها مويرا، بشدة، أن الأمر ممكن التنفيذ، وأنه من الواجب تنفيذه، لكن دانييل لم تكن تحمل القدْر نفسه من الإيمان.

سيدني بعيدة للغاية عن البلد الأم. طيلة أسبوع، في خضم وحدتها المتعة، انغمست دانييل في تخيُّل فكرة حياة أخرى ومستقبل آخر – غادرت

---

2) John Singer Sargent.

صديقتها مويرا نيويورك وانتقلت إلى سيدني قبل عامين فقط. نادرا ما رأت الحياة في مكان آخر، ولطالما ظنّت أنّا ستجدها كما يجد مُعظم الناس الحياة في نيويورك بعد فترة من انتقالهم. هكذا اعتقدت، بقليل من الشك. من غرفتها في منزل صديقتها ذي السقف القصديري المخطط القابع في نهاية زقاق ظَليل في بالمين، تستطيع دانييل رؤية المياه. ليس حافة الميناء الكبير بجسوره المتدلية، ولا دار الأوبرا ببنائها الأشبه بأجنحة طائر النورس المنفوشة، بل امتدادًا أزرق وراء المتنزّه السُّفلي، يتموّج أحيانا مع مرور عبّارات متباعدة، ويلمع تحت ضوء غروب المساء.

إنها بداية الخريف في سيدني، وما زال الجو حارًّا هناك في ديارها. اجتمع سرب طيور صغيرة مشرقة الألوان على أشجار الجاكاراندا، تُردّد بهجتها دون تناغم. في إحدى الصباحات الباكرة، لمحت قبالة شجيرة صغيرة شبكة عنكبوت كبيرة مترعة بالندى، تفاصيلها الدقيقة لامعة ومتوازية، وعلى الحافة يقبع عنكبوت ضخم مزغب. الطبيعة حاضرة في المدينة هنا، كان عالما آخر. تخيّلت طائرتها بوينغ 747 تئنّ بعيدًا نحو الديار لكن من دونها. تخيّلت حياة جديدة تبدأ هنا.

لكنّها لم تبالغ في التخيّل، ليس تمامًا، فهي نيويوركيّة حتى العظم. لم يكن لدانييل مينكوف غير نيويورك. عملها هناك، أصدقاؤها هناك، حتى معارفها البعيدون من جامعة براون الذين لم ترهم منذ عشر سنوات كانوا هناك. ثم إنها أعدّت منزلها في ضاحية فيلاج الصّاخبة، لكن المريحة. من منزلها الصغير بجدرانه الصخريّة البيضاء في تقاطع الجادة السادسة والشارع الثاني عشر، كانت تراقب مانهاتن السُّفلى كقبطان في مقدّم سفينته. رغم شعورها أنها مُحاصرة بالفقر أحيانًا، وأنها تتطلّع إلى التوقّف عن العمل الشاق وسط مدّ بحر الإسفلت والحديد أمامها أحيانًا أخرى، إلى صمت وسط اصطكاك الضجيج، فإنه لم يكن بوسعها التخلّي عن كل هذا. لطالما مازحَت أمها – المترعرعة هي الأخرى في كولومبوس أوهايو والمقيمة الآن في فلوريدا –

بأنهم سيضطرون إلى جرّها لإخراجها من هناك، وأنه لا مكان كنيويورك. أمّا أستراليا فقد كانت عند المقارنة... حسنًا، إنها أرض الساحر أوز!

هذا العشاء الأخير في سيدني كان حدثًا اجتماعيًا محضًا. تسكن أسرة ليفيريت في مكان يبدو أنه ما زال في وسع سُكّانه الأصليين الذين لم يُفسدهم تعاقب الأجيال التلكّؤ فيه: بشعرهم الرمادي، ساهمين، خارج الحانة في آخر الزقاق، والعلب القصديريّة في أيديهم. أشخاص لم يقبلوا اعتذار الحكومة ولم يتجاوزوا الأمر. وربما لا، ربما كانت دانييل تتخيل المنطقة فحسب، المقيمين فيها وكيف كانوا من قبل. التفاتة ثانية إلى السيارات الفارهة المصطفة يكشف أن سيدني الجديدة (كنيويورك الجديدة) وجدت طريقها إلى هنا.

كانت مويرا لطيفة مع المُضيفة لوسي ليفيريت التي امتلكت دار عرض فنيّة صغيرة ومؤثرة في نهاية شارع روكس، تختصّ بفنون سُكّان أستراليا الأصليين. روجر، زوجها، روائيّ. حينما ركن جون السيارة خارج منزل أسرة ليفيريت الفيكتوري، كانت مويرا تشرح: «لوسي رائعة، لقد قامت بالكثير لأجل المشهد الفني هنا. وإذا ودَدْتِ ملاقاة فنانين من السكان الأصليين والتحدث إليهم بخصوص الفيلم، فإن لوسي هي ضالتك!»

«وهو؟»

«حسنا» تمتم جون، «رواياته ليست جدية أبدًا.»

«لكننا نحبه» أكملت مويرا بحزم.

«شيء واحد سأقوله بشأنه: لديه ذوق رفيع في النبيذ!»

«روجر لطيف» أصرّت مويرا. «الأمر صحيح بشأن رواياته، لكنه ذو نفوذ هنا في سيدني. يستطيع مساعدتك إن احتجته.»

«روجر ليفيريت؟» فكّرت دانييل وهلة. «لم أسمع به من قبل.»

«لستُ متفاجئًا» قال جون.

«مثل قصّة: رئيس طُهاتنا شهير في لندن!» قالت دانييل.

«ماذا تقصدين؟»

«هنالك مطعم صيني صغير وقبيح المنظر في إيست فيلاج، تحمل نافذته المتّسخة عبارة مكتوبة بخطّ اليد تقول: رئيس طُهاتنا شهير في لندن! حسنٌ، لكنّه ليس شهيرًا في نيويورك! ولا في أي مكان خارج لندن....»

«وربما ليس مشهورا حتى في لندن» قال جورج وقد اقتربوا من باب المنزل الأمامي.

«روجر ليفريت مشهور للغاية في سيدني، عزيزتي، مهما اعتقدتِ.»

احتوى العشاء على طبق روبيان وبيض سمّان مع معجنات حبر الحبار، ولحم إيمو الأشبه بشريحة لحم، أُرغمَت دانييل على أكله. جلسَت بين روجر وشابّ آسيوي جميل. إيتو؟ إيكو؟ والذي كان صديقًا لمُهندس أكبر سنًّا يُدعى غاري، احتلّ كُرسيًّا في آخر المائدة. جلس لودفيك سيلي بجانب مويرا، ذراعه ملقاة باعتيادية وأريحية خلف كرسيها، بينما ينحني إلى الأمام ليحدثها وكأنه يُفشي أسرارا. نظرت دانييل ناحيته مرارا، غير قادرة على كبح نفسها، لكنها لم تلمحه ولا مرة إلى حين وُضعت حلوى فاكهة زهرة الآلام أمامهم، حينها رأته ينظر تجاهها. عندما فعل، بدت عيناه المميزتان مستمتعتين ولم تطرُفا. هي التي أخفضت نظرتها متململة في مقعدها ومتظاهرة باهتمام فُجائيّ برحلة إيتو/ إيكو الأخيرة إلى تاهيتي!

الآن بدت لها الأمسية كمسرح مكشوف، الغرض الوحيد الكامن خلفها هو لقاء لودفيك سيلي. أن يهتم أحدهم بلوسي أو روجر أو غاري أو إيتو/ إيكو بالقدر الذي تهتم فيه دانييل بأمر أصدقائها في نيويورك – بدا أمرا لا يُصَدّق: هؤلاء كانوا ممثّلين بالنسبة إليها. لودفيك فقط من كان، في همساته الحميمة ونظراته غير المنكسرة، حقيقيًّا للغاية، مهما عنى هذا. الحقيقة، أو بالأحرى اعتقاد دانييل العظيم، هو أنها لو كانت صريحة لاعترفت أنها هنا والآن آمنَت بالسّحر.

كان روجر الروائيّ بجانبها مَرِحًا ومتحفّزًا. وجدته دانييل نرجسيًّا،

مسرورًا بسماع صوته، بالضحك على نكاته، بغليونه الذي يتلاعب به ويجذب منه الدّخان من حين لآخر. أكرم الجميع بالنبيذ الأحمر الجيّد، وبالأخصّ هي وهو مقارنة ببقيّة الجالسين بعيدا. وغدا ثرثارًا أكثر فأكثر مع كلّ كأس.

«هل زرتِ وادي ماكلارين؟ لم تفعلي هذه المرة أيضًا؟! متى ستغادرين؟ أوه، حسنٌ إذًا، المرة المقبلة، عديني أنك ستصلين إلى جنوب أستراليا، اقطعي طريق النبيذ. وهنالك أيضا غطْسٌ رائع بعيدا عن الخليج. هل قمتِ بالغطس من قبل؟ لا؟! طيّب، أعتقد أنك ستخافين. كنت أغطس كثيرا في شبابي، لكنك قد تضعين نفسك في مآزق سيئة، سيئة للغاية. منذ عشرين عاما لم أكن أكبر سنًّا منكِ الآن. كم عمرك؟ ثلاثون؟ لا تبدين كذلك، صغيرتي. بشرة جدّ جميلة. لا بد أن السبب هي تلك الجينات اليهودية، أنت يهودية أليس كذلك؟ أجل، حسنًا، على كُلّ، الشُّعَب المرجانيّة. كنت بصدد الغطس برفقة بعض الأصحاب، كان هذا قبل لقاء لوسي، لا تسمح لي بالقيام بهذا الآن. كنت أقطن بالقرب من بريسبان، أنهي روايتي الثانية «طريق الاكتشافات.» ربما لم تسمعي بها من قبل؟ لا؟! حسنا، لا أمزح بشأن هذه الأمور. لقد حقّقت نجاحا كبيرا آنذاك. على أيّ حال، كانت الرحلة إلى الشُّعَب المرجانيّة مكافأة، أنت تعلمين، مقابل عمل منجز بعناية. كان المحرّر غاضبا في سيدني بشأن المخطوط، لكنني قلت: «إلى الجحيم جورج! من حقّي أن أحتفل قبل العودة، فبمجرد الانغماس في هذا العالم فلا طائل من أيّ شيء.» أليس كذلك؟ أين كنت؟ الشُّعَب المرجانيّة، نعم، ذهبنا إلى تلك البقعة من البحر في المرّة الأولى على متن مروحيّة طبعا، وهي المرّة الأولى التي أركب فيها مروحية! هل تصدقين الأمر؟ كنّا أربعة رجال...»

مع كل رشفة نبيذ، مُسِخ فيض مزاح روجر إلى سوداوية مريرة. احتفظت دانييل بابتساماتها الصادقة، كانت مستمتعة، ولم يكن في الأمر مجهود. ابتسمت وهي تلتهم معجناتها الحبرية، وهي تشرّح الروبيان، وشعرت أنها تبتسم حتى وهي تمضغ شرائح لحم إيمو، وهي تقتلع القطع القاسية

من عصيدتها المدماة. ابتسمت وهي تنظر إلى لودفيك سيلي الذي لم يبادلها النظرات. وابتسمت لمويرا ولوسي، لجون بالمقابل. عندما ذهب روجر لإحضار الحلوى: «أتكفّل بالنبيذ عزيزتي، والتنظيف، الإحضار والحمل، وأحضّر أفظع ريزوتو قد تتذوقينه في حياتك، لكن ليس الليلة، ليس الليلة.» استدارت دانييل ناحية إيتو/إيكو وعرفت منه أنه يبلغ الثانية والعشرين من عمره، متدرّب في دار موضة، وكان قد تعرّف على غاري منذ ثمانية أشهر، وأنهما منذ مدّة قريبة ذهبا في رحلة خلابة إلى تاهيتي: «أشبه بأسلوب غوغان[3]، وفي غاية الإثارة، أعني، سكان تلك الجزيرة مثيرون جدا.»

«هل هناك حيث قُتل كابتن كوك، في النهاية؟» سألت دانييل، مغمورة بإحساس بالمعرفة عندما نطقت باسم المؤسس.

«لا يا عزيزتي، تلك كانت هاواي، جو مختلف كليّا، مختلف تماما» أطلق إيتو/إيكو ابتسامة واسعة ولاعب شعره الذي بدا لدانييل مصبوغا بأزرق طفيف ولامع تحت ضوء الشموع. «لم تُمضي وقتًا طويلًا في الأرجاء، أليس كذلك؟ لأن الجميع يعلم أنها كانت هاواي. أعني، أنا أعلم أنها كانت هاواي وقد انقطعت عن الدراسة مذ كنت في عمر السادسة عشر.»

بعد الوجبة، استقرّ الحفْل في الأسفل في غرفة المعيشة، حيث انكمش إيتو/إيكو تحت ذراع غاري كدجاجة تحت جناح ديكها، وتخلّت دانييل بكل امتنان عن كأس نبيذها على المائدة، وجلست ترشف الماء بينما يغمرها جوّ سرايّ جميل من الحركة والحوارات. تملّكها شعور باليقظة عندما أخذ لودفيك الكرسي إلى يمينها.

«ما الذي يأخذكَ إلى نيويورك؟» سألَت.

انحنى إلى الأمام، كما رأته يفعل مع مويرا: تلك الحميمية، أو انطباعها عنه، من الواضح أن هذه هي طريقته في التقرُّب. لكنه لم يلامسها. لمع كُمّ قميصه مقابل الرّيش المخملي لذراع الأريكة. «من أجل الثّورة» قال.

---

3) Paul Gauguin

«ماذا؟»

«أنا ذاهب لإيقاد ثورة....»

تراجعَت، ارتشفت رشفة، وفي صمت حاولت أن تفهم. لم تُرِد أن تبدو عاديّة، جامدة، أمريكيّة.

«جديًّا؟ جديًّا. سأذهب لتحرير مجلّة.»

«وأي مجلة هاته؟»

«ذا مونيتور»

حرّكت رأسها بالنفي.

«طبعا لم تسمعي بها من قبل، هذا لأنني لم أصل إلى هناك بعد، هي غير موجودة.»

«ذلك تحدٍّ كبير.»

«ميترون يساندني، أحبّ التحديات.» فهمَت دانييل هذا. أوغسطس ميترون، الغول الأسترالي الفاحش الثراء. مشغول بشراء أوروبا، وآسيا، وشمال أمريكا. أي شيء إنجليزي عن بكرة أبيه. إنّه العدو.

ظهرت لوسي فجأة حاملة القهوة، ضئيلة أمامهما. «لقد قام بها من قبل، إنه رجل يُخشى منه، صديقنا لودو هذا. لقد جعل كل السياسيين والصحافيين يطاردونه في البلدة. مجلة ذا ترو فويس، هل رأيتِها؟»

«أوه نعم، أخبرتني مويرا عنها، أعني، لقد أخبرتني عنك» قالت دانييل.

«نحن لا نتفق على كل شيء» قالت لوسي وهي تبتسم ابتسامة عطوفة لزوجها روجر، ويدها الرفيعة ذات الأظافر المطلية بالأسود تلامس كتفه البنفسجي «لكن، يا إلهي، هذا الرجل لودو يدفعني إلى الضحك.»

أحنى رأسه قليلا: «إطراء حقيقي. والخطوة الأولى على طريق الثورة.»

«وأنت الآن في الطريق للاستحواذ على نيويورك؟» قالت دانييل.

دفعته لهجة دانييل المشكّكة إلى الانتفاض. «أجل!» قالها بوضوح، عيناه الرماديتان الآن تبدوان واسعتين. ثمّ بحزم ودون مزاح كرّر على

مسامعها: «أجل، أنا كذلك.»

في الكرسي الخلفي جلست دانييل وعيناها مغلقتان معظم الطريق. لم تفتحهما إلا هُنيهات لتلمح وميض أضواء المدينة. الضوء الكبريتي الأصفر على الطريق الإسفلتية والسماء الزرقاء الداكنة. «روجر حتما يحب الثرثرة» قالت.

«هل تحدث لك عن رواياته؟ هل أغرقك مللًا في عبثية حبكاته؟» سألت مويرا.

«لا، لقد تحدث مطوّلًا عن الغطس، وطريق النبيذ، أفضل من ذلك الشاب الآسيويّ.»

«صديق غاري الجديد؟ لقد بدا لي لطيفًا.»

«لطيفا؟» سَخِرَ جون، «لطيفًا!»

«لقد كان لطيفا بالفعل، لكنه لم يكن مثيرا للاهتمام.»

عمّ سكون، تاقت خلاله دانييل للسؤال حول لودفيك سيلي لكنها لم ترغب في أن تبدو مهتمة. من كل ضباب المساء، لودفيك هو كل ما علق في مخيالها.

«هل تحدثتِ إلى لودو في نهاية المطاف؟» سألت مويرا.

«أصبحنا نناديه لودو الآن؟» قال جون. «عزيزتي، ألسنا كبارًا؟»

«هل هو فعلا على ذلك القدر من الأهمية؟» أمِلَت دانييل في أن يكون صوتها قد بدا طبيعيا. «لقد بدا غريبًا قليلًا.»

«سينتقل إلى نيويورك، لعلمك» قالت مويرا. «لقد تم توظيفه لإطلاق مجلة. طردوا الشخص الأول. قد تكونين قد قرأتِ عن الأمر، ارتأى ميرتون أن نظرته كانت خاطئة، هل كان اسمه بيلينغتون؟ أم أنه كان بوكستون ربما، فضيحة كبرى، مما جعل لودفيك سيلي المرشح الأفضل، مجتثًا من النصف الآخر للكرة الأرضية وسيغادر قريبا.»

«الشهر المقبل» أجابت دانييل، «أعطيته عنواني الإلكتروني، ليس وكأنه سيحتاجه في شيء لكن في حال ما إذا وجد نفسه في ممر ضيق. حاولت أن أكون ودودة.»

«هذا مشهد مثير» قال جون. «سيلي في مأزق، أتمنى أن أشهد هذا!»

«هل تعتقدون أنه سينجح؟» تساءلت دانييل.

«هو يظن ذلك» علّقت مويرا، «في الواقع، يعلم ذلك. لكن لا يكشف عن الكثير، ولهذا فمن الصعب معرفة ما الذي يُعدّ له. ومن الصعب معرفة ما إذا كان يُسرع إلى شيء أم يهرب بعيدا. لقد سبّب فوضى عارمة هنا في الماضي، منذ حوالي خمس سنوات. كم عمره الآن بحق الجحيم؟ ثلاث وثلاثون عاما؟ ثلاث وخمسون؟ يا إلهي، وله كثير من الأصدقاء.»

«وكثير من الأعداء» عقّب جون.

«كما أنني أظن أنه لم يعد هنالك من تحدٍّ له هنا غير العديد من الخصومات. مع خلفيّة كهذه، يا إلهي، جاء اختيار ميرتون له، من المرجح أنه يعتقد بأنه سيحكم نيويورك، والعالم بعدها!»

«مثل كيم جون الثاني، أو صدام حسين؟» سَخِر جون.

«حسنا قد لا يكون الأمر بالسهولة التي يتوقعها» قالت دانييل، ظانّة أنها نبيهة رغم كل النبيذ الذي احتسته. «قد تكون قصته مشابهة لقصة رئيس طهاتنا شهير في لندن.»

«قد يكون كذلك» قال جون، منتشيا للفكرة. «قد يكون كذلك.»

الفصل الثاني

بوتي الأستاذ

«بوتي (فْرِدرك)... بوتي...» نادت جودي تاب متدثرةً بلباسها المنزلي، واقفة في أوّل الدَّرَج، يحجبها الظلام، فيما النور اللؤلؤي الخافت يتعاكس من الثّلوج في الخارج. «بوتي... هل ستنزل وتساعدنا في إزاحة الثلج لشقّ طريق الخروج أم ماذا؟»

واجهها الصمت. وضعت خطوة على الدّرَج الذي يئز، وتمسّكت بالدرابزين المطليّ، وشرعت في المناداة مجددا بكل ما أوتيت من قوة وهي تصعد: «بوتي؟ هل تسمعني؟»

فُتح باب وظهر ابنها منه في الظُلمة، يدفع نظارته أعلى جسر أنفه محدّقًا. بيجامته البنيّة القديمة منكمشة حول جسده الهيّن، وبدا كأن همّه الوحيد هو ألّا ترى والدته بطنه الشاحبة المتدليّة. شدّ خيطي سرواله ورفعه، كاشفًا في المقابل على كاحليه الرفيعين وأصابع قدميه الطويلة المكسوّة بالشعر.

«هل كنت نائما طيلة هذا الوقت، منذ الإفطار؟» قالت جودي بصرامة. ثم أحسّت بعطف فجائي تجاه ابنها المرتبك. وهو يقف أمامها مترنّحا، يفوقها طولا بحوالي ستّة أقدام. «بوتي؟ فْرِدرك؟ ألا زلت نائما؟»

«أنا أقرأ أمي، كنت أقرأ في السرير.»

«لكن هنالك أثر قدمين في الثلج المتراكم توًّا في الممرّ خارجًا، وما زال الثلج يهطل.»

«أعلم ذلك.»

«علينا أن نخرج صحيح؟»

«المدرسة مغلقة اليوم، ليس عليكِ الذهاب إلى أيّ مكان.»

«فقط لأنه ليس عليّ التدريس اليوم لا يعني أنني لا أحتاج إلى الذهاب إلى أي مكان، وماذا عنك؟»

دفع فْرِدرك نظارته وفرك عينه اليسرى.

«من المفترض أن تبحثَ عن عمل، أليس كذلك؟ لن تجد عملا وأنت مستلق في السرير هكذا!»

«هنالك عاصفة ثلجية في الخارج. كل شيء ملغى، لا المدرسة فقط. لا مكان نقصده اليوم ولا عمل نبحث عنه» وفجأة، بدا صارما وغير مبال في حديثه. «ثم إنّ قراءتي ليس وقتًا مُهدرًا، إنها عمل كذلك، فقط لأنني لا أتلاقى أجرا لقاءها لا يعني أنها ليست عملا.»

«أرجوك لا تبدأ....»

«اسألي خالي موراي، ألا تعتقدين أنه يمضي أيامه في القراءة؟»

«ليس لدي أيّ فكرة عما يفعله خالك بوقته، بوتي، لكن اسمح لي بتذكيرك أنه ناقد كبير يتلقّى أجرًا جيّدًا لما يفعل، أجرًا ممتازًا. واعْلَم أنه عندما كان في عمرك كان في الجامعة ويشتغل في عملين حتى. لأن باوباو ونانا لم يستطيعا تحمّل نفقة...»

«أعلم ذلك أمي، أعلم ذلك. سأتمّ قراءة هذا الفصل وإذا ما توقفت السماء عن الإثلاج فسأزيل الثلج عن الممر.»

«حتى وان كانت لا تزال تُثلج، بوتي. لقد أزالوا الثلوج عن الطريق مرتين منذ الصباح.»

«لا تناديني ببوتي،» قال وهو عائد نحو غرفته «ذلك ليس اسمي.»

عاشت جودي تاب مع ابنها في منزل فيكتوري واسع ومتداع في الضاحية الشرقية من واتر تاون، على الطريق الشرقي نحو لوفيل، في حي يجمع العديد من المباني القديمة الممتدة. قُسّمَ بعضها إلى شقق، وأحدها في نهاية الزقاق يقبع مهجورا، نوافذه الأنيقة مفتوحة على مصاريعها وشرفته مهشمة بالكامل. هكذا كان حال واترتاون ببساطة. لكنه يبقى مع ذلك عنوانًا جيّدًا، منزلًا جميلًا ضمن تجزئة جميلة في الضاحية الجيدة من المدينة، لا يزال محترما كما كان عليه منذ عشرين عاما عندما انتقل جودي وبيرت إليه مع ابنتهما الصغيرة سارة، أما بوتي فلم يكن موجودا بعد.

مترعرعة على بعد ميل من هنا، قضت جودي حياتها كاملة في هذه البلدة ولم تغادر إلا إلى الجامعة لبضع سنوات في سيراكوس. اعتبرت واترتاون جزءً منها. لم تعد ترى (هذا إن كانت قد فعلت من قبل) المتاجر المتخلى عنها أو الشرفات المتدلية. شعور غريب بالألفة يتملّكها كلما قطعت وسط المدينة المسمى سابقا بغارلاند سيتي، على الرغم من بؤس مبانيه الحجرية وساحته العامة المبنية على الطراز الاستعماري، في طريقها إلى الثانوية أو إلى برينس تشوبر. وحَبّهم كذلك، ومنزلهم: تعلقت بهما بكل حب لأنهما يخصانها.

للمنزل كذلك درجات منحدرة أمامه، وفناء إسمنتي صغير ببلكونة مدلاة تنفتح على الرواق العلوي. ركّبت الأسرة حوافا مصنوعة من الألومينوم – بيضاء، بسيطة – لكنها فسدت وكستها الطحالب والطين، كما انبعجت بفعل السقوط المتكرر لمزراب المياه أو خربتها أشغال السناجب وطيور متحمسة جعلت لنفسها أعشاشا بين الحواف والجدار الخارجي. طُلي بقية الخشب بلون أخضر، أضحى الآن أصلع في أماكن عدّة وتصدّع من كل الجوانب. أخفت الثلوج معظم نواحي البناء المنفرة (بما فيها جزء عفن من السطح القرميدي). خفف الثلج من حدة منظره، فبدا السقف الذي كان يوما مصنوعا من حجر الأردواز مدبّسًا بتغليف من الإسمنت، شامخا بكل ثقة يخترق السماء الغائمة.

لا يزال المنزل أنيقا من الداخل، باستثناء غرفة بوتي ربما. مكان لم يعد بإمكان جودي التصرف فيه. لم يُنجز شيء لتحسين الغرفة منذ سنوات. لم تكن لجودي الجرأة على صبغ الجدران حتى منذ وفاة بيرت بسبب سرطان البنكرياس منذ أربع سنوات. الشيء الذي أرخى عليهم جميعا بثقل مظلم. لكنها حافظت على نظافة المكان، لمّعت الخشب، شمّعت البلاط، وغسلت النوافذ كذلك (على الأقل صيفا عند هدوء العواصف). لم يكن هنالك الكثير لفعله بخصوص نقاط العفن العنيدة فوق جدران القبو، (كانت تلقي اللوم على حواف الألومينوم بعد كل هذه السنوات والتي تحبس المنزل من التنفس) أو ذلك العفن على أرضية البلاط خلف الحمام. بالرغم من كل هذا، اعتبرت جودي المنزل في حالة جيدة. الخزائن القديمة والأرضية الخشبية، وحتى نافذة الباب الأمامي مزدوجة الزجاج بألوانه الزرقاء والحمراء. والتي كانت تعلم أنها قد طُلبت من قائمة مجلة سيرز نهاية القرن الماضي، اكتشف بيرت الأمر، كان يحب البحث في هذه الأمور.

أحبت منزلها، ليس فقط للتاريخ الذي يحضن بين جدرانه. وكانت مُولعة أكثر بالطابق العلوي، الغرفة الواسعة المُضيئة التي تُطلّ على الشارع التي تشاركتها مع زوجها العزيز، كان ليموت فيها لولا وفاته في المستشفى. الرواق الواسع بشرفته ودرابزينه اللامع، وسجّاده ذي الزهور الباهتة الممدّد على الأرض، برائحة الغبار الطفيفة المألوفة التي يمكنها التعرف على كل حافة مثنية منها، كل خياطة مبتذلة وكل بقعة تستحيل إزالتها. قطعت الرواق متوجهة نحو غرفتها القريبة إلى قلبها، يغمرها قلقٌ بشأن ابنها النكادي (كل هذا بسبب عمره، استمرت في محاولة إقناع نفسها، عمره والثقافة)، أحست أنها اخترقت بحرا من النور: ألقت النافذتان المفتوحتان ضوء شاحبا غير ظليل على الجدار المزين، صور العائلة تعلو المكتب. حتى جوربها الملقى، ما زال يحمل شكل انثناء قدمها مذ أزالته البارحة، بدا واضحا في الضوء، منارًا. حملت يداها وشعرها الرمادي رائحة القهوة من المطبخ، وشكلت فتحات

سروالها نسيما دافئا على الأرض، بالرغم من بوتي، وبالرغم من هذا وذاك، فإنها في هذه اللحظة من حياتها تشعر أنها سعيدة، رغم سنها، ما زالت قادرة على حب الثلج.

رتبت جودي تاب سريرها – بنظام، أرخت الغطاء السفلي وأزالت الخصلات الرمادية الشاردة عن المخدة، شكلت الغطاء الصوفي الأصفر العلوي حول السرير وحشرَت حوافه جانبا. اهتمت بتنظيم السرير مطولا، تساويه على الجانبين، انتفاخ الوسائد تحت طياته. لم تكن تستخدم لحافًا، مهلهلًا وغريبًا، مكانَه كانت تحبذ ثقل سريرٍ مغطى بأغطية، والجهد الذي يرافق ذلك. تحممت، تجففت، وارتدت ملابسها في حمام الرواق – كان طراز المنزل فيكتوريا ولا يحوي سوى حمّام واحد رغم وجود أربع غرف نوم. ثم ظهرت مرتدية قميصها الصوفي الوردي ذي العنق العالي المفضل تحت كنزتها الخضراء التي حاكتها الشتاء الماضي. لقد حاكتها في الحقيقة لابنة أخيها مارينا. ولا أحد يعلم السبب لأنهما لم تكونا مقرّبتين، غير أنها أحبت الحياكة وقد صنعت بالفعل عشرات القمصان لابنتها وأحفادها. لكن هته الكنزة لم تكن منتهية مع حلول العيد الماضي، وعرفت حينما فتحت الهدية التي أرسلتها مارينا – شال مخملي قرمزي اللون تقطعه رسمات زهور وتزينه حواش حريرية مكشكشة، مثل شال سيّدة فيكتورية – علمت أن الكنزة التي حاكت لم تكن مناسبة. فأرسلت بطاقة بوردرز للهدايا بدل ذلك، واحتفظت بالكنزة لنفسها. أما عن الشال، فليس هنالك مكان واحد في واترتاون نيويورك يمكن فيه لجودي أن ترتديه. حتما لا يمكنها ارتداءه لتدريس الجغرافيا للطلاب والقاصرين في الثانوية. وعليه، قامت جودي بتغليفه بقماش ورقيّ وخبّأته في مؤخّر درج منضدتها. المضحك في الأمر هو أنها أحبت الكنزة وكأنها هدية عزيزة، وكأنها هدية من مارينا، جعلتها تعطف على الفتاة أكثر. بشكل ما، لقد كان الأمر كذلك.

تلفعت بمعطفها الكبير، ارتدت حذاءها من ماركة بِن، قبعتها

الصوفية الوردية (كذلك من صنع يديها، شكلٌ شرائطيّ جميل ذو كُرة صوفيّة من أعلى) وحملت بيديها المخبأتين في القفاز مجرفةَ الألومينوم من الشرفة. قلقت بشأن بوتي القابع في الطابق العلوي مرتديا بيجامته كولد صغير. لم تكن لتسأله مجددا عما إذا كان سيساعدها على الجرف لأنه يسمع ضربات المجرفة المنتظمة وحركاتها أسفل نافذته، لكنها تنازعت رغبتها في أن ينزل الآن برغبته الخاصة. إذا نزل الآن فهذا يعني أنه قد مر يوم آخر دون أن يستحم فيه ولم تكن تريد الإلحاح عليه (من يرغب في أن يكون ذلك النوع من الأمهات اللاتي ينبشن دوما ويعلقن على الأخطاء؟) لا تذكر إن كانت قد سمعت صوت الحمام طيلة الأسبوع الماضي. كان يستلقي في حوض الحمام أوقاتًا طويلة ومتفرقة ومتباعدة، وعندما يفعل فإن ذلك بغرض التلكؤ في الحمام في الماء الذي يبرد سريعا فيما يقرأ أحد كتبه الشيطانية.

اهتمّت جودي تاب بالثلج المتكتل في ممر السيارات أولا، رغم البرد المغري لمقبض المجرفة وهو يعبر عبر قفازيها، رغم البرد القارص الذي يجعل خديها متوردين، رغم الألم اللذيذ الذي ينتابها في أسفل ظهرها فجأة، أحسّت أن مزاجها الجيد يتبخر حالما تذكرت ابنها. عزيزها الوحيد وجائزتها. في أي شهر نحن؟ آذار؟ إنه آذار واقترب عيد الفصح. تخرج بوتي منذ حوالي العام على رأس دفعته. لم تتخيل قط أنه سيبقى هنا أو يعود إلى هنا، وعندما غادر في أيلول إلى أوسويغو، ظنت أنها بداية حياته في العالم الواسع. لا حدود لما كان بمقدوره أن يصنع. ولو كان بيرت على قيد الحياة لرأى أن صغيره قد حقق وعده وأن كل المدخرات التي جمعها (لقد كان محاسبا، ومقترا حكيما) قد أتت أكلها، حتى يلمع بوتي. كانت سارة هي من سببت بعض المشاكل في صغرها، حملت في التاسعة عشر وتزوجت في سن العشرين، لكن لها الآن عمل جيد ومدخرات ورهن وثلاثة أشقياء صاخبين، وأثبت توم زوجها أنّه زوج جيّد، منظّمًا عمله في ترتيب جولات قارب ثاوزاند آيسلاند الخارجة من خليج أليكساندريا صيفا، وحرث أرض حكومية شتاء. قد يهرع توم إلى هنا

ويساعدني على إزالة الثلج من الممر قبل أن يدفع ابنها نفسه لمساعدتها. كان حموا لطيفا، مع أنها تمنت مرة من قبل واحدا أفضل.

لكن بوتي يطمح لأن يكون سياسيا، أو صحفيا كخاله، أو ربما أستاذا جامعيا. هذا ما كان الأطفال في المدرسة ينادونه به: الأستاذ. كان طفلا سمينا تغطي وجهه نظارات، لكنه كان محترما دوما، ومحبوبا حتى، بطريقة ما. تخرّج الأوّل في صفّه. لكنه عاد لاحقا في عطلة رأس السنة، يحمل أرطالا إضافية وخيبات، قائلا إن الجامعة مجرد هراء، أو أوسويغو على الأقل، أن الأساتذة كانوا أغبياء وأنه لن يعود. ظنت جودي أن الأمر يتعلق بفتاة، أن فتاة قد كسرت قلبه أو أحرجته. لم يكن سهلًا التعامل مع الفتيات، غير واثق من نفسه. أو ربما شريكاه في الغرفة، رياضيان ضخمان يعلو الكحول ذهنيهما. لكن بوتي كان كتوما، لم يخبرها بشيء. ومنذ العطلة أمسى يمضي كامل وقته في غرفته يقرأ أو يعبث على الحاسوب (هل كانت برامج إباحية؟ ليس الأمر خطيرا، قد تتفهم الأمر عند شاب صغير، كملهاة لا كإدمان)، أو يمضيه في المكتبة الكبيرة ذات الأعمدة وسط المدينة، حيث كان الجو هناك حارا دائما وللهواء رائحة غريبة. ولنكن صريحين، لقد كان يطلب كتبا من خارج المدينة، كتبًا أكثر جدية من روايات هارلكوين الرومانسية وموسوعة بريتانيكا. هل بحث عن عمل؟ ولا مرة حتى الشهر الماضي عندما وبخته. أخبرته بأنه إن لم يعد إلى الجامعة فإن عليه دفع الإيجار بطريقة أو بأخرى. آنذاك، جلس على الفطور يقرأ الإعلانات المبوبة ويلمح بالعمل في مهن المصانع أو تلك التي تبحث عن طباخين لمدة قصيرة، كانت تلك المرة الوحيدة التي ضحك فيها هذه الأيام، كيف أنه قد يبيع السيارات المستعملة في شركة لودون فورد أند تراك، أو يعمل كنادل في مطعم آني الواقع على الطريق السيّار.

والآن هاهو واقف على الشرفة، لا يرتدي أيّ قفازات ولا قبعة، معطف التزلج فوق بيجامته، شاهرا المجرفة القديمة المغبرّة كسلاح والبخار الخارج من فمه يغطي نظارتيه.

«توقفي عن هذا، أمي،» ناداها. «هذا يكفي، لقد وضحت مبتغاك، سأكمل الباقي.» وبعزيمة غير معتادة انطلق يرمي الثلج بغزارة إلى الجانب صانعا عاصفة ثلجية أخرى على الممر، أما هي، فوقفت تراقب هذا المظهر الغريب، سروال البيجاما الغارق في الثلج، تكوّرات سوداء تلمع مع الندف. واعذروها – لم تستطع صرف نفسها عن التفكير فيما سيقوله الجيران الذين قد ينظرون من خلف ستائرهم، ويتساءلون ما الذي حدث لابن عائلة تاب الذكي الذي انحدر بسرعة من كونه ظاهرة إلى مسخ. وبدون أن تخاطبه، قدمت له مجرفتها الجديدة وأخذت القديمة، خطت خطوة على الشرفة، نافضة الثلج عن قدميها، خداها يحترقان من البرد والخجل. ليس عليه حتما أن يرى، هرعت إلى الداخل حرصا على ألّا يراها هكذا وسمعت صوت الباب الزجاجي يرتطم خلفها بكل مرارة.

الفصل الثالث

علم المنعكسات

شرع جولز (جوليوس) في إزعاج مارينا، وعليه فقد طلبت منه أن يضغط على قدميها. طلبت منه أن يدلك انحناءات قدميها بالتحديد، كانتا مترعتين بكدمات معقدة ومؤلمة، أخبرها أحد أصدقاءها الهنود أنها مرتبطة بعمودها الفقري، أم كانت أمعاءها؟ ويبدو أن الأمر قد نفع في تهدئة انزعاجها. ليس وكأن جوليوس سيتوقف عن الحديث، كان يقول شيئًا ما – وهو يدير قدمها في جميع الاتجاهات – بخصوص رواية الحرب والسلام، حول كونه لا يستطيع تحديد رغبته في أن يكون بيير أم ناتاشا، المنطوي الحالم الوحيد أم الفراشة الاجتماعية النّشِطة، وكونه لا يعلم ما إذا كان بيير أو نتاشا سلفا. الأمر بديهي في حالة جوليوس، لكنها لم تكن تريد سماع كل هذا في الوقت نفسه وهي مغمورة في أحاسيس فجائية انعكست من تناقضاتها وشغلت بالها.

لا أحد لتلومه غير نفسها: بعد البقاء أسبوعين وحيدة في منزل والديها خارج ستوكبريدج، مستيقظة كل ليلة حتى ساعات متأخرة، تتحرك مشوشة الذهن في الظلام الدامس قبل الانزواء إلى سرير والديها، بسكين تحت وسادتها، وكرسي يحبس مقبض الباب بشكل غير نافع ربما، في الليالي التي يكسر فيها أيلٌ أو دُبّ أو يعلم الله ماذا غُصنًا في الغابة خلف الباب، قررت

مارينا أنها بحاجة لرفقة.

يقبع المنزل على بُعد خمسين دقيقة بالسيارة من القرية بكل متاجرها المبهرجة والسياح الذين يملؤونها طوال العام، على نهاية طريق غير مستو على أرض مستوية وسط الأشجار، بنباتات كبيرة وكثيفة على إحدى جوانب المنزل، تاركة مساحة غير متساوية من المرج، حفرَت فيها أنابيل، أمُّ مارينا، حدودًا وغرست مصابيح ونباتات ووضعت طعاما للحيوانات المحلية المتعبة من العلف المقدم لها خلال الشتاء. أسفل الحديقة توجد عريشة مقوسة ومتشابكة ذات نوافذ كانت مارينا صيفا تستمتع بالاسترخاء فيها وقراءة كتاب، لكنها في الشتاء سوداء، كئيبة ومهجورة، نوافذها مغطاة بالثلج وتعريشاتها عارية، بدت ككوخ صياد أو عرين قناص بواجهة مكشوفة على المنزل

طراز المنزل نفسه كان شبه استعماري، بناء حديثًا حاول ما أمكن محاكاة التقليدي. كبير ومكوّن من طابقين، يقع في نهاية الطريق غير المستوي الذي يلتف حوله، بشرفة رئيسة وأربع نوافذ أمامية تكاد تغلق بالستائر ذات الشرائط من أعلى ومن أسفل ومن الجانبين. لكنه من الخلف تخلّى عن أي تظاهر تاريخي دافعًا مارينا إلى الخوف أكثر من العزلة بسبب الأبواب الفرنسية الكبيرة والنوافذ العارية الطويلة، فاسحا المجال أمام نفوذ مُخيف لقُبّة القنّاص والغابة المظلمة. كلّما انهمكت في طهي بيضة أو مشاهدة التلفاز، في التحديق إلى نفسها في مرآة الحمام بعد المغيب، كانت مارينا على وعي أليم بأنه إن لم يكن هناك أحدٌ يتربّص بها الآن، فهي عُرضة لذلك، وعليه فقد كانت تنام في غرفة والديها لأنها تقابل ممرّ السيّارات.

مع الوقت اكتشفت أن قلقها قد تفاقم بدل أن يخف، كلّما فكّرت أن للمُتربِّص المتخيّل فرصة – ولو أنها كانت تعلم أنه متخيّل– لحفظ روتينها، أو معرفة مكان نومها (بالرغم من أنها كانت طبعا قد قسمت غفواتها المتعددة، أنارت الأضواء في غرف غير مستعملة، غيرت الحمام الذي تستخدمه وأحيانا

كانت تغسل وجهها أو تسكب لنفسها العصير أو الحبوب في الظلام، لكي تشوّشه وتُربكه). يوما ما، وبعد استيقاظها عصرا بعد ليلة عبثية ومتعبة من السهر حتى ساعات الصباح الأولى، قررت مارينا بيقين غير متسرع وغير قابل للتفاوض كذلك أنها لن تستطيع البقاء وحيدة في هذا المكان بعد الآن. إنها تتشبّث الآن ريثما يأتي شخص لإنقاذها، كمتسلّق في الصحراء يستطيع بشكل غير عادي -مع وعد يقيني بالارتياح- تحمُّل يوم آخر من دون ماء.

وعليه، استدعت جوليوس. كانت دانييل في رحلة إلى الجزء الآخر من العالم ولمعظم أصحابها وظائف تمنعهم من اكتراء سيارة والقيادة إلى ماساتشوسيتس بسرعة. لم يكن لجوليوس طبعا الحق في اكتراء سيارة لأنه لم يكن يجيد القيادة. لكنه كان يشتغل بشكل حر وبإمكانه إحضار عمله معه إلى المنزل فعرضت عليه مارينا (بتهور، شعرت الآن بعد مضي ثلاثة أيام على قدومه أنها قد تهورت في ذلك) أن تأتي إلى محطة القطار في ألباني، على مبعدة ساعة، وتقلّه. هذا يعني بالفعل أن مغادرته تقع بين يديها تمامًا وفي الآن ذاته خارجة عن سيطرتها: سيكون عليها إيصاله إلى المحطة عندما يحين الوقت لكنه لن يكون لها القدرة على طلب ذلك منه، ولا حتى اقتراح المسألة بدون تعريض نفسها للإحراج (فهو حسّاس جدًّا، جوليوس) الآن هي لا تعلم ما الذي تخافه أكثر، صمت المنزل المدقع وهي تنتقل في أرجاءه مثل شبح شاحب، أم صدى أحاديث جوليوس التي يبدو وكأنها تستمر في ملء الغرف الشاغرة لتبقى هناك مثل همهمات متذبذبة ستسمعها عندما تستيقظ لاحقا ساعة الشروق وتشعر بأنها ليست وحيدة. والآن أثلجت السماء: تساقطت الندف ليلا وطيلة الصباح، مخمدة المشهد ومخرسة النور. كانت لتشعر بالأمان محاطة بالثلج ووحيدة (مَن هذا المتطفّل الأحمق الذي سيعتدي عليها بينما أدلّة خطوات قدميه على الثلج ستقود مباشرة إلى مخبئه؟) لكن ليس هنالك من بُدّ. وضعت أغاني إيلا فيتزجيرالد على مشغل الموسيقى وطلبت من جوليوس أن يمارس خبراته في علم المنعكسات في صمت.

نظرت إليه، منكفئا على قدميه على الجانب الآخر من الأريكة في الظل، قدمها في حضنه والثلج الأبيض كهالة خلف رأسه، أحست مارينا بالأسى تجاهه، هراء بيير/ ناتاشا هذا صادر عن خيبة جديدة في الحب، فتى آخر يوقظ فراشات أحشاء جوليوس، قال له إن وجهه الأشبه بضفدع جميل (حتى في الغرفة المظلمة، عيناه الناتئتان تلمعان) لكنه انصرف عنه بسرعة مُخزية تاركا إيّاه يائسا ومخنوقا بكل عاطفته. جوليوس ذو الوجه الطفولي، نظيف، ارتدى كنزة كشميريّة زهرية وربطة عنق حريرية، حتى في ستوكبريدج، ووضع مرهما على شعره الأسود الناعم. أذناه نتأتا وكأنهما في غضب من الخيانة الأخيرة وانزلق لسانه من حين لآخر ليلعق شفتيه بسرعة وثبات من دون أن ينتبه.

«لقد أخبرتك من قبل، أنت بحاجة إلى رجل أكبر» نطقت مارينا غير واثقة مما آل إليه حوار صديقها الداخلي «شخص أكبر، مستقر، لا فتيان....»

«ذلك ما أعنيه» قلَب جوليوس لسانه. «إيرِك كان كبيرا. أعني، ليس كثيرا، كان يبلغ الثامنة والثلاثين، كبير كفاية ليعرف ما كان يرغب فيه وما لا يرغب.»

«ربما أخذتَ الأمور بسرعة.»

أصدر صوتا باصِقًا: «أرجوك. ليس وكأنني طلبت الانتقال للعيش معه أو شيء من هذا القبيل.»

«منذ متى وأنتما معا؟ شهر؟ أقل من ذلك؟»

«ثلاثة أسابيع.»

قالت مارينا: «في الأسابيع الثلاثة الأولى التي كنت أواعد فيها آل، كنا بالكاد نخرج معا. أعني، كان لا يزال يرى نساء أخريات، أمّا أنا فقد كنت أتظاهر بالأمر نفسه على الأقل.»

«كنت تبلغين الرابعة والعشرين آنذاك.»

«فقط لأننا في الثلاثينيات، أعني، أنت رجل عزيزي، ما من ضرورة

بيولوجية تقيّدك.»

«ثم، انظري إلى ما آلت إليه الأمور في النهاية.»

سحبت مارينا قدمها واستقامت في جلستها: « لقد تواعدنا خمس سنوات» قالت. «لقد عشنا معا، أنجحنا الأمر.»

«حتى لم يعد ممكنا.»

«نعم» تنفّست مارينا. «لكن هذا، هذا لا يعني....»

«أعلم، لكنني لا أظنّك الآن في موضع يخوّلكِ بإخباري كيف أتصرّف.»

وقفت مارينا وسارت لإنارة المصباح النحاسي الكبير في غرفة المعيشة، كاشفة فجأة حمّامًا من الألوان: الوردي والبرتقالي والطيني، لون الأريكة الأصفر الغامق، كلها من إبداعات والدتها. من المفترض أن تخلق معًا جوًّا متوسطيًّا، جعلت الألوان الغرفة تبدو أدفأ، والحديقة خلفها منفّرة كذلك. كان بإمكانها أن تلمح في صفاء لونها الرمادي الكئيب الثلج المحيط بالقوس الخارجي. أمّا بخصوص جوليوس فعليها أن تعترف: الوِحدة خير من التوعّد.

«لم أقصد ذلك،» اعترف جوليوس. «لا أعلم، الوضعان غير قابلين للمقارنة.»

«نعم، ليسا كذلك.» حتى أواخر شهر آب، كانت مارينا تعيش مع آل، آل السمين كما كان الأصدقاء ينادونه لأن له بطنا كانت مارينا تدّعي أنها تروقها. السّبب الرّسمي لانفصالهما هو أن عليها البقاء وحدها لكي تنظّم حياتها. لكنهما انفصلا في الحقيقة لأن آل تعب من دعمها ماديًّا (أو لأنه، كما اقترحت دانييل على مارينا، لأن هذه الأخيرة أتعبته جرّاء التكرار العصبي الدائم لهذه الحقيقة)، وأسوأ من ذلك لأنه نام –ربما أكثر من مرّة– مع زميلة له في جامعة مورغان ستانلي. اشتكت مارينا لدانييل (وليس جوليوس تحديدا الذي لم يكن ليخبرها حتى لو كان يعلم) بأن الأمر لا يتعلّق بكونه نام مع شخص آخر، بل لأن المرأة التي اختار مملّة حدّ الإهانة. وإذا كان قد فعلها، قالت مارينا، فهذا يعني أنها كانت مخطئة بشأنه منذ البداية. وكل أصدقائها الذين تمنّعوا بلباقة

عن قول ذلك كانوا على صواب.

هذا الانفصال غير المتوقع والحتميّ غيّر نظرة مارينا تجاه العالم. أحسّت أحيانا كأنها تُستبدل، كأن شخصا مختلفا بالكامل استحوذ على شخصيّة مارينا ثوايت، أو بالأحرى، كشخص يُرى جديدا بالكامل من الخارج بينما هو من الداخل باقٍ على الحال نفسه. كعملية تغيير خزائن المطبخ حيث تُلصق ببساطة طبقة جديدة من الورق أو الخشب على منضدتك القديمة دون الحاجة إلى إزالة علب الطحين والسكّر أو عُلبة حُبوب تشيريوس المندّاة.

في الحقيقة، بعد الانفصال مع آل السمين (والأكثر إيلاما أنه لم يحاول إبقاءها) عانت مارينا ماديًّا ولا تزال. انتقلت من كونها أكثر أصدقائها استقرارا، لا أحد منهم في عمر الخامسة والعشرين كان أقرب إلى الزواج بينما هي وآل قد اقتنيا سريرا مزدوجا، لتصبح فجأة الأقل استقرارا. ليس لديها شقة خاصة بها، ولا مال لتوفير ذلك. الآن، وقد بلغت الثلاثين تشرين الثاني الماضي، وبعد أن راحت تنتقل من أريكة إلى أخرى بين منازل أصدقائها في المدينة، عادت إلى غرفة طفولتها في منزل والديها الواقع في الضاحية الغربية العليا. كما لو أن هذا لم يكن محرجا كفاية، كان عليها أن تقبل مساعدة منهما فقط حتى تقدر على العيش. بالرغم من أنها لم تكن تملك عملا مستقرا، لم تكن خاملة، كانت غير كفؤة فحسب، هذا ما أكده لها والدها النّاقد المرموق موراي ثوايت، سيّد الكفاءة. في الوقت الذي كانت قد بدأت في مواعدة آل السمين، وقت بعيد يبدو وكأنه غارق في غياهب الأساطير، كانت مارينا قد بدأت في مشروع كتاب. كانت متدربة يافعة في مجلّة فوغ كفتاة جميلة (قد تقول إن هذا غير مهم، وقد تنكره بشدة، لكن دانييل اشتكت لجوليوس أكثر من مرة بأن مارينا لا تملك أدنى فكرة عما سيكون عليه الحال لو لم تكن جميلة، قالت: «أحيانًا أودّ أن أصارحها، ماذا لو ولجتِ غرفة يا مارينا، ولم يتوقف أحد عن الكلام، ولم يلتفت إليك فيها أحد؟ ماذا لو لم يقترح أحد منحك تسريحة شعر مجانيّة أو أن يحمل أمتعتك؟ آنذاك ماذا؟») وكمحبوبة والدها

النّاقد الشّهير، فقد غدَت بضاعةً مرغوبًا بها، دعاها مُحرّر مرموق إلى غداء، رجل في عمر أبيها وصديق للعائلة في وقت ما، ولكم سرّه أن يُرى في مطعم سان دومينيكو برفقة فتاة جميلة، خرّيجة في جامعة براون – للعلم لم يكونوا جميعا ذوي مظهر حسن ومرموقين – وحثّها على التقدّم بعرض لشركته. بعد شهر أو أكثر من الترشّح، مُدّة بدت كأنها أبديّة آنذاك، خافت خلالها من أن يسحب عرضه، طرأت على مارينا فكرة كتاب يتناول موضوع موضة الأطفال و – هذه كانت الحبكة – الحقائق المعقّدة العميقة، أعرافنا بأكملها التي يمكن استخلاصها من قرار المجتمع في وضع الطفلة لولو في فستان مكشكش أو ستايسي الصغيرة في سروال قصير لامع. في ذلك الوقت شكّل الطلب ثقلا كبيرا على عاتقها، لكن مارينا الآن شخص آخر، شخص «مصقول»، لم تعُد مهتمّة بكتابها أو حتى مُعجبة بأطروحتها، حتى أنها لا تتذكر أنها قد فعلت قط، لقد اشتغلت عليه مطوّلًا فقط لأنها استنفدت المال المقدّم لها ولن تتسلّم الباقي حتى تُقدّم مخطوطة لائقة.

للبعض، كان هذا ليسرّع العمل، لكن مارينا رفضت وضع اسمها على كتاب، كتابها الأوّل، ابنة أبيها المدلّلة، على شيء لم تكن راضية عنه، حتى وإن كانت تشكّ في أن عزّة النفس ممكنة الآن. هذا الانفصال أبطأها كثيرا، كما فعل تجوالها المستمر، وكما فعل – إن كانت صريحة مع نفسها – استقرارها في المنزل. مع توالي السنين، وفي الأشهر الأخيرة بدأ المحرّر الثالث المسؤول عن الكتاب، بأنفه المعقوف واسمه الأشبه باسم حيوان أليف – سكُت، بملاحقتها وأبدى اقتراحات عدّة عن مواعيد نهائية مشؤومة. انتاب مارينا قلق من أنها إن لم تسلّم المخطوطة في الوقت المحدّد فسيسألونها إرجاع المال (أمور كهذه تحدث بالفعل، حدثت من قبل لأشخاص تعرفهم). مقدار كبير من ذلك المال تبخّر في الأثير. باقتراح من أمها (لأن والدها كان شخصا يستحيل عليه فصل العمل عن المجتمع، كان العمل من ستوكبريدج دون أطفال أو ضيوف لعنة بالنسبة إليه)، لجأت مارينا إلى سكون الرّيف للعمل على ما سُمّي – ليس هي

من قال ذلك، كانت تعلم أنه ليس كذلك – الدفعة الأخيرة من الكتاب.

منتصف آذار الآن، التزمت مارينا بالبقاء إلى أيّار، لكن لو سألها أحدهم لاعترفت أنها لن تستطيع الاستمرار إلى ذلك الحين. حتى مع آل السمين، لو أن أحدا سألها إن كان هذا هو رجل حياتها، كانت لتقول إنه غير كاف. الآن أيضًا، كان العمل في ستوكبريدج هو الآخر مجرّد تظاهر بالعمل. وللغرابة، حتى الساعة، لم يكن هنالك أحد ليشهد هذا التظاهر. الآن مع جوليوس تورطت مارينا في التظاهر، تكاد تقنع نفسها أنها إن لم تكن قادرة على العمل بعد الآن فذلك لأن وحدتها المحفزة على العمل قد كُسرت. لقد أرادت من جوليوس المغادرة، وأرادت منه البقاء مخافة السكون طبعا، ولأجل العمل غير المتنه، العمل غير الممكن إتمامه، أرادت منه البقاء. وأيضًا، إنّه طبّاخ ممتاز!

«بسبب الثلج» نطق الآن، وسط الغرفة المضاءة، يكفّر عن تعليقه المُسيء، مداعبًا بأصابعه الطويلة الخيوط المغبرة على ظهر الأريكة، «وبسبب هذا الجو الكئيب، أظن أن علينا تناول بعض الطعام المداهن للمشاعر، أليس كذلك؟»

«كفاصوليا مطبوخة على خبز محمّص؟» كانت لا تزال منزعجة منه.

«في الحقيقة عزيزتي، طرأ إليّ أن أُعدّ سوفليه الجبنة، مع بطاطس مطهوّة وقليل من السبانخ على البخار جانبا، حتى تكون وجبة جيدة. وإن كنت بعد تناولها لا تزالين جائعة، فسأحضّر حلوى سابايوني، شريطة أن تبادليني أطراف الحديث وأنا أخلط!»

«هنالك الكثير من البيض في الوصفة، جولز.» تلاشى إحجامها، فطبق سابايوني هو حلواها المفضلة.

«لسنا عجائز لتلك الدرجة» قال جوليوس. «بوسعنا ملاحقة عدّاد الكوليسترول العام القادم!»

الفصل الرابع

أمّا عن جوليوس كلارك

أمّا عن جوليوس كلارك، فلم يكن ذلك الشخص الذي تتوقعونه، لم يكن من نيويورك، ولا من كاليفورنيا، أو واشنطن -لا واشنطن المدينة ولا الولاية- أو حتى من أوريغون. على الرغم من لهجته الإنجليزية التي لا يمكن تحديد كنهها، لم يكن من الجزر البريطانية أو من أي مكان على الأطلسي. لقد قدم من دانفيل ميشيغان، بلدة صغيرة تبعد ساعة على ديترويت. لا يعلم هذا غير أصدقائه الذين عرفوه منذ عامه الأوّل في الجامعة، عندما وُضع عنوان ومنشأ كل شخص قبالة صورته بشكل قبيح في مجلّد طلبة السنة الأولى. عمل جاهدًا على محو هذه الآثار من ماضيه، ربطته ذات النقوش، كنزة الكشمير الورديّة (ولو أنها كانت مهترئة قليلا عند الكوعين)، صوته الرقيق. ومع ذلك، يبدو وكأن الجميع قد التقى في وقت أو آخر بوالده فرانكلين كلارك. بدا مستحيلا أن يكون ذا صلة به وتراءى كاستنساخ له من حياة سابقة.

رجل ضخم وغريب البنية برأس وخدود مكعبة، كان فرانك كلارك من ذوي القبعات الخضراء في حرب فيتنام، هناك التقى ثو، والدة جوليوس، والتي كَبُر الفتى ليشبهها. بعد الحرب، استقر فرانك وثو في دانفيل، حيث درس فرانك التاريخ في الثانوية ودرب فريق الكرة، بينما اشتغلت ثو،

بإنجليزيتها الجميلة غير المتقنة، خيّاطة منزليّة وصانعة أثواب. كان جوليوس الابن الثاني من أصل ثلاثة والفتى الوحيد، كلهم، بأعينهم الداكنة الواسعة وبِنيتهم الضعيفة كأمّهم، ولهذا بدا فرانك بصوته المجلجل وبدنه الضخم مثل غوليفر حين عودته إلى ليليبوت[4]. وبالرغم من التوقعات المحلية، فقد ترعرع جوليوس ناعما، وكان يُعيّر كونه جبانًا في المدرسة الابتدائية. أحبّ فرانك ابنه قدرَ ما أحبّ ابنتيه الناجحتين، والآن يأتي ليزور جوليوس في نيويورك كلّما سمح وقته وزوجته التي تهاب الزحام. كان جميلا، منظر فرانك وهو يجلس في الكرسي الضيّق في شقة جوليوس، منكبًّا على مراجعات الكتب التي يتخصّص ابنه في كتابتها. فخذاه العريضان المحشوران في سرواله يبدوان كقطعة من الأثاث ناتئين في الغرفة، أو كأب وابن في مطعم إيست فيلاج الذي كان جوليوس يزوره. فرانك الجادّ في سترته الواقية من البرد، وقبّعته البيسبول الموضوعة جانبه على الكرسي، يعطي انطباعا للجميع بأنه - جوليوس عرف هذا حتى وإن لم يفعل والده - قوّادٌ من الضواحي، متزوّج وغنيّ يُحبّ اللهو مع الفتيان. لو علم فرانك أن عابري الجادة الأولى سيفهمون المشهد بهذه الطريقة فما كان ليمانع: كان عطوفا مع ابنه، عبث بملابسه وداعب شعره، كان جدّ فخور بانجازات جوليوس، سعادته لكون ابنه قد أصبح «نيويوركيًّا» كانت بادية للجميع، بالرغم من أن دانفيل بالنسبة له كانت منزله الجيّد. (لا داعي للقول بأنه لا أحد التقى بثو غير صديق سافر عبر البلد بعد انتهاء الجامعة ومرّ عبر ميشيغان عمدًا. لكنه مكث في الساحل الغربي، وكلّ ما نقله بعد اللقاء هو أن ثو طبّاخة ماهرة للطعام الفيتنامي والغربي على السواء، حقيقة ربما استنبطها أصدقاء جوليوس من مهارت ابنها في الطّهي).

ما هي إذًا إنجازات جوليوس هته التي جعلت والده فخورا؟ من المقلق أن هناك قليلًا منها فقط، وقد أمست تختفي. معروف في الجامعة

---

4) رحلات غوليفر (1726) جوناثان سويفت

بسخريته اللاذعة، وجد جوليوس لنفسه طريقا في نيويورك، وبالتحديد إلى مكاتب فيلاج فويس، بثقة ساذجة بأن سلوكه سيعينه. ولوقت طويل، لقد فعل: كان الوسط الثقافي برمّته يعرف من هو جوليوس ويشير إليه للقادمين الجدد في الحفلات. غالبا ما كانت مراجعاته المحطّمة والأنيقة تُذكَر، وبشكل أقل، مراجعاته السينمائية والتلفزيّة الأقل أناقة وتدميرًا تُذكر أيضًا. ومع ذلك، طيلة عشرينياته، أمضى حياته بإسراف وايلديّ[5] ولا مبالاة بدَت في حدّ ذاتها إنجازات، المثال المعاصر للطفل الشقيّ. وطبعا، أخفت اللامبالاة عُصابًا مُرهقا لا متناهيًا كانت مارينا ودانييل كتومتين بشأنه: لقد كان فاشلا في العلاقات العاطفية، إن لم يكن في الجنس. (لم يكن ينقصه شركاء لكنهم كانوا يغيبون سريعا). كان مفلسًا دومًا (وعليه، الكشمير المبتذل). لكنه كان من المهم، أو هكذ حاول أن يظهر، أن السرّ الكامن خلف بؤسه ليس انتقاله الدائم بين العلاقات: «هذه نيويورك يا أصدقاء، الناس الذين لا يمتلكون المال ليسوا نبلاء، إنهم متسوّلون.» يبدو أنه لم يشك في أنهم يعلمون هذا سلفا. كان مدركا بأنه في عمر الثلاثين قد تجاوز حدود شخصيّة الوسيم المبذّر، وأن بعض المساعي المستدامة يجب أن تُتّخذ لكي لا يتلاشى كخصلة شعر بعيدًا، من مُبذّر إلى محتاج، لا يفصل عن أن يصير فاشلا مُملًّا سوى خطوات قصيرة قليلة جدا.

اقترح عليه أصدقاؤه أن يقبل عملا، أن يحرّر شيئًا، أو أن يلتزم بكتابة عمود، حتى يستقر مدخوله. لكن جوليوس رفض المسألة وتحجج بأن الانتظام فِعلٌ بورجوازي. لطالما تحدثت دانييل ومارينا بشأن حياته خلف ظهره مشيرتين إليه بلقب الضفدع، بسبب عينيه البارزتين وأنفه المفلطح. لقب أطلقتاه عليه منذ سنوات لكنهما سحبتاه سريعا لأنه أزعجه كثيرا. لم تفهما ما الذي يأخذ منه كل وقته: لم يكن يملك اشتراك تلفاز، لم يكن لديه أيّ نقود ليخسرها. فهمتا من خلال إشارات غير متعمدة كان قد ألقاها بأن

5) نسبة لأوسكار وايلد

الأفلام الإباحية والكلام البذيء على الإنترنت أخذا ساعات من وقته يوميًا، وساعات أخرى تتبخر في مواعيد غراميّة مع مراسليه الافتراضيين. دخل في علاقات غرامية تكفي ثلاثتهم، قالت مارينا ممازحة، وتساءلت بالفعل عمّا إذا كان قدومه إلى ستوكبريدج أشبه بقدوم سكّير إلى أرض جافّة، مثل علاقته مع إيرِك المتقلب الذي لم يتجاوزه بعد، حاول جوليوس أن يدفع بالأمور إلى الأمام، أن يصنع علاقة بشكل ما. ثلاثتهم كانوا يعتقدون أنه ومع تواتر السنين، كان جوليوس يخوض علاقات – آمنة، إذا ما صدّقت مارينا ودانييل تأكيداته – مع جميع المثليّين من عمره في نيويورك، كسحب رِباط كيس، شيئًا فشيئا، وينتهي به الأمر في النهاية إلى معرفة الجميع، يكوّن شبكة معارف مهنيّة قوية وعلاقات أفضل من الجميع. اقترحت دانييل – ساخرة طبعا – أن هذا قد يكون مسعاه المستدام، إنجازه.

هذا، كمسائل أخرى، لم يكن محطّ مزاح بالنسبة لجوليوس الذي كان يفضّل إثارة وتقنين مزاحه. أكثر من أصدقائه، كان جوليوس مهتمًا بالقوّة، لم تكن انهماكا مركزا: لم يكن يسعى إلى نوع معين من القوة، بل مجرد حقيقتها اللاعقلانية. سياسية، اجتماعية، اقتصادية، أي شيء ما عدا القوة الأخلاقية ربما، العزيزة على مارينا، والتي كانت لا تهمّه أبدًا. قد يتناول العشاء قريبا مع دونالد ترامب أو جوينيث بالترو أو دوناتيلا فيرساتشي كما سيتناوله مع والد مارينا، موررّاي ثوايت، فقط لأن لهذا الأخير القدرة على شحذ آراء الناس لا بسبب قيمة صادقة في تلك الآراء. كان بارعا في قوّة الغواية، كان يملكها، يستخدمها وكانت تنفع. كان يريد لحياته كلها أن تسير هكذا. جوليوس، كرة الطموح غير المكتملة، يعلم أن عليه في القريب العاجل إيجاد شيء يطمح إليه، وإلّا سيجازف بالوقوع في استياء أبديّ لا عودة منه.

في عقله الواعي المعطاء دومًا، جاء إلى ستوكبريدج. إلى هذا المنزل المعزول وسط الغزلان والحياة البرية الأخرى (لقد رأى بما يكفي من الحياة البرية في ميشيغان في طفولته، ولأنه متمدّن بالكامل، لم تعد لديه أدنى رغبة

في رؤية المزيد، كما لم يعد يرغب في الشعور بالبرد أو تبليل قدميه)، جاء لمساندة صديقته العزيزة التي تحتاج إليه. كان فخورا بالقيام بهذا المجهود الإضافي، ميزة تشهد له دانييل ومارينا بها. وفي هذه الحالة، علم أن مارينا تتخبط في إتمام مخطوطتها، أنها بحاجة إلى دعم وتسلية، فترك رحلته (جولة لا منتهية في عربة لا مفر منها، مترعة برائحة البول) ليوثر على نفسه. لكنه تأذى بشدة جراء رفض إيرِك، يغتنم فرصة لعق جراحه، وعرف أنه سوف يأكل جيّدًا عند مارينا، إذا ما طبخ، بينما لا يملك في المنزل غير رغيف خبز مجمّد ومرطبان زيتون، ولا مال حتى للتسوق من سوق الفلاحين. مارينا البلهاء، أو الغافلة (لم يكن واثقا أيهما هي، أحيانا)، مارينا الواهمة بأنها قد صارت معدمة نتيجة العيش على كاهل والديها، أزعجته بالقدر الذي أزعجها. لم تكن تدرك أنه يضطر إلى عض لسانه (وكأن تجربتها مع آل السمين تخوّل لها نصحه بخصوص مسائل العاطفة) جاهدًا ليتصرّف بلطف. الأمر برمته مرتبط بالأحقية، وإدراك المرء لها. مارينا الزاعمة لأحقيتها لم تسأل نفسها يوما إن كانت جيدة كفاية. بينما يسأل جوليوس نفسه باستمرار، ويجيب بالإيجاب دوما، ويتعجب من عدم قدرة العالم على رؤية النور. سيكون عليه أن يريهم – في قرار مسعور – كم يبلغ مبلغ عزيمته... لكنه بلغ الثلاثين، والسؤال كان: كيف؟

الفصل الخامس

الشِّعر لا يحقق شيئًا

لمّا اقتربت المحاضرة من الانتهاء، شعر مورّاي ثوايت بدغدغة في حلقه تحثّه على التدخين والشرب معًا. أرخت الظلمة أسمالها خارج غرفة الفصل، وارتخى الطلاب وتراجعوا متقهقرين في كراسيهم البلاستيكية رغم حزم الإنارة المشعة. لقد استمّروا في الإنصات جيّدًا وأظهروا طموحًا، وحتى حماسًا تجاه درسه المتعلّق بالحركات المناهضة للحروب في أواخر الستينيات ومطلع السبعينيات. حتى أنهم بدوا مشككين ومتحمسين لتخيّل ساحة جامعتهم العزيزة، مباشرة خارج هذه النوافذ، مزدحمة بالمتمردين. مورّاي، بشعره الطويل، بينهم، لكنهم أُنهكوا بعد ثلاث ساعات، تواقين إلى عشاء الكافيتيريا، الهواء القذر الدافئ لغرف نومهم والحديث الطائش (عمّ يتحدث هؤلاء الصغار؟) رفقة زملائهم.

راقب صديق ثوايت ومُضيفه الساعة المعلقة على الحائط وجفون الطلبة التي تثاقلت، ربما انتبه أيضا للهجة ثوايت المستعجلة فأنهى المناقشة بسماحة. «صغاري،» ختم، بلهجته القادمة من مانشستر، «ليست لديكم أدنى فكرة عن مدى حظكم لحصولكم على هذه الفرصة. شكر عميق لمورّاي ثوايت على تكلُّف القدوم إلى هنا.» سمع تصفيقًا حادًّا وجده ثوايت صادرًا من القلب، فأحنى رأسه الكبير الفضّي بهدوء. «تذكّروا، ما زال لدينا لقاء في مركز

آي الأسبوع القادم الساعة السابعة، من أجل الفيلم.»

«ما فحواه مجدّدًا؟» سأل شاب واثق يرتدي وزرة، كان قد عبث مطوّلًا بلحيته المدبّبة كعنزة طِيلة الحصة، وبدا أنه يقضم على شَعر ذقنه بسنّيه الأماميّتين، مانحًا بُعدًا جديدًا لوصف لحيته بلحية العنزة، هذا ما فكّر فيه ثوايت.

«كوستا غرافاز: مفقودون. سنناقش تدخلات حكومتنا في أمريكا الجنوبية، آدم. موضوع مرعب جديد.»

«حكومتنا، إيلي (تريبلِت)؟» تمتم ثوايت بينما انهمك الطلاب في لفّ أنفسهم في معاطفهم، «تفاجئني، هل أقسمت على ولاء من دون علمي؟»

ضحك تريبلِت. «لا يتقبّلون الأمر، أنت تعلم، البلشفيون... إذا ما أظهرت عدم تعاوني. هنالك فرق بين انتقاد أسرتك وانتقاد أسرة شخص آخر.»

«أنت تكذب عليهم إذًا» قال ثوايت، رافعا حاجبًا مشكّكا، لا يزال جالسا.

أطلقت فتاة لا تزال متلكئة في الزاوية ضحكة مكبوتة.

«روان، مورّاي ثوايت، روان ليفين. أحد أفضل طلبة القسم.»

وقف مورّاي ثوايت، بجسده فارع الطول ومدّ يده للشابّة التي كانت صغيرة كطفلة، يغطّي وجهها خصلات شعر أسود ملتو وكثيف. «شكرًا على طرحكِ السؤال بشأن لويل» قال. «من المريح العثور على شباب يافعين يعرفون أنّه، قديمًا، حقق الشّعر أشياء عظيمة.»

ضحكت روان مجدّدًا ودفعت شعرها خلف أذنها كاشفة عن وجه دائري ناعم وفم كبير. «أُوْدِن[6]، أليس كذلك؟ أنا أتخصص في الإنجليزية والتاريخ معًا.»

«إنهما يتقاطعان أكثر مما تعتقدين.» استدار ثوايت نحو إيلي مُدركًا

---

6) W. H. Auden

من زاوية عينه أن الفتاة تباطأت. كانت جميلة للغاية، وبقيت متيقظة حتى النهاية. «أين مشربك المفصل إذًا؟»

«مجرّد بضع مربعات سكنيّة من هنا، غير بعيد، غير بعيد.»

«بروفيسور، أعني، سيد ثوايت؟»

بسيجارة في اليد لم توقَد بعد (كان الآن واعيا بالقوانين المؤسساتية البغيضة المدفوعة بالصرامة الحادّة نفسها لتلك التي تنظّم حمامات الطائرات) اتجه ثوايت نحو الباب مشجّعًا الآنسة ليفين بنظراته على اللحاق به.

«تساءلت – عندي بعض الأسئلة – لأجل ورقة دراسية؟ ملف شخصي؟» كانت مندفعة وخجولة في آن بطريقة راقت له.

«وصحفيّة ناشئة كذلك؟»

ضحكت روان ليفين مجدّدًا، كانت ضحكتها حادّة أحيانًا لكن ثوايت كان من تلقاء نفسه فضوليًّا، وقد وجدها حُسنها طاغيًا. قال: «لماذا لا تنضمين إلينا من أجل مشروب؟»

سعل إيلي.

«لا أعلم، بروفيسور تريبلِت؟ لا أريد أن، بعجالة ربما، إن لم تكن تمانع؟ أو في وقت آخر، إذا كان هذا مناسبا؟»

انزعج ثوايت من إيلي بشكل غامض، هل كانت هذه قاعدة أخرى كالتدخين؟ لكن ثوايت لا يدرّس هنا فلماذا سيهتمّ البروفيسور؟ قال ثوايت: «الآن وقت مناسب، ما زال هنالك وقت كاف قبل النوم.»

كان البار أيرلنديا وقديما، بمقاعد وطاولات خشبية دبقة وأرض إسمنتية كذلك، وسيّئ الإضاءة، فكان يعتمد على الشّارة الدعائية المشعّة على النافذة. توجد منفضة سجائر على كل طاولة وحاملات كؤوس بيرة برسوم نبات الشّبت. طلب ثوايت وإيلي ويسكي مع الماء بينما طلبت روان، بعد قليل من التردد، شراب فودكا بالقهوة.

«إنه طعام أكثر مما هو شراب، عزيزتي الصغيرة» علّق ثوايت.

«أعلم، أعلم، لكنهم يقدمون أفضله هنا، إنه ما أطلبه دائما.»

«من الطبيعي إذًا أن تأخديه الآن، كوني صادقة مع نفسك، هذا ما أقول دومًا.»

ثمّة فراغ من الصمت، لاحظ ثوايت أن إيلي كان يحاول ألّا يملأه، وأنه تمنّى أن يدفع الحَرَجُ الفتاةَ إلى الذهاب. لكنّها، غير مهتمّة، سحبت مذكرة من حقيبة ظهرها وقلبت صفحاتها بانشغال زائف. «لقد دوّنتُ بعض الأسئلة» قالت، «أرجو أنك لا تمانع.»

تبيّن أن الأسئلة شخصية جدًّا، وربما كان لها التأثير المتعمد في جعل ثوايت ينظر إليها بتمعن أكثر ويستمع بشكل أقل لما كانت تقول، فما بالك لأجوبته. كان يحب الحديث، كما أخبر تريبلِت قبل القدوم إلى الحصة، أحب التدريس، لكنه لم يكن مهتما بالحديث عن نفسه. لاحظ أن لها عادة في سحب كم قميصها الأيسر والإمساك به وهي تكتب. لم تكن ساقاها المحشورتان في حذاء أسود طويل خلف بعضهما فقط، بل كانتا متشابكتين تحت الطاولة، فيما ترنو إليه من تحت حجاب شعرها الكثيف كأنثى غزال أو أرنب. مع كل سؤال تطرحه، بدت أصغر وأكثر بلاهة بشكل مثير، لكنها جادّة، ولذلك وجدها فاتنة. يكاد أن يجزم – الآن يكاد بصدق أن يجزم – أنها انجذبت إليه لا بطريقة عفوية فحسب. حصل الجميع على جولة ثانية من الشراب، وكانوا على مقربة من طلب الثالثة لولا أن إيلي الذي صار متضايقا، شعر بالحاجة المهنيّة للتدخل بلا تردد.

«أراهن أنّكِ حصلت على ما يكفيك لكتابة سيرة ذاتية، روان.» قال، منسحبا من الطاولة. «سأذهب لأسوي الحساب، ربما عليك إنهاء الحوار هنا. ليس للسيد ثوايت الليل بطوله، ثم إني متأكد بأن لك أغراضا أخرى لقضائها أيضا.»

«لا تقلقي بشأنه،» علق ثوايت عندما ابتعد إيلي «إنه يعتني بك فحسب.»

«في الحقيقة، ما زالت عندي بعض الأسئلة، لكن....»

«لأخبرك بشيء،» قاطعها، «لماذا لا تعطيني رقمك، وأتصل بك لاحقا.» راقب ردة فعلها لكنه لم يلمح واحدة. «أو غدا، بإمكاننا إتمام هذا.»

كتبت معلوماتها بيد شائكة ومزقت ورقة من مذكرتها. «شكرا جزيلا» قالت متنهدة، « كان هذا رائعا.»

لم يكن ليتصل بها، طبعا، ولم تكن لتمانع. لكنه، هكذا، ستشعر بأنّ تواصلًا صادقًا قد حدث، أنها تركت أثرًا حسنا فيه، الأمر الذي كان حتما رغبتها. وضع الورقة في جيب معطفه المليء سلفا بفواتير التاكسي، أعواد الثقاب، وأوراق كهذه. من يعلم؟ ربما قد يتصل، في وقت آخر إن لم يكن الليلة. كان من المهم ترك الاحتمالات مفتوحة.

لوحت روان ليفين للبروفيسور مودعة ثم اختفت في الليل القذر – كان الثلج قد ذاب قليلا على جوانب الطريق – ووافق ثوايت على اللحاق بإيلي وربما آخرين؟ اتصل إيلي بحانة صغيرة في نهاية الحي، على شارع أمستردام.

عندما وصل إلى المنزل، في وقت تجاوز الواحدة، كانت أنابيل قد تركت مصباحَي الطاولة مُنارَين في الرواق. لم يستطع لوهلة أن يتذكر ما إذا كانت ابنته في المنزل أم لا، ومتأكدا من أن زوجته التي لم يتصل بها ستغضب إذا ما أيقضها. بذل ثوايت جهده في عدم إصدار أي صوت قاطعا المنزل. لم يكن ليعرف لاحقا، أكان السبب مشيته، أم الظلمة أم كميات الويسكي والبورغندي التي احتسى، لكنه ببساطة لم ير كومة القيء حتى استسلمت رطبة وصاخبة تحت قدمه.

«سحقا،» استهجن. «سحقا، سحقا، سحقا.» علم أنها القطّة مجددا: البابا، قطتهم البالغة سبع عشرة سنة من فصيلة بوني أبيسينيان. متجبّرة وباردة، والآن بصراحة صارت عاجزة ومنفّرة. لقد كانت هدية لمارينا، تلتها مرحلة المراهقة ورغبتها في مهر أو كلب. واستمر ثوايت في اعتبار هذا المخلوق مسؤولية ابنته، دون أن يعي كونها – تذكّر الآن – قابعة في ستوكبريدج

منذ شهر. ليس دوره ولن يكون أبدا، أن ينظّف ما يخلّفه قطٌّ مريض. ركل فردة حذائه اليمنى بيُسراه، ثم انحنى بحذر شديد ليزيل اليسرى بيده. وقبع الحذاء المتسخ الأيرلندي الطراز جنبا إلى جنب، مروّعًا، كأن صاحبه قد احترق فجأة.

الفصل السادس

البابا مريضة

لما عادت دانييل منذ أسبوع، مدة كافية للخروج من ضبابية الفارق الزمني ولاكتشاف أن مشروعها الأسترالي لن يرى النور رغم كل الجهد الذي كرّسته لأجل تحقيقه، كانت تعلم هذا طيلة الوقت، اتصلت بعائلة ثوايت لتحصل على رقم مارينا في الرّيف، ظنت أن أنابيل ربما هي من ستجيب (محامية غير ربحية للقضايا الأسرية، عادةً لا تتواجد في المنزل طيلة الأسبوع لكنها أحيانا، وبشكل غريب، تكون كذلك) أو ربما أورورا، المساعدة المنزلية. كان لموراي ثوايت، الذي لا تزال دانييل تهابه بعد كل هذه السنين، خطّه الأرضي الخاص في غرفة مكتبه ولم يكن يجيب على هاتف المنزل. لكن مارينا هي من أجابتها، صوتها الناعم المتردّد يوحي بأنها نعسانة.

«هل أيقظتك؟ لقد تجاوزت الحادية عشر.»

«ممم....»

«ماذا تفعلين هنا على أيّ حال؟»

تحدثت مارينا عن زيارة جوليوس، والعاصفة الرعدية الكبيرة وكيف أنهما شعرا بالهلع والاختناق في المنزل، وكيف أنها عرضت عليه إيصاله إلى المدينة. «فكرت في العودة إلى هناك مباشرة» قالت. « لكنه بدا لي أن هنالك

الكثير لأهتم به هنا. فهمت؟»

«مثل ماذا؟»

«أنت تعلمين، رسائل، رسائل إلكترونية....»

«لكنك أخذت حاسوبك معك أليس كذلك؟»

«أجل، لكن... لا أعلم. أحتاج والدي للمساعدة في بعض البحوث، ثم كان سيذهب إلى عشاء كبير الليلة الماضية وطلب مني أن أكون مرافقته، ولهذا مكثت...» اعتادت مارينا على مرافقة والدها إلى المناسبات العامة. أنابيل لم تذهب قط، وأحيانا كان الناس الذين لا يعرفون الرابطة بين موراي ومارينا يظنون أنها زوجته الشابة.

لم تكن دانييل موافقة على إخلاص صديقتها اللاعقلاني لوالدها، لكن لم يكن هنالك من جدوى لقول أي شيء. ستغضب مارينا حتما، فهذا من المواضيع التي توقظ فيها خُبثًا صريحًا حتى أنّها مرّةً قالت: «لو لم يكن والدك بنّاءً في كولومبوس دون أدنى فكرة عما يدور في حياتك لكنت استمعت إليك!» بعدها لم تتحادثا طيلة شهر حتى اتصلت مارينا للاعتذار. كان والد دانييل مقاولا، لا عاملا يدويًّا، على أيّ حال. وفقط لأنه كان مهتمًّا بأمور عمليّة بدل المسائل ضيّقة البُعد التي ينغمس فيها كل النيويوركيين (بمن فيهم دانييل) فهذا لا يجعل منه محطّ سخرية. لم يكن والد دانييل سهل المراس طبعا، لكنه لم يكن نكرة. سألت ونبرة انزعاج تعلو صوتها: «ما أخبار الإعداد للكتاب؟»

تنهّدت مارينا. «بخير، تعلمين، أعني، بخير. كيف كانت سيدني؟»

«جيدة. مُتعبة دون معنى.» حكت دانييل لمارينا عن مويرا وجون، لم تهتم هذه الأخيرة بمويرا، الشيء الذي دعا دانييل إلى الشك بأن الأمر متعلّق بكون دانييل تتطلّع إلى مويرا، وإلى منزلهما الجميل بمحاذاة الماء. تحدثت عن الاجتماعات التي عقدتها مع قادة سكان أستراليا الأصليين، مع وزير الشؤون الثقافية، عمّا تعلمته بخصوص التاريخ المروّع للعلاقات العِرقيّة في أستراليا.

وأخبرت صديقتها عن رئيسها، نيكي، الذي زف لها خبر تغيير رأيهم بعد عودتها، وأنهم قرروا اعتماد برنامج اقترحه أليكس بخصوص الأمهات اللاتي يتم حذفهنّ من لوائح المساعدات الاجتماعية. «لم يجد القصّة مُحيَّنة كفاية.»

«هذا سيّئ، داني، أنا آسفة.»

«تجري الأحاديث هناك عن الموضوع بما يكفي، بحقّ الجحيم. وسيصدر كتاب جون هنا في غضون أشهر، تذكرين، الشخص الذي أخبرتك بأنه أثار القضية من أجل الإصلاح هنا.»

«هل هنالك أمل في أن يغير رأيه؟»

«أمل منعدم، أظن أن السبب الحقيقي هو التمويل، مصاريف إرسال فريق إلى هناك وإرساء كل شيء لكنه لم يكن السبب الذي ذكر.»

«وماذا الآن؟»

«العودة إلى التفكير، طرأت إليّ فكرة إنجاز شيء بخصوص الصحافة الساخرة ودورها في شحذ الآراء حول ضبابية الموقف اليميني واليساري في تضارب صرف. الناس الذين لا يناضلون من أجل شيء، بل ضد كل شيء.»

«هل هنالك موجة من هذا القبيل؟»

«حسنٌ، انتقلت مجلة ذا أونيون إلى هنا، وهنالك ذا نيويورك أوبزيرفر وماكسوينيز. وهنالك مجلة جديدة ستنطلق لاحقا هذا العام مع أستراليّ التقيته هناك.»

«كما تشائين.»

«أرى أن الأمر يشبه روسيا منذ مئة عام، العدميّون، صحيح؟ كما عند دوستويفسكي وتورنجيف.»

«سيقنع هذا رؤساءك حتما.»

«أنا جادة. ظنّ الجميع أنهم ناقمون فقط لكن الثورة حصلت.»

«لا أستطيع توقعها. ثورة في الولايات المتحدة؟»

«لم أقصد هذا. ليس كأنني أنظّر لنظام ماركسي في السنوات

العشرين المقبلة. لكنه سيكون من المثير للاهتمام فهم أهدافهم والأسباب الكامنة وراءها.»

«من أجل المرح، صح؟»

«ربما، إنها مجرد فكرة الآن.»

«هل تريدين القدوم، أو الخروج لاحتساء قهوة؟»

«أنا في العمل.» يقع مكتب دانييل في شارع لافاييت قرب بليكر، أسفل المدينة. لطالما نسيت مارينا أن لدانييل عمل قار، أنه يجب عليها أن تُرى وهي تشتغل من طرف الأشخاص الذين يدفعون راتبها.

«طيب، ماذا عن العشاء؟»

«أين؟»

«أنا مفلسة. أنفقت كل ما لدي على زوج حذاء جديد، كنت بحاجة إليه ولا يمكنني أن أخرج. لكن بإمكاننا أن نأكل هنا.»

«برفقة والديك؟»

«لا أعلم إن كانا سيتواجدان هنا... قد نكون وحيدتين، والبابا.»

«هل هي على ما يرام هذه الأيام؟»

«في الحقيقة لا. كانت هنالك حوادث تقيّؤ متكررة. لكنها لن تتقيأ في حضنك. ماذا عن السابعة؟»

عاشت أسرة ثوايت في الجانب الغربي الشمالي لمتنزّه سنترال بارك، في مبنى بالرغم من أنه يبدو كبيرا، خصوصا لشخص قادم من أوهايو، فإنّه ليس الأجمل بين المباني المجاورة. أقل ما يقال عن ردهته أنها صغيرة، أكبر بقليل من رواق فيه مقعدان مبطنان يواجهان جدارًا وبينهما طاولة زجاجية رُتّبت فوقها باقة زهور كبيرة قبيحة. كان الضوء في الرواق مخضرًا، خافتا وخانقا، بالكاد يضيء التماثيل المحفورة التي ترتدي أزياء مصرية مبتذلة موضوعة بالمقربة من جدار حجريّ وردي إلى جانب من المصعد. وللغرابة، كانت الأرضية من بلاط أسود وأبيض يجعل خطوات حتى أنعم خُفّ تتردد بجسامة. والمصعد نفسه،

مدعوما بدعامات نحاسية ومقعد وحيد أحمر مخمليّ وُضع هناك ربما من أجل المسؤول عن المصعد، بدا من حُقبة زمنيّة أخرى لا تقل قدما.

ومع تجاوز المكان العام المشؤوم الذي كان على الأرجح ليس وفيًّا للأسلوب النيويوركي، كانت شقة أسرة ثوايت التي تعرفها دانييل منذ أكثر من عقد، شقّة جميلة وملاذًا متألّقًا. يفتح المصعد مباشرة على الردهة الأمامية، تواجه دانييل فخامة ما زالت تراها عظيمة حتى الآن، ومن البهو تظهر الغرف الأنيقة من كل الجوانب. على اليمين وخلال قوس واسع، بُسطت رقعة غرفة المعيشة الواسعة، اصطفّت نوافذها ذات الستائر الحريرية المطلة على المتنزّه، أرضيتها مغطاة بسجادة شرقيّة واحدة وكبيرة. كانت هنالك مساحة كافية لاحتضان البيانو الأسود الكبير الذي لا يعزف عليه أحد (تمردت مارينا ورفضت أخذ الدروس بعد سن الحادية عشر)، ولمجموعة متنوعة من الأرائك والكراسي الممتلئة المغلفة بالعاج المذهّب، والمزينة بوسائد مرّصعة. على الجدران عُلِّقت لوحات حديثة، فهمَت دانييل أنها كلها هدايا مقدمة من أصدقاء والدَي مارينا، بينهما يقع بورتريه خفيف الألوان على ورق بُنّي لمارينا الصغيرة وهي في عمر الثامنة أو التاسعة، شعرها الأسود معقوص ومزين بشرائط وثوبها الأزرق ذو الأكمام المنفوخة مطرّز ضيّقًا على صدرها: كانت هذه اللوحة حتما مرسومة تحت الطلب، طلب لم تستطع دانييل تحديد كنهه تماما، من خلال الأسلوب والنبرة، يبدو كأنه من الأربعينيات أو الخمسينيات، لحظة من التحفظ في تاريخ هذه الأسرة الليبرالية.

على يسار الرواق، عبر باب متأرجح غالبا ما يبقى مغلقا، يوجد المطبخ، وإلى جانبه، مجددا من خلال ممر مقوّس، غرفة الطعام، تأبين لروش بوبواس أو لمصمم آخر من السبعينات. كانت الكراسي بدون الأذرع مصنوعة من جلد أسود أملس، بسيطة ككراسي المكتب. المائدة، هي الأخرى على بساطتها كانت من خشب مصقول ومصفوف، أما الإضاءة التي جعلت سجاد القش يلمع كما لو كان مرصّعا، فقد انبثقت من مجموعة مصابيح

هلالية ذات زجاج مضبّب معلقة على الجدران كحُرّاس. فوق البوفيه الرفيع البادي والمعلق بشكل عجيب بطريقة يبدو معها بلا ساقيين، عُلّقت لوحة فخمة، فجر غامر من الذهبي والأبيض، كانت لوحة دانييل المفضلة في الشقة.

تمدد عالم أسرة ثوايت من هذه الغرف العمومية عبر الرواق الواسع نحو غرف النوم، غرفة مارينا أولا، مكتبة، حمامات لا متناهية، حتى آخر غرفة، كانت تعلم أنها خلوة موراي ثوايت الداخلية، المكتب الذي يعمل فيه (يطل، كغرفة الرسم، على المتنزه الواسع) والذي، بعد كل هذه السنين لم تدخله قط.

لكن دانييل عندما وصلت لمنزل ثوايت، وبعد أن أراها عامل البوابة الطريق – صِرْبِيّ عريض الكتفين بشاربين مثيرين وملامح حزينة كأنه محشور في بذلة أصغر من حجمه بضعفين – لم تستقبلها مارينا، بل استقبلها موراي ثوايت نفسه. وقف في البهو مرتديا قميصه، قدماه محشورتان في خف جلدي قرمزي ويده تحمل قدحا.

«سيد ثوايت.» قالت دانييل متفاجئة.

«اسمي موراي، عزيزتي. كم مرّة عليّ أن أقولها لك؟ موراي رجاءً. تجعلينني أشعر أنني عجوز.» انحنى وقبّل خدها البارد، ضاغطا فكّه الملتحي بفكها الناعم. اختلطت رائحة التبغ برائحة كولونيا تحاكي رائحة شراب الجِن والتّونِك (هل كانت من نوع أُوسوفاج؟) ليست قوية، بل بدت عليه جميلة. أخذ معطفها ورماه على علّاقة.

«هل ترغب في أن أزيل حذائي؟ لأن الجو رطب في الخارج وبعض الناس...»

«فقد إذا كنتِ مهتمّة بكشف قدميك الجميلتين.» ابتسم لها، صار وجهه المربع المألوف المتمنّع في إطار شعره الفضي أنعم، أجمل حتى. كان له ما كان يسمّى في الروايات القديمة «وميضًا» في عينيه. استطاعت أن ترى كذلك أن له عروق السكّيرين الناتئة على خديه. «صراحة، لو كنت مكانك

لاحتفظت بهما، أمور قذرة تنتظر على أرضيتنا.»

«القطة؟»

«أخبرتك مارينا؟ لقد نصبت لي كمينا الليلة الماضية. لكن تعالي اجلسي، دعيني أعدّ لك شرابا.»

«هل مارينا هنا؟ لا أعلم إن كانت قد ذكرت، لكنها دعتني للعشاء.»

«لم تذكر هذا، لكنه أمر غير مهم. أهلا بك، لقد خرجت في آخر لحظة، شيء بخصوص تسريحة شعر.»

«فرونسوا؟»

«تماما.» فرونسوا مصفّف شعر أنيق كان يصفف شعر مارينا مجانا مذ كانت في السابعة عشر. في المقابل، كانت تسمح له بأخذ صور دعائية من حين لآخر لتسريحاتها. ومرة، منذ سنوات، شاركت في عرض أزياء. العقبة الوحيدة هي أنه كان يفعل ذلك فقط عندما يكون له وقت شاغر، إذا ألغى موعدًا أو في الليل. من الواضح أن فرصة من هذا القبيل قد ظهرت من العدم. «خرجت منذ ساعة، ستعود قريبا.»

«وأنابيل؟»

«ما زالت عالقة في المكتب، أطفال أُسِيء معاملتهم وجب عليها منعهم من العودة إلى المنزل. عمل قذر.»

جلست دانييل منتصف الأريكة البيضاء الكبيرة شاعرة بالصغر والإحراج، رتبت سترتها ورتّبت الوسائد البيضاء حولها، ورتبت بلا داع جواربها الضيقة على ساقيها قبل قبول كأس نبيذ أبيض، بناء على طلبها، من موراي ثوايت الذي ظلّ واقفا.

«أرجوك» قالت، «لا تجعلني أمنعك من إتمام ما كنت تفعل، متأكدة أنك مشغول، سأنتظر هنا حتى تأتي.»

«لا تكوني سخيفة، لا يمكنني التفكير في إزعاج أكثر لطفا منك. كنت قد شرعت في الانزعاج من الأخبار السياسيّة مرة أخرى، وبوسع ذلك الانتظار

حتى وقت لاحق. أخبريني إذًا، ما جديدك مذ تحدثنا آخر مرة؟»

تساءلت دانييل متى تحدثا آخر مرة، أو تحدّثا مُدّة تتجاوز عبارات الكياسة. لم تكن لتعرف طبعا أنها تشبه روان ليفين، بفم أصغر قليلا وصدر أفضل ومن دون الضحكة المنزعجة. لم تكن لتعرف أن والد مارينا يراها كما لو أنه يفعل للمرة الأولى.

«سافرتُ إلى أستراليا،» قالت مبتسمة. كانت شاكرة لكونها تملك على الأقل موضوعا مثيرا لمُضيفها. «لبحث موضوع كنت أعمل عليه، يبدو أنه محتوم عليه بالفشل.»

سألها موراي ثوايت حينها عن البرنامج وأسباب فشله. قال إنه يعرف جونز، مؤلّف الكتاب الذي قرأته دانييل، وأنه كان مثيرا للاهتمام لكنه متهور ومحب للأضواء. «لست متأكدا ما إذا كان قد ألّفه لدفع البيض لفعل شيء ما لكي يحصل هو على منصب دائم في... أين قلت إنه يدرّس؟»

تبادلا أطراف الحديث بالفعل وتخلصت دانييل مع الوقت من قلقها وتوقّعها بأن تشعر بالملل. اتّكأ موراي ثوايت على مقبض الكرسي، ثم على مقعد البيانو، جسده الطويل المضطرب ينحني عليها، ولو انحنى أكثر قليلا للامس ذقنُه ركبتَيه. كان مشوّشا بالبابا فقط، التي تعالى مواؤها الحزين الخامل. «تبًّا، تبًّا، أيها المخلوق اللعين، تبًّا.»

عادت أنابيل إلى المنزل قبل مارينا، حاملة كيس بقالة ومعطفها يرفرف. «إلهي.» نادت موراي من الرواق، قبل أن تعلم أن دانييل موجودة. «يا له من يوم كارثي.» عندما التفتت عند زاوية غرفة المعيشة لمحت صديقة ابنتها على الأريكة، أو بالأحرى واقفة بمحاذاتها. وقفت دانييل هناك كأنها مذنبة عند سماعها صوت وصول أنابيل، وجهها غير المتغضن ونبرة صوتها المنزعجة تلاشت. «دانييل عزيزتي، مرّ وقت طويل! دعيني أخلع معطفي وآت إليك، أريد عناقًا!»

بعدها، قضت أنابيل عشرين دقيقة في مطبخ الأسرة بشعرها الأشقر

المنزلق من ربطته وسروالها ذي اللون المحاري (ماركة أرماني، خمّنت دانيل) رائعة رغم اليوم الكارثي. تردّدت بودّ تردّدًا وجدته دانييل نامًّا عن انزعاج خفي حول ما إذا كانت شرائح اللحم التي ابتاعت ستكفي لعشاء أربعة أشخاص، حتى قررت في النهاية تحت إلحاح موراي أن تطلب طعامًا صينيًّا والانتهاء من هذا الموضوع.

على إثر هذه الدراما المنزلية الصغيرة، كان لدانييل إحساس غريب وكأنها انتزعَت دور صديقتها في أسرة ثوايت، والأدهى من هذا، كما لو كانت قد سلبته في زمن سابق: شعرت كمراهقة، كما كانت تشعر في مطبخ منزل والديها في كولومبوس (قبل الطلاق طبعا)، انتبهت فجأة إلى غرابة حياة مارينا الحالية، حياة مسجونة فيها، أو على الأقل مُرجعة إليها، الطفولة. لا يمكن لدانييل أن تتخيل تناول طعام العشاء كل ليلة برفقة والديها، ليس لأنهما يعيشان الآن في ولايتين منفصلتين ولا يتحدثان معًا، لكنها بلغت العقد الرابع من عمرها ولم تدخل قط غمار الهراء المتعب للحياة العائلية لأكثر من بضع أيام متحمّلة مُذ كانت في السابعة عشر وغادرت للجامعة.

مع ظهور مارينا، بعقصة مثالية قصيرة لا يمكن لشعر آخر غير شعرها الأسود غير الأملس تحمّلها، قررت دانييل أنه يجب إنقاذ صديقتها. حياتها المنحصرة في شقتها الصغيرة الواقعة غرب الجادة الثانية عشر، حيث تنتهي حافة سريرها على بعد بضعة أقدام مما يمكن تسميته مطبخًا، بدت لها الآن إسبارطيّة كفاية، في فترة يبدو فيها أن العديد من أقرانهما قد أنبتوا ثروات ورقيّة وتكاسلوا في منازل مفتوحة عملاقة، أو حتى في منازل حجريّة، متظاهرين بتطوير مواقع إلكترونية لوظائف غير مفهومة. قد تبدو حقيقة أن مارينا، رغم أنها في سنّ الثلاثين، غير قادرة على ادّعاء امتلاك لحاف أو كرسيّ قابل للطي، فكرةً باهرة تبعا لبعض الأخلاقيات البائدة، لكنها أيضا مُثيرة للشّفقة.

ورغم ذلك فإن مارينا، في مطبخ والديها، لم تبد مثيرة للشفقة، لم

تطرأ الفكرة على مخيالها أبدا. استدارت لتُري ما سمّته، أو بالأحرى ما سمّاه فرونسوا «اهتزاز» تسريحة شعرها، واتكأت على منضدة المطبخ على مقربة من كيس بطاطا مقلية تمد يدها الأنيقة من حين لآخر لتلتقط حبة منها وتقضمها. (لاحظت دانييل هذا لأن عادتها كانت أخذ حفنة كاملة والتهامها كلها، لهذا السبب امتنعت من تناول أيّ بطاطا خاصة بالأسرة إطلاقا.) تحدثت مارينا بمرح عمّا شاهدته في صالون فرونسوا، مشاحنة بين اثنين من المكلّفين بصبغات الشعر بخصوص خصلات الشعر الملونة لإحدى الشقراوات. «جلسَت ونصف شعرها ملفوف في الورق المعدني والنصف الآخر طليق تراقبهما خلف المرآة يختصمان كلاعبَي تنس! كان عليكم رؤية تعابير وجهها،» قالت مارينا ملوّحة بحبة بطاطا. «لا تقدّر بثمن.»

بينما تحدثت مارينا، حملت أنابيل أدوات المائدة والكؤوس والأطباق. التدخل الوحيد الذي قامت به كان أن سألت: «وعصيّ الأكل؟» سؤالٌ قوبِل بالإيجاب فأخذت أربع أزواج من العصيّ من دُرج الأدوات. ساعدتها دانييل في إعداد مائدة غرفة الطعام، فصارت مارينا الآن تحدّث والدها فقط. أصدر أصواتا ممتدحة وضحكًا، لكنه كان يقرأ في الوقت نفسه مقالًا في مجلة ذا نيويوركر بوك ريفيو كان قد وصل بالبريد وأحضرته أنابيل. مارينا، غير منزعجة بانتباهه المشتّت، أكملت حديثها.

هل كانت أنابيل منزعجة؟ تساءلت دانييل، وهي تثني المحارم (قطنية، ومكوية حتى، من طرف أورورا) أمام كل كرسي. لم يساعدها لا زوجها ولا ابنتها، ومع ذلك فأنابيل هي الوحيدة بينهم التي أمضت يومها في العمل. حسنًا، أنابيل ودانييل، الضيفة غير المنتظرة، تساعدها الآن بهمّة. لم تبدُ أنابيل منزعجة، بل شاردة الذهن. تذكّرت دانييل ما أشار إليه مورّاي بخصوص الطفل المُساء معاملته.

«هل كان يومك طويلا؟»

«معذرة؟» بدت أنابيل مشدوهة. «يوم طويل؟ أجل، قضيّة صعبة.

ذلك الطفل مشكلة فعلًا. يريد العودة إلى المنزل ووالداه، أمه وزوجها، يريدانه أن يعود، ولا دار رعاية ستقبل به نتيجة سجلّه. لقد دفع أمًّا حاضنة من فوق الدّرج وكسر قدميها. قد تظنين أن الجواب البديهي هو إرساله إلى المنزل وترك الجميع سعداء. لكن له ذراعا مخلوعة، ومعصما مكسورا ومياه زرقاء في العينين خلال الستة أشهر الماضية. هذا هو الوضع في المنزل. يريد أن يكون هناك لحماية والدته.»

«ما هي وظيفتك في خضمّ كل هذا؟»

«أمثّل الطفل، هذا ما تفعله وكالتي.» أنشأت أنابيل الوكالة عندما كانت مارينا صغيرة، منظّمة غير ربحية تشتغل مع الخدمات الاجتماعية. «على أحدهم الاعتناء به.»

«الطفل؟ عجبا، كم عمره؟»

«إنه في الرابعة عشر. وكبير، ليس طويلا، بل كبيرا. لكن زوج أمه أكبر بشكل مؤثر.» توقفت عن عملها، وضعت يديها على خصرها وحدقت إلى المائدة. في الباب المجاور للمطبخ كانتا تسمعان مورّاي وهو يتحدث الآن، شيء ما بخصوص جولة كتابه الأخيرة، كانت مارينا ساكتة.

«يحب الحياكة، تخيلي؟» عادت أنابيل إلى الحديث. لم تستوعب دانييل عما تتحدث في البداية. « في مكان ما داخله، بين كل الحزن والعنف، هنالك فتى لطيف. علّمته جدته كيف يحيك ويمارس ذلك في غرفة الانتظار، وشاح كبير مخطّط، قبّعة تحمل ندفا ثلجية قرمزية اللون. منكفئا على الإبر، ينتظر، لسانه ناتئ خارجا بينما هو منهمك جدية. جدّته في منزل رعاية الآن، الزهايمر. أشعر وكأن كل ما يحتاج إليه هو الزحف إلى حضنها، أو حضني، أو حضن أي شخص مستعد للعناية به ولو مرّة. هذا الفتى الكبير المرعب القادر على كل أشكال الأذى ويُحبّ الحياكة.» تنهّدت أنابيل. «الأمر سيّئ، قد يحاكَم كبالغ هذه الأيام إن سبّب أيّ ضرر. وأعتقد بصراحة أن ذلك هدفه. ليس المحكمة طبعا. الضّرر. يكره زوج والدته، ومن لن يفعل على كل حال؟ الرجل

عنيف وسكّير. أعتقد أنه يريد قتله.»

«أراهن على أن هذا يحدث كثيرا.»

«لا. أعني، أنا متأكدة أنه يريد قتله فعليا. إنه غبي كفاية، المسكين، وذكي كفاية. ولهذا، داني، بإمكانك أن تتخيلي أنني كنت مجبرة على الحرص على ألا يعود إلى المنزل الليلة.»

«ماذا أخبرتِ القاضي؟» توقعت دانييل أن هنالك قاضيا متورطا في القضية.

«لم أقل ذلك، حتما.»

«المسكين، يبدو ككابوس.»

نظرت أنابيل إلى دانييل مباشرة. «إنه كابوس، لكن الأمر معقد.»

«مسكينة أنت، إذاً.»

ابتسمت أنابيل ابتسامة منعشة. «لن يجدي أحد أن أفكّر هكذا. ارفعي معنوياتك يا بطة! هذا كان شعار رفيقتي في الغرفة أيام الجامعة، دقيق للغاية.»

ومهما كرّرت أنابيل هذا الشعار الأبيض المزعج (في أيّ جامعة درست؟ فاسار؟ برين ماور؟). لم تر دانييل أن للأمر أي تأثير على مارينا، التي كانت في ذلك الوقت تدفع لرجل توصيل الطعام الصيني في البهو ببطاقة ائتمان والدها. قد لا يكون هذا صحيحا: ربما انهمكت مارينا في رفع معنوياتها إلى حدٍّ نسيت معه، أو لم تلاحظ، أنها تقف على السّراب، قابعة في العدم. كيف كانت قبل قليل تتحدث بحيوية واستمتاع دون أن ينتبه لها أحد.

بعد العشاء الذي وجدته دانييل لذيذا خصوصا لحم الموشو بالرغم من أنه فتر سريعا على أطباقهم وصار دبقًا. دفع موراي ثوايت كرسيه كاشفا عن ساقيه العريضتين «سيّداتي،» قال فيما يمرّر أصابعه خلال شعره الفضي، «هلّا عذرتمنني؟» ثم، «مارينا عزيزتي، هل طبعت تلك المواعيد لأجلي؟»

«كانت تُطبع عندما غادرت لأجل فرونسوا، بابا، سأحضرها لك.»

«ومارينا عزيزتي،» ناداها، «شعرك يبدو رائعا.» التفت إلى المائدة. «ربما أقصر قليلًا بإنش؟ لكنه سينمو. سعيد برؤيتك دانييل. تبدين جميلة كذلك، لعلمك.» قبّلها، فاحمرّت وتمتمت. «وعزيزتي» مخاطبا زوجته، «هلّا أخبرتني عندما تحين الحادية عشر؟ ذلك الأحمق مدعوّ في برنامج شارليز الليلة.»

«إذا كنت لا أزال مستيقظة، وإلا سأجعل الفتاتان تفعلان.»

نظفت أنابيل ودانييل الصحون، وعادت مارينا للظهور لحظة انتهاء أمّها من وضع الصحون في الجلّاية.

«أظن أن بابي فعلتها مجددا. أمي. هنالك رائحة عفنة في غرفة المعيشة لم أستطع تحديد مكانها.»

«اذهبا كلتيكما، سأهتم بالأمر.»

«العيب الوحيد بشأن الطعام الصيني هو أنه يجعل المكان كله مشبعا برائحته لاحقا.» أشارت مارينا وهي تغلق باب غرفتها وتتحرك لإيقاد الشمعة المعطرة على منضدتها. «خزامى بروفانس حسنا؟»

«لا أشم شيئًا.»

«لحم الموشو؟ لا زلت لا تشمينها؟ تبا.» تململت مارينا قليلا، «ماذا عن قليل من شوبان؟»

«كما تشائين.»

غرفة مارينا فوضويّة بطريقة لافتة كصاحبتها. كان الكرسي غارقا تحت الملابس المتجاهلة، منضدتها ملأى بأحمر الشفاه، الأقلام وقناني العطور المفتوحة يلمع سائلها الكهرماني تحت نور الشمعة المنارة. كان السرير مرتبا بطريقة فوضوية مرشوما بشبح جسد مارينا، وممتلئا ببعض الكتب والسّترات. أُنيرت المصابيح خافتة، لونها أصفر ومن خلال باب الخزانة المفتوح جزئيا كان بإمكان دانييل أن ترى كتلَ وأجمات الملابس والأحذية المكدسة.

«لا بد أن أمك متعبة،» علقت دانييل وهي تنقل الحاسوب إلى الأرض،

ضوءه الأخضر الخافت منار. ثم استقرت على كرسي ذي مقبضين ومددت رجليها على الكرسي المقابل. مارينا المشغولة باختيار قرص من الرّف بمحاذاة الستيريو، لم تجب. «أشعر بالذنب.» استمرت دانييل، «سببت عبئا إضافيا ولم أساعد.» ما كانت تعنيه هو أنها شعرت بالذنب تجاه مارينا التي لم تساعد إلا قليلا.

«لا تكوني سخيفة، داني. لم تكلف نفسها بفعل أي شيء هي غير معتادة على فعله.» استلقت مارينا على سريرها المغطى بالوسائد ولحاف ذي لون طينيّ مزيّن بشموس مبتسمة. ككل شيء في مساء مارينا، ذكّرها اللحاف بالمراهقة.

«مممم،» قالت. «هل الأمور فعلا على ما يرام؟»

«ماذا؟»

أشارت دانييل بعشوائية. «هذا. كل شيء. الكتاب. الحياة في المنزل، بحق الجحيم، لا يمكن أن يكون الأمر سهلا.»

وضعت مارينا يديها خلف رأسها وأغلقت عينيها. «لا، طبعا لا، إن كنت تريدين الحقيقة. كيف له أن يكون كذلك؟» فتحت عينيها، زرقاوان غامقتان أقرب إلى البنفسجيّ، لامعتان وجليّتان، بنفس لون عيني والدها قبل أن ينتآ ويحمرّا. «لكن ما الذي يلزمني فعله؟ أنا مفلسة كليا، ووالداي تصرّفا بلطف تجاه المسألة، لكنك رأيت كيف تسير الأمور، أكاد أجنّ،» عمّ صمت. «أنا فقط لا أعلم ما الذي عليّ فعله.» قالت مجدّدًا.

«بإمكانك الحصول على عمل عزيزتي.»

«عمل؟» شهقت مارينا. «وكيف سأكمل الكتاب آنذاك؟»

«حسنا، لا أعلم. لكن الناس يقومون بالأمر. يعملون ليلا أو في الصباح الباكر على أمورهم الخاصة. أو ربما عمل جزئي حتى. الأمر وما فيه أنه يبدو لي أنك بحاجة إلى فضائك الخاص.»

«لا أعلم كيف أحصل على عمل الآن. أحتاج فعلا إلى إنهاء الكتاب،

فقط. هذا هو الأمر الأساسي.»

«لكن،» توقفت دانييل. «أخبريني بصراحة، هل ستكملينه؟ متى ستكملينه؟»

«آخر أجل في آبْ.»

«ألم يكن في آبْ الماضي؟ والميلاد الذي سبقه؟»

استقامت مارينا. «أنا بطيئة إذًا. الأمر تأخر إذًا. ما الذي ترمين إليه؟»

«لا أرمي لشيء. كل ما في الأمر هو أنني أظنك عالقة. وإن لم تتحسن الأمور فهي ربما تسوء، هل تفهمينني؟»

«هل أخبرك جوليوس بكارثته الغرامية الأخيرة؟»

«حسنا، سأنسى الأمر. لكن فكّري في المسألة. بإمكاننا كلنا مساعدتك في العثور على عمل. بإمكاني أنِ أسأل، بإمكانك أن تسألي، بحق الجحيم يمكن لوالدك أن يسأل.»

«حسنا.» عقدت مارينا ساقيها في وضعية اللوتوس، متوقفة لشدّ ردفيها. جلست في استقامة وأخذت نفسا عميقا. «لا أريد أن أخوض في الأمر لأنني أعلم بأن الموضوع يزعجك وستطلبين مني تجاوز المسألة، لكنك لا تعلمين ما الذي يعنيه أن تكوني ابنة موراي ثوايت. لا أريد أي عمل فقط لأنه توسّط لي، ولا أستطيع قبول أي منصب غبي فقط لأنه من الجيد الحصول على عمل. عليّ أن أؤمن، أعني، أنا أعلم أنني أكثر جديّة من هذا.»

«تعنين أنك أفضل من هذا.»

«أيا كان، يبدو الأمر مبتذلا، لكنني أريد خلق فارق. بالكتابة. القيام بشيء مهم. ولا أعني، لا أعلم، تغطية اجتماعات منطقة التجارة التفضيلية في ستيتن أيلاند لفائدة جريدة نيويورك تايمز» أحد أصدقائهم مؤخّرا وبكل حماس قَبِلَ منصبا مشابهًا. «كلانا يعلم أنني لا أستطيع الحصول عليه حتى إن رغبت.»

«الجميع يبدأ من مكان ما.»

«ما هذا؟ ليلة الكليشيهات؟ سأنطلق في إتمام كتابي، الأمر يأخذ وقتا، أطول ممّا توقعت.»

هزّت دانييل يدها بنفس الحركة العشوائية بيدها التي قامت بها قبل قليل. «أيا كان،» قالت. «لا يهم. ماذا عن جوليوس وقصة قلبه المحطم الأخيرة؟»

الفصل السابع

«مقدمة عن موراي ثوايت»

بقلم روان ليفين (طاقم الجريدة)

صحفيون قليلون هم من يشبهون موراي ثوايت في تقلبه، وسعة معرفته وجدله. في عمر الستين، ثوايت معروف بمقالاته الشهرية في ذا آكشن، وأوراقه النقديّة في ذا نيويوركر وذا نيويوركر بوك ريفيو. كتب وحرّر كذلك اثني عشر كتابا من بينها: «الغضب في النظام» و»الحرب الخفية في أمريكا اللاتينية.» كتابه الأخير عبارة عن مجموعة من مقالاته حول الرأسمالية الأخيرة، عنوانه: «في انتظار غناء السيدة السمينة.» ظهر ثوايت في الحرم الجامعي مؤخرا ضيفا على حصة السيد تريبلِت: «التاريخ 395، المقاومة في أمريكا بعد الحرب.» حيث تكلم حول العمل الذي قام به في شبابه ضمن الحركة المناهضة للحرب في فيتنام. رجل طويل ووسيم بشعر فضي كثيف، فك عريض وعينين زرقاوين ثاقبتين. بذلته الصوفية المخططة أنيقة وقديمة. كان يلوح بيديه حينما يتحدث. متحدث ديناميٍ وغير خائف من أكثر الأسئلة تحديًا. سأله أحد الطلاب عما إذا كان يعتقد فعلا بأن الحراك المناهض للحرب قد خلق فارقا، فضرب السيد ثوايت المكتب – حرفيًا – مُجيبًا: «حتمًا. ربما لم يفعل الكثير ولم يتصرف بالسرعة التي أردناها، غير سريع كفاية لإنقاذ حياة آلاف الشباب على الجبهتين، لكن الإيمان بأنه قد خلق فارقا أمر واجب.

إن كان هنالك أي داع للديمقراطية» استمر في الحديث « فهو لضمان سماع صوت الشعب، وأن إرادة الشعب ملزمة. هذه ليست مثاليات، إنها حقيقية. ومسؤولية. على كاهل كل واحد منكم في هذه الغرفة مسؤولية التعلم، وتكوين رأيه الخاص المبني على الحقائق، وتعليم الآخرين.»

ولد السيد ثوايت، النيويوركي، منذ زمن طويل، سنة 1940 في واترتاون العليا قرب الحدود الكندية. والده مدرس ووالدته ربة بيت، كان الأكبر بين طفلين. حصل على منحة دراسية لجامعة هارفارد في أواخر الخمسينات حيث درس التاريخ وتخرج فيها سنة 1961 وهو في عمر العشرين. بعد قضائه سنة في باريس ضمن منحة فولبرايت دارسا حركة المقاومة الفرنسية خلال الحرب العالمية الثانية، سافر في ربوع أوروبا لعام آخر قبل العودة إلى الوطن والاستقرار في نيويورك. بدأ مساره الصحفي عندما كان خارج البلد: «راسلت والد زميل لي بهارفارد كان يعمل في بوسطون غلوب، وسألته عن إمكانية نشر بعض أعمالي إن أرسلتها، فقال نعم، وكانت الورقة الأولى التي أرسلت له تدور حول ردود أفعال البرلينيّين بخصوص جدار برلين، الذي كان حديثا آنذاك. بعدها، سافرت إلى بريطانيا واستجوبت عمّال المناجم المضربين، قام بنشر المقالين، وطلب مني إرسال المزيد. أسبانيا فرانكو، الديمقراطية في تركيا، تابعتُ ذلك. زرت صقليّة وكتبت بشأن بلدة المافيا. كان عاما رائعا.»

سألت السيد ثوايت إن كان قد فكر في البقاء في أوروبا ويصبح مراسلا أجنبيا: «أعتقد أنني فعلت، لفترة ما،» أجاب، «لكنني فكرت أن هنالك الكثير للعودة لأجله إلى الوطن. أحداث كثيرة كانت تطرأ. مع اغتيال كينيدي، جعلني هذا أقرر. عدت في الوقت المناسب لأسافر جنوبا وأتحدث مع الناس حول قوانين الحقوق المدنية. آنذاك انخرطت في مسألة عقوبة الإعدام، مسألة ما زالت تعني لي الكثير. وطبعا كان هنالك التصعيد في جنوب آسيا، كذلك، كانت هنالك مسألة الحرب التي كانت في أجمها.»

السيد ثوايت، المدخّن الشّرِه، وافق بودّ على محاورتي بعد الحصة،

تبادلنا أطراف الحديث في حانة موليغان، حيث بدا مرتاحا. لو كان يرتدي ربطة عنق لكان قد أرخاها. في إحدى اللحظات سألني عن تاريخ ازديادي فقلت في 1981، ضحك. «هل تعلمين أين كنت عام واحد وثمانين؟ كنت في السالفادور وغواتيمالا، أنقل ما تفعله الحكومة الأمريكية هناك خفية طبعا. أراهن أنه ليس بمقدورك تخيل هذا.»

للسيد ثوايت، المتزوّج منذ عام 1968من أنابيل تشايس، محامية حقوق أطفال («كنت أرتدي حينها سروالًا مخمليًّا» قال، «فيما زيّنت هي شعرها بالزهور»). وله ابنة واحدة، مارينا، المولودة عام 1970، خرّيجة جامعة براون عام 1993 وتعمل حاليا على كتابها الأوّل. «لم أدفع ابنتي لتصبح كاتبة» قال، «بل العكس تماما. أعتقد أنه إن كان بإمكانك القيام بأمر آخر، فافعله. إنها حياة مثيرة لكنها غير مؤكدة. لكنني أنشأتها على إدراك أهمية النزاهة، هي كل ما تملك، وإن كان لك صوت، هِبَة، فأنت ملزم أخلاقيًّا باستغلاله.»

استغل السيد ثوايت صوته مؤخرا لانتقاد تضليل إدارة كلينتون. «ما يفعله رجل بعضوه لا يعنيني،» يقول السيد ثوايت عن كلينتون، «لكنه كذب على الشعب الأمريكي وكأنهم زوجته، وكذب عليها هي الأخرى. دون ذكر سياساته. إذا كانت هذه هي الليبرالية فنحن منتهون. الغزو أو التفجير خارجًا لتشتيت انتباهنا كلما تصاعدت الأوضاع في الوطن. ماذا عن السودان، أتذكرين ذلك؟» يسترسل الحديث،» الليبراليون في هذا البلد يستحقون ما هو أفضل. إلهي، جيمي كارتر كان أفضل. اللعنة، هذا الرجل أرجعنا عشرين سنة إلى الخلف.» لا يطيق جورج دبليو بوش أيضًا، الذي يسمّيه «دميتنا الديكتاتورية وفق الدستور»، الرئيس الجديد «لم يُنتخب حتى» و«دماغه أصغر من دماغ قطّي الحبشيّ، حيوان موهوب بالمناسبة.»

خفيف الظل دوما، السيد ثوايت. لكنه مفرط الجديّة كذلك. «هذا ليس لعبة،» يقول متحدثا عن السياسة والصحافة. «قد يبدو كذلك، قد يبدو مثل مهرجان أو سِرْك أحيانا، لكنه كذلك تبعا للموقف أفضليتنا الفخمة

عام 2001. اسألي أي شخص في أي مكان، البوسنة، رواندا، الشرق الأوسط طبعا، وكذلك الصين، الجزائر، روسيا، حتى غرب أوروبا، وسيذكرونك بما عليك معرفته، هذه مسألة حياة أو موت. لا شيء أهم من هذا.»

قد يعود السيد ثوايت، الذي درس سابقا في جامعة نيويورك وفي مدرسة الصحافة هنا، قد يعود إلى التدريس مجددا في جامعة كولومبيا قريبًا. «سأكون سعيدا بذلك»، يقول مبتسما وموقدا سيجارة أخرى. «أحبّ التدريس.»

الفصل الثامن

باحث أمريكي

استلقى فْرِدرك تاب في حوض الاستحمام، حاملا كتابه بحذر فوق الماء بكلتا يديه. استعاره من المكتبة، كان مغلّفًا بالبلاستيك ومحميًّا ضدّ رطوبة أصابعه مقارنة بكتب عدّة أخرى حملها بالطريقة نفسها، لكنه كان كتابا ثقيلا، وقد تخيّل إسقاطه بالكامل في الحوض، حيث سيواجه بسرعة جسده الأبيض بعد أن يبتلّ تمامًا ويضيع. كان الكتاب هو رواية «مزحة لا نهائية» لديفِد فوستر والاس[7]. حجمها حوالي الألف صفحة، ولم يستطع تحديد رأيٍ حولها، بعضها أضحكه، لكنه لم يستطع فهم فرضيّتها، أو حبكتها (هل كانت هنالك فرضيّة أو حبكة؟). لطالما واجه ذلك في قراءته الروايات، لكن هذه كانت أكثر تعقيدا من سواها. لم يكن يستمتع بقراءة الروايات كثيرا. فضّلَ عليها التاريخ والفلسفة والشعر، ولو أنه لم يكن يقدر على قراءة سوى قليل منها كلّ مرّة. فعندما «تحادثه» قصيدة، يصير الأمر كما لو أن ضوءً لامعًا مُوجعًا سُلِّط على خليّة صغيرة من روحه. وجد عند الشاعر لاركين[8] هذا الأثر، لكنه سمع كثيرًا عن هذه الرواية، من الصغار الذين لم يكن بالضرورة يحترمهم في أوسويغو، وثم من أشخاص على الإنترنت،

---

7) Infinite Jest (1996). David Foster Wallace

8) Philip Larkin

وتحديدًا من مجموعة مناقشة كتب انضمّ إليها توًّا. انتهوا من قراءة «مزحة لا نهائية» الخريف الماضي في وقتٍ أضاعه في قراءة منهج الاقتصاد الجزئي، برفقة مئتي طالب جديد واهم، أو كان يحاول أن يبقى مستيقظًا في حصّة الكتابة للبروفيسور هولدن الملأى بالمثرثرين الأغبياء. لكن بعض أعضاء المجموعة استمروا في الإشارة إلى الرواية كأنها الإنجيل. «إنّها تعريف لروح العصر» كتب أحدهم، وتحديدا مراسلة أنثى نشِطة كان معجبًا بها إعجابًا افتراضيًّا. ولهذا كان يقرأ الرواية ليلحق بهم. يقرأها ليتعلّم، الأمر الذي كان إلى جانب الاعتماد على الذات، هدفه الأسمى. أن يتمكن من التعليق بكل معرفة على أحد أصوات عصره.

كان الحمام حوله ضبابيا تحت شمس المساء الغاربة. مُعدّاته ذات اللون الأصفر الفاقع بدت صغيرة بشكل غريب مقارنةً بالمكان الضيّق: مغسلة وحوض استحمام يستلقي فيه بالكاد يمتلئ بالماء، وقد ثنى ركبتيه ليسمح لأصابع قدميه بالغطس في الماء. البلاط الأزرق المرقّط بألوان قزحيّة غُطّي جزء كبير منه بسجادة زرقاء ذات حواف مكشكشة، وأخرى مقوّسة تحيط الحمّام كزينة العيد. صنعت والدته الستائر المزينة على النافذة - بزرقة السماء كذلك، أمّا الفوط البالية الزرقاء بلون السماء كذلك فقد اختيرت منذ وقت طويل للتماشي مع نسق الألوان. إنه الحمام الذي يعرفه منذ زمن، بصوت أنابيبه وزجاجه المضبّب. ركّبَ والده بلاط الجدران الأبيض غير المتوازي تماما، قبل أن يولد بوتي. نظر حوله، تنهّد، يتنازعه إحساسان: الأمان والاختناق. يريد أن يبقى هناك المساء كله ويريد الهرب إلى الأبد في الآن ذاته.

ليتها لم تكن طويلة للغاية، فكّر والماء حوله يبرُد. رفع غطاء المجرى بأصابع قدمه وترك بعض الماء ينسكب حتى وهو يدير صنبور المياه الساخنة بيده اليمنى لإعادة موازنة الحرارة. تراخت يده تحت ثقل الكتاب لكنه لم يُسقطه. قد يقرأ نصفه فقط؟ هل سيكون هذا كافيًا؟ لأنه قد ألزم نفسه بقراءة كومة روايات أخرى قبل يونيو، روايات طويلة هي الأخرى: موبي دِك،

جاذبية قوس قزح، الحرب والسّلام. مجرّد التفكير فيها جعله يشعر بالنعاس.

كانت أمّه منشغلة بالتدريس بكل سلام هذا المساء، تشرح لتلاميذها عن حقول الأرز في الصين أو الحدود دائمة التنقل للدول السوفييتية سابقا. معلومات لم يُنصت إليها أحد وتُنسى قبل انقضاء اليوم. بوتي كذلك جلس في حصتها قبل سنوات قليلة، وبمجرد انقضاء الحصة كان يسأل أخته، سارة، خرّيجة حصة الجغرافيا التي درّستها والدتها، سنوات قبل بوتي، عمّا علق بذهنها مع الوقت، فتجيبه: «إلهي، بوتي، لا أعلم. أذكر أننا تحدثنا حول أمريكا الجنوبية وكانت الدول جدّ مدوّخة لي، ألم تتحدث بعض البلدان بالبرتغالية بدل الإسبانية؟ لكنني عموما أذكر إحراجي من والدتي، عندما كان أحدهم كجودي – أتذكره؟ – يتصرّف بحُمق وتعلو الحُمرة محيّا أمي ويبدو كأنها على حافة البكاء. أو في الشتاء مثلا، عندما كنا ندرس عندها في الفترة الصباحية الأولى، ويسيل أنفها دائما، ولم أكن أعرف ما الأسوأ، هل تلك القطرة اللامعة المتدلية من حافة أنفها أم طريقتها السخيفة في فركه بمحرمتها كل الوقت. هذا معظم ما أتذكره بوتي، شعوري بالإحراج.»

على الأقل لم تكن جودي تاب تعلم بشأن إحراج ابنيها منها. هذه إحدى الحقائق العدّة التي لا تعلمها بشأن ابنيها. كحقيقة أن بوتي غاضب منها لتوقّعها القليل منه، لتمسّكها به كثيرا، لكونها لا ترى العالم الواسع، العالم الذي يتجاوز واترتاون، حيث كل شيء ممكن. ظنت أن أخيها، مورّاي ثوايت العظيم، لم يكن ذا أهمية، بينما بجّلت ذكرى والد بوتي، رجل أحبّه بوتي كذلك، رجل خفيف ولطيف، يجيد الأعمال اليدوية، رجل أحبّه وتذكّره الجميع أيّام دراسته، لكنه كان يعرف حتى وهو على أعتاب المراهقة، قبل أن يمرض والده، وقبل أن يصير أكثر لطفا وهدوء، وفوق كل هذا أكثر حزنا (فأضحى الحزن والمرض كل ما بقي لبوتي في النهاية)، أن بيرت تاب لم يكن الرجل الذي بوسعه فهم ابنه. المشترك في مجلّتَي تايم وناشيونال جيوغرافِك، لم يكن يُطالع أيًّا منهما، رجل عاش لأجل أسرته، لأجل تبادل رمي الكرة في

الباحة كلّ سبت، ولعادة العشاء المريحة في الساعة السادسة مساءً في غرفة الطعام ذات الأعمدة (رغيف لحم بالصلصة أيّام الأحد، دومًا)، والذي راقب ابنه المنتفخ الحسّاس النّهم تجاه الكتب بعين مُحبّة. أراد من بوتي أن يكون جيدا في كل شيء، المهم أن يكون جيدا كفاية، أن يخرج ويلعب، وحتى مع قرب وفاته عبّر (لبوتي) عن قلقه الغريب بأنه ومن دون أب، سيظل بوتي حبيس كتبه طيلة الوقت. لا يمكنه معارضة حب والدته لرجل كهذا، كان رجلا في غاية اللطف، لكن بوتي لم يستطع أن يفهم بالضبط على أي أساس كان بيرت تاب أهمّ من موراي ثوايت، فشقيق أمه على قيد الحياة من جهة، وعظيم من جميع الجهات!

ثم إن جودي تاب كانت تهتم ببوتي لدرجة مؤلمة لم تكن تفقهها. كان الأمر يخنقه أحيانا، كطوق عريض وغير مطواع على حلقه. أو كحياة بوتي الآن: لم تقدر على فهمها أبدا، ظنت أنه غادر أوسويغو بسبب علاقة فاشلة، أو لأنه لم يملك البراعة الرياضية لزملائه. لكن الأمر لا يتعلق بسبب بدائيّ كهذا: لقد كانت صحوة، في صباح أحد أيام الثلاثاء في الساعة التاسعة، قبل أسبوعين من عيد الشكر، كان يشقّ طريقه على الأرض المغطاة بالندى مستمعا إلى إيلين، فتاة من الثانوية تسكن تحته بطابقين، والتي رغم الوقت المبكر كانت تنعق كقرد وتفرقع العلكة بين أضراسها. كانا في طريقهما إلى حصة الاقتصاد الجزئي («لا أستطيع، المنفعة الحديّة...») في المدرج الإسمنتي الذي تجمهروا فيه مرتين في الأسبوع، وإيلين، غير الغبية حسب معايير واترتاون، قالت «سمعت من إيمي، أنت تعلم، طالبة السنة الثانية؟ أن واطسون يمتلك نظاما كاملا في إعادة استعمال الامتحانات؟ إذا، إذا ما استطعنا الحصول على نماذج امتحانات للسنوات الثمان الماضية، هي متوفرة في المكتبة أليس كذلك؟ وإذا، مثلا، جلسنا وعرفنا ما هو هذا النظام، أو ربما، زميلة إيمي في الغرفة تمتلك ملاحظاتها من العام الماضي، صحيح؟ سنعلم، يعني، تماما ما سيوضع في الامتحان. رائع هاه؟»

نظرت إليه في غبش النهار، أنفاسها كغيمة تسبح خارج فمها وشعرها طائش، مبلل ملتصق برأسها كشعر كلب. أنفها الدائري المفلطح الأحمر لا عند حوافه فقط بل على استقامته كذلك، بادلها النظرة فسألته: «بوتي؟ هل كنت تستمع إلي؟» رغم من أن النهار قد طلع، بدا كأن الشمس أشرقت لتوها من الأفق. لقد اختبر صحوةً داخليّة. كان ما قاله هو: «أو ربما، إيلين، ندرس للامتحان فقط، ما قد ينفعنا قدْرَ ما ستنفعنا خطّة إيمي الغبية في الغش.» لكن ما فكّر فيه ولم يخرج في شكل كلمات، بل في شكل قوّة غريزيّة، كان: «هذه مهزلة. هذه التي أعيش، كلنا نعيش، مهزلة كبيرة.»

طوال ذلك اليوم والأيام التي تلته، تفتّح هذا الإدراك كزهرة وشحذ نفسه. بطريقة سرية، رافقته بذور هذا الأمر منذ زمن طويل، وحتما منذ آذار الماضي، عندما علم أن جامعة هارفارد قد منحته مكانا (لا يزال في مقدوره الشعور بالابتهاج إن سمح هو لنفسه بذلك، ابتهاج غريزيّ وعابر جدًّا.) لكنهم لم يمنحوه منحة فِعليّة، مجرّد كثير من الاستمارات المعقدة مع وعد بجبل من الديون. قرأ تلك الوثائق أكثر من مرة حتى أنه اتصل بمكتب استقبال طلبيات الجامعة بحثا عن شرح، وعندما اتضح أن الأمر هو تماما كما فهمه، قرر ألا يخبر والدته أبدا بأنه قُبل في هارفارد، أن يتظاهر بكل بساطة أن الأمر لم يحدث أبدا. عرف أنها ستحاول جعل الأمر ممكن التحقيق، ستتجهّم وهي تنظر إلى الأوراق وتتحدث عن رهن ثان وبيع خاتم والدتها الألماسي (بعد كل شيء، درس الخال موراي في هارفارد، أليس كذلك؟ يكاد يسمعها تقول هذا.) وحتى آنذاك، بإمكانه توقع الأمر، ستنتهي ورأسها بين يديها على منضدة المطبخ لأن الأمر غير ممكن ببساطة. أخبر السيد دونسان، مستشار الجامعة، بأنه أراد فعلا الدراسة في أوسويغو لأنها قريبة، ولأنه لم يرغب في جامعة خاصة غبية ومتعجرفة لا غاية منها سوى أن يُثبت لنفسه أنه بإمكانه الانضمام إلى صفوفها. وطلب منه ألا يذكر الأمر لوالدته بخصوص هارفارد لأنها ستضايقه بشأن الدراسة فيها. دوسان طبعا، الغبي كفاية ليصدق هذا، ربت على كتف

بوتي مثرثرا حول حكمته وحول عظمة فريق أوسويغو لكرة القدم. «ليسوا جيدين» فكّر بوتي، «إنهم محليّون وحسب، وإنهم كلّ من تعرف.»

ليس لأن هنالك عيبا في حماس السيد دوسان، بل لأن الإدراك الذي نما في دماغ بوتي أقنعه أن ما هو جيّد كفاية للسيد دوسان أو إيلين كوفاك، لم يكن ليكون كافيا لفردرك تاب. أرض الكذب التي كان معظم الناس سعيدين بالعيش فيها، التي يُدفع فيها المال لمؤسسة تعليميّة نهارًا ثم يخرج الطالب للسُّكر ليلًا بدل قراءة كتاب، ثم يحاول معرفة ما تواتر من أسئلة خلال الامتحانات السابقة فيمكنه الغشّ، آنذاك، وبالأخذ في الاعتبار التحويلات المالية التي تجمَعه رسميًّا، أو بالأحرى تجمع والديه، بالمؤسسة التعليميّة، وفي النهاية يُعلن نفسه متعلّمًا! هذه الأرض لم تصلح لبوتي. وبالرغم مما قالته أمه وأخته (مصدّقتين طبعا أنه لم يحصل على مكان في عُصبة الأيفي) أو السيد دونسان (مُصدّقًا أنه اختيار بوتي الصادق)، الذهاب إلى أوسويغو ليس هو نفسه الذهاب إلى هارفارد. لا يمكن مقارنة الإثنتين. يعلم أنه في هارفارد، يوجد الكثيرون ممّن هم عالقون في أرض الكذب، لكنه يعلم أيضا أن هنالك، أو بالأحرى، بما أن الأمر غير مهم الآن، كان ليكون هنالك أشخاص آخرون جديّون مثله.

ولهذا وضع بوتي حدا للمهزلة. لم يهتم بالشهادات ولا الامتحانات ولا الإقرارات المؤسساتية (ولو أنه حلم أكثر من مرة منذ عودته إلى منزل أمه بأنه في هارفارد، أحلامًا طويلة وكاملة في وضح النهار، بدا فيها – وللغرابة– يرتدي بزّة.) اهتم بالتعلّم. ولهذا، مع الحزم الذي ميّزه طيلة الثانوية، الذي حوّله إلى رمز محترم ومحسود، كان سيعلّم نفسه. كل ما رأته أمه طبعا – كل ما رآه العالم– هو خمول وبطّالة. حتى أنها سألته الأسبوع الماضي بهمس قلِق إن كان يمضي جُلّ وقته على الحاسوب في مشاهدة البورنوغرافيا! من الواضح أنها ستجعل تعلّمه الذاتيّ صعبًا، واترتاون بأكملها ستفعل، ربما العالم بأسره

أيضا. لكنه كان جليًّا أن فرِدرك تاب سيعتمد على نفسه، سيجد طريقا ومكانا لمتابعة تعلّمه العصاميّ بلا عوائق. سينفض عنه هذه الحياة كأفعى تغير جلدها، ومعها حاجة والدته المستمرة. دع سارة تتعامل مع ذلك: سارة التي لم ترد أكثر من طفلين وسيارتين وربما مشاهدة أوبرا مساء. سيذهب لمكان ما لن يناديه فيه أحد «بوتي»، وحيث يمكنه عقد نقاشات حول الفيلسوف كيركيغارد ونيتشه، وحول كامو وكورت فونيغوت. كان يفكر، مستلقيا في حوض الاستحمام مع كتاب ديفِد فوستر والاس، مقلّبًا الصفحات ومتظاهرا أنه يفهم مغزاها، يفكّر في الذهاب إلى نيويورك. بدا الأمر سخيفا، وعبثيا حتى، طموح صعب المنال. بالرغم من هذا، شعور غير معترف به كان يأسف على رفض هارفارد، التمسك بما يمكن تحقيقه. ولم يرد أن يكون ذلك الشخص الذي يحبط نفسه، عدوّ نفسهِ اللدود.

قد يكلّفه الأمر بعض الوقت حتى ينظّم التفاصيل. لم يكن يعرف الكثيرين في نيويورك غير الخال مورّاي والعمة أنابيل. أرادهما، أن يكون قريبا منهما، أن يُسمح له بالدخول إلى عالمهما السرّي. كان خاله بلا نقاش رجلا عظيما، وسيحاول بوتي أن يكون أهلًا له. عليه أن يحاول. لم يكن يحمل أيّ مال. لكنه يملك سيارته على كل حال، سيارة حمراء من طراز سيفيك 89 بمشاكل في كاتم الصوت وغبار متكدّس أسفلها، وذلك نتيجة محتومة ومميتة لحياة سيارة أُنهكت في حزام الثلج، كسعال مدخّن أو رئة عامل مناجم سوداء. لم تكن السيارة بالشيء الكثير، كان متردّدا في أمر بيعها، لكنها كانت شيئًا، إنّها مَخرَجه الأوّل.

الفصل التاسع

رامبل شتيلتسكين[9]

ارتدى جوليوس بذلته ماركة آغنيس بي، المصنوعة من الصوف ذي اللون الفحمي والمخططة بخطوط دقيقة تكاد لا ترى، وصدرية ضيقة، تكشف للعين الخبيرة قِدَم عمرها، ومع ذلك أحب جوليوس أن يعتقد بأن عدم أناقتها، تُظهره غير مهتمّ بأن يبدو أنيقًا، أنّه مترفّع عن الموضة. في الحفلات، كان يشير إليها كبذلته التي تميزه، آملا بهذا أن يعطي انطباعا بأنه يملك أخريات، ربما صفًّا بأكمله من البذلات التي لم يكن يميل إليها. لكنه طبعا لم يُشِر إلى الأمر أبدا وهو في هذا الوضع، هنا، مرتديًا قميصه المزرّر البالي المكوي بعناية (لم يكن ابن والدته هباءً!) وربطة عنق مزركشة، رفيعة وماتعة اقتناها من متجر للملابس المستعملة. هنا، كانت البذلة مجرّد زِيّ.

مندفعًا من قطار الأنفاق نحو تيار الرجال والنساء المغلفين في بذلاتهم ويسيرون محتشدين معًا قاطعين أخاديد مقاطعة الشركات، استقام جوليوس في مشيته وسعى إلى المناورة بطلاوته المعتادة. الأمر برمته مرتبط بالتمثيل، مجرد لعب دور، لا أحد ممن يعرفونه بحاجة إلى أن يعرف هذا. دخل بسرعة إلى مجمع المكاتب في شارع واتر وقدم نفسه لفتاة الاستقبال

---

9) Rumpelstiltskin

في شركة لبلايك، زيلمان وويفر الموجودة في الطابق الثامن والثلاثين. دقّقت السيدة السمراء المقلمة في بذلته، إحدى عينيها زرقاء والأخرى بنيّة، خَشِيِ من أن يكون طوق قميصه ناتئا، ثم أرته أين سينتظر.

بدل أن يحدق في المكتب حوله، في توزيع المكاتب والجدران العازلة القصيرة التي تشبه مرآبا بشريا، ركّز وهما يسيران معًا على مؤخّرتها العالية الممتلئة، محشورة في تنورة سوداء تعلو وتهوي مع كل خطوة، وركّز على احتكاك جواربها عند تماسّ فخذيها تحت الرّداء. حضر بباله أن كثيرًا من الرجال كانوا ليجدوا هذا مثيرا، كانوا ليجدوا نظرتها غير المتساوية والوقحة مثيرة، وشعرها المرفوع القصير كذلك أيضًا. ربما كانت مصدرًا للمغازلة، فكّر، أو حتى التحرّش. حياتها كانت تعاش وفق ما بدا له لغة غريب.

بدت على علم بهذا، عندما استدارت مجددا لمراقبته مشيرة إلى مكتب واسع من خشب مزيّف، وحاسوب بهمهم، وقالت: «هنا. سيكون السيد كوهين هنا خلال نصف ساعة.» عقدت ذراعيها. «لا أعلم إن كانت روزالي قد تركت أيّ تعليمات. أعتقد أنه من الأفضل أن تنتظر. أو اسأل إيستر» أشارت إلى المكتب بمحاذاته، أو بالأحرى بالمحاذاة من مكتب روزالي، وكأن المكاتب أمامه لم تكن فارغة من موظّفيها. «إن احتجتني، اتصل على 193» قالت، ثم انسحبت بعيدا.

جلس جوليوس في الكرسي المنتفخ المغلف، ملاعبا المضخة البلاستيكية أسفل الكرسي لتعديل العلوّ – كانت روزالي قصيرة حتما – ومريحا ذراعيه على الدرابزين البلاستيكي وهو يدور إلى الأمام والوراء. تحت المكتب وجد حذاء أسود عاليًا صغيرا – نعم، كانت قصيرة – إلى جانب الحاسوب وُضع برواز يؤطّر صورة لرجل وامرأة وفتاة صغيرة ترتدي ثوب حفلات من الدانتيل الوردي بوشاح كبير. روزالي هي حتمًا الأمّ: إلى جانب الصورة وُضع فنجان نظيف (لقد تفقّد الأمر) يحمل عبارة «الأم رقم واحد.» كانت لها أسنان ناصعة البياض وخصلات شعر ملتوية كابنتها، وبشرة زيتونية اللون

وغير لامعة. تخيل أنها وأسرتها قد غادروا في رحلة إلى المكسيك أو كوبا أو السالفادور، آخذين الصغيرة لرؤية جدّيها. أو ربما كانت في المنزل في بروكلين، لا – كوينز، أو حتى برونكس – ترعى الفتاة المريضة، أو تنتظر توصيلة ثلاجة جديدة. لا، لقد أخبروه بشأن أسبوع، يريدونه طيلة الأسبوع. إذًا فالأمر كان مقرّرًا، عُطلة، حتى وإن كانت في المنزل. ربما كانوا ينتقلون إلى منزل آخر. ربما إيستر تعرف الحقيقة، عندما تأتي.

كان جوليوس في أمسّ الحاجة إلى المال. سوف يملأ منصبًا شاغرًا بعضَ الوقت. أقسم على ألّا يكرّر الأمر مجدّدًا. كان يكره نظرات النساء المتعاطفة كنظرة سيدة الاستقبال. الطلبات الحاسمة لرؤسائه المؤقتين، هواء المكتب القديم وملل الساعات، لكنه الآن مُجبَر على القيام بهذا. وأقسم لنفسه بألا يسمح لأحد أن يعرف ذلك أبدًا. سيستمر هذا أسابيع قليلة. الأمر كان مُخجلًا جدًّا: لا يمكن له كشف ضعفه، حاجته الماسة للمال، حتى لأقرب أصدقائه. كان يعلم أنّها خصلة غريبة فيه، وكأن دانييل، لنقل، كانت لتنتقد. لكن هنالك مارينا دوما، ولم يعرف ما الأسوأ: ازدراؤها أم مواساتها. لا، دعهم يعتقدون أنه في صالة الرياضة طيلة اليوم، أو يصطاد مواعيد غرامية على الإنترنت. دعهم يعتقدون أنه نائم، وكأنه غير مهتمّ، أو يتعاطى المخدرات، المهم ألّا يتصوروا هذا. عشرون دولارا للساعة. سينقر على لوحة المفاتيح بسرعة، لأنه بحاجة إليها.

عندما وصلت إيستر، برهنت على أنها ليست السيدة السمينة ذات الأربعين عامًا ومن أصول جامايكيّة كما توقّعها، بل فتاة بيضاء جادّة تُقاربه في العمر، ترتدي بلوزة ذات طراز فيكتوري بأكمام مكشكشة وما يبدو أنه مئزر. خجولة لكن ودودة، بصوت ناعم وعالٍ، أرته حمّام الرجال، وآلة القهوة، وغرفة النّسخ. عرّفته على العاملَين في غرفة البريد، أسودين شابّين يرتديان ملابس رسمية ويتطلعان – هكذا ظن – مليًّا إلى بذلته آغنيس بي. وعرّفته على شيلي وماري اللتين، إلى جانبه وإيستر، يتشاركون الجدران المقسمة لجُحْرهم.

أراد أن يسألها ما الذي تقوم به مكاتب بلايك، زيلمان وويفر تمامًا، ما الذي يفعله السيّد كوهين نفسه طيلة الوقت. لكنه قبل أن يتمكن من ذلك، كان السيد كوهين قد وصل.

مجدّدًا، باءت تخمينات جوليوس بالفشل: كوهين – «ديفِد رجاء» – لم يكن رجلا ذا كرش ويبلغ الخمسين من عمره، بخاتم زواج يحاصر إصبعه السّمين، ورائحة قطار الأنفاق الشمالي تغطي ملابسه. بل كان شابًّا رفيعًا، مألوفًا يرتدي نظارات عصْريّة وبذلة مُخَاطة تحت الطلب. قابل نظرة جوليوس بتعبير فضولي. فوق كل هذا، أدرك جوليوس حقيقتين مُحرجتين: أنّ كوهين – ديفِد – كان أصغر منه، وكان مِثليًّا.

هل انجذب جوليوس لديفِد لأن شعره خشن وبشرته شاحبة، لأن فكّه وأنفه حادّان وعينيه غامقتان؟ أو فقط نتيجة حماس الإمكانية، غرابة الارتباط بشخصٍ مثله في زحام ثقافة الشّركات متباينة الجنسيّات؟ ربما تولّدت الرعشة نتيجة المحظور، بين كل النور المُشع، وفدّانات السجاد المزركش، وإحساس جوليوس بأن عليه إقناع ديفِد بأنه ذو قيمة في هذا المكان، مما يجعله مستغلًّا بدل أن يكون رجلًا مترفّعًا يصادق الأشخاص المناسبين. ربما، يعرف أن دانييل كانت لتقول إن الأمر بافلوفي[10]، مجرّد مقدمة هوسيّة لرغبة محتدمة في بيئة لم يكن له فيها مكان، جوليوس كالعادة يرى العالم كإيروس، لعبة قوة استثنائية في عالم الآخر، قوى أكثر واقعية؟ أو ربما أحس بنظرة ديفِد متناهية الصغر وهي تفحصه، نظرة لا للتعرّف فحسب بل وكأنها (هل يتراءى الأمر له؟) نظرة إعجاب... ومع ذلك، سريعا، راكم ديفِد مهمّات كثيرة على مكتبه، أغلفة وردية بملاحظات مكتوبة على عجل فوقها ووثائق قانونية ضخمة منقحة طلب من جوليوس البحث عن ملفاتها الأصلية في المستنقع المنظّم السرّي لحاسوب روزالي.

بدا أن الشركة منخرطة في أعمال وساطة، المطالبة بالحقوق –

---

10) نسبة لإيفان بافلوف مؤسس الإشراط الاستجابي

بالتجريدات – التي كانت تسمح في مكان آخر بالتداول الفعلي للمعلومات (مجردة كذلك) مقابل مبالغ كبيرة من المال. الأمر الذي كان كذلك مجرّدًا. بدا كأن المكتب بأكمله يتحرّك ويُنتج، يكتسب ويمرّر افتراضات، متاجرة في أفكار أو آمال ذات قيمة. لماذا – تساءل جوليوس وأصابعه تصطك بلوحة المفاتيح، وروزالي وعائلتها تبتسم له من زاوية عينه – لماذا لا تستحق أفكاره قيمة، أو آماله الخاصة؟ أليست مجرّدةً كفاية؟ هذا لم يكن صحيحا تماما: بعض القيم التصقت به – الناس الذين قرأوا مقالاته، يعرفون اسمه بحق. لم يكن واثقا تماما ممّا إذا كان ديفِد يعرفه، الأمر الذي قد يكون نصف إحراج ونصف راحة – لكنها لم تكن قيمة ماديّة. لم يكن من الممكن أبدا أن يطلب بزّة مُخَاطة لأجله كبذلة ديفِد، ومع ذلك فديفِد، مُفاوضًا ومُطالبًا بالحقوق المعادلة لملكيّة أحدهم الفكرية، قد كان ليصدم بمعرفة أن سكرتيره كان، بشكل علني ما، أكثر قوّة منه. بإمكان جوليوس أن يوقف آلاف الناس من شراء كتاب أو مشاهدة فيلم. لقد فعلها دومًا.

لم يكن جوليوس من النوع الذي ما زال يؤمن، كما تفعل مارينا، وإلى حد ما، كما تفعل دانييل، بالقيمة الأخلاقية أو الفكرية المضمّنة لشيء يرفضه المجتمع. يعلم هذا جيدا، يعلمه منذ الأزل، منذ أيام دانفيل ميشيغان – إن لم يرغب أحد في شيء – حتى وإن كان عبقريا، عبارة استخدمها بشكل دائم لوصف نفسه في شبابه – فليس لذلك الشيء قيمة. لكنه لم يتمكن من قياس العلاقة بين الرغبة والمكافأة. عرف كيف يخلق الرغبة عند الآخرين – والرغبة في نفسه أيضا – وفي اللحظات الكثيرة الأكثر سوادًا، استغلّ هذه المعرفة، لأنها كانت تجعله يشعر بتحسن، ولأنه قادر على ذلك. لكنه لم يستطع معرفة كيفية تحويل الرغبة (رغبة الآخرين) إلى غِنًى (له).

على كل حال، لديفِد ذي الثمانية والعشرين عاما على الأكثر المعرفة اللازمة لتحويل الهواء – أو القشّ – إلى ذهب. قرّر ربط نفسه بديفِد، أن يستغلّ الانجذاب الحسّاس القائم بينهما وخلال أسبوعه في بايكر، زيلمان

وويفر، حتى يتعلم من رئيسه. قد يكون قادرا كذلك على خلق علاقة قصيرة ومتألقة من هذه المغامرة (بدا الجسد تحت البذلة مناسبا ومغويا، مجدّدًا، كانت بذلة جيدة). قرّر جوليوس أن يسحر ديفِد، أن يدعم حركاته المحرجة بدوره اللطيف، وأن يتبختر مُمسكًا ذراع السيد كوهين قبل مساء الجمعة، ويترك سيدة الاستقبال ترى ذلك.

الفصل العاشر

الحديث مع طفلة بالغة

لأن مكتبه يقابل النافذة، لم يلحظ موراي ثوايت في البداية أن ابنته فتحت باب الغرفة، الموجود مباشرة خلف مكتبه، دخلت، وجلست عاقدة ساقيها فوق الأريكة المقابلة للجدار. تحقيق هذا ليس إنجازًا سهلًا، لأن الأريكة التي لا تلمسها أورورا أبدًا بناءً على أوامره، تكدّست حتى أطرافها بالمخطوطات والملفات، ورُزَم كتب كبيرة مغطّاة بملصقات الملاحظات، بجرائد مصفرة، مرتبة وغير مرتبة. أن تجلس مارينا – في وضعها الرياضي – على الأريكة تطلّب منها أن تنقل على الأقل رُزمتين إلى الأرض

بالرغم من أنه لم يُظْهِر الأمر (ليس مقابل شيء تافه كهذا) لكنه كان مُنزعجًا لهذا التدخّل. لقد كانت قاعدة عامّة ألّا يدخل أحد مكتب موراي دون قرع الباب أوّلًا، وهذا في حالة ما إذا كان الباب مواربًا أصلا – هو متأكد من أنه لم يكن كذلك – وألّا يقرع أبدا إلا إذا كان الأمر طارئا، وألّا أحد يلمس أوراقه، ولا أحد يحرّك الرّزَم، لا أحد يلج المكان المقدّس المحرّم: شرح الأمر أكثر من مرة، في هذه الغرفة عقله خارجٌ ومستلق بكل خصوصية. أن تكون في هذه الغرفة يعني أن تقتحم رأسه، واعتمد على سكّان الدّار أن يتصرفوا وفق ذلك، وقد فعلوا بدقة في الغالب.

في هذا المساء، والساعة قد تجاوزت منتصف الليل، كان موراي ثوايت واثقًا من خصوصيته فأخرج من درج مكتبه المغلق، ملف الكتاب الذي اعتبره عمل حياته، المشروع الذي حال انتهائه، إن انتهى يومًا (آنذاك ماذا سيفعل؟ إن انتهى، إن كان فعلا عمل حياته؟)، سيرفع أخيرا وبلا جدال اسمه من ترتيب الصحفيين الشجعان والأكفاء والمفكرين أصحاب الأعمدة إلى منصب الخالدين النادر. كان عملا – تردّد في أن يشكل الكلمة التي تدور في خلده، ومع ذلك فإحساسه بنفسه، بجدوى كل هذا، يعتمد على هذه الصياغة – «فلسفيًّا.» جزء منه حكيم وجزءه الآخر مقاليّ، إنها عصارة وجوهر كل ما تعلمه، وعرفه وعاش وفقه. في باله وليس على الورق، هو غير جاهز بعد، حتى بعد كل هذه الأعوام، للاعتراف بكل هذه الخصوصيات على الورق، فكيف بالأحرى للحاسوب الجاهز للولوج وسهل التتبع – كان للكتاب عنوان: كيف تعيش. بسيط، مصقول – ومع ذلك فقد خشي أن يكون فخما، فخما للغاية لما يزال في الأصل مجرّد كومة غير متساوية من الورق المكتوب باليد، ملطّخة بحلقات أكواب القهوة، مثنيّة من الزوايا، معلّمة، مقروءة ألف مرّة بعينين، وعينين وحيدتين أُخريين، فقد كانت أنابيل تعلم بشأن المخطوطة، كما يعرف طفل بشأن نارنيا، بخليط من الأمل والشك. ومنذ عودتها إلى المنزل، بدا كأن مارينا قد خمّنت وجود مشروع سرّي وغير منظّم (دون أن ننسى أن هذا المشروع قد بدأ قبل حوالي العقد، عندما كانت تدرس بعيدًا في براون)، شيء كانت تشير إليه مع ميل للسخرية قائلة «مسألة والدي»، غير هاتين الاثنتين، لم يعرف أحد أبدا بهذا النصّ، على حد علم موراي (كيف كان ليعرف، ولماذا كان ليتخيل بأن مارينا في الحقيقة قد أخبرت دانييل وجوليوس وربما آخرين أن مشروع والدها القادم هو مخطوطة سرية حتى هي لم ترها، وأن إشاعات قد دارت بين معارفها بخصوص «مسألة موراي ثوايت»، إشاعات خمّنت أن الأمر يتعلّق بعرض لمنظمة الاستخبارات الأمريكية أو الحزب الشيوعي، أو من زاوية سخيفة، الطبخ – وصفات الفطور المتأخر من مطبخ موراي ثوايت –

لكنها إشاعات لم تقترب، لم تستطع الاقتراب من الحقيقة).

جعلته المسودة قلقا: لم يعرف كيف يكملها، لم يكتب من قبل شيئًا مثلها. كان عدد الأوراق يكبر ويصغر اعتمادا على مزاجه، يقرأ المقطع نفسه عشرين مرة واجدا إياه رائعا ومنيرا في المرات التسع عشرة الأولى، وتافها وغير ذي معنى في المرة العشرين. وحتى آنذاك، كان يقرر اعتمادا على نزوة فحسب إن كان سيحتفظ بالصفحة المهينة أو يزيحها جانبا على أمل أن عشرين قراءة أوّلية، في وقت آخر إيجابي، ستعيد البريق لهذا النّثر السيّئ. لأن المخطوطة جعلته قلقا، كان يتجنبها مرارا، أحيانا لأشهر كاملة، تشنّج لم يكن يصعب تبريره نظرا لزخمه الإنتاجي والطلب العام عليه. فقط عندما كان يجد نفسه مرتاحا – غير منزعج، وبمعنى أعمق، غير قابل للإنزعاج، كان يخرج الملف العزيز.

هكذا شعر الليلة، حتى تدخلت ابنته العزيزة – أحبها، عشقها، طبعا فعل، لكنه تساءل ملاحظا ملابس نومها القديمة، أصابع قدميها العارية والمنكفئة، لماذا لا تزال هذه المرأة التي تجاوزت شبابها الأول تعيش، أو عادت لتعيش في منزله.

«بابا،» نطقت، ملامسة قشرة جرح على كوعها. «هل أنت مشغول؟»

«هل أنا مشغول، صغيرة؟» أطل عليها فوق نظاراته بما تمناه نظرة حب. «كيف يبدو الأمر لك؟»

«أعلم أن الباب كان مغلقا – لكنني ظننت – أحتاج إلى الحديث إليك.»

«كان بإمكاننا الحديث على العشاء جميلتي.»

«الأمر، حسنا، ليس وكأنه أمر خاص، ولو أنه يكاد يكون كذلك، الأمر أنك ستفهمني، وأمي... أردت الحديث معك وحدنا.»

أزال موراي نظارته، سامحا لها بالتدلي باحترافية بينما كان يمضغ ساق نبتةٍ ما. لم يقل شيئًا.

«لكن إن كان لك موعد نهائي؟» بدا توتّرها كاذبا. كان يعلم أنها لم تهتم إن كان له موعد نهائي، اهتمّت فقط بالحوار الذي أرادت خوضه معه. في هذا

المنحى، في تفكيرها الأحادي في نفسها، كاد يقول تفكيرها الأحادي اللعين، كانت ابنة والدها. لكن هذه الصّفة أحيانا، كالآن مثلا كانت تزعجه. لكنه عرف أنها بلجوئها لمعتزله الداخلي، قلقة ومصمّمة في آن، استطاع استشعار رطوبة كفيها عن بعد، ضربات قلبها، فتنهّد تنهيدة تحمل مسؤولية أبوية، وخضع لها. لملم أوراقه، أدخلها في الملف، قلبها على وجهها بلا مبالاة تظهرها غير ذات أهمية ممكنة. واستدار في كرسيه، حتى ينظر إلى ابنته، وكما طلبت منه، أن يتحاور.

«إذًا،» قال، مُريحًا يده.

أطلقت مارينا نصف ضحكة. «تجعلني أشعر بالسخافة الآن، بابا، أصبح الأمر جديًّا فجأة، وكأن هنالك نصًّا، ولا أعلم...»

قاطعها. «هل تريدين أن تسأليني شيئًا أم أنك تريدين أن تخبريني بشيء؟»

فكّرت مارينا وهلة. «ولا واحدة، كلاهما... ما هذا السؤال؟»

«مارينا عزيزتي، عليك أن تفكّري بوضوح. عليك أن تتعلمي صياغة أفكارك بوضوح. الوضوح هو المفتاح.»

«تجعل الأمر يبدو في غاية البساطة.»

«لكنه كذلك. هذا، على الأقل، بسيط.»

«تجعل كل شيء يبدو بسيطا. وهو ليس كذلك. أنت دائما واثق من كل شيء.»

تنهّد. «لا تتذمري، مارينا. ليس هذا من شيمك. ولا تتفوهي بالترهات. هنالك أمور أنا على دراية كافية بها حتى أكون واثقا منها. وهنالك أمور عدّة طبعًا هي فوضى.»

حرّكت مارينا رأسها إيجابًا، تلاعب أصابع قدمها، لم تستطع النظر إليه. لقد كان فخورا بها من نواح عدّة – ليس بجمالها فحسب، جمالها الذي يفاجئه كلّ مرة، وكأنه بعفويّة نحَتَ وعاءً مثاليًّا أو زرع شجرة بونزاي مثالية – لكنها كانت تحاول. سمِعَا صفارة تقترب في الشارع أسفل المنزل، سمعا

زعيقها وهو يرتفع، ثم تهاويه عندما تجاوزتهما مكملة طريقها. وكأنها كانت تنتظر مرورها بكل أدب، تحدثت مارينا «أردت سماع نصيحتك بخصوص، أنت تعلم، بعض الأمور.»

«أيّ أمور؟ الكتاب؟» كان قد سئم من التظاهر بشأن كتابها، ليس لأنه جعله يتساءل إن كان كتابه – ليس السيدة السمينة، فحال هذا الكتاب يسير بشكل جيد، شكرا، بل الكتاب، هذا الكتاب تحت ساعده – هزلي وزائف ككتاب ابنته.

«لا.» نظرت إليه من تحت شعرها المتدلي على نصف وجهها. «أو ليس ذلك فحسب.» توقفت. «إنه الوضع برمته. أنا في الثلاثين، أليس كذلك؟»

«أنتِ كذلك.»

«عندما كنتَ في الثلاثين كنت مشهورا.»

«مشهورا؟» استهجن بتواضع، استهجانًا مصطنعًا كقلق ابنته السابق. كان بإمكانه أن يراها وهي ترمق زيفه، كلاهما يعرف الآخر جيدا. ثم قال ما كان يعنيه «لقد كان وقتا مختلفا. وعالما مختلفا.»

«نعم، لكنك كنت تقوم بأمور مهمة منذ البداية. لديك قناعات.»

«أحداث عالمية – كانت هنالك فرصة – آمنت بالكثير من الأشياء، بعضها لا زلتُ أحتفظ بها اليوم، والبعض الآخر... حسنا. كما قلنا، اليقين قليل.»

«لكن بابا، ماذا سأفعل؟»

طرفت عينا موراي ثوايت. كانت جميلة وساحرة للغاية، لكنها كذلك منذ وقت طويل، طيلة حياتها، وظنّ أنه غرس فيها أهمية أن تكون أكثر من هذا. لم يكن يرغب في الشك في أنها غير متّقدة، هو يعرفها، عرف أنها كذلك. ليست بقدر اتّقاد صديقتها دانييل ربما، لكنها ذكية بما يكفي حتى لا يُسمح لها بأيّ عذر، أيّ عذر ممكن لحياتها هذه. عبّر عن استيائه بزفير مثل تنّين عبر أنفه. يستطيع أن يحسّ بأنفه مشتعلا. ولكي يعطيها وقتًا للتفكير، أشعل سيجارة، وأفرغ المنفضة المتسخة في سلة المهملات قرب قدميه. غلّفت

أورورا السلة بأكياس التسوّق البلاستيكية ليسْهُل تنظيفها، والتصق الرماد والأعقاب بالبلاستيك كأوراق الشجر اليابس في النسيم.

«تظن دانييل أن عليّ العثور لي عمل» قالت مارينا أخيرا.

«أيّ نوع من الأعمال تفكرين فيه؟»

«هذا هو الأمر. أوّلا، هل عليّ فعلا أن أحصل على واحد فيما أحاول إنهاء الكتاب؟ ثم، أنت تعلم، سيكون العمل الحقيقي متطلّبًا، فعلى كل حال، هكذا يجدر بالعمل المثير للاهتمام أن يكون، أمّا عمل سهل، عمل غبي، آنذاك مَن أمازح؟»

ضاق صبر موراي ثوايت فجأة، صار يرى ابنته وحشًا خلقه مع أنابيل، همّا ومجتمع استهلاكيّ. كان سيبدأ في قول «عندما كنت في عمرك...» حين سمع صوت والده فجأة وهو يردّد الكلام نفسه الذي أقسم لنفسه - تذكّر الأمر، وانزعاجه - ألّا يقوله لأبنائه. وقال بدل هذا: «تعلمين أنه مرحّب بك هنا متى شئت. سرير، وسقف وعشاء، وبعض المال أيضا، ما دمنا أنا وأمك نستطيع تحمل ذلك.»

حركت مارينا رأسها، وكأنها مطارَدة بكرمه، تنتظر ما سيكمل.

ماذا يجب أن يلي هذا؟ تساءل. «لكن السؤال هو، ماذا تريدين أن تفعلي أنتِ بحياتك؟»

«أريد، أنت تعلم، ما أردته دوما، بابا، أن أقوم بشيء مهمّ.»

ألا تستطيع سماع نفسها؟ حتى تلك الطالبة في كولومبيا - ما كان اسمها؟ آن؟ موريان؟ روان، نعم - حتى هي لم تكن بلهاء لهذه الدرجة، وكانت أصغر منها بعشر سنوات. «بمعنى؟» قال ضاغطًا بشفتيه على الكلمة.

«بالكتابة، أريد أن أكتب شيئًا، مقالات، كتابا، مُهمًّا.»

«في أي موضوع؟ ما الذي تؤمنين به؟»

«ليس ملابس الأطفال حتما» تذمّرت بأسف. «لا أعلم. هنالك أشياء عدّة، أنت من دون الناس، تعرف ما هو عليه الأمر...»

«مسائل عدّة تهم أشخاصًا مختلفين، ابنتي، كما تعلمين. لا يتعلق الأمر باختيار موضوع من لائحة أو السّير على خُطى شخص آخر. إن كنتُ قد أنشأتك على شيء فقد علّمتك ماذا؟ علّمتك أن تجدي موضوعك. أو موضوعك الأوّل، ابدئي بشيء ما.»

«لكن كيف؟»

«ربما في البداية مع صديقتك حق. ربما عليك العثول على عمل ما.»

«في الصحافة؟»

«في أي شيء يثير اهتمامك. التعليم، اعملي لمصلحة وكالة مساعدات، اعملي لمصلحة وكالة إعلانات، رجاءً. المهم أن يكون عملًا ما.»

«أطن أن ما يشغلني هو...» رمقت مارينا والدها بنظرة استنكارية، بالنسبة له هي أكثر تعابيرها الخلّابة. «ما يشغلني هو أن ذلك سيجعلني عادية، كالجميع.»

«جميلتي – وقف ليعانقها، مُشيرا إلى نهاية المحادثة، وهي، أيضًا، مستقيمة عن الأريكة، تخطو برقة كراقصة فوق أكوام المسودات التي نقلتها من الأريكة إلى الأرض – «لا شيء تحت هذه الشمس سيجعلك عادية. لا شيء، أبدا. الآن، أحتاج لأن أعمل. لأنك، كما ترين، لدي عمل. إنه يسلب العقل.»

جعلها تبتعد حتى الباب قبل أن يتحدث مجددًا. «هلّا أكملتِ ذلك الكتاب، إذًا، بعد كل الجهد الذي بذلته لأجله؟»

وضعت يدها على مقبض الباب. لاحظ من الطريقة التي قبضت بها عليه بأنها كانت تشعر بمعدنه البارد وشكل راحتها وأصابعها على سطحه. شعر أنه يعرفها – خطوط جسدها، انحناءات عينيها – وأنه لم يكن بحاجة فعلًا لأن تجيبه على هذا السؤال.

«لا أعلم تماما» قال. «لا زلت أحاول تسوية الأمور.»

حرّك رأسه. كانت في الممر، الباب غير مغلق تماما عندما ناداها، لآخر

مرة، باسمها «مارينا؟»

«نعم، بابا؟»

«هل تعرفين بريد صديقتك دانييل الإلكتروني؟ أخبرتها أنني سأرسل إليها بعض الأشياء بخصوص جونز، تعلمين، ذلك الذي تريد إنجاز شيء بخصوصه.»

«هذا لطيف»، ابتسمت مارينا، مُظهرة رأسها عبر الباب. «سيعني هذا كثيرًا لها.»

بمجرد ما غابت مارينا. جلس موزّاي ثوايت مجددا أمام ملفه المفتوح. أخذ ورقة فارغة وكتب أعلاها: «الفصل العاشر: تقديم المشورة لابنة بالغة.» ثم شطب هذا، وكتب: «حوارات مع ابنة ناضجة.» ثمّ: «طفلة بالغة تتأمل كيف تعيش.» وفي النهاية استقر على: «الحديث إلى طفلة بالغة.»

حيث قبعت الكلمات في وسط الصفحة بحبر أحمر، وحروف طويلة، ضيّقة وكبيرة، دخّن سجائر عدّة متأمّلًا ما كتَب. ثم أفرغ في جوفه قدح الويسكي الموضوع على الصّحن الورقيّ الأخضر الواقي من البلل، وقد خلّفت قاعدته حلقةً رطبة صغيرة. في النهاية، وضع الورقة أعلى كومة المخطوطة وأرجعها كلها إلى الملف، وإلى الدرج الذي أغلقه بحذر. لقد أفسدت – هذا طبعًا ما يفعله الأطفال – عزمه، ضيّعت اللحظة.


أيّار

الفصل الحادي عشر

الأم تعرف ما هو أفضل

كلما زارت راندي مينكوف المدينة، هنالك ثلاثة أمور ترغب بالقيام بها: حضور عرض في أحد مسارح برودواي، ونزهة في متنزّه سنترال بارك - لو مرّة واحدة وبكثير من القهقهة والاستمتاع، نزهة بعربة الحصان - والأهم من كل هذا، زيارة مُتحف متروبوليتان (ذه مِت). حاولت زيارة متاحف أخرى أيضًا، متنوعة في كل مرة، وفي هذه الزيارة اقترحت مُتحف مورغان، أو ربما المكتبة العامة، لكنها عادت إلى متحف ذه مِت، مندهشة ككل مرة وهي تعلو العتبات الرخامية، لطالما أخبرت ابنتها عن زيارتها الأولى لنيويورك، فتاة في الثامنة عشر في سنتها الأولى بجامعة أوهايو، تسافر مع مجموعة صديقات خلال عطلة الربيع، تحت استياء والديها الصريح.

«السّحر لا ينتهي،» كانت تقول بمرح بصوتها المتحجرج، «ليت الجنس كان كذلك!» ثم تضحك ملء صدرها مستمتعة بجرأتها.

ليس لأن أمّ دانييل كانت تحظى بعلاقات جنسيّة كثيرة ممتعة، حسب علم دانييل. إذ بعد الطّلاق، انتقلت إلى سانت بيترسبورغ في فلوريدا تحت إلحاح صديقتها القديمة إيرين واينريب، مُطلّقة كذلك ومستقرّة بكُلّ أريحية في منزل صغير على جانب بحر وادي سانت بيتيرسبورغ. لم تشتغل

راندي مينكوف في أيّ عمل آخر غير شركة زوجها لسنوات، لكنها أخبرت إيرين، أو إيرين أخبرتها، يصعب بدقّة استحضار أن راندي كانت تعرف شيئًا واحدًا وهو الأملاك. لا يمكنك أن تتزوّجي بمقاول كل تلك السنوات ولا تعرفين شيئًا عن الأملاك. ولهذا، نجحت في امتحان الأملاك الخاصة، وانطلقت في عالم إسكان سانت بيترسبورغ المشرق، ووجدت بهجة جديدة في حياتها. صغيرة، داكنة وذات وجه دقيق كابنتها، كسبت بعض الوزن مع الوقت وحملت صدرها البارز أمامها، لكنها لم تترك ما قد يراه البعض على أنه عيوب جسديّة، أن يردع حسّها في الأناقة.

«يحبّ الرجال شيئًا ليتعلقوا به، ما دام لديكِ مشدّ خصر جيّد، ستبدين جميلة في أي شيء» أخبرت دانييل. كانت تفضل السراويل العريضة والقمصان اللصيقة – المزينة أحيانا بأشكال جلود الحيوانات المهددة بالانقراض – والأحذية العالية. كانت تحب المجوهرات الذهبية، أو حتى تلك التي تبدو كالذهب – لم تكن مغرورة في ذوقها، وانتقت أكثر من مرة قطعة أحبتها من موقع كيو في سي للتسوّق – واختارت ملابس تكشف بشرتها الطبيعية الجميلة واللون النحاسي المذهّب الصناعيّ في شعرها. كانت حماسية، متغطرسة حتى، بصوت يبدو لسامعه أنه صوت مدخّنٍ لسنوات (ولو أنها أقلعت عندما بلغت دانييل الثامنة) ذي صدى دَسِم. كوكيلة عقارات، متخصّصة في أموال المتقاعدين، عصافير الثلج ذوي الشعور الرماديّة من كندا أو الشمال الغربي، كانت معروفة، وناجحة بصراحة، كفتاة بين أخريات في متوسط أعمارهن، ديناميّة وتحمل روح دعابة عالية، لكن عندما يتعلق الأمر بالرجال، دانييل كانت تعلم أن أمها تتحدث عن المواعيد لكنها لم تخرج في أي منها، أنها أشارت برشاقة إلى الجنس لكنها لم تستطع، منذ الطلاق – لم تكن فكرتها، على كل حال – أن تنظر بلا ضجر إلى أي شخص من الجنس المقابل ما عدا ابنها. وربما كان هو أيضا مشبوهًا.

أحبّت دانييل أن تؤمن أنه في مسائل القلب كانت مختلفة عن أمّها،

مع أنّهما تتشاركان الكثير من السّمات. لكن حياة دانييل الخاصة، بالرغم من أنها اكتظت بالناس أكثر من حياة أمّها راندي، فلم تكن مشبعة بما فيه الكفاية. وغير واعدة – مُذ أن تخلّى عنها تِم الوسيم فجأة بعد علاقة طويلة ومتقطعة ليتزوج فتاة في عمر التاسعة عشر منقطعة عن الدراسة – مثل حياة جوليوس. أشفقت دانييل بالأحرى على أمها، سميكة وقوية، «منتهية»، تسير بخطوات مسرعة نحو الستين كما لو أنها ستستمتع بذلك، لم تشعر باكتمالها. ومع ذلك دانييل قد قلقت، عندما حلّت راندي مينكوف في نيويورك واستقرّت في غرفة في فندق دَيز إن بتقاطع الجادة الثامنة والشارع السابع والأربعين، وقد أصرّت في عناد أنها ليست أصغر من شقة ابنتها («إنها تتسع لسريرين كبيرين، داني، سريرين»)، أن أمها هي من أشفقت عليها. حتمًا، قلقت راندي بشأن دانييل («عندما كنتُ في مثل عمرك، عزيزتي، كنتِ أنت وجيف تركضان عاريين تصرخان، هل تصدقين... أسنان ناتئة جميلة!») وأسقطت على ابنتها – هكذا آمنت دانييل – كلّ نقص في تحقيق الذات غير المعترف به. لم تبدُ أنها متأثرة كالكثيرين، كتأثّر دانييل أحيانا، بمنصبها كمنتجة أفلام وثائقية لسلسلة مرموقة. اعتبرت راندي مينكوف أن هذا العمل غير قار، لأنه يعتمد في نجاحه بعوامل غير ثابتة. يتعارض هذا مع أحد مبادئها التنموية الذاتية الغريبة، المتبنّاة في عهد ما بعد الطلاق الفلوريدي الجديد، لهذا فإن دانييل لم تخبر والدتها بأن المشروع الأسترالي قد انتهى (تأثرت راندي بسفر ابنتها إلى أستراليا بتذكرة درجة رجال الأعمال المدفوعة التكاليف)، لكنها قالت بدل ذلك أن المشروع متوقف لفترة. تحدثت بشكل فضفاض عن فكرتها الحالية، بلا اهتمام يخالف ما تشعر به، محاولة إظهاره كشيء تافه، مجرد فكرة تفكر فيها حتى اكتمال التمويل لشهرين في ساوث ويلز الجديدة.

تحدثت دانييل هكذا واقفة في صفّ الغداء رفقة والدتها في مطعم مُتحف ميتروبوليتان الفاخر، تتحدّث بصوت منخفض مراعاة لصدى الكاتدرائية والجماهير الماشية ببطء.

كانتا أيضًا تنتظران مارينا لتلتحق بهما – أحبّت راندي مارينا، غير شاكة في أن صديقة ابنتها المقربة قد أخبرت أمها بأن راندي كانت «لطيفة جدا، لكن لها وقاحة سكّان ميامي»– بعد الوجبة سيتسكعن حول المتنزّه وحديقة حيوانات الأطفال، التي كانت تعني لها كثيرًا، وكالعديد من الأماكن المعروفة في نيويورك التي تحمل صدى كبيرًا يُعجب المرء لكونها لا تملك جرسًا: «ألا تذكرين؟ زيارتنا العائلية الأولى لنيويورك، عندما سقط جيف الصغير عن فِطْر آليس في بلاد العجائب وحصل على كدمة بنفسجية كبيرة على جبهته! وأنت، أنت داني، رأيتِ قردًا يتبوّل في قفصه وبللت سروالك مباشرة، هل تذكرين؟ وقفت هناك تنظرين إلى القرد وفجأة اكتشفنا أن سروالك الضيّق مبلّل بالكامل وحذاؤك أيضا...» ادّعت داني أنها لا تذكر هذا الموقف المحرج، لكن الصورة الحيّة للأمر رسمت أمامها مرّات عدّة، الأمر الذي جعلها تتساءل هل الذكرى الآن ممجّدة في ذاكرتها؟ مارينا، أيضا، مارينا أيضا ستكون طرفا في استحضار هذه الأسطورة، لكن ليس بعد، ليس قبل الغداء.

أمضت دانييل وراندي الصباح في المتحف، صباحُ أربعاء مشرق من شهر أيّار، عندما أخذت دانييل يوم عطلة من العمل خصّيصًا (كانت زيارة أمها وسط الأسبوع لأن قيمة التذاكر كانت أرخص: لها دراية بالأملاك، والسفر، وفوق كل هذا بالصفقات)، لتجد نفسها تجول متاهات معرض الأزياء لمتحف ذه مِت، تراقب الخزائن سيئة الإضاءة التي تحمل عباءات وأخفافًا، تنانير مطرّزة وقبعات بها ريش، كلها موضوعة بشكل أنيق على دُمية بلا وجه أو شعر فيما اعتبرته دانييل مثيرًا لكنه تقليد ساخر ومزعج، وبالنسبة لأمها، متعة المتحف غير المضجرة. أحبّت راندي المجوهرات ذات الجودة الثانية، الأقراط الرومانية والأساور التي يمكن أن تجدها معادة التصنيع في محلّ المُتحف للتسوّق، لكن دانييل حسمت هذاء الذي كان بالنسبة لها، مثل ممرّات في محلات الأنتيك الصينية، غير مهمّة أبدا.

التسكع في المتحف، الملل الكامل الصادر عنه أتعب وأنهك كلتيهما،

بالتحديد راندي التي سبّب حذاؤها العالي بثلاثة إنشات («امرأة صغيرة يا داني يجب ألّا ترتدي أقلّ من هذا»، لطالما قالت، رامقة حذاء داني المسطح بنظرة سخرية وتأنيب) ألمًا في قدميها وأصابعهما المتقرحتين. ولهذا التجأتا قبل الأوان إلى المطعم، لتتفاجآ بحشد أكبر من المتوقع، ولهذا كان عليهما الانضمام إلى الصفّ.

انتهت دانييل من شرح الإطار العام لبرنامج «ثورتها» وكانت تستمع بلا انتباه لثرثرة والدتها الحماسية حول إعجاب قريبها ميلفين بالحزب الليبرالي بإيلينويس الستينات، قبل اهتمامه بالعضويات وشرائه لمزرعة في شمال كاليفورنيا، عشرين سنة قبل ظهور الموجة (ما هي العلاقة هنا، تساءلت دانييل، مستغربة كالعادة من قدرة والدتها على التفكير الفضفاض والقصص الطويلة من غير معنى، بالكاد مدركة أن هذا، كأمور أخرى، كانت صِفات ورثتها)، عندما لمحت أو ظنّت أنها رأت جبهة لودفيك سيلي العالية والواضحة. وقف قبالتهما في الصف، بالقرب من بدايته، جسده النحيل الطويل مُنحنٍ إلى الأمام في حركة من الحميمية لاحظتها فيه منذ لقائهما الأول، لقد رأته وهو على هذه الانحناءة لأوّل مرة. رفعت عنقها لترى من كان يُحادث، ووجدت أن المستمعة إليه كانت فتاة يافعة وجذابة، من أصول أورو-آسيوية ربما، بعينين واسعتين سوداوين ويدين صغيرتين – خرجت دانييل من الصف بصراحة ونظرت إلى الأسفل– وكوعَي دُمية ترنحتا على كعب عال يجعل راندي تبدو متواضعة. كان حوارهما حماسيًا، يكاد يكون ساخنا. يمكنك أن ترى أن سيلي يحاول إقناع المرأة بشيء، وأنها، على لباقتها، مهتمّة رغم أنها لم تتفق معه. قررت دانييل أنهما لا يعرفان بعضهما جيدا، رغم شكّها التلقائي، قرّرت أنهما ليسا معا. أو ليس بعد، ربما كان هذا هو سبب هذا الحوار المتقد.

«ولهذا أظن أن كارين تعاني من مشاكل في الوزن، أليس كذلك؟»

لمست راندي ذراع ابنتها بأظافرها المطلية بلون نحاسي.

«أمي؟»

«ابنة ميل الكبرى، كارين، التي أرادت أن تصبح ممثلة.»

«آه نعم.»

«لكنها اكتسبت وزنا، أعني، ليست منتفخة فحسب، بل سمينة. وأنا أظن أنه الطعام العضوي، ألا تظنين؟»

راقبت دانييل سيلي وهو يرافق الفتاة إلى مائدة معزولة لاثنين. لم يعد بوسعها رؤية أيّ منهما بمجرّد أن جلسا، الأمر الذي سيجعل فرصة لقائه صعبة، فكّرت. علمت دانييل أن سيلي قد وصل إلى نيويورك، أخبرها أحدهم – تقنيًّا، منافس له في مجلة كوندي ناست، أنه قد اكترى شقة في غراميرسي بارك بعد ثلاثة أيام من وصوله، نهاية أبريل – لكنها لم تتواصل معه. نوَت ذلك: كان أو سيكون، جزء مهمًّا في برنامج ثورتها، إذا ما وعندما ستحصل على الضوء الأخضر. كانت متأكدة كفاية من أنه سيوافق، لأن الدعاية لمجلّته ستكون كبيرة، لكن مدير السلسلة أراد أن ينتظر حتى أيلول، عندما تنطلق مجلة ذا مونيتور، قبل اتخاذ القرار الأخير. ومع ذلك، سيكون من غير اللائق تحت هذه الظروف الذهاب بسرعة إلى مائدته فقط لتعرّف بنفسها مجددًا. لا برفقة والدتها طبعا – لم ترد أن تتدخل راندي في هذا اللقاء. ولا مارينا، إن فكّرت في الأمر. ربما سيكون من الأفضل لها أن تراسله على البريد الإلكتروني، لقد حصلت على ذلك العنوان سلفًا، لقد حفظته عن ظهر قلب، بدل أن تسمح لكل تلك المتغيرات بالتدخل حرة.

«هذا هو رأيي بشأن السكر المكرر» قالت راندي مينكوف « وأظن أن الأمر رائج.»

«نعم، ربما.»

«هل تستمعين إلي حتى، راندي مينكوف؟»

«طبعا أفعل، أمي.»

«كم بلغ وزن والدك هذه الأيام؟» أحبت راندي سماع كون طليقها يعاني في معركة السمنة.

«لم أره منذ مدة أمي. لكنه يتعاطى الأتكينز، ويقول إنه قد خسر عشرين باوندًا.»

«ممم» استقامت راندي وعدلت معطفها فوق قميصها المرقط بأشكال الفهد. «هذا سأحب رؤيته.» بدا وكأنها تهمهم لنفسها. «عشرون باوندا؟ عشرون باوندا.»

أدارت دانييل عينيها بتكتم. كانت منذ الأبد الوسيط، وكانت تعرف سلوك أمها المسرحي المتعمد. حتى عندما كانا متزوجين. ضايقت راندي زوجها بخصوص وزنه: كان رجلا ضخما يتناول وجبات سريعة في مكتبه مباشرة من صندوق شرائح البولونيا، أو أصابع الجبن التي يأكلها الصغار. عَصَفَ تقبُّله بدانييل في صغرها. «أنت لا تعرف قوتك»، اعتادت راندي على تأنيبه ودانييل تبكي. ذلك النوع من الرجال الثخينين، الصلبُ والمزغبُ كثور، الذي لن يشكّل خسرانه عشرين باوندًا فارقًا.

«لقد وصلت مارينا، أمي. ها هي قادمة» سارت مارينا نحوهما، على خدها نسيم الربيع وانطباع، إن لم تكن رائحة، الزهور المتفتحة. تترنح أمامها حقيبة صغيرة لامعة – واضح من أنها تبذير، أو هدية – ولوحت بها عاليًا كمبخرة وهي تقترب.

«سيدة مينكوف» شهقة، بما بدا لدانييل كابتهاج مكتوم مستحيل، ذراعاها مبسوطتان، «تسعدني رؤيتك» وراندي، المسحورة والمتهيبة قليلا كالعادة تحت هالة وتكلّف فرد من أسرة ثوايت، بدفء حمَلَ حِسًّا بالاستعلاء خامدًا وغير ملاحظ، فتحت فمها متأوّهة ونظرت باحتشام مُسدلة رموشها.

منحنيات إلى الأمام، متفاديات نشاز ضجيج المطعم، انهمكت النسوة الثلاث في لعب لعبة الحلوى – كل واحدة تحاول إخفاء مشاعرها حول المسألة بالموازاة مع محاولة قياس مشاعر رفيقتيها، مواريةً ظنّت الصغيرتان بحق أن راندي كانت أكثر تطلّعًا لقطعة حلويات من قلقهما لتجنب واحدة، ولهذا طلبن في النهاية كوب كريما الشوكولا وثلاث ملاعق – عندما حبس ظلٌّ،

ظّل لودفيك سيلي المائل الضوء عن المائدة. بدا وكأنه قد أحضر الصمت معه، أو على الأقل أطبق الصمت.

«ألستِ دانييل؟ دانييل مينكوف؟»

حاولت دانييل الوقوف.

«رجاء، لا تتحرّكي، آسف على المقاطعة، لكنني رأيتك – هنا، من بين كل الأمكنة؟ وأردت تحيتك.»

«أهلا،» ابتسمت دانييل، آملة أن تبدو جميلة. «منذ متى وأنت هنا؟»

«منذ شهر تقريبا، أردت مراسلتك، لكنني فقدت العنوان.»

«أتفهم كليًّا»، قالت دانييل. وفي قرارة نفسها فكرت، إذا كان بإمكانها إيجاد عنوانه، فبإمكانه هو أيضًا إيجاد عنوانها إن أراد هو ذلك. لم تعرف تماما ماذا تقول. تلكأ، مبتسما بأدب إلى الطاولة. «أنا آسفة» قالت، «إنها وقاحة مني. أمي، راندي مينكوف، ومارينا ثوايت.»

أحنى رأسه وهو يسلم عليهما. لم تكن لتفاجَأ بسماعه ينقر كعبيه. لم تلمح دانييل خلفه تلك الجميلة الأوروآسيوية.

«هل أنت هنا مع أصدقائك؟» سألت.

«زميلة، أو بالأحرى، شخص أرجو جعله زميلًا، حاليًّا، إنها مع الفريق الخصم.»

«هل يقع مكتبك بالقرب من هنا، إذًا؟»

«لا» ضحك سيلي. «هذا ليس، كيف أصفها؟ مجالنا. هذا ليس مجالنا.»

ابتسموا كلهم، بتفاهة، شعرت دانييل. ثم عمّ صمت.

«دعني أمدّك بعنواني.» قالت أخيرا. كما أخبرت مارينا لاحقا: «لم أفهم لماذا بقي واقفا هناك. فتشت في حقيبتها من أجل ورقة وقلم. «ويسعدني أن أحصل على عنوانك. أردت التواصل معك على كل حال من أجل مشروع أشتغل عليه، إنه في الحقيقة جدّ...» سكتت، محاولة جعل القلم يكتب.

«استكشافيّ...» أنهت مارينا جملتها، كاشفة عن ابتسامتها ومحدّقة

مباشرة في سيلي. «أظن أن هذه هي الجملة.»

لاحقا، خلال نزهتهن في المتنزه، بعد الاستحضار الذي لا يعدّ ولا يحصى لقصة دانييل وهي تبلّل سروالها، وبعد ذهاب مارينا وعودة دانييل وأمها، تليها استراحة قهوة في غرفة راندي (أكواب مغطاة ملأى بالكريما المخفوقة وعلبة بلاستيكية من بسكويت الغراهام المغلّف بالشوكولا)، حيث جلست دانييل على حافة أحد السريرين الكبيرين ودلّت قدميها بوقاحة إلى الخلف والأمام بينما جلست أمّها متكئة على مقدمة السرير الآخر، قدماها عاريتان ورجلاها إلى أعلى، تتصفّح القنوات والصوت على الصامت – في هذا الوقت المتأخر من اليوم قالت أمها: «لقد راقني، عزيزتي.»

«من؟»

«ذلك الرجل على الغداء، صاحب اللكنة المثيرة.»

«بالكاد أعرفه.»

«كما تشائين عزيزتي.»

«ماما انظري، إنه شخص التقيته في حفلة عشاء في أستراليا وانتقل مؤخّرًا إلى هنا من أجل العمل، هذا كل ما في الأمر.»

«بدا جِدّ...» هزّت راندي كتفيها كما لو أنها ارتعشت، «حميمي.»

«أوه، توقفي. إنه كذلك مع الجميع.»

«أتظنين ذلك؟» استقرّت راندي على قناة للرسوم المتحركة. كان شاغي وسكوبي وحيدَين في قبو عندما انطفأ النور تاركًا أربع أعين تبرق في الظلام. «الأم أحيانا تعرف أفضل، داني. لقد أشرتُ فقط إلى أنه راقني.»

الفصل الثاني عشر

قائمة دانييل

عندما وصلت إلى المنزل حوالي منتصف الليل، وجدَت دانييل رسالة من مارينا على مجيبها الآلي، استمعت إليها وهي تُشعل غلّاية الماء الكهربائيّة (عادة ترف مستوحاة من بريطانيا تعلّمتها من مويرا التي لا تستعمل غيره) لإعداد كوب شاي بالنعناع.

«سعيدة لرؤية أمك، داني. إنها جد مرحة. والطريقة التي تحبك بها، تعلمين، جد مؤثرة. إذا لم يتأخر الوقت، اتصلي بي عندما تعودين؟ أنا متشوقة لسماع المزيد حول الرجل الأسترالي – إنه رجلك الثائر أليس كذلك؟ اتصلي بي حسنا؟»

أزالت دانييل حذاءها، وضعت فردتيه في الخزانة على رف الأحذية. الطريقة الوحيدة للعيش بهناء في مكان صغير هي أن تعيش بنظام. كانت أمها تزعجها لأن شقّتها بالكاد تبدو مأهولة. لكن دانييل أحبته. علت قدميها المتورمتين (كم من الأميال مشين هذا المساء؟) رعشة ارتياح لوجودها هنا فحسب. كان صغيرا لكنه ليس كئيبًا. كانت تقطن في الطابق الخامس عشر لمبنى حجري أبيض على طراز الستّينيات، الأطول بين المباني المجاورة في المجمّع من جميع الاتجاهات. له بهو نظيف ومضياف، وبوّاب، وعندما

كانت تفتح بابها الأمامي – ضمن صف طويل من الأبواب المتطابقة بمحاذاة رواق قويّ الإضاءة ذي سجاد أزرق نجح بشكل ما في امتصاص روائح وأصوات العيش المشترك، أو على الأقل جزء منها – كانت تلج واحة مربّعة تحدّها من أحد نهاياتها نافذة كبيرة ومؤطرة تواجه الجنوب، علوّها يصل حتى الخصر، غير مزينة، تملأ الغرفة نورًا في النهار، حتى في أحلك أسابيع الشتاء، وفي الليل تنفتح مثل لوحة معقّدة، على مشهد من الأضواء البارقة وسماء متغيرة، من ظلال المباني وأسقفها المضطربة. وكما أن حياة جيرانها محجوبة عنها بسبب بناء المباني الوحيد، كذلك كانت نافذتها ذات الدُّرفتَين تحجز كل شيء ما عدا أصوات الأجراس الكبيرة، فبدت في غاية الإحكام. لا تزال جديدة، لا تزال نظيفة.

لكي تجعل مكان جلوسها بمحاذاة النافذة، لتقرأ وتكتب وتفكّر في حمّام من النور وسراب المدينة الأخاذ، اختارت أن تجعل سريرها قرب المطبخ والباب. عرفت أنه، ولمعظم الناس، سيبدو هذا الخيار غير مناسب، غريبًا (حتى أنها قلقت أحيانا من مسألة قرب الطعام من خزانة ملابسها)، لكنها نادرا ما استضافت زوّارًا هنا، وأولئك الذين سمحت لهم كانوا يعرفونها كفاية حتى لا يعلّقوا بشأن اختيارها. كانت الشقة كلّها حيّزًا لها فقط؛ جدار من الكتب المقروءة وغير المقروءة القريبة إلى قلبها، ليس لأهميتها فقط أو لأغلفتها المرهفة، بل للّحظات والأحداث التي تمثّل. احتفظت ببعض الكتب من الجامعة، كتب احتاجتها لبعض الحصص ولم تقرأها – فِردرك جايمسون مثلا، وكتاب كانط نقد العقل الخالص – لكنها أظهرتها كشخص جاد، أو أمرًا مشابهًا، شخص يفكر بشكل فضفاض وواسع. واحتفظت كذلك ببعض الكتب من فترة طفولتها، آخذة إياها من غرفة صباها المهجورة الآن، كروايات شبكة شارلوط وهارييت والجاسوس، كتب استحضرت منذ البدايات شخصها الجاد العاطفيّ، الطفلة الواعية التي تقرأ دوما في المقعد الخلفي لسيارة والديها، غير واعية بأخيها وهو يلكم ركبته، غافلة عن شجارات والديها، غافلة عن الزحام

والمناظر التي تطاردها من نافذة السيارة.

بالإضافة إلى كتبها، كانت تملك مجموعة متواضعة من الكاسيتات والأقراص التي تصلح – ولو بشكل أضيق – للغرض نفسه، ليس كجوليوس المتعصّب بخصوص الموسيقى. كانت تعلم أن مجموعتها تحتوي على اختيارات عامة عكست – سواء المشهورة منها أو الكلاسيكية – القليل فقط من روحها الشخصية، بل ذوق عصرها: مادونا، والأوريتميك، وترايسي شابمان من مراهقتها، وسيسيليا بارتولي، وآن – صوفي موتر، وميتسوكو أوشيدا، وإلى وقت غير بعيد موبي ومغنية الأغاني الشعبية الشهيرة من واشنطون العاصمة التي توفيت جرّاء مرض جلدي في مطلع ثلاثينياتها، والتي جذب موتها المأساوي دانييل أكثر مما فعل غناؤها الناعم لأغانٍ معروفة.

كانت ذاتها إذًا مُمَثّلة في كتبها، وزمنُها ممثّلًا في موسيقاها، وكانت تعتبر بقية الغرفة لائحة نقية وفارغة: أغطية السرير البيضاء الرفيعة والوسائد الممتلئة (كانت ضعيفة أمام الأقمشة القطنية، حتى أنها اقتنت طقمًا من فريتي، تبذير عاقبت نفسها عليه بألا تستخدمه إلا في عيد ميلادها)، أريكتها الزيتيّة اللون، كبيرة كفاية حتى تستلقي عليها وركبتاها إلى أعلى. مكتبها الكبير، قطعة خشب مصقولة على حاملات يواجه النافذة ويحمل فوقه كل أغراض مكتبها المنزلي. كانت تتباهى بكرسيّ المكتب، معجزة فائقة الراحة شجعتها أمها على اقتنائه وساعدتها في دفع تكاليفه («صدقيني، عزيزتي، لا شيء أكثر أهمية من ظهر صحي. لا شيء. هل تذكرين تلك الرحلة إلى سانت طوماس خلال عطلة الربيع حينما كنت في الثانية عشرة، وآذى أبوك ظهره. لقد نام على الأرض لشهرين بعد ذلك، صغيرتي، شهرين. ولا أظن أن ظهره قد عاد إلى عهده السابق بعد ذلك. ليس كأنني سأعرف الآن طبعًا. لنشتر الكرسي.») لم تعرض صورا أو تذكارات كيفما كانت. كانت تكره قطع الديكور. على الجدار علقت أربع نسخ لروثكو، كبيرة، بوسترات مؤطرة بخفاء كانت تذكرها بكنيسة روثكو في هيوستون، التي زارتها يوما مع أسرتها حينما كانت لا تزال أسرة. الصبغات

النازفة من الأخضر والرمادي والأزرق، البنفسجي والأرجواني، ما زالت تحثها على التأمل، ما زالت تهدّئها كلّما جلست أمامها. ما زالت تشعر– أو بإمكانها ذلك إن تركت النور العُلويّ منطفئا وألوان البوستر الباهتة غير مكشوفة، كما تختفي تجاعيد امرأة في الظلام – أنها قد تفقد نفسها في الألوان المزرقّة، درجة لون مختلفة لكل مزاج.

هذا المساء، حاملة كوب شاي النعناع، صعدت إلى الأريكة وحدقت في اللوحة الأرجوانية، اللحظة التي تسبق الشروق، أو احتفال المساء كما كانت تعتبره. ربما كان عليها أن تنتقل من الزيتي إلى الرمادي، نحو النوم. لكنه مثلما كانت قدماها تؤلمانها، كان دماغها كذلك، شاعرة بالتوتر والإنهاك بسبب اليوم كما لو أنها قد أنصتت إلى طنينٍ مستمر. اعترتها الحاجة إلى ترتيب القلق المتضارب بداخلها، حتى تجد نظاما متسلسلا وترتيبا لها، أن تصنع قائمة داخلية: شروق، غروب، شروق، غروب، شهيق، زفير.

1- لقد تجاوزت الساعة الحادية عشر. لم ترغب بالاتصال بمارينا، ولم ترغب بالاتصال بوالدتها أيضا، مدركة أنها منكمشة تحت غطاء صوف الأكريليك في غرفة فندق دَيز إن أعلى المدينة، لكنها وعدتها بأنها ستفعل («أحتاج فقط لأن أعرف بأن ابنتي قد وصلت سالمة إلى المنزل، أفهمت؟») ولهذا فعلت، اتصال مغمغم سريع وعابر من الطرفين، في استظهار للحب.

2- لم ترغب في الاتصال بمارينا فقط، وجدت نفسها منزعجة للفكرة برمتها. أبسبب استخدام مارينا لكلمة «مؤثر» ربما؟ أم أنها على الأقل لم ترغب في الحديث إلى مارينا حول لودفيك سيلي؟ أوه، لقد سبق لها طبعا أن تحدثت عنه قليلا لمارينا، للجميع، عن لودفيك سيلي– الفكرة، وليس لودفيك سيلي الشخص – فقد كان لرؤيته، هناك في أول الصف في المطعم جاذبيّة على دانييل، محتومة، شخصيّة، روحانية – انجذاب مغناطسي. كانت تعلم أن أمها تؤمن بهذه الأمور، تؤمن بأمر كهذا في هذه اللحظة بالذّات. وتذكّرت بوضوح كونها أحست به تماما في سيدني، ولو كانت صادقة لاعترفت بأن فكرة

برنامج الثورة قد كانت - فعلا، من المحرج الاعتراف بالأمر - مجرد حجة للتواصل معه مجددا، والأكثر من هذا، لتمضي الوقت معه، لتفرض نفسها (ليس حرفيا، طبعا) عليه. وباتخاذها هذا القرار، غريزيا وبالكاد واعية، منذ أكثر من شهرين، سمحت دانييل لفكرة تواصلها مع سيلي بالإيناع، في خلوة مخيلتها، في خلوة شقتها الجميلة، والآن، أكثر إشكالية، حتميّة، وتشويقا، إنه هنا مجددًا، حقيقة، بلحمه وشحمه وعينيه المتدليتين، وأصابعه الطويلة الباردة ونظرته الثقيلة الجذابة. كان حقيقيا، وموجودا في نيويورك وباقٍ فيها. هذا كان كافيًا، طبعا، بدون التنافس مع معضلة التملّق الأبله والمتطفل لمارينا وهي تتقرّب منه. لأن مارينا حتما قد رأت، كما رأت أم دانييل، عدم ارتياح دانييل، حتما قد رأت التوتّر في الجو جرّاء تواصلهما؟ أو الأسوأ من هذا، ربما لم تر مارينا أو تشعر بشيء، آنذاك ربما، هذا كان مجرد خيال، انجذابا من جهة واحدة مسلوبًا بقوّته الخاصة حتى لم يقدر على ملاحظة - أن دانييل لم تستطع أن تلاحظ - عدم الاهتمام الذي قابلته به؟ (بعد كل شيء، لقد انحنى إلى الأمام على أيّ امرأة، لقد عرفته بهذه الزاوية بادئ الأمر، وبعدها من خلال حاجبه، صفته الأرستقراطية) في جميع الأحوال ومهما قيل، لم ترغب دانييل في الحديث مع مارينا الليلة. لم ترغب في الحديث معها حول لودفيك سيلي. سيكون عليها ذلك، ربما غدًا، لكن ليس الآن.

3- إلى جانب هذا، فقد كان بعض الإحراج ينتابها من مارينا. يتعلق الأمر بوالد مارينا. منذ عشائها في منزل أسرة ثوايت في آذار الماضي، بدا أن دانييل قد علقت في محادثة عبر البريد الإلكتروني مع مضيفها. لقد أرسل لها، في المرة الأولى وبشكل مفاجئ بعض المعلومات حول البروفيسور جونز، بالرغم من أنها ظنت أنها قد أوضحت بأن برنامج التعويضات قد استبعد. لكنها سعدت - كيف لا تفعل؟ - باهتمام شخص مهم ومشغول، وشكرته بأدب، ولو أنها لا تستطيع تذكّر ما قالته الآن، وحتى لا تبدو غير ذات أدب أو منكفئة على ذاتها (كانت هذه كالعادة دروسًا قديمة من والدتها تتعلّق

هذه المرّة بأساليب التواصل، التي تكررت على شكل سلسلة لا متناهية مع - ولماذا، ما زالت تتساءل- أوامر أمومية صعبة التتبّع بخصوص عدم استهلال رسالة بكلمة «أنا»)، سألته حول مشاريعه الحالية، حول ما إذا كان يدرّس وما هي المقالات التي يعمل عليها، غير متوقعة طبعا - كانت لباقة فحسب من الطرفين - أنه سيجيب عليها، سيسأل مازحا عن رأيها فيما إذا كان عليه التدريس في جامعة كولومبيا، أو ربما في سارا لاورنس، أنه سيذكر كونه يعيد قراءة ويليام جيمس من أجل فقرة يعمل عليها ويسأل عن رأيها في كتاب صنوف التجارب الدينية، أنها ستتمادى وتطلب الكتاب من أمازون - إنه هناك، خلف كتفها الأيسر محشور بين كتب أخرى كأنه موجود هناك منذ زمن - وتقرأ الجزء الذي أشار إليه حتى تجيب بشكل ملائم على تعليقاته. بدا تواصلهما بريئا لها - لم يتغزل بها، كما فهمت كلامه، كانت لهجته مهنية، كلهجة عمّ. ومع ذلك، كان هنالك أمر غير صحيح بشأن الأمر برمته، نفحة خيانة مدغدغة في رسائلهما المصقولة، سواء أكانت أدنى تلميح جنسي أم النزوة غير الأخلاقية لرابطة الأب والبنت، لم تستطع دانييل تحديد الأمر. شيء واحد كانت متأكدة منه: لم تشعر بالرغبة في كتمان الأمر عن مارينا فحسب، ليس الرسالة الأولى التي ضحكت الاثنتان على إثرها معا («ذاك من شيم والدي.» علّقت مارينا غير منصتة لما كتب، مصفقة بيديها في مرح) لكنها كانت متأكدة من أن موراي ثوايت قد بقي صامتا هو الآخر. لم تكن مارينا ماكرة، ولو كان والدها قد تحدث حول مراسلاتهما، لكانت مارينا قد قالت لدانييل في تفاجؤ مرير «كيف لم تقولي من قبل؟» وكانت دانييل لتجيب - لقد خطّطت للأمر، تخيّلته مرارا، ببرودة نبرة صوتها - «لم أفعل؟ أنا آسفة، ظننت أنني قد حدثتك عن الأمر.» وحتمًا ما كان هنالك غرابة حتى في المحادثة المتخيلة، حتى وإن لم تستطع تحديدها. جعلها الأمر حتما تتوقف أحيانا عندما كانت مع مارينا وتُسرّان لبعضهما الأسرار، أو تدردشان فحسب، وتشعر بارتعاشة عدم ارتياح وفورة في جسدها.

4- كانت هنالك مسألة خميس راندي مينكوف. أرادت أن تأخذ ابنتها إلى صالون أظافر في شارع ماديسون قرأت عنه في مجلة فوغ، وكشفت هذا المساء أنها قد حجزت سرًّا موعدا لهما معًا في الساعة الثانية والنصف. دانييل التي أخذت الأربعاء عطلة كاملا، خطّطت لرؤية أمها يوم الخميس صباحًا، ووافقت على حضور اجتماع مُعتاد في العمل في الساعة الثالثة. كيف كانت لتخيب راندي («ليست لديك أيّ فكرة عن مدى حداثة المكان – لقد حجزته لنا كمكافأة منذ شهر، من سانت بيترسبورغ. ولولا تدخّل صديقة إيرين مالفا، وهي زبونة معتادة، لما كنّا حصلنا على موعد.») كيف، من دون الكشف عن نقص التزام مهنيّ مؤذٍ، أن تفوّت الاجتماع المنظّم؟ كيف استطاعت أمّها أن تضعها في هذا الموقف؟ أو أنها – كان عليها أن تفكر – قد سمحت لنفسها بأن يتم التلاعب بها إذًا؟ لم تكن أمها لتفعل هذا بجيف، الذي كان يملك عملا في مصرف بدالاس، لم تكن لتحاول حتى. بإمكانهما معًا تخيّل جيف ينفخ حنكيه الممتلئين سلفا كسمكة منتفخة ويقول: «آسف أمي» بانزعاج طفيف. «دعك من هذا، لن يحدث الأمر.» وبالرغم من كونه لا يتجاوز الخمسة أقدام وستة إنشات ويبدو مضحكًا في البذلات، بعنقه العامر وذراعيه القصيرتين، وبالرغم من كونه أصغر منها بحوالي العامين، كان يملك سلطة على نفسه – أم أنها الذكورة المستغلة؟ – تجعل راندي مينكوف تتراجع تمامًا، توشك على النّدم، بانشراح بادٍ يعكس معرفتها المسبقة أن لديه أمورًا أفضل ليفعلها. لماذا هذا؟ لأن دانييل حاولت وضع بعض الحدود، والليلة بعد سماعها بشأن الموعد، شحبت وانتفضحت حتى، لكنها قالت فقط: «واو، أمي! عندي اجتماع في العمل. لكنني سأرى ما بوسعي فعله.» – كانت تعلم (كيف كانت تعلم؟ لكنها فعلت) بأن راندي مينكوف كانت لتنكفئ وتبكي. لم يكن هنالك مشهد أطول وأكثر إرهاقا في عائلة مينكوف من هذا، وكان يجب إذًا تجنّبه مهما كان الثمن.

5- وأخيرًا، غير ثقيل بل تافه، كانت هنالك مسألة جوليوس. ما قد حصل لجوليوس. لقد اشتاقت إليه. لقد صار منذ مدة، وعلى فترات متقطعة، الخيط الذهبي في قماش أيّامها المملة. جعلها تضحك، جعل حياتها تلمع. وفجأة، اختفى. ليس وكأنها ظنت أنه قد ضرب رأسه بمقبض حاد وتركه ينزف حتى الموت على أرض شقّته، أو أنّه بِيع في سوق نخاسة البيض، أو حتى أخذه متطرّفون رهينة – لا، لقد وصلتها علامات حياة كافية لتعرف أنه على ما يرام، أفضل مما كان عليه حتى. أو هكذا يدّعي، في بطاقة معايدة من فندق مترف بميامي، فندق الديلانو، حيث ذهب نهاية الأسبوع مع صديقه الجديد، ديفِد السرّي، الذي ظهر في المشهد منذ متى؟ شهرين الآن؟ أم أطول من ذلك؟ لكن لا أحد، لا أحد من أصدقائهما كان له شرف لقائه. تمازحت دانييل ومارينا بشأن عدم وجود ديفِد هذا، وأنه مجرّد واحدة من توهّمات جوليوس المثيرة للإعجاب، كالمواعيد المتخيلة التي جعلت من الصعب لقاءه لسنوات. كان الأمر حيلة جيدة على كل حال، لا تُناقض الحالمَ الذي يسكن جوليوس، العفريت الذي تناقصت نزواته المبالغة أكثر فأكثر كلما كبروا جميعا (في الجامعة، كان دائما يكذب كذبات كبيرة وشنيعة حول مكان تواجده أو الأشخاص الذين كان معهم، ويتبنّى أفضل قصص الآخرين ويُعيد حكيها لأصحابها السابقين بوقاحة، لكن أكثر جمالا، محسنة، أفضل، لكنه لم يعد يقوم بهذا بعد الآن.) لكن دانييل رأت ختم بريد ميامي الذي كان من أدوات الفندق، وعلمت أنه إن كان لجوليوس أن يكون هناك، فلا بدّ لديفِد أن يكون حقيقيًّا. هل التقيا على الإنترنت؟ أو في ناد ليلي؟ جوليوس لم يقل، حينما كانت تتواصل معه، دفعها هذا إلى الاعتقاد أن لقاءهما الأوّل كان دنيئا. (ظنت دانييل أحيانا أن سلوكيّات أصدقاءها المتخيّلة كانت الأغرب ولا تشبه أي شيء يمكن لأحد فعله، ومع ذلك، كلما قدم لها جوليوس الوصف الدقيق للأمر، ونادرا ما يفعل الآن، جعلها ذلك تشعر أنها البريئة الوحيدة في هذا العالم حولها، كأنها والدته.) عرفت دانييل أن عليها أولًا أن تشعر بالسعادة

والحماس لكون جوليوس يتمتع بحظ أكبر في الحب مما حصل عليه من قبل. لكنها شعرت بالقلق والشك، لأن ديفِد – كم كان عمره؟ من أين كان يحصل على المال؟ – لم يتنازل، أو هكذا بدا، ليلتقيها، أو مارينا، أو أي شخص. عندما كانت تتحدث إلى جوليوس، كان يقول أمورًا صعبة الفهم من قبيل «سنذهب إلى مطعمنا الليلة، عشاء لذكرى لقائنا الصغير» – وكأنه في شهرين قصيرين نُسِجَت حياة كاملة بينهما، وحذفت بالمقابل كل سنوات جوليوس في نيويورك مع أصدقائه. كيف كان بإمكانهما الحصول على مطعم «خاص بهما»؟ الآن؟ هل لهما أيضا (في الغالب) أغنية؟ وقت من اليوم؟ شارع؟ لكن دانييل لم تكن غبية، حتى في خضم سخطها. فوق كل ما كانت تريده، أرادت استرداد جوليوس، بلسانه الحاد الذي قد يعترف بسخرية أي موقف، يمكنه أن يقلّد أي أحد (أنجز تقليدا مذهلًا لموراي ثوايت)، يمكن أن يأتي في الثانية صباحا إن اتصلت به، ودائما ما كان يجعلها تشعر أن العبوس ممكن الهزيمة. أمّها دائما ما أخبرتها أن اصطياد الذباب بالعسل أكثر نجاعة من اصطياده بالخل، لاسترجاع جوليوس، يجب التغلب على ديفِد هذا، وقريبًا، وإن احتاجت دانييل ومارينا إلى ابتكار حصان طروادة. لو كان فقط بوسعها الحصول على معلومات مفيدة بخصوصه، ما يعدو كون اسمه العائلي كوهين وحقيقة كونه، كجوليوس، يكره شعر الوجه. إن هُزِم ديفِد، سيتوقف جوليوس عن الاختباء. بدا هذا منطقيًّا. وهذا الصباح قبل المغادرة للقاء والدتها، وصلها إيميل من جوليوس يحمل رفضًا آخر: كان ليسعد بلقاء والدتها مساء الجمعة، يوم راندي الأخير في المدينة – سمّاها «راندي التي لا يضاهيها أحد»، وكان يهوى إزعاج دانييل حول قدرة أمها على تدريب الممثلين مرتدي ملابس النساء – لكنه وديفِد ذاهبان إلى ذا هامبتونز نهاية الأسبوع للقاء بعض أصدقاء ديفِد. جوليوس، في ذا هامبتونز؟ جوليوس في حفلة شواء، أو يتمشى، أو حتى ملفع كليًّا، على الشاطئ؟ «ماذا عن الرمال؟» تعجبت دانييل لمارينا على الغداء، بينما كانت أمها في الحمّام. «إنه شديد الحساسية للرمل.» خُلاصة الأمر هي

أن كرامتها الآن قد جرحت، على حساب والدتها ونفسها، وكانت، تعترف بهذا للوحات روثكو على الأقل، ناقمة للغاية على جوليوس، من بين الجميع، الذي بدا لها الأكثر زعزعة من خوض علاقة غرامية من أي أحد آخر تعرفه، وقد توقّف أخيرًا على ما يبدو عن البحث. لم يكن في مقدورها إخبار أحد بأنها منزعجة – لم ترد أن تكون من ذلك النوع الذي يفعل – لكن الحقيقة هي أن هذا النقم بقي لصيقًا بها، كغصة لا مفر منها عالقة بحلقها.

غير قادرة على التفكير في شيء سادس، انتقلت دانييل من الأريكة إلى السرير، لكن ليس قبل تعليق تنّورتها وليّ قميصها في كرة صغيرة من أجل الغسيل، ليس قبل فرك (لم ترد ذلك: لكنها شعرت بالنقاء حينما فعلت) وحك ودهن بشرتها بكريما غالية أوصاها بها طبيب الجلد الذي أذهلها بعرض اشتراك مفاجئ يضم تخفيضات عامة. وعليه، نظيفة ولامعة مثل مصباح، استلقت دانييل عارية بين أغطيتها الرفيعة، مثقلة و، كما تمنّت، صافية الذهن، ومع ذلك، لحوالي ساعة، في نصف عتمة، ظنت أنها تستطيع استشعار همومها تندفع كالخصلات في زوايا غرفتها البريئة.

الفصل الثالث عشر

عباقرة عظماء

مع حلول الأسبوع الثاني من أيّار، كان بوتي تاب قد غادر منزله منذ ثلاثة أسابيع. غادر أخيرا في الوقت الذي بدأت فيه زهور الزعفران وزهور اللبن تكشف بخجل عن ألوانها الصارخة، متأخرة ذاك العام لكنها سبقت زهور الخزامى التي تحبها والدته، في مشتل الأزهار أمام الباب. تأخر الربيع كثيرًا حتى أن بعض الثلج الملوّث بالطين ما زال يتلكأ على جنبات المروج والحواجز وهو يغادر البلدة. صقيع قبيح ما زال يغلف الأرض جعله سعيدًا بالذهاب.

لم يحرّر نفسه بالشكل الصريح الذي أراد، لكنه لم يبع سيارته أيضًا. بدل ذلك، أمضى شهرًا، الأخير من ذلك الشتاء اللامتناهي، يشتغل في نوبات عند صهره طوم، الذي، بالإضافة إلى عقود استئجار الأرض من الدولة، كان يعمل جانبيا في شركة خاصة للممرات والمداخل. ركوب جرافة الثلج الحمراء ذكّر بوتي بلعبة السيارات المتصادمة في معرض المدينة، وطوم، الذي كان يتلقى 8 دولارات للساعة، سمح لبوتي بأخذ النصف. لم يكن كثيرا لكن بما أن أمه لم تنفذ تهديدها بجعله يدفع الكراء، وبما أنه كان يتلقى المال نقديا، جنى بوتي المبلغ، رزمة أوراق سمينة من فئة الواحد والخمسة دولارات احتفظ بها مؤمّنة بخيط مطاطي، في ظرف بني داخل درج منضدته.

كان يملك، عندما غادر واترتاون، أربع مائة وثمانية وثمانين دولارا، إلى جانب ست مائة وبعض الدولارات الباقية في صندوق الائتمان، المال الذي قالت والدته بأنه من والده والذي قالت مرة إنها تمنّت أن يستخدمه في السفر إلى أوروبا. بكل هذا المال – بدا له مبلَغًا كبيرًا، حتى وإن علم أنه لن يبتعد كثيرا، وحتما ليس أبعد ممّا كان يطمح – قرّر الاحتفاظ بسيارة الهوندا، فندق متحرك، كما اعتبرها، وحتى يستطيع حمل حاسوبه المكتبي. بقيامه بهذا، سبّب لجودي تاب ارتباكًا مُحزنًا حينما دخلت غرفته بعد مغادرته ووجدت المكتب عاريا. لم يتخيّل بوتي الفزع الأمومي الذي سبّبه: أخبرته أمه به في اتصالهما الأول بعد أن غادر.

«هل هنالك شيء لم تخبرني به، بوتي؟» سألت.

كان منزعجا، محشورا في كشك هاتف في محطة استراحة على الطريق العام لولاية نيويورك، قرب أوتيكا، حيث توقف من أجل كأس قهوة وشريحة بيتزا سيئة، لكنه لم يخبرها، حدّق فحسب إلى العلبة البلاستيكية الملأى بألعاب الكارنافال أمامه (لعبة، تسمح لك وبدولار فقط أن تسحب لعبة القرد البنفسجي أو لعبة راغدي آن بعينيها الناتئتين.) حرّك قدميه على الأرض الملوثة بالرماد وقال «لا، أمي، ليس هنالك شيء.»

لأن ما أخبر به والدته قبل مغادرته، لم يكن كذبًا، وهو أنه ذاهب إلى أمهيرست، ماساتشوستس، لزيارة صديقه دونالد، كان يسبقه بعام في الثانوية وهو الآن في السنة الثانية في جامعة يو ماس، يدرس التاريخ. لم يخبرها بشأن نيويورك، حول حاجته للمطالبة بحقه من مورّاي. لم يكن الأمر ليعجبها، أو لتسمح به. كانت لتجهض هروبه.

«ما الذي يريده دونالد منك الآن؟» سألت أمه، يعلوها شكّ وهي تقطّع الخس في إناء السّلَطة. «إنه وقت الامتحانات.»

«لديه بحوث، لا امتحانات، أمي. وهو يقطن خارج الحرم الجامعي، في منزل كبير، لقد دعاني.» – كان هذا صحيحا: دونالد فعل – «ولهذا أتوقع

أنني لن أعيق طريقه.»

«كم من الوقت ستغيب؟»

«لا أعلم تحديدا. ربما طويلا. لديه بعض الخطط، ربما، للصيف.»

«الصيف؟»

ألقى بوتي كذبته بسرور: «لديه بعض الخطط لأجلي، سيساعدني لأنضمّ إلى جامعة يو ماس، ربما، للخريف.»

«بمؤهلاتك الدراسية، لا أظن أن هذا سيكون صعبا.» قالت أمه، فرحة بشكل واضح.

«نعم، لكنه سيساعدني، ربما، لأحصل على بعض النقاط مقابل ما درسته في أوسويغو.»

«حقا؟»

«ولهذا سأكون فقط، متأخرا بفصل واحد، فهمت؟» كاد بوتي أن يتألم لسماع أمه وهي فرحة بهذه الأخبار، عيناها الزرقاوان تنكمشان في وجهها المدوّر، ورأس سنّ مدبّبة ظاهر من بين ابتسامتها. لقد كانت مُدرِّسة في مدرسة، بحق الجحيم، لو توقفت للتفكير بعقلانية بخصوص ما كان يقوله وهلة لعلمت أن ما يقوله مجرّد هراء. ليست هنالك أيّ طريقة سحرية لتحويل فشل أوسويغو إلى نقاط في يو ماس – من المستحيل فعل هذا دون الانخراط في المدرسة الصيفية، وهو احتمال لم ينطق به. «لا تقلقي الآن» استمر، «سأخبرك بما سينجح، إن نجح أي شيء. أعني، سأتصل بك دوما، ليس وكأنني قد هاجرت إلى أفريقيا أو أي شيئًا كذلك!»

«لا عزيزي، أنا أعلم.» قالت بأنها تظن أن امتلاكه خطّة هو أمرٌ جيد ومن الرائع أنه سيرى دونالد، لقد كان صديقا جيدا على مر السنين، وأنها قد اشتاقت إليه لكنها تعلم أنه لن يستغرق وقتا. لم يذكر نيويورك، ولم يذكر مشروعه للتعلم الذاتي، ولم يذكر كلمة «للأبد.» ترك ملابسه في الخزانة معلقة على الصوان، وترك معظم كتبه، بما فيها كتاب ديفِد فوستر والاس، الذي لم

ينهه ولم يعده إلى المكتبة، وكتاب جاذبية قوس قزح، الذي بعد إطلالة خفيفة عليه أيقن أنه لن يقرأه قريبا، لكن ليس إمرسون[11]، أو الحرب والسلام، وحتى نصف أنبوب معجون الأسنان، عمدا، لأنها كانت سهلة الاستبدال وكان ليتخيلها، في الحمام الذي تشاركاه، تتأمل كل ليلة هذه الأشياء في الكأس على حافة الغسالة، تكهن ضئيل يشير إلى عودته المعلقة.

ثلاثة أسابيع لاحقا، لم يكن بوتي أقرب إلى نيويورك إلا قليلًا، وكان أفقر بشكل ملحوظ. معظم المال الذي جناه من جرف الثلوج قد خسره جزء منه في حانة خافتة الضوء على حافة حرم يو ماس تدعى ذا هانغار. وجد نفسه أكثر من مرة يدفع جولات لدونالد وأصدقائه، بدا أمرا عادلا لأنه لم يكن يقوم بمساهمات أخرى لغرفته والمجلس. كان الموسم الدراسي قد انتهى تقريبا وشعر دونالد وأصحابه بحاجة متفهمة للاحتفال بنجاحاتهم.

انضمّ بوتي بكل أريحية إلى سكون منزل دونالد ورتابته. سكن الشباب الأربع – الخمس إذا عددنا بوتي – في قذارة منزل خشبيّ قرب وسط بلدة أمهيرست، على أرض حجريّة خلف مبنى آخر بعيد عن قارعة الطريق. يعبق المنزل المؤثّث عشوائيًّا برائحة الملابس المتسخة وأكياس القمامة المفتوحة. نام بوتي في غرفة المعيشة على أريكة مخططة بنية، محبّبة ومحترقة بالسجائر، مخفية عن العالم بغطاء سرير وَضِيع معلّق على النوافذ. لا أحد من الشباب اعتبر المعدّات المنزلية ملكه، أما المطبخ والحمام فقد كانا وسخين دوما، الأول بالأطباق وبقايا الطعام، والأخير بالصابون المبلل، شعيرات الحلاقة ورشّات البول. كان برّاد المطبخ حين يفتح يكشف عن رائحة نتنة سبّبتها الخضروات المتعفنة والتي ضاعت بعد قدوم بوتي بوقت قصير. أزال بحذر الخس الراشح، نصف حبة طماطم والخيار الملتوي، وبقيامه بهذا شعر بأنه بطل كفاية: لم يزل مع ذلك صندوق الثلاجة ويفرغه في الحوض، كما كانت أمه لتفعل، لم تكن خضاره على كل حال وهكذا كان يحشر أنفه فقط حين يريد أخذ

---

11) رالف والدو إمرسون Ralph Waldo Emerson كتاب وشاعر وفيلسوف أمريكي ومن أبرز دعاة الفردانية.

قنينة الحليب (كانوا يقتنونه بالغالون، كامل الدسم) أو علبة الزبدة. مثل دونالد، كان يتغذى غالبًا على حبوب الفطور (فروستيد فلايكس أو جولدن غراهامز)، والخبز المحمص بزبدة الفول السوداني، والمعكرونة بالجبن المعلبة بسائلها البرتقالي الكيميائي. كان، مثل مُضيفيه، يسهر إلى وقت متأخر، أحيانا حتى الغسق، وينام حتى المساء، بالكاد مدركا نظام الحياة في البلدة خارج تلك الجدران. لكن الحياة الطلابية لم تجعله كئيبا كما جعلته حياة المسكن الطلابي في أوسويغو: لم يكن دونالد وأصدقاؤه الثلاثة متظاهرين أغبياء، كانوا طلابًا جادين، وكانت ساعاتهم في الهانغار مكافأة على الأشهر التي أمضوها في العمل الجاد، والذين انحنوا على أكوابهم البلاستيكية الملأى بالبيرة الرخيصة لمناقشة غاليليو وهوبز، المجاز والعَروض.

كان دونالد الصغير والنحيل ذو الرأس الكبير بذراعين طويلتين منتفختين مثل بابّاي، ووجه يحمل لحية خفيفة يكاد يكون جميلًا، كان قد أطلق شعره البنيّ البارد ونمى إلى حدود كتفيه وارتدى، يوميًّا، نفس السروال الرياضي من أديداس ونفس الحذاء المقشر ولم يغير إلا قمصانه التي بدا أنه يملك منها مؤونة لا متناهية. عندما كان يتحدث عن الإصلاحات أو الفوريارية[12] تبدو في عينيه تحديقة كان بوتي يعرفها من زميليه السابقين في الغرفة، لوك وجيرك، إلا أنهما حدّقا فقط في الشراب والفتيات. جوي، تيد وروبرت، المعروف بجامب والذي كان، كبوتي، على انتفاخ شاحب، كانوا يدرسون الأدب والفلسفة، مراسهم صعب جميعًا، ووجوههم ملأى بالبثور، وكانوا لبوتي، على الأقل في البداية، مصدر بهجة.

في الأسبوعين الأولين، عندما انحنوا جميعا بإصرار على دفاترهم يكتبون بحوث الموسم الطويلة، فكر بوتي، رغما عن نفسه، بأن هذا المكان قد يكون مناسبا له، أنه قد تسرع في قرار إصراره على أن يكون طالبا حُرًّا. ربما وجب عليه التمحيص في التسجيل، وأن يجد غرفة كهذه، وينكب على

12) نسبة لـ Charles Fourier (1772-1837)

الدفاتر للأعوام الأربع المقبلة. أمضى مساءاته في هسيس مكتبة الجامعة، يتجول بين الأكوام ويأخذ ملاحظات من المصنفات التي هجرها، في نهاية اليوم، لشخص آخر ليعيد ترتيبها على الرفوف. كان الأمر فاخرا، في منتهى السعادة. لكن الآن وقد انتهت الدراسة، يستطيع أن يقول إن اهتمام أصحابه قد انحصر، أن ثقافتهم انزلقت نحو السبات، أن أعمالهم الوظيفية الصيفية التي ستبدأ قريبا قد شغلتهم: دونالد كان سيعمل في مشروع فني محلي، يكتب الأخبار الصحفية ومِنَح جمع المال، جوي، المُخلص للأرض، انخرط في تسيير مزرعة بالقرب من هادلي، يجني الفواكه ويهتمّ بجنبات الطريق، تيد وجامب سينضمان لتدريب في وورسيستر وبوسطن. المساء الماضي خاض الجميع حوارا مزعجا نبشوا فيه معدّلاتهم، اعترف خلاله جامب بأنه قد ذهب لزيارة أستاذ الفلسفة الغربية ليطلب منه رفع نتائجه إلى «ممتاز» حتى يقدر على المحافظة على معدله العام، هذا الموقف ذكّر بوتي بنفاق كل المؤسسات التعليمية، بالرغم من أن جامب اعترف بأن الأستاذ قد أنصت لتوسلاته بكل اللاتعاطف.

على الفطور، أوعية ملأى بحبوب غولدن غراهام تؤكل وقت الغداء على نفس الأريكة التي ينام عليها بوتي، كيس النوم منكمش عند قدميه، سأل دون بوتي عن خططه: «أنت تعلم، إذا كنت تريد التسكع هنا خلال الصيف فلا مانع لدي، أعني، أكثر من هذا. ومع جوي كذلك، يجدك رائعا يا صاح، أهلًا للحوار وحده، لقد أخبرني بهذا اليوم الماضي. بإمكانك الحصول على غرفة جامب، إن أردت، لأن زاك، أتذكره؟ ذا اللحية في الحانة، سيحصل على غرفة تيد بدءً من عيد العمّال، باعتبار أن تيد سيعود. لكن الأمر وما عليه يا رجل، المسألة مسألة لوجيستك، اقتصاد، أفهمت؟»

لم يقل بوتي شيئًا، ركّز على ملعقته النحيلة المنحنية في وعائه المتقشّر من الأطراف وواسع الفم، وعلى إنهاء الفتات الطافي من الحبوب ألتي بقيت في بركة الحليب.

«الأمر وما عليه، صديقي، الكراء؟ أستطيع مساعدتك في الحصول على شيء إن كنت مهتمًّا، ربما في حانة مانكي، أعرف المسيّر هناك، أو في المحلّ التجاري، ذا بيغ واي على الطريق التاسعة، أو في ستوب أند شوب، حتى ربما، لكنها ثلاث وخمسون دولارا للشهر من أجل غرفة جامب ولا يمكننا الاستمرار من دونها، أفهمت؟»

حرّك بوتي رأسه، واضعا وعاءه بحذر فوق كومة كتب على الأرض، ولاعَب جوْرَبَيه.

«الأمر أنه، عليّ أن أعرف قريبا، لأن هنالك هاته الفتاة، ويندي، لا أعلم إن كنت تعرفها، لكنها ستأخذ الغرفة إذا كنت لا تريدها، وقد أخبرتها أن الأمر عائد إليك، لكنها بحاجة لأن تعرف، أفهمت؟ ستنتقل هذا الأسبوع من المكان الذي هي فيه الآن. لهذا...»

«فهمتك.» نظر بوتي إليه، وأومض بعينيه من خلال نظارته المتّسخة إلى صديقيه. لاحظ بقايا الحبوب على حافة شفة دون الممتلئة الأنثوية، وخصلات شعره المتسخة على ذقنه. «فهمت ما تعنيه.»

«ليس عليك أن تقرّر الآن، يا رجل.» كان دون متعاطفا، غريبا بوضوح، لكن بوتي لم يرغب في جعل الأمر سهلا. «ربما يمكنك إخباري الليلة؟»

«طبعا يا رجل، الليلة.»

ومكث على الأريكة، في بيجامته البنية، بينما ترنح دون في طريقه إلى الحمام من أجل الاستحمام. راقب الشمس وهي تتسلّل بين ستائر غلاف السرير، راقب الفوضى التي تحوط الغرفة، أحشاء حقيبته ملقاة بمحاذاة الحائط خلف الباب إلى المطبخ، وإلى جانبه، كومة المعدّات والأسلاك التي هي حاسوبه، تنتظر قبالة الجدار. سمع جريان المياه، سمع خطوات جامب – أم كان جوي؟ – المدويّة وارتعاشة عصفور مميزة عند النافذة. اكتشف أنه قد غيّر خططه، منذ قدومه، لم يهرب من واترتاون بل هرب من نفسه. خلال

أشهره في واترتاون، تعوّد على ساعات الوحدة الطويلة، على الأيام الساكنة التي لا يعكرها إلا صوت السخّان، تساقط الثلج الخفيف على الأرض وتذمّر والدته اللطيفة من حين لآخر. هنا، في هذا المنزل، سمح لنفسه بالتظاهر بأن حياة دون هي حياته، اقتبسها وكأنها قطعة ملابس، وبدل أن يخطط كما توقع أن يفعل، لخطوته المقبلة. لأسابيع، تصرّف - كان سهلا، ومريحا - كشخص تمرّد على كذب العمل الدراسي وبطاقة الطالب. أراد بدلا من ذلك أن يعيش كفيلسوف، كيفما وصف إمرسون أفلاطون، وحيدًا وخفيًّا، معروفا للعالم عن طريق أعماله فحسب، عن طريق أفكاره المُحتفاة. عليه أن يغادر نحو نيويرك، لأجل هذا: أستاذه ومعلّمه الذي لا يمكن تبديله، إلى مورّاي ثوايت.

ماذا كتب إمرسون؟ مدّ يده إلى الكتاب الضخم فوق الكومة على الأرض، يأخذ من بقايا الحبوب وسط العملية، وراقب بملل غديرا من الحليب يسري على السجاد الأزرق. سحقه على الكومة بقدمه العارية، مسح قدمه بيده، مسح يده على الأريكة بجانبه. تصفح صفحات الكتاب، وجد ما كان يبحث عنه، الصفحات المعلّمة بالحبر المشع: «العباقرة العظماء يملكون أقصر السّيَر. لا يعلم أقاربهم شيئًا عنهم. عاشوا في كتاباتهم، وعليه باتت منازلهم وحيواتهم في الخارج غير ذات معنى، ومكانا عاما.»

الآن، ومع انقضاء عيد العمّال، جلس بوتي على عتبات الدرج المؤدي للكنيسة الكاثوليكية وسط البلدة. بعد أن مشى على طول المدينة ذهابا وإيابا، بعد أن اقتنى لنفسه سندويش سلطة تونة - إسراف مبالغ فيه بخمسة دولارات من ظرفه البني - استقرّ ليأكل، ثم ليفكر. راقب الحشود تكمل طريقها حوله، أغلبيتهم من النساء، أغلبيتهن من الناطقات بالإسبانية، البعض من الفلبّين، البعض يرافقهن أطفال صغار، لا أحد منهن، خمّن في طريقه للمسيرة (أمن الممكن أن تكون هنالك مسيرة في الساعة الرابعة والنصف مساء، أو الخامسة؟) بل بالأحرى، هن مثله، يبحثن عن مكان للتأمّل والإجابات لمعضلاتهن الشائكة. كان الجوّ دافئا تحت الشمس، رفع كُمّي

قميصه ليستقبل الدفء على ذراعيه الشاحبتين. حاول أن يفكر، وحاول بعدها ألا يفكر، أن يراقب المارين فحسب، اليافعين وهم سعداء بانقضاء الموسم الدراسي، بطونهم وسيقانهم مكشوفة ومشيتهم يعتريها كسل حديث. والكبار، ما زالوا مسرعين، يهرولون بحزم بينهم. لكنه استمرّ في العودة إلى مقولة إمرسون، وبشكل متكرّر كأنها علامة: «لا يعلم أقاربهم شيئًا عنهم.»

قريبته، فعلا، لم تكن لتعرف أين هو أو ماذا يفعل أو ماذا فعل. كانت مارينا ثوايت ابنة خاله الوحيدة، أو الوحيدة التي يعرف من بين أقربائه – لم يكن أحد يعرف ما إذا أنجب العم بيتر، أخو والده، في لوس آنجلس أيّ أطفال – كانت مارينا في عمر سمح لها بتدليله عندما كان طفلا بكل الحماس القصير لمراهِقة صغيرة، ثم بعد ذلك بعبوس متكلّف لم تُعره وأخته اهتمامًا خلال زيارات أسرة ثوايت النادرة لواترتاون. بعد مدة قصرة طبعا، غادرت للجامعة ولم تعد لواترتاون أبدا. لم يزر الأسرة في نيويورك إلا مرة واحدة، رفقة والديه وأخته، منذ سنوات. تذكر الشقة، كبيرة كمنزل، مفروشة بترف، وبرّية المتنزّه خارج أبوابها، تاق إلى الضياع فيها لكنه تراجع قلقا تحت وطأة حاجبَي والدته المعقوفين وتحذيراتها خلال النهار، حول الجثث المهشمة في الأجمة أو الممدّدة تحت الجدران المصبوغة، منسيّة كقمامة.

لم ير خاله أبدًا منذ جنازة والده، عندما قدم ثلاثتهم، موراي وأنابيل ومارينا، من المدينة في يوم كئيب من أيام تشرين الثاني، ووقفوا ملفعين في معاطفهم الباهظة تحت المطر الخفيف بمحاذاة قبر والده، أيديهم متشابكة، بشكل ظنه مثيرا للإعجاب، أمامهم. بعدها، في المنزل، اهتم العم موراي به كثيرا، اتكأ بمحاذاة المدفأة في غرفة المعيشة بذراع على الرف حاملًا الويسكي، واستجوب بوتي – كان يناديه فْرِد – حول خططه، بعد الثانوية، وعما إذا كان قد فكر في الصحافة. بوتي، مستعيدا الأحداث، يرى نفسه حديث الطول و – تقريبًا – يكاد يكون نحيلاً، خدّاه متوهجان خجلًا وبسبب نار الموقد، معطف التويد يلتصق برهبة بذراعيه المتشابكتين، فخورًا وخجلًا في الآن ذاته،

وفوق كل شيء مدركًا أن هذا الرجل، الذي يكاد يعرفه، كان مشهورا ومحبوبا، معروفا حتى قبل أن يكون قريبًا له. أخجلته مارينا كذلك خلال تلك الزيارة، تكاد تكون في طوله ونحله، عيناها اللامعتان ملأى بالتعاطف عندما عانقته وهمست في أذنه عبارات المواساة. تذكّر الرائحة الليمونية لعنقها، وهشاشة صدرها، والصغر المفاجئ لثدييها، بالكاد شعر بهما مضغوطين إلى صدره. كان في الخامسة عشرة، وكان قد توقّع استدارتهما لكن خاب أمله. حتى أنابيل، في لطافتها، حيّرته، لأنه لم يشعر بأن بمقدوره تصديق الأمر، كيف ربّتت على ظهره وقبّلت خدّ سارة المترع دمعًا، غير مكترثة على ما يبدو من تبليل شفتيها المصبوغتين، وبينما هي واقفة، في أناقتها، كعتاب لشعر أمه الرمادي المنكوش، وبذلتها التي كانت كبذلته قد اقتنيت لشخص أصغر وتكمشت بشكل واضح أعلى الذراعين. أكثر ما علق في ذهنه، لمعان خاتمها الألماسي والأناقة الرخيمة في صوتها العالي.

ومع ذلك، فكر وهو يراقب ثنائيًا، حتمًا من الطّلبة، توقّفا لتقبيل بعضهما على ممشى الكنيسة كما لو أنهما يتمرّدان على الدين أو القيود. أيقن – أيقن طيلة حياته – أن أسرة عمه كانت أمله الوحيد، تذكرته للخروج. كان عمه رجلا اختار طريق العقل، اختار النزاهة بدل المجد، حتى وإن كانت قد جلبت له الشهرة بدل الغموض الذي أيده إمرسون (على كل حال، مهما كان ما قاله على أفلاطون، لقد كان إمرسون نفسه بعيدا كل البعد عن الغموض) وفكر بوتي، على عتبات الكنيسة، في كيفية تقديم نفسه لموراي ثوايت كمُريد، كتابع مستقلّ. كانت هذه الجملة من إمرسون علامة حتمًا، تُوجّهه إلى أقربائه، الذين لم يكن يعرفهم بعد.

أمر واحد كان واثقا منه على الأقل: لم يغادر واترتاون من أجل بيغ يو على الطريق التاسعة، الذي لم يكن مختلفا عن الإمكانيات المتاحة – محطة وقوف آنيّ مثلا، على الطريق العام – التي كان قد مازح أمه بشأنها في المنزل. علم أن دون كان يحاول المساعدة، لكن أسلوبه مع ذلك كان مهينا،

وكأنه يشير إلى أن بوتي قد تجاوز مرحلة الضيافة، كان يستغل أصحابه، كان موضوع حوارات مكتومة بين الزملاء في الأعلى بعد أن ينام. ما الذي ظنه دون في بوتي؟ عامل نظافة بمطعم أم بوّابًا في طور التعلّم؟ لم يفهمه صديقه أبدا، لم يكن صديقا حقيقيا. ليدع ويندي، مهمن كانت، تتصارع مع الوحل في أدراج الثلاجة، دع ويندي تحاول الاهتمام بشطافة مياه الحمام المعابة التي تستلزم تغميسا يدويا في الصهريج القاتم لسحب السلسلة المنفصلة العالقة ككنز قراصنة في قعر بئر. وهو قادرٌ على استحمال ذلك، شعر بوتي أنه لن يستطيع ذلك إلا بمعرفة أن للتضحية هدفا: خير دفين يمكنه تجاوز الإهانات. وضّح دون، وجامب كذلك في إثارته لموضوع رفع درجات الدراسة، بأنه هنا، لا يوجد سوى الوهم بالسّمو. مثل أونا في ملكة الجن، التي لم تكن تعرف إلا الشر حتى في مظاهر الخير، بوتي كذلك، كان بحاجة لتمييز الطريق نحو الحكمة. قرر أن يكون كحاج في الأيام الخوالي، حاجٌّ يبحث عن المعرفة.

عندما وقف ومدّد قدميه وذراعيه كليا إلى السماء، شعر بمعدته تغرغر. سيشتري علبة معكرونة وجبنًا خاصًا به من محل سي في إس في طريقه إلى المنزل. سيتصل بخاله وقت العشاء. سيشكر دون على المجهود لكنه سينتقل. وإذا ما انتهى به الأمر في ذا هانغار، لن يشتري لأحد شرابا ما عدا شرابه، ليس لأنه ناكر للجميل بل، لأنه في نيويورك، سيحتاج إلى كلّ قِرش يملكه.

الفصل الرابع عشر

كل شيء من أجل الحب

«جوليوس كلارك، يا لك من فتاة! الآنسة جوليا كلارك، ننادي الآنسة جوليا كلارك!» كان ديفِد يمازحه، وعانى جوليوس في التظاهر بأنه يستمتع بالأمر. كانا عالقين في زحام مساء الأحد، في سيارتهما ماركة نيون المغلقة المكيّفة – حمراء فاقعة من الخارج ولونها بيج من الداخل، مكتراة طبعا – في طريق عودتهما من لونغ آيلاند. لقد كانت نهاية أسبوع مرهقة لجوليوس، بين أصحاب ديفِد، ليس لأنه غير معتاد على الأغنياء – يعلم الله أنه قد رافقهم مدة كافية، منذ أيامه الأولى في جامعة براون – بل لأنه لم يعتد على التضحية بكل السّحر والتشويق لإله المال مامون! حفنة الكسالى الصاخبين الذين عمّروا المنزل المكترى متوسّط الفخامة الواقع قرب الشاطئ، بدَت كإعلان مُعادٍ للمثليّين: ربما رجال أكثر ضخامة وبتسريحات شعر أفضل من نظرائهم المستقيمين، حتمًا أكثر عُريًا منهم، على استعداد أكبر لمنح صفوف الكوكايين مع الكوكتيل، وعليه، أكثر سخاء جسدا وروحا، لكنهم كانوا رجال أعمال، يتحدثون بسرعة، ودوما حول الناسداك وأسعار الفائدة، حول سياسات غامضة وداخلية في شركاتهم المنظمة. لا أحد من ضيوفه تعرف على جوليوس، دليل واضح لأنه لم يرغب في تواجد قُرّاء لصحيفة فيلاج فويس

بينهم: كان هنالك مجنّدون لجريدة وولستريت ربما قد يلقون نظرة خاطفة ومتحدية على جريدة آوت خلال نهايات الأسبوع.

بطريقة ما، لم يتوقع أنه سيكون الصديق الجانبي لديفِد، بالرغم من أن هذا كان «اللقاء» الأهم بمعظم دائرة معارف ديفِد. تصوّر أن اسمه سيكون له شيء من الوزن، لكن عبثًا. تصوّر أن شخصيته ستثير زوبعة اهتمام. لكنه كان بدل ذلك زوجة، يُبتسَم له ويُتجاهل، إلا إذا كان السؤال حول الجماليات أو أيّ حانة وسط المدينة كانت الأفضل أو أين يمكن العثور على أفضل بذلة سباحة. سُئل عن مصدر قصّة شعره، أيّ صالة رياضة يرتادها، وإن كان يحصل على تدليك منتظم – وكأن التزيين كان مهنته، وكأنه كان مومسًا باريسيّة من القرن الثامن عشر. ولهذا، عندما بذل إيان، سمسار البورصة الشاحب واليافع، مجهودا اجتماعيا بدا كأن جوليوس في انتظاره، وهما واقفان جنبا إلى جنب في المطبخ يقطعان البصل والفلفل من أجل العجة، قال: «إذًا، أخبرَني ديفِد أنك تكتب المراجعات. ما الذي تراجع؟» بالكاد كاد جوليوس يكبح احتقانه مُجيبًا: «أنا طباخ في الحقيقة، والآن إن لم تكن تمانع، سأتسلّم لوح التقطيع من هنا.»

تراجع إيان، المتحيّر قليلا، غير مدرك لأيّ شيء، وفي النهاية، جعل هذا الفطور المتأخر، الذي أعدّه جوليوس وحده تقريبًا، ظهوره في حدّ ذاته ناجحا على ساحة ديفِد.

لكنه وفي الطريق إلى المنزل، لم يستطع جوليوس كتمان ضيق صدره بالرغم من أنه كان يعلم أهميّة نهاية هذا الأسبوع ونجاحه فيه: لم يتجرّأ على مفاتحته في موضوع مباشر كالتذمر بشأن إيان المزعج، أو بوب المملّ، أو توماس المنظّم، أو باري المهرّج، مضيفهم السّمين والفصيح، الذي كان المثليّ الصّريح الوحيد في طابق ديفِد في الشركة، وأكبر من جوليوس بعام أو عامين، لكنه بدل ذلك ألقى بلومه على الثناء الباهت، التعليقات الساخرة السريّة حول السيارات والملابس، جودة الطعام (باستثناء ما أعدّه هو) وخشونة

الأغطية. هذا التعليق الأخير - «وجدتهم شائكين صراحة، ألم تفعل؟ لو كنت باري، كنت لأقول شيئًا لصاحب المنزل، أعني، مقابل المال الذي يدفعه...» - هو الذي دفع ديفِد للانفجار ضحكًا وصفَعَ المقود ناعتًا جوليوس بالفتاة.

فكّر جوليوس في العبوس عند سماع هذا، لكنه بدل ذلك دوّر عينيه، ربت على ساعد رفيقه ومدّ صوته في لهجة جنوبية: «الآنسة جوليا كلارك، عزيزي، في خدمتك» قبل أن يسمح لأصابعه الرشيقة بالانتقال إلى حضن ديفِد الكاكي.

«انتبه - للشاحنات أعين» راوغ ديفِد قليلا والسرور باد على محيّاه، مُشيرًا برأسه إلى سائق شاحنة الفواكه الفضولي المحطمة بالمقربة منهم.

لم يكن جوليوس ليعترف بأنه يعمل جاهدا لإنجاح هذه العلاقة مع ديفِد - ولو أن دانييل ومارينا كانتا لتصفا الأمر هكذا - لكنه كان سيعترف بأنه حذِر. على علم بميله لطلب الكثير سريعا - ألم يكن هذا سبب سقوطه أكثر من مرة؟ - وعلى علم كذلك بميله لإطالة التفكير، للاستسلام بوضوح لشياطينه الداخلية وأن يشحن كل محادثة، كل نزهة، كل علاقة جنسية، باهتمام أكبر مما يجب - على علم بكل هذه العيوب، إن كانت عيوبا، كان يسعى بكل وعي في هذه اللحظة لأن يكون ناتاشا بدل أن يكون بيير، أن يبقى نشطًا، مرافقًا خفيف الظلّ يخفي حيويّة زئبقية، يطمح لأن يستطيع ديفِد ملاحظة مقوّمات شريك مُخلص متى ما كان مستعدًّا. كان من الحاسم ألّا يبدو مهتمًّا كثيرًا، وأن يبدو مستعدًّا للاهتمام، حاسمًا أن يعطي بدل أن يأخذ، وحاسمًا أن يبدو ماتعًا ومستمتعًا في وجه التنوّع.

أمِلَ جوليوس أن الأمر يسير بخير. لقد شارك حتى الآن مرّات عدّة منازل أشخاص آخرين، ولو أنه مجددا، ما كان ليصفها بأنها كذلك، فلم يشعر بأن هذا هو ما كان عليه الأمر بينهما. لكنه مع ديفِد، للمرة الأولى، رغبة الاستقرار لم تبد مجرّد خيال. كان ديفِد رجلا عاديا من جميع النواحي - أنيقًا، معروفًا، وسيمًا، ناجحًا - ومع ذلك، جدّ مثير - بانحراف. بدا كأنه

يريد جوليوس بيقين مباشر ومدهش. أرادهما أن يسافرا معًا، أن يتناولا طعام العشاء معا، أن يذهبا للتسوّق معًا. سحر جوليوس بأن أمطره بالهدايا الصغيرة، أقمصة، أقراص موسيقا، آلة تدليك كهربائية، كلها اختيارات خاطئة رغم لُطفها... (أطواق الأقمصة واسعة، أقراص الموسيقى مبتذلة، وآلة التدليك مقتناة من قائمة ذ شاربر إيمج) لكنها ساحرة للسبب نفسه، ديفِد الجذاب في يقينه، الناضج في إقناعاته، تجاوب كما كان جوليوس يحلم – حَلُم – باقتراحات جوليوس، لمقترحاته بتفويت العمل والبقاء في السرير، أو عرضه لأخذ ديفِد لأحد الافتتاحات الفنية العامية في إيست فيلاج حيث لا وجود لقرّاء جريدة وولستريت. كان ديفِد مثل رفيقٍ خياليّ تحوّل إلى حقيقة: لطيفًا من كل النواحي، وشقيًّا أيضًا.

فجأة، لم تسبّب قدرة الإغراء عند جوليوس الرغبة فقط، بل أيقظت حياة كاملة، الوعد بإمكانية تقبّله، الاهتمام به، حُبّه كلية وكما ينبغي. ديفِد يمثل كل شيء كان يعلم أنه يريده، بمزاج فاتن. كان يحبّ أن يشرب، يحبّ بكل سخف حماس تعاطي الكوكايين، طريقة عمله وهالته غير الشرعية. جوليوس الأقل انجذابا للمخدرات، كان مهتمّا بدل ذلك باهتمام ديفِد. وتحمس ديفِد لمسألة كونه «يحتفظ» بجوليوس، أن جوليوس كان «الغايشا» خاصته – كانت عبارة يستخدمها ديفِد، مهينة بشكل كبير لجوليوس، فهي أوروآسيوية على كل حال، في استشراقها العشوائي، لكنه تركها تمرّ بدون تعليق – إخضاع جذّاب لديفِد خصوصا، أنه قد أدرك قيمة جوليوس في عالم أوسع، أو في عالم آخر على الأقل. بدا وجود الصديق الحميم الخامل في المنزل عند البعض أمرًا محترمًا وحتى معروفًا: وكأن ديفِد قد اقتنى لوحة فنية من أجل متعته الخاصة كانت في السابق ضمن مجموعة دار عرض معروفة. قال هذا كثيرا لجوليوس، من دون أن يولي أدنى اهتمام لأصدقاء جوليوس الفنانين المزعومين، كان التشبيه واضحا في معناه في كون جوليوس الزوجة الغنيمة، اختار أن يتقبل هذا المنصب، أو على الأقل في معظم الأحيان، كثناء.

وكوسيلة لتحقيق غاية – بإصرار – غايته الخاصة. في شبكة معقدة لا يمكن لجوليوس رغم فصاحته وصفها، كان الإثنان مرتبطين لفوائدهم الدنيوية المشتركة. يملك ديفِد مناشف فخمة وأواني فضية ثقيلة ومنزلًا كبيرًا (هل كانت مساحته 1400؟)، لكن جوليوس كان يخطّط لما هو أكبر من وسائل الراحة التامة هذه. لم يكن ليعترف بالأمر في المراحل الأولى بما رآه كعلاقة مطوّلة (ألم يكن هذا بالضبط بيير الذي يسكنه؟ الصّلب، المكتئب، المقترن بشريك واحد؟) ما الذي كان ينتظره من عشيقه؟

خلال استيقاظه من حالة الغايشا التي كان يناورها في السيارة، سمع جوليوس ديفِد وهو يقترح بكل سرور وبلا تفكير أن يؤجر شقّته بما أنه لا يعيش هناك في كل حال وأن ينتقل صراحة إلى شقة ديفِد – تتوفّر على كل حال خزانة فارغة بالكامل في غرفة النوم الثانية – لم يقدر على إخفاء بهجته إلا بشق الأنفس كما أخفى احتقانه سابقا.

«أتظن أنها فكرة سديدة؟» سأل رامقا ديفِد من طرف عينيه، الأنف المعقوف قليلا، العينين المفعمتين بالعاطفة.

«ألا تظن ذلك؟» استدار ديفِد فجأة، لاحظ جوليوس، أو ظنّ أنه لاحظ انفعال ديفِد، خائفًا من أن يكون قد تجاوز الحدود. ولو أنه من الممكن أن تكون هذه مجرّد انعكاسات جوليوس نفسه.

«راقب الطريق عزيزي، أريد أن أتأكد فحسب.»

«التأكد من ماذا؟» بدا ديفِد منزعجًا قليلا. «أنت تعيش هناك في جميع الأحوال.»

«أن أتأكد من أن ذلك هو ما ترغب فيه، أننا لا نستعجل.»

أجاب ديفِد وعيناه على الزحام: «ما الضير في قليل من العجلة؟»

وهكذا، بعد أيام قليلة، وجد جوليوس نفسه في الشقّة، يحزم ما رآه الأكثر أهمية له: ملابسه، مجموعة من كتبه – هل كان فعلا بحاجة إلى نسخة من رواية البحث عن الزمن المفقود بالفرنسية؟، تاه، وقرر بدل ذلك

أن يأخذ أفضل بطاقات المراسلة من مجموعته الملصقة منذ القدم على جداره بشريط لاصق والآن تُزال بحذر. ترك خلفه لا رواية بروست فقط بل كذلك مجلّد موسيل ذا الجزئين المسروق من قسم الكتب في مكتبة مجلة ذا فويس منذ سنوات، وترك مخطوطة روايته التي تخلّى عنها منذ وقت طويل، كان قد بدأها في الوقت الذي وقّعت خلاله مارينا عقد كتابها. أخذ بعض الصور من الملصقات على البرّاد: صور عائلته، والباقي خبأه في صندوق أحذية ووضعه في الخلف، فوق البرّاد. حزم غطاءه المفضل – من الصوف وله لون أخضر جلبه من ميشيغان، واحتفظ به منذ أيام الجامعة – لكنه تردّد في ذلك، فالغطاء قديم ومقتنى من متجر سيرس وليس قطعة سيصفق ديفِد لوجودها.

عندما انتهى، بدت الشقة كما هي عليه، رخيصة، أشبه بمسكن طلابي، بجدران بيضاء غير متساوية الطلاء وأرض منخورة، أريكتها مغلفة بنقشة هندية باهتة فوق البلاط. بدت الستائر الحمراء التي علقها لإخفاء الحمّام الذي كان دون باب، والخزانة، رهيبتين ومروعتين في ضوء المساء الأول، إضاءة مائلة ومخترقة كشفت طبقة غبار رقيقة على منضدة المطبخ وعش عنكبوت أسود تدلى من السقف الخشن. لم يدعُ ديفِد قط إلى الشقة، ولم يظهر ديفِد أي ميل لذلك.

لم يكن لجوليوس مؤجّر ثان، في هذا الوقت، ولو أنه كان قد أذاع الخبر. يجب أن يكون صديقا، أو صديق صديق، شخصًا مستعدًّا للكذب على المالك، ليحرص على عدم تغيير رسالة آلة تسجيل الرسائل الصوتية، ليستقبل البريد في مكان آخر. وجب العثور على مستأجر بتلك المواصفات. خلال ذلك، عالقا في بهجته – «لا تُظهر الأمر، لا تُظهر الأمر» – ركّز جوليوس على تحقق أحد أحلامه: الانتقال للعيش مع صديقه. كرّر لنفسه القول: «سأنتقل للعيش مع صديقي. صديقي. صديقي. لي.»

لكن الأمر أكثر تعقيدا ممّا بدا. شقة جوليوس تقبع مضمنة في الجهة الشرقية السفلى، بعيدا عن الموضة، في ممرّ ضيّق يُدعى شارع بِت،

تمتد على الجانب الآخر منه مشاريع سكنية، وعمارات بأحجار ضخمة مرتبة حول أراضٍ إسفلتية، وخلفه أيضًا سور شائك مُحاط بأبنية شقق متداعية كتلك التي أسكنته، لم تقع عليها عين مستثمر ولا سيّارة تاكسي سارت على طرقاتها المحفّرة. كان على جوليوس تنظيم صناديقه وحقائبه – العديد منها، تراكمات منتصف العمر – داخل مدخل المبنى، وأن يدفع لزوجة الحارس (امرأة ضخمة وبطيئة في ثوب متّسخ ولها بشرة زيتية لامعة وعينين ساهمتين) لتحرسها، وبعدها أن يسير طول مربّعات سكنيّة عدّة ليجد تاكسي ويوجّهها مجددًا إلى مسكنه حتى يحمّل متاعه (فتح السائق، روسي ذو شعر كثيف، الصندوق بدون أن يتحرك من مقعده وأخذ يمضغ بغطرسة من ساندويشه بينما جوليوس، النحيل المتعرّق يُخرج أغراضه، فيما جلست زوجة الحارس على كرسي خارج المبنى وراحت تحثّه من حين لآخر بعبارة «انتبه، الآن،» منكبّة على تهوية خدودها الممتلئة بمجلة قديمة) ثم يسوق به إلى أعلى المدينة، وسط المدينة، إلى قمة إيفيريست الاجتماعية، إلى حيّ تشيلسي.

وهو يُفرغ متاعه، حاصرت جوليوس مخاوف غريبة، هل لكتبه أو غطائه رائحة سيئة؟ هل كانا يحملان عفنا أو يعكسان حِرمانًا أو قليلا من الفطريّات بين طياتهما؟ هل كانت ملابسه مبتذلة ولا يلزم إحضارها؟ تذمّر ديفِد مرّات عدّة من ياقاته أو لمعان سراويله، اقترح رحلة إلى متجر بارنيز، الأمر الذي رفضه جوليوس بخجل، رأيان كانا يتنازعاه: أراد أن يبدو ذكيًّا، وكان لديفِد المال، ومع ذلك، مع ذلك – وبالرغم من هذا، حتى يلعب دور شريك ديفِد – وربما هذا هو الدور المعروض: تم اقتراح رحلة للقاء آل كوهين الكبيرين في سكارسدال – خزانة مجرّدة بأكملها كانت ضرورية ربما.

أخذ جوليوس خزانة غرفة النوم الثانية كما طلب منه ديفِد ووجد أنها حملت أغراضه تاركة مساحة كافية. ترك الكتب القليلة التي أحضرها معه خارج الخزانة، مرفقة بالصور. سينتظر حتى يجيء ديفِد ويسأله أين يمكنه وضع هذه الأشياء، إن لم تكن مكشوفة فعلى الأقل في مكان يسهل

الوصول إليه. لم يسمح لنفسه بالتفكير في غرابة الأمر، لزوم سؤاله عن مكان عرض صور عائلته أو موسوعة الأفلام حتى لا يخلق فوضى في الديكور، وعلم بالحدس أن السؤال في هذه الحالة كان لائقًا. كان بمقدوره توقّع تساهل ديفِد، أرخى ربطته وألقى بسترته، تلاعب بشعر جوليوس وقال «أنت لطيف للغاية، لطيف للغاية، جولز! ما كان عليك أن تسأل.»

لكنه لو لم يسأل، وخلق مكانا لفرانك وثو كلارك بين صور زفاف أخت ديفِد وبورتريه أسرة كويهن، المأخوذة عندما كان ديفِد ذو الأربع عشرة عاما لا يزال يرتدي النظارات ومقوّم الأسنان – إذا ما أخذ الحرية في هذا، فلم يكن بمقدور جوليوس توقّع ردّة فعل ديفِد. كان ماهرا في التوقّع، بالعادة جدّ ماهر في التوقع، عرف أن عليه التمنّع.

الفصل الخامس عشر

هل تتناول النابوليون؟

«إذًا هل أنت سعيد بقدومك؟»

«لم أكن لأفوّت الأمر» ابتسم لودفيك سيلي كاشفا عن ناب ماكرة. «فرصة للسيطرة على نيويورك؟» هز كتفيه الضيّقين.

لاعبت دانييل شوكتها وابتسمت للنافذة قربهما، لانعكاس صورتها وما هو أبعد، إلى المُشاة وهم يسيرون على الجانب الآخر من الزجاج، بعيدين جدا، لرجل متشرد، مظفور الرأس رث الملابس يترنح على طول الشارع من المتنزه في المقابل. «إذا كان هذا ما تراه، سميتها ثورة في سيدني. أما زالت تبدو كذلك؟»

«سنرى، لا يجب عليّ كشف اللعبة قبل أن تبدأ.»

«هذه خصلة سريّة فيك.»

«يُنتج الغموضُ الاهتمام.» وضع سيلي أصابعه الأنيقة تحت خده. «كمنتجة، لا بدّ أنك تعرفين ذلك.»

«لقد أُخبرت بهذا حتما.» أدارت دانييل نظرتها إلى الطبق الفارغ أمامها، ظهر انعكاسها عليه مجددا. قررت أنها لن تسمح له بالتلاعب بها، أنها ستُظهر جبهة قوية ومباشرة. لم ترغب بأن يشك في أن لحركاته تحكّم

جسديّ فيها، كأنها من دون إرادتها دمية ماريونيت. «لكنه يبدو لي من القوي والمثير أحيانا، دفع كل شيء إلى الملء منذ البداية. مفاجأة الجميع، أتعلم؟»

عقص سيلي شفتيه. لم يبد أستراليًّا لها، بدا إنجليزيًّا، أو ربما فرنسيًّا.

«وبهذا أعني أنه ربما ستنال مزيدا من النجاح...»

«إن أخبرت الجميع، وبالتحديد أنت، ما أعتقد بالضبط أن مجلة ذا مونيتور ستكون عليه وكيف ستكون مختلفة عن البقية.»

«حسنا، نعم.» توقفت. «على كل حال لودفيك...»

«لودو، رجاء.»

هزت رأسها بشكل غامض. «على كل حال فالاقتصاد ليس كما كان منذ ستة أشهر، وأكثر سوءً مما كان عليه منذ عام، كل العلامات كما يقولون ليست جيدة. أعني، أعرف الكثيرين ممن كانوا يعملون في مواقع إلكترونية وقد فقدوا أعمالهم وما زال الأمر مستمرا – أظن أن ما أحاول قوله ببساطة هو أنه في سوق كهذه، أنت تعلم، يرغب الناس فعلا في شيء ليؤمنوا به، شيء ليتطلعوا لأجله. أستطيع أن أرى أنه ليس الوقت المثالي لإطلاق مادة نشر جديدة، لكنك إن نشرت الخبر، وسوّقت له جيدا، سيكون لك متتبعون جدد متحرّرون من الوهم لتنطلق منهم، أعني، إن كانت الثورة هي ما تقدّم فعلا.»

«ألا تظنين،» تحدث سيلي ببطء، «بأنني لم أفكر في هذا؟»

«طبعا طبعا، لم أقصد أن – الأمر وما فيه أن الطريقة التي تتحدث بها، أو التي لا تتحدث بها، أظن...» دانييل المستشعرة للحرارة وهي تعلو خديها، وضعت يدا عليها لتبريدها وإخفائها. أرادت أن تشعر بالانزعاج، لكنها لم تفعل، لم تقدر.

«ظنّك أنني سأرحب برأيك، كان في محلّه، وأنا فعلًا كذلك، لا تفهميني خطأ رجاءً. لكنني أظن...» قاطع وصول المقبّلات كلام سيلي، بُنِّية متلألئة وناعمة موضوعة بلا جدوى على طبق واسع من الخزف، لها هي لحم ماعز وميلفوي فلفل (نابوليون) ومالا يمكن تعريفه كسلطة إلا بوريقات

الهندباء الثلاث المشبعة بالزيت الناتئة على لبّ الشمندر والبصل المنقوع. عندما تراجع النادل الخفيّ تاركا لا شيء غير بصمة على الطبقين الكبيرين، أكمل ما كان يقول تماما حيث تركه، الأمر الذي تعجبت له دانييل، في سرها طبعا. «...أن دوافعك للحديث إلي، بالفعل، دوافعك لدعوتي للغداء – المبهج، الواجب أن أقول إنني أُجِلُّها كثيرا، وأنا سعيد، لكن مع ذلك، هذه الدوافع، ليست خالصة الإيثار حتمًا!»

«أعتقد ذلك.»

«اعذري إطنابي، رجاء. ما أعنيه، كل ما أعنيه هو أننا ربما سنتحدث بصورة أوضح وأن نفهم بعضنا أفضل إن أخبرتني ما الذي تأملين بأن أفعله لأجلك.»

«ما الذي يجعلك تظن أنني أريد منك شيئًا؟»

جفلت دانييل حتمًا، غير متأكدة إن كان عليها الشعور بالإهانة. ورغم ذلك، أن تكون مباشِرة هو هدفها. الصراحة فوق كل شيء.

«تكرارك يا دانييل عزيزتي لعبارة «ثورة»، وهذا يؤكد لي بأنك تريدين ما يتجاوز مجرد الاستمتاع برفقتي.»

«حسنا، نعم.» جزء منها أراد أن يشرح ولو أنه كان يعرف (ألم يكن صريحًا في جميع الأحوال؟) أن الدردشة العملية ليس إلا قناعا لإخفاء رغبتها، تحديدا، في الاستمتاع برفقته، لكنها لم تكن منحرفة في تمنّعها عن قول الحقيقة لفعل ذلك: بينما في مخيلتها، لقد خاضت حوارات فكرية وشخصية مع هذا الرجل، لم تكن تتخيّل، هي تعلم أن هذا هو حوارهم الحقيقي الأول، واستوعبت كذلك أهميّة رؤيته في وضح النهار خارج الصبغة الوردية لصداقتهما الطويلة والمتخيلة. نظرت مجددًا نحو النافذة، جاهدت لترى عبر نفسها نحو الخارج، حيث استقرّ المتسوّل على الممشى وكان يهز يده الممتدة إلى المارة. «أنت مصيب فعلا. من المهم أن نكون صريحين. سعيدة لأنك سألت. دعني أشرح.»

بينما فكّك كلاهما طبقه الفاخر وتناوله، في حالتها على الأقل، فكرت

دانييل بأنه فاخر لكنّه أقل ابتكارًا وروعة من سُمعة المطعم والأثمنة التي جعلتها ترفع توقعاتها ومن ثم يخيب ظنّها، كونها اختارت المكان بهدف الإبهار– شرحت دانييل إعجابها بالعبارة، وقد سمعتها خطأ ربما في ظلّ صدى معيّن، التلميح لروح الشعب التي قد تُكتشف، بدرجة أكبر أو أقل، في منشورات ومعروضات أخرى، والتي فكّرت كمخرجة في أن تحوّلها إلى حركة.

لامحة حاجبه وهو يعلو والتجاعيد التي تشكلت على جبهته العالية، أكملت: «ليس بالضرورة حركة، ليست كذلك فعلا. لكن مقارنة مشروعك بمشاريع آخرين أعرفهم، وكيف تتشابه أو تتنافر. لستُ أبحث عن أجوبة. الأمر مرتبط فعلا بطرح الأسئلة. بالنسبة لي، البذرة بداخلي كانت استخدامك، ذلك المساء في سيدني، لعبارة «ثورة.» منذ ذلك الحين، وبالنظر لما حقّقته حتى الآن، حاولت فهم ما عنيته بتلك العبارة، ولدي بعض الأفكار. ما أميل إليه حقيقة، هو أن أسمع منك.» ابتسمت له وشفتاها مغلقتان، بطريقة رجَت معها أن تعكس الثقة. «لكن ليس الآن، أعني، ليس وكأنني لن أفضّل أن أسمع منك الآن، لكنني أرى أن الناس يتحدثون أفضل وهم يتحدثون للمرّة الأولى، ولهذا فما أفضله فعلًا هو أن أسمع منك أمام الكاميرا.»

«إذًا تريدين أن تفاجئي الجمهور؟»

ضحكت دانييل. تمنت أن ضحكتها قد بدت عفوية. «إذا كان هذا ما هو عليه فنعم، ولم لا. أفضل، سأكون مهتمة في إنتاج الفيلم حولك بالقدر الذي ستسمح لي به. أراك كجزء حيوي للأمر، فعلا.»

«تطرين عليّ.»

«لا أبدا. أمر واحد هو التوقيت: أظن فعلا أن الأمر سيكون ذا قيمة على مجلتك إذا ما تصادف البرنامج – إن قمنا به طبعًا – مع موعد إطلاقك، أو حتما مع نهاية هذا العام. توقيت جدّ قريب حقًا عندما يتعلق الأمر بسلسلاتنا، أظن أنه بمقدوري إقناعهم، إن صوّرنا قليلا، إن تحدثت قليلا للكاميرا، ربما؟ أعني، ما هي المواضيع المنتشرة الآن، إلى جانب تسريح العمال؟

أكبرها هو نيكول كيدمان في فيلم مولان روج.»

«نيكول كيدمان» همهم سيلي، «عازبة جديدة، نجمة جديدة.»

«صحيح» قلقت دانييل الآن من أنها كانت مباشرة أكثر مما ينبغي، أنها بدت عادية، ممهّدة وصريحة. بالعادة تكون أكثر ثقة في عروضها، لكن هذه المرة – مشكلة دُمية الماريونيت – شعرت كأنه يملكها طيلة الحديث. كان يعقص شفته؟ إلى الآن؟ مجددًا؟ لكنه لم يقل شيئًا. لم تستطع معرفة ما يجول في باله. «كما أقول، سيكون الأمر رائعا لمجلتك ذا مونيتور. لصورتك هنا. أعلم أنه سيكون كذلك. ومع ذلك يجب أن تفكر، أن تبحث في شعورك حيال الأمر.»

أحنى رأسه قليلا. «يشرفني هذا، ويشعرني بالإطراء. أنت محقّة فعلًا. لكنني سآخذ بعض الوقت، قليلا فحسب.» ترك جفنه ينطبق ببطء قبل أن يكمل تحديقه المطوّل. « أفضّل أن أفكر. نادرا ما أكون مندفعًا.»

كأفعى تحت أشعة الشمس، فكرت دانييل. قالت: «رائع. كيف تسير أمور التوظيف، بالمناسبة؟»

«آه» رفع يديه في إحباط، «إنها معاناة.»

«لكن لماذا؟»

«الميزانية غير كبيرة كفاية، هذه الفترة كما قلت غير ثابتة. لماذا سيتركون عملا قائما من أجل آخر متخيل؟ قبل عام من الآن، ربما كان أسهل. لكن الآن، الأمر ليس كذلك.»

«ماذا عن تلك السيدة في متحف ذه مِت؟»

«جوليا شين؟»

«كانت تلك جوليا شين؟ بدت جدّ صغيرة.»

«لكنها أفعى، أفعى صغيرة. أكثرهن قوة. حثثتها على التفكير، مثلما حثثْتني، لكنها رفضت.»

«ستندم على ذلك، أنا متأكدة.»

«ليس أكثر مني، صدقيني. لكنني ببطء شديد أجمع فريقًا. فريقا في غاية الجودة.»

حرّكت دانييل رأسها، تناولت من قطعة الدجاج. كانت المقبلات قد أزيلت من أمامهما وقُدّمت الأطباق الأولى دون انتباهها تماما. علامة كاملة على الخدمة، على الأقل. نظرت إليه وسمحت لنفسها بالابتسام ابتسامة صادقة، غير متوازنة كانت تعلم أنها تجعل عينيها تتجعدان وأنفها يتقوس أكثر، لكنها ابتسامة تشعر وأنها ابتسامتها الحقيقية. خالجها انطباع بأنه من خلال النظرة التي قابلها بها، المرحة، المتلكئة كما هي دائما، كان هنالك ولع، انجذاب حتى. كان هنالك على الأقل بعض المغازلة، كان هنالك أمل. «أتعلم،» تحدثت بنبرة مختلفة وأكثر ثقة (لاحقا، تساءلت مع نفسها لماذا أثارت هذا الموضوع بلا داع، ولم تجد إجابة شافية)، «قد يكون هذا متجاوزا للحدود، لكن لي صديقة – في غاية الذكاء، وقد قامت ببعض الأعمال الحرة من قبل – كانت تعمل في فوغ، سابقا، لكن هذا كان منذ سنوات، وهي أكثر جدية، فعلا، أكثر من ذلك، على كل حال، إنها بصدد إتمام كتاب وهي تبحث عن عمل.»

«في الصحافة؟»

«نعم، صحيح. أعني، لا أعلم أيّ مناصب ما زالت تحاول شغلها، لكن.»

هزّ سيلي كتفيه. «الأمر يعتمد...»

«في الحقيقة لقد التقيتها، الصديقة، صديقتي، في متحف ذه مِت.»

رفع سيلي حاجبيه الاثنين. «حتما ليست أمك؟»

«لا تكن سخيفا. الأخرى. مارينا. مارينا ثوايت. أتتذكر؟ شعر داكن، طويلة، حسنا، كانت جالسة، جميلة؟»

«حتما أذكر.»

«إنها جميلة» أصرت دانييل مهتمّة رغم نفسها بمعرفة رأيه. بدا مُبهمًا من هذه الناحية، بالكاد يكون مِثليًا في لا اهتمامه. أيكون مِثليًا؟

«نعم، طبعا» قال. «جميلة أجل، لكن أخبريني، لأنني تساءلت.

أتربطها أيّ علاقة بثوايت؟»

«ابنته.»

«فكرت في ذلك. العمر المناسب. بنية العظام.»

«الأمر يشكّل عبئا عليها.»

«أتصوّر ذلك. ذلك الرجل الكسلان. أنه يستغل سمعته مُذ حيينا. لا يملك فكرة واحدة أصيلة في عقله.»

«أتعتقد ذلك؟ أظنه لامعًا بحق، في الواقع.»

شخر سيلي.

«ربما لا داعي لمناقشة أمر مارينا، إذًا، لأنها تعتقد أنّه لامع. أشبه بآنا فرويد في علاقتها بأبيها. أظنّها لتتزوّجه لو كان ذلك ممكنا.»

«أنت تخدعينني، ربما لا تعنين ذلك لكنك تفعلين.»

«كيف ذلك؟»

«تبدو المرشّحة المثالية للـ... طيّب – الثورة، كما تحبين تسميتها. في معناها الحرفي، ربما: من أجل التغيير. قد تقوم ذا مونيتور بعمل العجائب لتغيير تطوّرها الفكري.»

«تجعل الأمر يبدو كما لو كان تجربة فرانكنشتانية شريرة!»

«بالكاد.»

«أو أورويلية؟»

«لا، لا أظن ذلك. التلفاز هو الأورويلي. أخشى أنه عملك، لا عملي. أنا رجل قديم، لا أزال أؤمن بالكلمة المكتوبة.»

«كما يفعل مورّاي ثوايت.»

مال سيلي برأسه في موافقة تهكميّة. «الأمر مرتبط بما تعنيه الكلمات.»

«أو إن كان للكلمات معنى، إن كنا سنصير صريحين بشأن الأمر.»

«فعلاً، هذا صحيح تماما.»

«يؤمن موراي ثوايت بأن لا معنى للأشياء.» أكملت دانييل. «وأشعر أنك تجدها كذلك.»

«الأمر ليس بهذه البساطة...»

«ليس وكأنك تعتقد بأن عبارة «الطاولة» كافية للإشارة لهذا الشيء الذي يفصلنا، هذا ليس ما أقصده.»

«الأمر مرتبط أكثر بالتشكيك في معنى المشاعر» قال سيلي، «أو السؤال حول ماهيتها وكيف تُلوّن واقعنا. التخلّي عن دورها حتى نرى الأشياء على ما هي عليه فعلا.»

انتظرَت منه دانييل أن يُكمل. عاد المتسوّل إلى مقعده الشخصيّ المزيّن في المتنزه قبالة الشارع، كان المشى أهدأ، مرتاحا من زحمة منتصف النهار.

«هذا هو ما لدي ضد ثوايت. إنه عاطفي. لا شيء واضح بشأن تحليلاته، كلّها تبجحات، تبجحات مفرغة. ويصدقها الناس لأنهم يصدقون مبدأً قديمًا يقول بأن مراسلا عاطفيا أكثر قيمة من مراسل ليس كذلك. بولوكس.»

«أكثر إثارة للاهتمام على الأقل، ألا تعتقد؟»

بدا سيلي متنوّرًا، يكاد يرتعش في مقعده. فكرت دانييل مجددا في الحيوان الزاحف، جميل وخطِر. «لا، تماما لا.» انحنى إلى الأمام على فناجين قهوتهما، صوته منخفض ومتوهج. «ما الذي سيكون أكثر ندرة، أكثر أهمية، أكثر إقناعا من كشف كل هذه الخدع على ما هي عليه؟ من آلة ناي تكشف أن الإمبراطور لا يرتدي شيئًا، أن الوزير الأعلى لا يرتدي شيئًا، أن زوجة الإمبراطور عارية أيضا – هل فهمت ما أقصد؟ فضح زيفهم جميعا.»

«هذا أمر ثوري بحق. ما الذي سيبقى لك؟»

«الحقائق الفوارة بخصوص هؤلاء، كلهم، هاته المؤخرات الموروثة – أن تكشف ما الذي يجعلهم مستمرين.»

«ثم ماذا؟ ما الذي ستقدمه للناس بدل ذلك؟»

«ستمنحهم أمرا أكبر من الآراء. ستمنحهم أمرًا أكثر حقيقة، أو أكثر صدقا فعلا، إن كان بمقدورنا استبدال عبارة الحقيقة.»

«والذي هو؟»

«فكري في نابوليون.»

«ماذا بشأنه؟»

«رجل مهم يا عزيزتي، خصوصا هنا، خصوصا الآن.»

««ما الذي قاله إذا؟»

«دعيني أشارك معك ما الذي قيل بشأنه – هذا هو المفتاح بالعادة، ألا تظنين؟»

«ممم...»

«قيل بأنه إن كان نابوليون هو فرنسا، إذا كان نابوليون هو أوروبا، فهذا لأن الناس الذين يحكمهم هم نابوليّون صغار.»

«فهمت» قالت دانييل، غير متأكدة من أنها قد فعلت.

«أرِ الناس بأن مورّاي ثوايت هو الساحر أوز، رجل صغير بلا قيمة يزأر خلف ستار. ثم تتعرف على ما هم عليه فعلا، أرهم أنفسهم. ما الذي يمكن أن يكون أكثر إقناعا من هذا؟»

«أنت معجب كبير بنابوليون إذًا؟»

لمع ناب سيلي الناتئ مجددًا عندما همّ بالإجابة. «أليس الجميع، بطريقة أو بأخرى، معجب بنابوليون؟»

«لست واثقة ممّا إذا كنت المُشغّل الأفضل لمارينا» قالت دانييل وهي تضحك، لكنها لم تكن تمزح كلية. كانت منزعجة ومنجذبة معا لفورات سيلي. لم تظن بأنه مِثليّ.

«أرجوك أرجوك» قال ضاحكا هو الآخر. «لا تأخذي هذا ضدي، اجعليها تتصل بي. سأكون مسرورا، مسرورا بحق.»

بينما همّا بالمغادرة – بين آخر المغادرين، دانييل غير آبهة لفاتورة مائة وثلاثة وعشرين دولارا زائد البقشيش – شعرت بيده على ظهرها وحرارة أنفاسه، جسده القريب، وهو ينحني ليهمس في أذنها: أخيرا، أنعم عليها بالحميمية التي كان يغدقها بإسراف على الآخرين، إدراك هذا أرعشها كلية إلى حدود أطرافها. قال: «فكّري في الأمر كتجربة تذوّق.»

«تذوّق؟»

«لما قد تحصلين عليه أمام الكاميرا، إن نحن قمنا بالأمر.»

وليلًا، بين لوحات روثكو، لم تستطع دانييل بكأس الشاي بالنعناع بين يديها وأضواء المدينة تغمز قبالة النافذة مقاومة تذكر ذلك الشوق، جاذبيته، الكاريزما، التركيز وكأنه كان متوقّدًا ويده، مرهفة وقوية، لا تقود بل تتفاعل مع إحساس محمول معها، حتما ليس لها فحسب، الوعد بشيء ما – هل كان الجنس؟ أيعقل أن يكون كذلك؟ وعد حملته معها كهدية غير مفتوحة للمرة المقبلة.

الفصل السادس عشر

كوميث الرجل السمين

عندما ولجت أمها إلى الممر، كانت مارينا جالسة وقدماها معقوصتان على السجاد، ترتدي سروالًا قصيرا وقميصا بلا كمين، ظهرها مسند إلى الجدار بحزم، تجمع وترقم مقالات كانت قد حمّلتها وطبعتها لأجل والدها. أمامها يوجد المدخل إلى مكتب موراي، بابه موارب، تنبع منه رائحة التبغ المحترق وصوت الأصابع وهي تنقر على لوحة المفاتيح بين الفينة والأخرى. هذا كان أقرب ما يمكن لموراي أن يسمح به لأي كان بينما هو يعمل: وكان لابنته إعفاء خاص. كان يمزح بأن أورورا، الخادمة لم يكن من المسموح لها الاقتراب مائة ياردة من المكتب. من جهتها، كانت مارينا ممتنة للانشغال بمهمة ضرورية غير كتابها الخاص. العمل كسكرتيرة لوالدها أمتعها أكثر مما ينبغي، وحتما أكثر مما كانت لتعترف به لدانييل المنتقدة.

«بحق الله،» قالت أنابيل مقتربة، «أشعلي الضوء، ما الذي تفعلينه على الأرض؟»

«سأنتهي بعد ثانية. طلب والدي هذه بسرعة وفكرت بأنه هكذا سيحصل على كل واحدة بمجرد أن تجهز.»

«لست أنتقد يا عزيزتي، أنا قلقة من أن تفقدي بصرك فحسب.»

قائلة هذا، انسحبت أم مارينا إلى غرفة زوجها بعد طرقة حازمة على

الباب. تاركة خلفها أثرا من زيت الليمون الحلو والنيرولي – عطرها الصيفي.

«موراي عزيزي» سمعتها مارينا وهي تقول، بنبرة تكشف عن أن أنابيل توقعت المعاندة لكنها لن تسمح بها.

بمقدور مارينا أن تعرف من صوت والدها من الوهلة الأولى بأنه لم يرفع نظره عن الشاشة. بمقدورها تخيله مرتديا نظارته الهلالية، منسلّة، يحك أنفه. قال: «هل يمكن للأمر أن ينتظر حبيبتي؟، أنا في خضمّ... «

«لا عزيزي، أخشى أنه لا يمكن ذلك. أحتاج للحديث معك الآن.»

مارينا التي توقفت عن تقليب أوراقها سمعت فرقعة كرسي والدها وهو يستدير. تنهّد. لمحت مارينا فخده وكتفه عبر الباب، لكنها لم تستطع معرفة وضعه.

«كان هذا ابن اختك على الهاتف» قالت أنابيل.

«ابن جودي؟»

«أهنالك آخر؟» أنابيل كانت كذلك وحيدة أسرتها.

«هل كُلّ شيء على ما يرام هناك؟»

«بخير، جودي بخير. لا، يبدو أنه يريد أن يأتي للزيارة.»

وقفت مارينا، متجنبة أوراقها ودخلت كلية إلى المدخل. «فريدي السمين؟» تساءلت، «سيأتي إلى هنا؟»

هزت أنابيل رأسها ويداها مشبوكتان.

«ما العيب في ذلك؟ تبدو خطة جيدة. كم عمره؟»

«لا بد أن يكون في التاسعة عشرة» أجابت مارينا، «أو ربما العشرين. يعتمد الأمر على تاريخ ميلاده.»

«هذا ما أخبرته به» قالت أنابيل، «بأننا نظن بأنها فكرة رائعة.»

«متى، وكم سيبقى؟» استدار موراي لمكتبه ليدلّهما على المغادرة، عندما تساءل.

«ولهذا أردت أن أتحدث معك، موراي عزيزي، فكرت في أنه يجب أن

تعرف، إنه قادم الخميس.»

«بعد غد؟» نظر مورّاي من فوق كتفه محدّقًا عبر نظارته.

«لست متأكدة مما إذا كان يفكر في الانتقال.»

«ما الذي يعنيه هذا؟» سألت مارينا.

«يعني بأنه أخبرني بأنه يفكر في الاستقرار هنا- افهما ذلك بنفسيكما- وأنه يحتاج لمكان يمكث فيه ريثما يرتّب أموره.»

همهم مورّاي.

«وأنه جد آسف على التطفل- حتمًا مؤدّب- لكنه لا يعرف أحدا آخر يلجأ إليه.»

«إنه كأحد زبائنك أمي، كذلك الطفل، ما كان اسمه؟»

«ديفوغن. أعلم. وسأل إن كنا نعرف أي مكان رخيص ليركن فيه سيارته.»

«أخبريه بأن عليه المغادرة بعد بضعة أيام» علّقت مارينا.

«انه فتى لطيف» قال موراي، بلطف تقريبًا «بدا كذلك في جنازة بيرت.»

«كان هذا منذ سنوات أبي.»

«أعلم أن جودي كانت قلقة عليه، انقطع عن الجامعة، بدون عمل، بدون هدف. لكنها قالت إنه شاب متوقّد.»

«متأكدة من أنه كذلك، مورّاي، لكن هل نحن فعلًا...»

«ألسنا ذاهبين إلى ستوكبريدج بعد أسابيع؟ لن يطول الأمر حتى نتخلص منه.»

«يعتمد الأمر من أيّ طينة هو» قالت مارينا، «أتذكره سمينا.»

«كان جد نحيل في الجنازة، في الحقيقة» قالت أنابيل. «الأمر لا يتعلق بوزنه أو قياس حذائه أيضا.»

«الفتى من العائلة. سنرى كيف ستؤول الأمور» قال مورّاي بحزم،

مُديرًا لا رأسه فحسب بل يديه أيضا، أصابعه متموضعة للطباعة على لوح المفاتيح. «مارينا، إن انتهيت من تلك المقالات؟ سيكون من الرائع لو وضعتها إلى يساري.»

لحقت مارينا أمها إلى الممر ثم المطبخ، حزمة من الأوراق غير المرتبة محمولة إلى صدرها.

«هل أنت غاضبة؟»

«لا، ليس تماما.»

«لكنه عبء مع ذلك.»

«أوه، حتما.» حوّلت أنابيل اهتمامها إلى العشاء، كانت تعبث بالبراد. «ظننت أن أورورا ستحضر الكاسباتشو؟»

«الرف الأعلى في الخلف. والسالمون البارد في البلاستيك في الأسفل. حضرت المايونيز كذلك.»

«عافاها الله.»

«أراهن على أنه يأكل كثيرا.»

«من؟»

«الفتى!»

«ابن عمتك؟ إنه ليس «الفتى»، وقد مرّ وقت طويل.»

«أين سينام؟»

«لقد طلبت من أورورا أن تجهز غرفة الضيوف القريبة من والدك.»

«على الأقل لن أضطر إلى مشاركة الحمام.»

توقفت أنابيل عن التفتيش بعض الوقت. «إلهي، إنك فتاة صغيرة ومدلّلة. كأس نبيذ؟»

«ليس شاردوني أليس كذلك؟»

«شابليس في الحقيقة.»

«ذوق أشبه بالسبعينايت. أنا فقط لا أظن أنه من الجيد، فحسب،

أن يفرض نفسه عليكما بلا إعلام هكذا.»

«هكذا؟ تقصدين مثلك؟»

«هذا ليس عادلا.»

«أعلم، أنا أمزح. لكن، عزيزتي، إنه أحد قريبَيك الوحيدَين على الأرض. من الغريب – أظن فقط، كما قال والدك، أن ننتظر ونرى ما ستؤول إليه الأمور.»

«لكنه في الغالب سيُزعج والدي، من دون الجميع. سيعترض طريقه. لا يعرف ماهية العمل من المنزل.»

«لهذا أردت أن يكون والدك مستعدًّا. لكن من يعلم؟ قد ينجح الأمر. قد يصبح اليد اليمنى لوالدك.»

«احذري، أمّي! ذلك عملي.»

«أوه، حقا؟ ظننته عملي طيلة هذه السنوات. لكنه مرحب بك فيه.»

الفصل السابع عشر

لا مكان كالمنزل

ذلك المساء بعد العشاء، انسحب مورّاي ثوايت إلى مكتبه متظاهرًا بإنهاء عمله على مقاله الطويل، لكنه في الحقيقة كان يأمل في سرقة بعض الساعات غير المقاطعة للعمل على كتابه الذي لم يكن يتقدّم فيه إلا قليلًا. لامَ في سرّه ابنته التي كانَ حضورها مصدر قلق، لا مساعدة، رغم حماسها. على عكس والدتها، كان لمارينا عادة الترصّد، وبالرغم من علمه أنّ نيّتها حسَنة، على الأقل في عقلها الواعي، فقد شعر بأنه عالق تحت حاجتها، تحت روحها التي حتى وإن لم تكن منكفئة تنتظر خارج الباب كثعبان، كانت دائما تترصّد آمِلة. أحيانا وبشكل عبثي يتخيل أنها تريد استهلاكه فحسب، أن تأكل كلماته والهواء الذي يتنفسه وأن تلفظها كخاصتها. في أحيان أخرى، بدت رقصتهما أكثر إغراء وعريا، استهلاكًا متبادلًا، شغفًا غريبًا لم يشاركه حتى مع زوجته. أربكته، ابنته الجميلة المحبوبة ولامَها على ضياعه وعدم قدرته على إتمام الكتاب. كلما ظن أن أفكاره قد تبلورت، وجدها شظايا عندما يجلس ليكتب. كان يتدارس لأسابيع مسألة الاستقلال، استقلال الفكرة وما يستلزمها صراحة – ارتآه موضوعا ملائما، لرجل اعتُبر متمرّدا، وإلى حدّ ما هذا هو لبّ كتابه – وشعر بأنه مستعد للتعبير لكنه بدل ذلك هذا المساء،

ببقعة زيت من المايونيز اللذيذ الذي حضّرته أورورا وقدح ويسكي ذائب الثلج على المكتب أمامه، في هذا الوقت الذي يجب عليه أن يشعر أكثر بالراحة، ظل يتخيل سماع خطوات مارينا الناعمة والمقتربة، أو تواتر أنفاسها في الرواق. فتح النافذة على الشارع لضجيج الأخاديد الصارخ، لكن هذه الأصوات أيضا أزعجته عندما بدأ في البحث عن أنماط لسير وتوقف السيارات، في أمواج ليل المدينة الضخمة والمتقلّصة.

لهذا فإن قدوم ذاك الفتى قد يساعد، لكن العكس ربما يحدث أيضًا. عندما يحاول مورّاي العمل، يكون في مقدوره استشعار ذوات وعقول الناس الموقوتة الذين يشاركونه المكان، كأنهم مناطيد صغيرة تكبر وترتفع ضاغطة الهواء الذي يمكن لروحه أن تتحرك فيه. بدت فكرة وجود شخص آخر يحوم في أروقة منزله قد تحرّر خياله. لكن إذا كان فْرِدرك يستهلك الهواء، ستجب عليه المغادرة، والأكثر من هذا، على مارينا المغادرة أيضًا.

من هنا نبع خيطا أفكار متشعّبان ومتزامنان، أحدهما يتعلّق بفْرِدرك، والآخر بمارينا إلى حدّ ما. قريبه، الابن الوحيد لأخت مورّاي الوحيدة. حضر بباله بأن عليه مهاتفة أخته. حتى وإن لم يكونا مقرّبين لكن تجمعهما رابطة أسريّة، لم يحادثها منذ – منذ متى؟ حوار ما بشأن العواصف الثلجية اللامتناهية، حول كميّات الثلج التي غطّت واترتاون، حوار أُسَري ممل وضروري في وقت ما بعد رأس العام الجديد، ربما في وقت عيد الفصح، وكان يخشى تحريضها على اجتماع أسَريّ حينئذ. الآن، على الأقل، سيكون لديهما شيء ليتحدثا بشأنه، الفتى وخططه، ما الذي يمكن لمورّاي أن يفعل لأجله، وكم سيمكث عنده.

قدحت الفكرة الثانية عبر مارينا بخصوص صديقتها، الفتاة الصغيرة التي جاءت للعشاء في آذار الماضي، بخصلاتها الداكنة، عينيها العميقتين وصدرها الممتاز: دانييل. لم يكن عليه البحث عن اسمها، لقد تظاهر بذلك لنفسه مُدركًا أن اسمها متحفّز في ذهنه. بلا لياقة،

كانت تجمعهما الآن محادثة حيّة عبر الرسائل الإلكترونية، لعب فيها دورا مهنيا، يقترح كتبا، يمنح نصائح، يستغرق في الحنين بحكمة حول ذكريات طفولته. لم يذكر هذه المراسلات لمارينا، واستشعر بأن دانييل لم تفعل أيضًا، ومن هذا السر المشترك نبعت شحنة إيروتيكية.

لكن الذي أثاره ذلك المساء عندما أحس أو تخيل أنه أحس أنفاس مارينا على عنقه (تعبير يكاد يكون حرفيا لإغرائه) كان إمكانية، أو حتى حتمية تجنيد دانييل في خيانة أخرى – لا، لم تكن هذه هي الكلمة: تواطؤ. أفضل بكثير. أرادها أن تتواطأ معه من أجل مصلحة مارينا. وجد موراي ثوايت العذر الذي كان يأمل فيه منذ آذار الماضي، ليرتّب لرؤية دانييل مجدّدا، وهذه المرة ليراها وحدها. خلال كل رسائلهما، لم يذكر هو أو دانييل مارينا في سياق أكثر من عابر (هذا كذلك دغدغ وأيقظ المحظور) لكنه أدرك أن الوقت قد حان، ليضعها بحزم بينهما كموضوع للنقاش.

«عزيزتي دانييل» بدأ، ينقر على لوحة المفاتيح بطرفي إصبعيه السميكين والسريعين. «عسى ألّا تمانعي إن أسررت لك بأنني قلق بشأن عزيزتنا مارينا. قد يبدو هذا فجائيا لكنك كما قد تفهمين، قلقي أنا وأنابيل يعود (أمن الجيد ذكر أنابيل هنا؟ فكّر ثم قرر بأنه كذلك) إلى الخريف الماضي، عندما عادت مارينا إلى المنزل. كنا نأمل بأن الراحة والدعم الذي ستوفره العائلة سيكونان كافيين لمساعدتها في الوقوف على قدميها مجددا، لكن مع مرور الأشهر» – توقف، رشف من كأس الويسكي – «ومع اقتراب ذكرى عودتها (فكّر في أنها مغالاة طفيفة لكن مضمونة) أجد نفسي أكثرا قلقًا.» قرأ ما كتب حتى الآن. هل بدا مُنذرًا؟ ليس على نحو غير ملائم. أراد لدانييل أن تعرف أن لديه ما يودّ الحديث بشأنه، أن هذا لم يكن عذرا ملفّقا (ألم يكن كذلك؟). أكمل الكتابة، حاذفا نصف ما كتب، يريد أن يجد النبرة المناسبة، ومعها الاستنتاجات المناسبة، الاستدلالات، ظلال معنى ممكن. لأنه أرادها أن تقرأ الرسالة أكثر من مرة، أن تقلق – كما توقعها أن تفعل – بخصوص استقامتها،

وتطمئن مع كل جملة أنه ليس هنالك ما هو غير موات، بأنها رسالة كان من الممكن لأنابيل كتابتها بسهولة. ومع ذلك تحت هذه السلاسة السطحية أرادها أن تستشعر – أرادها ألا تكون غير قادرة على الإحساس – بأنه يحتاج إلى حضورها أكثر من نصيحتها، أنه يريد فوق كل شيء التواصل معها، دانييل، وأن مارينا كانت مجرد ذريعة (ذريعة في ألا يكون لها دور، اكتشف بأن ابنته معتادة على لعبه.)

عبث وحوّر رسالته – فقرتان فحسب – حتى نفذ قدح الويسكي، آنذاك فكّر في الاحتفاظ بمجهوده في ملف «الإرسال لاحقا.» لكن مجرد التفكير في مارينا جعله – ألم يسمعها مجددا؟ ألم تزحف عليه كالقط اللعين؟ حتما لا – يوجه إصبعه إلى زر الإرسال، فذهبت الرسالة. بسيطة كفاية: الغداء الأسبوع المقبل؟ أو كأس شراب ربما سيكون أفضل؟ كان هذا جوهرها. بسيط كفاية.

أفرغ لنفسه مزيدا من الويسكي من القنينة الموجودة في دُرجه. تجاهل الثلج، في هذا الوقت، بسبب المخاطر البشرية المتورطة في مغامرته إلى المطبخ. نظر إلى ساعته: لم تبلغ الحادية عشرة. بالتأكيد لم يتأخر الوقت من أجل جودي؟ هو نفسه كان قد خطط للعمل على الأقل إلى حدود الواحدة. كان عليه البحث عن رقمها في سجل العناوين، وفكّر وهو يقلّب في غرابة كونه يحفظ عنوان دانييل الإلكتروني عن ظهر قلب لكنه لا يحفظ رقم أخته.

كان صوتها رحيمًا، وكأنها كانت مريضة بالزكام.

«هل أيقظتك، جودز؟ أنا آسف.»

«لا، أعني، ربما خطفني النوم. أمام التلفاز، لكنني لست في سريري بعد.»

خلق موراي حوارًا، مستدرجًا أخته إلى الاستيقاظ الكامل. كان نوعًا من الحوارات التي لم يكن مستعدًا للتساهل معها هذه الأيام، حوارًا محليًا معروفًا منذ طفولته – ليس عن الطقس فحسب، بل حول نتائجه (يحصُل نسيب جودي على نتائج جيدة في خليج أليكساندريا، وإن استمرّ الصّيف على

هذه الحال سيكون الأمر ممتازًا له حتى مع تداعي الاقتصاد) وحول تفصيلات كانت جودي تملأ بها وقتها: بقي شهر واحد على انتهاء الدراسة، سيفتح المسبح البلدي في عيد الشهداء، ثمن الوقود، صديقتها القديمة سوزان – طبعا، كان يذكر سوزان، الصّهباء – ستأتي لزيارتها من كينغستون أونتاريو لأسبوعين، زوجها؟ يُدير فرعين من مطاعم بورغر كينغ وكان ناجحًا جدًا هو الآخر: بنوا مسبحا داخليا في منزلهما بسقف منطوٍ. في النهاية، لأنها لم تذكره، ذكر موراي فْرِدرك: «إذًا، سنرى ابنك أخيرًا!» قال.

«ما الذي تعنيه؟» عطست جودي، كانت بالفعل مريضة ربما. «هل ستذهب إلى ماساتشوسيتس؟»

«لا، لا – لن نذهب إلى هنالك إلا بعد أسابيع. لا، الفتى قادم إلى هنا، طبعًا لا تعلمين هذا؟»

«تقصد فْرِدرك؟ بوبّي ابني؟ إنه في ماساتشوسيتس.»

«ما الذي يفعله هناك بحق الجحيم؟» شعر موراي أنهما يصرخان معًا في حلبة شاحنات قديمة، عالقين في صدى كهف من عدم التفاهم. تمنى لو أنه لم يتّصل. «اسمعي جودي، لم أتحدث إليه، أنابيل من فعلت، هذا المساء. إذًا ربما هو في ماساتشوسيتس لكنه قادم إلى هنا هذا الأسبوع في زيارة.»

«زيارة؟»

«هلّا سمعتني رجاء؟ ظننتُه في البيت، معك.»

«لقد غادر منذ شهر، ليبحث مسألة المدرسة الصيفية في ماساتشوسيتس. في جامعة يو ماس، أين هي، أمهيرست؟»

«نعم، نعم.»

«لكنه لا يستطيع فعل ذلك إن كان قادما إليك. ستبدأ الحصص بعد أسابيع، أعني...»

«ربما هو في حاجة إلى عطلة قبل أن يستقر للدراسة.»

«لا أفهم الأمر. لقد تحدثت إليه منذ يومين.» بدا صوت جودي – ماذا؟ – ثخينا، ومشبعا باللوم كأن عدم الفهم هذا خطأ موراي. كانت دائما ما تلعب دور الضحية. «منذ يومين فقط، ولم يقل أي شيء عن نيويورك.»

«لم أتحدث إليه، جودز. أنابيل فعلت. ظننته في المنزل معك.»

«ليس منذ شهر.»

«فهمت: غادر منذ شهر للذهاب إلى ماساتشوسيتس، كل ما أقوله هو أنني لم أكن أعلم.»

«وكيف كنت لتعلم...»

«صحيح...»

عمّ صمت على الخط، فكّر موراي كأن كليهما يحاولان التحكم في غضبهما، أو ربما أن إمكانية إضافة أي شيء قد تلاشت.

«ستتصل بك بمجرد أن يصل،» قال موراي أخيرًا. «يمكنه أن يخبرنا بكل خططه. ربما نفدت ملابسه النظيفة في ماساتشوسيتس واحتاج إلى مكان لغسل جواربه.»

«ربما» قالت جودي، أهدأ الآن، بشهقة أخرى. «ومع ذلك سأخبرك يا موراي. الأمر أكثر سوء مذ غادر. أكثر مما كان عليه الحال عندما ذهب لأوسويغو. ربما لأنني أقلق بشأنه. لا أعلم في ماذا يفكر، أفهمت؟ انه بحاجة فعلا للعودة للدراسة.»

«ممم، مع أنك تعلمين، هنالك أكثر من طريقة لسلخ قط.»

«أتعني بأنه ليس بحاجة للعودة للدراسة؟»

توقف موراي مجددا. «لا... أحيانًا... لا، لا شيء.»

«ماذا؟»

«لا شيء. لا شيء. معك حق، أنا متأكد. يجب أن يعود للدراسة. وسترين، سيفعل.»

«ستتحدث إليه إذا؟»

«أتحدث؟»

«بخصوص الدراسة، رجاء موراي.»

«طبعا طبعا. سأتحدث إليه.»

«إنه يتطلع إليك... أتعلم. وطبعا والده غير موجود بعد الآن ولهذا...»

«لا. طبعا لا.»

عندما أغلق الخط، شعر موراي أنّه مُلقى في فخ، مثل حيوان راكون غبي. ها هو كالعادة معاقَب من أجل اندفاعاته الأخويّة: لم تكن هنالك مرّة واحدة طلب فيها شيئًا من أخته، ولا شيئًا واحدًا. ومع ذلك في كل مرة تحدثا كانت تلفّق لابتزازه طمعًا في شيء، في عيد الفصح، لقد تذكّر، كان هنالك مبلغ صغير من المال، أمر ما بخصوص الاعتناء بقبر والديهما. لا يجب أن يجعل الأمر سهلا عليها، ما عليه أن يفعل هو ألّا يتصل بها. لا عجب في أن ابنها لم يخبرها أين هو ذاهب – من يقدر أن يفعل؟ على المرء أن يأمل بأن الابن ليس كأمّه. هذه أمور لن يخبر بها أحدًا، حتى أنابيل. كان أخًا وفيًّا على كل حال.

زارت أصوات زئير زحام الليل موراي مجدّدا وهو على مكتبه، زارته رؤيا لمنزل طفولته، الرّدهة المقوّسة وغرفة الطعام، بظلمتها الضيقة، والبخل، كل شيء هزيل ومبيض وملبوس أكثر من مرة، أمهما فقط، أمهما الجميلة، بهيئتها النبيلة وشعرها الداكن المموج، مثل إنغريد بيرغمان، أمّه الحالمة، التي على الرغم من قدرتها على التقشير والتشذيب والتنظيف والكي، على الرغم من مئزرها الدائم وزوايا المشفى، كانت تقرأ الروايات والمجلات وتحلم بنفسها وبابنها في آفاق أوسع، في حفلات كوكتيل لامعة في بارك أفينيو، في غرف فنادق مترفة والسفر إلى أوروبا. والأهم من هذا، بهارفارد: حلمت بهارفارد –أو برينستون، أو ييل، لكن هارفارد الأمثل – لابنها، وأخبرته بهذا منذ سنواته الأولى، فكبر الأمر معه، في باطنه، لا يحلم بشاحنات الإطفاء المصفرّة أو عدّة الشرطة اللامعة، بل بغرف القراءة الساكنة بمكتبة وايدنر

والممرات المرقطة لساحة هارفارد، أماكن لم يرها حتى بلغ السادسة عشر كطالب، لكنها طفت بشكل سحري كأتلانتيس في غرفة نومه المظلمة. كل هذا بينما كان والده وأخته غارقين في حاضرهما في واترتاون، حيث مكثت جودي لتثبت شيئًا (ماذا؟) لأحدهم (من؟)، أو ربما لتثبت بأنها لم تكن كأخيها. هراء بشأن أخلاقيات العمل البروتيستانتي، النهوض باكرًا، التواضع المسيحي، كل هذا قمامة، صنع من جودي القيّمة على المنزل المرتخية والضعيفة التي تأخذ قيلولة أمام التلفاز ليلا.

ومع ذلك، فأمه، حتى في أيامها الأخيرة، المئزر لا يزال مربوطا حول خصرها، اليدان متصلبتان بالتهاب المفاصل، غطاء الكرسي المكوي على الكرسي المغلف. بالرغم من كل أحلامها، لم تتغير، في النهاية، وكل ما نجحت فيه هو جعل ابنها شخصا، شيئًا، لم تستطع فهمه، حقيقة توضحت أكثر بسبب مرض الزهايمر، ففي النهاية في متوسط ثمانينياتها عندما ذهب وحيدا لزيارتها، جلس جانبها حول المائدة، في مكانه «القديم»، وعندما سألت عن موراي، أخذ يدها المرتخية، وقالت جودي «ها هو أمي، أمامك.» ركزت عينيها الغائرتين عليه تلمعان خوفا وصرخت: «هذا ليس موراي ابني، هذا ليس ابني، أين هو؟ لقد وعدتني بأنه سيأتي.»

حرصا منه على تلك الحياة، على جعلها حياته دوما، منذ أيامه الأولى مع مباركة أمه – ولو أنها لم تفهم أبدا ما يعنيه هذا، ما الذي سيسمح به – كانت القرارات: ليس لهارفارد فقط، لا مكتب أبدا، لا جدولا زمنيا، لا منبّهًا، يوم جديد دوما، مدينة جديدة، شخص جديد، مشروب جديد، اكتشاف آخر، مزيد من الحياة دوما، المزيد.

هل ردّ هذا كفاية في مخطوطته؟ بدا الأمر بسيطا بشكل طفولي، كفلسفة للعيش وفقها، ولو أنه كان واضحًا أنه لم يكن رجلًا بسيطًا. ولا كان المنتج المباشر المتمرّد لدهليز طفولته الضيق، الذي بالكاد كان الباب الأمامي منه يفتّح بسبب بيت الدرج المقابل، والأرض المربعة العارية في الأمام (تذكر

الرائحة التي صارت سيئة حتى وهي لطيفة، للقصاصات الورقية في صباح صيفي من يوم السبت، عندما وقف والده على السلم في الممر وشذب طريقه، يقطع الحافة الأمامية لقصة مثالية متساوية، تطابق رأسه الحليق الأشبه براهب، شعر رمادي قصير كفأر.)

ذكريات كهذه كانت جزء من موراي، مهربًا لا مهرب منه، لكنه لم يعش وفق طريقة الهروب هذه، ولم يشجع الآخرين لعيشها. ربما لأن فكرة حياته آنذاك، حياة أخته الآن، ما زالت تملك القدرة على خنقه وتعكير الجو (سيجارة أخرى مشتعلة قد تصفّيه) كأن من غير النزيه عدم قول ذلك؟ ألم تكن عبثية، صغيرة، تلك الحياة التافهة التي يحاول الجميع التخلي عنها؟ أليس التخلي بقدر أهمية التقبل، من أجل تشكيل ذات ناضجة؟

فكر آنذاك في مارينا، ترعرعت كما كان يتمنى لو أنه ترعرع، والآن معرقلة بسبب نقص الاستصغار، بسبب غياب القيود التي يجب أن تتمرد عليها. أعليها إذًا أن تتخلى عن حياة الامتياز وأن تنتقل إلى مكان مثل واترتاون، لتبدأ من جديد قدَرها علىٰ حساب حق بكوريّتها، لتكون نموذجا لجودي، تستحق عليه الجدارة فقط لأنها تخلّت عن كل ما مُنح لها؟ هراء. لكنه أخبرها بنفسه بأن تحصل على عمل، نصيحة ما كان ليعطيها لنفسه ولا كان ليأخذها، ولقد عناها. أكان بشكل ما يعترف بأن طريقه للمميزين فحسب، وأن ابنته، رغم جمالها ودفئها لم تكن – كيف يمكن تقبّل هذا؟ – خارج نطاق العادي؟ لم يكن بمقدوره طرح هذا السؤال، ولا الإجابة عليه.

تذكّر ما كان والده يقول له – والده، صغير على عكس كبره هو، مائل الكتفين كان موراي في صغره يخاف من أن تنزلق الدعامات لذلك، رجل صغير بربطة عنق فراشة وشوارب هيتليرية طفيفة التهديد بفعل لونها الرمادي، النعومة الخبيثة لصوته الهادئ، نعومة ناقضت صلابته ومثابرته غير الكالة، صلابة وكآبة «طيبته» (لماذا تزوَّجَته؟ كانت في غاية الجمال والمرح) – يخبره عندما استهل طريقه في هارفارد بأن يختار علم الإحصائيات أو المحاسبة

أو الاقتصاد، قائلًا بذلك اليقين اللعين: «أترى مورّاي، أعلم بأنك تود أن تكتب كتبا، أو شيئا كهذا، لكن العباقرة وحدهم من يصيرون كتّابا، مورّاي، وبصراحة يا ابني...» مورّاي أردى والده بلا شك، فصارت ذكراه مثيرة للشفقة قليلا، محبّبة تقريبا: مضحكة، فوق كل شيء. ومن كان مورّاي ليكون، غير رجل صغير ليقف بنفس الطريقة مطلقا حكما على ابنته، معلنًا أنها غير قادرة على العظَمة التي تصبو إليها؟ من الأفضل عدم قول شيء، الأكثر من هذا، عدم المجازفة بأي شيء، بل الانتظار. قد تفاجئه هي، كما فعل هو أيضا.

ما الذي سيكون عليه هذا الفتى؟ هل كانت أمه تناديه بوتي؟ أي شكل من أشكال عدم اللطافة هذا؟ فرِدرك هو اسمه. وإن كان يتطلع إلى موراي فربما هنالك أمل لأجله.

قرّر مورّاي أن يتفقد مرة أخرى علبة رسائله قبل الخروج، مجرّد احتياط. ونعم، لقد أجابت. بسرعة. صعدت حرارة إلى عنقه، ويديه أيضا – الحماس القديم المألوف. ولو أن هذه لم تكن مطاردة حقيقة؟ لكنه أرخى سمعه لخطوات ابنته، مجرد احتياط، قبل أن يفتح الرسالة. كانت مقتضبة، وعادية، وجبات الغداء صعبة بسبب برنامج عملها، لكنها ستكون سعيدة بالحديث حول مساعدة صديقتها. وإن كان أخذ مشروب أمرًا محتمًا، فيوم الأربعاء قد يفي بالغرض. لا تعرف أماكن مناسبة، وكانت متأكدة من أنه يفعل، ولهذا قد يقترح هو شيئًا؟ حمستة الرسالة في صميمها، كما حمستة فكرة عنقها الرقيق الأبيض، الخصر المرتب مقابل امتلاء انحناءاتها، أو شحوب عنقها مقابل الخصلات الداكنة، العينين اللتين يخطر كليشيه «خانقتين» عند وصفهما – أشياء لم يكن عليه ملاحظتها في صديقة لابنته، لصديقة جدّ مقربة لابنته – لكنها كانت الحياة، المزيد منها. وبينما كان يفكر في أي حانة سيقترح، أي جو سيغلف فيه خياله الجامح. سمع صوت ابنته تصرخ في الممر، صرخة مصدومة قادمة من الأعماق، قريبة جدا جعلته يرمي كرسيه ويكاد ينسى إغلاق الشاشة قبل الهرع لمساعدتها.

الفصل الثامن عشر

نهاية البابا

طيلة المساء، حاولت مارينا التقدم في كتابها. جلست والحاسوب على ركبتيها على سريرها، ملاحظاتها المنسوخة وصور من عدة كتب من المكتبة، كلها متعلقة بالفصل الخامس، الذي كانت تحاول العمل عليه، من حولها بُعثرت فوضىً، بحر من المطبوعات اجتاح سريرها وجعله يبدو صغيرا. هي شعرت بأنها صغيرة في مواجهته: حتما قيل الكثير، ليس لديها ما تضيفه؟ كانت تكتب، في هذا الفصل حول العادة الغربية الباقية منذ القدم في إلباس الأطفال كأشخاص آخرين، كأطفال أكبر، أو كوالد، أو كشخص آخر كلية، كانت تقارن هذا بالمتكلمين من بطونهم المرتبطين دوما بدُماهم، ضمن أمور أخرى، وتخلق، أو تحاول أن تخلق نقطة أوسع حول رؤية الأطفال كانبثاق لآبائهم، احتاجت لأن تحشر هنا الرأي المعارض، المرتكز على أطقُم لورا آشلي من السبعينيات، حيث تلتف الأمهات وبناتهن في روبات مزخرفة بالزهور في تجديد – أو ربما إعادة صياغة ساخرة في عصر تحرّر المرأة الجنسي – للصّبى الفيكتوري، مهما كان الحال فالسؤال هو: هل كانت الأمهات والبنات يحتفلن بقمع جنْسَانيّتهن، أو حريّتها؟ تلك الأحذية المنحرفة ذات الخيوط العالية، الطبقات المرتخية من المخمل والقماش

المزركش، الشعر المجعد المضحك من فوق: لقد جعلوا من أي شخص من سن الخامسة إلى الخمسين له نفس المشهد الإيروتيكي المزعج قليلًا – من ثم أرادت أن تقارن بين الفتيات في نوافذ دور الدعارة في أمستردام، ولو أنها لم ترها شخصيًا، لكنها سمعت بأنهن يتنكرن لإشباع جميع أنواع الخيالات الجامحة: فتاة المدرسة، الممرضة، المشاكسة، المديرة. كل هذا ربما لم يكن مناسبًا إطلاقًا؟ كأحجية، كل ملاحظاتها كانت تحمل علامة استفهام بجانبها، هذا التحليل مغنِيّ بالفصل الخامس، لكن ملاحظاتها تعود لسنوات مضت، ولم تعد تصلح لدورها الأشبه بمقادير حلوى خَلط حُجَج فكريّة كاملة، كلمات معدودة تفتح كيسا من الأفكار. لا، معظم الملاحظات المخربشة لم تعن شيئًا، خربشات دجاج على ورق، هزيلة وفارغة من أيّ أهمية. شعرت مارينا، وهي تعاني لترتب لا جملا فقط بل فقرات كبيرة من السجلات التي جمعت حولها، بأنها منخرطة في حفريات أركيولوجية لحضارة مفقودة – الحضارة المفقودة طبعا هي تلك المتعلقة بأفكارها القديمة – وبأن تأويلاتها للآثار الحالية لن يكون له أي منطق أبدًا. أيجب عليها العودة إلى المصادر؟ العودة إلى المجلدات في المكتبة العامة، العودة إلى أرشيف متحف فيت ومُتحف ذه ميتروبوليتان، العودة عبر الزمن خمس سنوات إلى الوراء وكأنها لم تكن هناك قط، والمحاولة مجددا لجمع الحجج التي بدت آنذاك ذات جدوى؟ لم يكن بمقدورها مواجهة الأمر. الملاحظات هي كل ما تملك، كل ما عليها أن تملك، وأي إعادة تشكيل يستلزمها الأمر يجب أن تفي بالغرض – أكان هذا استنباطًا؟ أكان مجازًا؟ انبثقت من ضباب ذكريات قديمة بعض الكلمات الإغريقية من درس النظريات الأدبية بجامعة براون وتساءلت إن كانت تنطبق على هذه الأزمة – لن يكون الأمر على ما يرام. شعرت هكذا كل مرة جلست فيها لتكتب، أن أفكارها المجددة لا تحمل إلا القليل من الشبه للأصلية كما تشبه الخضار في الحساء سريع التحضير لسابقتها غير الذابلة. الاستنباط، المجاز، لا: الكلمة التي كانت تبحث عنها كانت «التخبط.» كانت

قد بدأت في ذلك الحين كتابة مراجعة لكتابها غير المكتمل: «تتخبط مارينا ثوايت في مشروعها، بتوجّه قليل وتقدّم أقل.» تحوّل المشروع برمته – إلى أحلام مراهقتها القلقة، حدث هذا منذ وقت طويل، لم يعد بوسعها تذكّر الأمر على غير هذه الشاكلة. تلك الأحلام التي كان عليها أن تقف فيها عارية أمام الصف، أو أن تستظهر أسطرا من مسرحية لم تكن تعرفها، أو أن تقدّم تحليلا مرتجلا لكتاب لم تقرأه.

ملأها الوضع باليأس، أثقل كاهلها وأغشى بصرها حتى صارت بالكاد قادرة على رفع الأوراق حولها، وحتما لم تعد تقدر على فك ما كُتب عليها. لا تستطيع البوح لأحد بخصوص الأمر، حول حِمل فشلها الذي يثقلها يوميًّا: ستكون دانييل صارمة في انتقادها، ثم فعالة، تسرع لاحتوائها ورفع معنوياتها، كما كانت والدتها لتفعل، المعروفة بتكرار عبارتها المُغيظة: «ارفعي معنوياتك يا بطّة.» أما بالنسبة إلى جوليوس، حتى لو لم يختف، فستتّخذ ممّا رآه فيها عُذرًا لمواصلة التظاهر بالكتابة، ثمّ لجولة من المارتيني بعد زوال الشمس، إنّه علاج ماتِعٌ كافٍ تعرف نفعه من خلال تجربتها الكبيرة. وبالنسبة إلى والدها، فكم حاولت – أو شعرت أنها حاولت على الأقل – محادثته حول ضمور عقلها، حول استحالة إمكانية الإيفاء بوعدها حرفيًّا لتعهّد تسليم كتابها؟ ولم يفهم، لم يقدر أو لم يرغب في ذلك: كان آلة أكثر من كونه إنسانًا في هذا الشأن، رغم حبّه لها. قدّرَ كل عَقد عقده في حياته، حضر في الوقت المحدّد محافلَ لم تكن له رغبة في حضورها. شغّل عقله، كمصباح رجل مناجم، واستمرّ في القيام باللازم حتى يكمله. كان ليشير إلى فوضى الأوراق وخربشاتها ويقول: «أترين؟ كل شيء هنا، أمامك مباشرة. قمتِ بكلّ العمل الشاق وما عليك إلّا الاستمرار.»

في تحدٍّ منها، ذهبت تتجول في الشقة. كانت أمها قد ذهبت للنوم حالًا، منتظرة اتصالًا مهمًّا صباحًا، وكانت الأضواء قليلة وخافتة، صوت مكيف الهواء كان خافتا، برائحة غاز الفريون خفيفة على طول مسير مارينا.

توقفت لأطول مدة في المطبخ، حيث فكرت في إعداد الشاي – كانت تعرف أن دانييل تشرب شايًا كل ليلة قبل النوم، وكانت تشيد بخصائصه – قررت بدل ذلك أكل قطعة بسكويت أو اثنتين، نوع فرنسي أحضرته أورورا من السوق الممتاز محضّر من شوكولاه فاخرة. أفرغت لنفسها بعض الحليب الذي سيرافق البسكويت وتركت البراد مفتوحا وهي تفعل ذلك، وحده نوره الخافت المرهب ينير الغرفة. حملت حليبها معها لغرفة الطعام، عبر الممر، مارة بغرفتها، بغرفة والديها – تخيلت أنها سمعت صوت أمها وهي تتنفس، تكاد تشخر، لم تتوقف للإنصات، شاعرة بالإحراج تحت وطء الإهانة – واستمرت، منجذبة كحشرة عث إلى شق الضوء المنبعث من غرفة والدها. حافية القدمين، مدركة لهدوءها كقطة، مدركة فجأة لإمكانية وجود قيء قطة في مكان ما على السجاد. بالرغم من أن البابا كانت أفضل مؤخرا، تأكل أقل لكن تتقيأ أقل أيضا، مع بحة جديدة في الصوت أثناء تنفسها تسهّل بالعادة إيجادها. ومع ذلك، لم تسمع مارينا في أيّ غرفة صوت الصفير المميز ولا تصادفت بالعظام المكسوة فروًا التي تحوّلت إليها البابا، عمود فقري ناتئ ورأس هزيل.

توقفت مارينا عند الباب، محدقة من فُرجته إلى ظهر والدها منحنيا على مكتبه، ثم وعت إلى أنها قد وقفت هناك، أو هناك تقريبا، منذ ساعات فقط. كان الأمر في غاية السخف، أن تحوم على حواف حياة شخص آخر، كخادمة أو كلب، وهو، والدها أيضا. طفلة بكأس حليب، قد تكون في السادسة بدل أن تكون في الثلاثين.

بلا صوت، استدارت وخطت بضع خطوات للغرفة التي ستكون غرفة فِردرك. قد يكون قدومه لبعض الوقت أمرًا جيدًا، لا مجرد تشتيت بل تحفيزا. إما هذا، أو فرصة للتظاهر بإثارة الإعجاب، بإخبار الجميع أنها فتاة مؤثّرة (في قديم الزمان، أيّام مجلة فوغ، كانت كذلك. ألم تكن؟)، مع هالة من النجاح الأولي مشعة حولها، مع كتاب يكاد يكتمل وإمكانية استقبال المتقدمين لطلب يدها. مرحلة نضج فاتنة وإن كانت إلى حد ما مقلّصة. كان

يافعا كفاية ليصدق الأمر، فريدي السمين، قد لا يستطيع إدراك الحقيقة من خلال تألّق كتبها، لكنها تذكُره كئيبًا في امتلائه، بعينين تبدوان ناتئتين خلف زجاج نظارته، تريان الكثير. مرت سنوات، من يعلم؟ قد لا يكون سمينًا حتى. ومن كان هو؟ الفتى المنقطع عن الدراسة من جامعة أوسويغو، ليحكم عليها؟

فعالة كعادتها، تركت أورورا الغرفة مهوّاة وممسوحة ونظيفة. وضعت داعمة كأس على المنضدة استعدادا لباقة زهور ترحيبية (هل كان ضيفا يستحق الزهور؟ مع ذلك حبذت مارينا الالتزام بالتقاليد)، ورتّبت السرير بأغطية نظيفة، غطاء مموج ناصع البياض، ورأت على الوسادة ما يُشبه خصلة شعر غارقة، لم تكن شيئًا سوى البابا نائمة.

أهنالك مكان أفضل من هذا لقطة عجوز، فكرت مارينا وهي تحسدها على الخمول المرخص له، قدرة هذا المخلوق على الاختفاء من دون مغادرة المبنى وعدم فعل شيء من دون جمع اللوم. جلست على حافة السرير الجديد، واضعة كأس حليبها الفارغ على المنضدة الجانبية (الذي سترمقه أعين أورورا الثاقبة قبل وصول الضيف) وامتدت للتربيت على المنحنيات الأنيقة العجوز لظهر البابا المنكفئ.

لم يبد الأمر في البدء مختلفا، ولو أنها لاحقا ستقول بأنها عرفت منذ البداية، لكن دفء الفرو منعها من تحسس برودة اللحم تحته. ما لاحظته كان عزوف البابا عن الانتفاض تحت يدها، تغضّن مفتعل للجلد النقيّ اعتادته خلال تاريخ طويل من التربّيت عليه، وأن الغرفة بحكم بُعدها عن همهمة ضجيج الطريق وهواء المتنزّه، كانت هادئة تماما. لا تنفّس، لا حشرجة. لا نفسَ إطلاقًا. وبالرغم من أن جزءً من مارينا لم يتفاجأ، وقال ببساطة: «أوه، هذا هو الموت إذًا» فإن جزءً آخر منها – الطفلة، ستلوم نفسها – ارتدّت، وأطلقت الصرخة المصدومة التي هرع والدها على إثرها.

«ماذا هناك؟ لماذا أنت في الظلام هنا؟» أطلّ بملامح حادة، أطراف قميصه إلى الخارج، النظارات على حافة أنفه، وشعره الفضي مرفوع ومنفوش

كدجاجة، السيجارة وراء أذنه.

«آسفة بابا، إنها البابا، إنها لا – أعني، لقد ماتت.»

«أوه.»

وقف الاثنان هناك جنبا إلى جنب من دون الاقتراب.

«هل أنت متأكدة؟» سأل موراي، فاركا مؤخر رأسه.

«نعم. متأكدة.»

القطة، كلطخة سوداء على الغطاء، لم تتحرك.

«هل نامت والدتك؟»

«منذ ساعات.»

«ممم، أمور أفظع قد تحدث من مجرد تركها هناك خلال الليل، ألا تتفقين معي؟»

بدت الفكرة مدنّسة لمارينا، رغم أنها لم تعرف إن كانت الإهانة موجهة للقطة أم للسرير وصاحبه المستقبلي. «ألا ترْشَح الأجساد الميتة؟»

«ليس خلال ليلة واحدة، لا أظن ذلك. والجوّ بارد هنا.» بدا والدها غير منزعج، وكأنهما كانا يناقشان موتَ نبتة، أو كتابا. «أعتقد فحسب أن أمك هي المؤهلة للاهتمام بهذا. أو أورورا.» توقف، «إلا إذا كنت تريدين القيام بذلك؟»

«ليس كثيراً.»

«توقعت الأمر. هيا، لنغلق الباب. وكأنك لم تأت إلى هنا. لماذا أتيت فجأة؟»

«لا أعلم. كنت أفكر في فرِدرك ربما.»

«آه، الفتى. غير المعروف. اتصلت بأمه الليلة.»

«العمة جودي؟»

«لم تكن تعلم بأنه قادم حتى.»

«واو!»

«من يعلم أيّ روح مستسلمة ومحاصرة في طريقها إلينا؟ سنكتشف قريبا» توجّه نحو مكتبه.

«ألا يبدو نذيرا سيئا؟»

«ماذا؟»

«موت البابا على سريره.»

«كانت القطة في عمر السابعة عشر، عزيزتي.»

«أعلم، لكن...»

«أنت تعلمين أنني لا أومن بالفأل. وليس عليك الإيمان به كذلك. لا يجب على ملحد محترم أن يفعل!»

«لا.»

«خصوصًا وفاة بابا.»

«مضحك جدا.»

أشار برأسه نحو باب غرفة النوم الموصد. «ستهتمّ أمك بالأمر صباحًا» قال. «لا تفكري فيه أكثر.»

لكن مارينا، بمجرد ولوجها سريرها، تحت غطائها الخاص، لم تقدر على النوم من فرط التفكير، في الهرة التي مُنحت إليها (بدل حصان، تمازح والديها) وتعجبت منها، من خطواتها المتشنجة وصوتها الحيواني، لسانها الباحث فوق يدها. تخلت عن البابا أيام الجامعة وخلال السنوات اللاحقة، من أجل حياة في مكان آخر، لم تهتم بالقطة عندما كانت تأتي للزيارة، وكُزة طفيفة على ساقها، التفاف دافئ على ركبتها والمواء الغامض والتشبث المستعرّ لرأسها الأنيق. وعندما عادت مارينا إلى هنا العام الماضي كانت القطة مريضة ومُزعجة، متصلّبة، ناقصة، تموء طويلًا، وطبعًا تتقيأ برائحة مغثية. وبينما كانت بعض الشفقة تتملك مارينا أحيانا، كانت غالبا ما – بفعل قسوة الصِّغَر– تشعر بالازدراء من تقلّص الحيوان وبالاشمئزاز من عاداتها. انحدرت دمعة أو اثنتين من عيني مارينا وبلّلتا غطاء وسادتها. لكنها لم تقدر على

التحديد بصدق ما إذا كانت نابعة من حزنها على خسارة البابا، أم حزنا على نفسها وقساوتها الحالية في مواجهة الموت، أو بحق – ربما كان هذا جذر الأمر – كانت دموعها التي لم تنزل من قبل حتى الآن، كانت تساهلًا مسموحًا به من طرف البابا مُشيرة في تألّمها الصامت إلى يأسها السابق، إلى كلّ الأحمال التي يجب عليها مواجهتها لا محالة، بينما القط، جامدًا وحُرًّا ومدثّرًا بأفضل ريش إوز/ بالقطن الإيرلندي المكويّ، قد وجد السكينة.

الفصل التاسع عشر

بوتي يحتلّ نيويورك

خلال السبت الثاني من أيّار، في الساعة التاسعة والخمسين دقيقة صباحا، جلس فْرِدرك تاب على مقعد في متنزّه سنترال بارك، على بعد نصف ساعة من الطريق، في ظلّ عليل تحت أوراق شجرة القيقب الجديدة، بجانبه كيس تسوّق بلاستيكي وفي حجره كتاب. كانت رواية الحرب والسلام الآن، التي قرّر أنه لا غنى عنها، وكان يحاول جاهدا التركيز في قراءتها. لكن قراءتها صعبة، بسبب الحرّ غالبًا، فرغم وعود الصباح بالدفء، تدلّى ضباب خفيف رطب داخل المتنزّه يحمل ثقلا استوائيًا تحت الأغصان العالية، مُنارةً بأحواض ثاقبةٍ من أشعة شمس قاسية. رجّح بوتي – كما كان الناس يرجحون من قبل بأن عليهم التأنق للعشاء أو للكنيسة – أنه الآن في مدينة مهمّة ويجب أن يتأنق لها. منزعجا من العَرق، التصقت خصلات شعره بجبهته، نظارته زلقة، ندم على قراره. ارتدى قميصا مخطّطا بياقة وأكمام، غير مكويّ يتدلّى فوق سرواله الكاكي الوضيع. خياراته كانت محدودة، إمّا هذا السروال أو الجينز – لم يكن يملك غيرهما – وفكر بأنّ الأول أنظف قليلا. ارتدى حذاء رياضيا، فردتين بيضاويّتين كبيرتين على قدميه لأنه حاليا لم يكن يملك حذاء آخر (حذاءه الرسمي كان لا يزال في غرفة نومه في واترتاون، وربما إلى الأبد). ولكن

باعتبار الأحذية التي مرت أمامه على الطريق فحذاؤه كان مقبولا. الأحذية، أو بالأحرى الناس الذين كانوا يرتدونها، شتتوا تركيزه كذلك، عرض متنوع مثير، وبالنظر إلى حشد هذه الساعة المتقدمة من النهار، صَعُب عليه إبقاء تركيزه منصبًّا على الصفحة مدة طويلة. التقط أذيال محادثات: «تقول بأنه ليس بحوزتها، لكنني أعلم أنها سرقته منّي»، «لو أنك تقرأينه فحسب، أعتقد فعلا أنه سيغيّر حياتك»، «تعرف كيف تتأنّق أليس كذلك؟ إذًا ما الذي عليّ قوله؟» – وحدّق بتكتم من خلال شعره ليرى بأن معظم المحادثات الحيوية كانت هاتفية، أحيانا حتى عبر قطع أذنية وأسلاك تكاد لا تظهر، فبدا المتحدثون كالحمقى وهم يتحدثون ويعبّرون للهواء الطلق. تعجب سرًّا للأحجام التي بدا عليها النيويوركيون، رفيعين رجالا ونساء، في ملابس العمل أو ملابس رياضية ضيقة، عروقهم ناتئة من خلال أعناقهم القاسية أو على سيقانهم القصيرة المشدودة، كائنات كبيرة وغير عملية وغير معروفة الجنس، مكدسة، تسير وتتدلى تحت قمصانها الواسعة، وجوههم اللامعة مجعدة لفرط الحركة، وكل حجم وشكل آخر موجود: الرّوس، والصينيون، والأفريقيون، وجوه أنديزية، كل السحنات والأحجام، تتمثّل أمام نظرات بوتي الخاطفة كتقويم اليونيسيف الذي تملكه والدته – جزء مهم من طفولته، ملتصقا إلى الجدار قرب هاتف المطبخ – وقد بُعث إلى الحياة.

مر حشد مستعجل من الأطفال اللاتينيّين، يزعقون، متحمسين لساحة اللعب، أمهاتهم – في سنّه تقريبًا، ربما، أيعقل أن يكُنّ أمهات؟ – لكن نعم، يتلكأن بعيدا وراء الأطفال، منحنيات على عربات الرُّضّع حيث تستلقي أجساد أصغر تلعب أو تغفو، تلهو بألعاب ملونة متدلية، أصوات الأمهات نهر متموّج من الإسبانية، تتخلّلها نداءات على الأبناء الهاربين. نظرت إحدى الأمهات إلى بوتي، التقت نظراتهما، ورغم ابتسامته المتردّدة، فقد أشاحت عنه مريعًا.

كان لبوتي في كيسه البلاستيكي نسخة متصفّحة لإمرسون، وزوج

نظارات شمسية اشتراها من الشارع في أمسهيرست مقابل خمسة دولارات، وقنينة عصير تفاح ممزقة الغلاف ملأى بالماء من صنبور مطبخ أسرة ثوايت. فكّر في تناول الفطور معه – أخبرته العمة أنابيل أكثر من مرة بأن يتصرف وكأنه في منزله – لكنه قلق من توسيخ الأطباق، وإحداث فوضى، فقد كان يعرف أنه – لطالما لامته أمه على الأمر – وإن عن غير قصد يترك آثارا، لطخات وبصمات وكؤوسًا متّسخة. من المستحسن عدم لمس شيء.

أراد أن يستيقظ ويخرج قبل أن يقوم أقرباؤه، قبل أن يتحطّم صمت الشقة المثير. صمتٌ أكثر سكونا في انغلاقه المحكم من منزل والدته الصاخب. لم يحتمل مودّتهم، ولا دفء استقبالهم الذي أشعره بطبيعيّة وجوده بينهم. كيف توقّعوا (وكيف كانوا على صواب في توقعهم المغضب) بأنه هنا لأنه يرغب في أن يندمج معهم، أن يكون جزءً منهم. لقد دعوه الليلة السابقة – لم تكن ليلته الأولى تقنيًا في المدينة، فقد وصل خلالها في ساعة متأخّرة – دعوه إلى الانضمام إليهم في حفلة شواء في منزل صديق. ظنّ أنهم يمزحون – حفلة شواء في نيويورك؟ – وشرحوا له بأنها شقة فوق السطح بباحة تحيطها، والسبب الرئيس للذهاب كان المنظر المبهر الذي تُطلّ عليه. أحزنته دعوتهم، قال إنه متعب وسيجلس في المنزل، لكنه رأى على وجه خاله موراي، وزوجته أنابيل، أنّهما لم يعارضا قراره إنْ فضّل أن يستريح مع كتاب، وكان واضحًا له أنهما لم يفهما اعتذاره. إذ ما الدّاعي لأن تكون في نيويورك فقط بدل أن تكون في نيويورك الخاصّة بأسرة ثوايت؟ ولهذا فقد ذهب معهم – كان أمرا متوقعا، لا يمكن تفاديه – فقط ليكون مرتبكًا ومتورّدًا خلال الشواء، تلطّخ قميصه في البداية بالعرق ومن ثمّ بنبيذ أحمر سكبه على نفسه دون قصد.

عندما لمحته أنابيل وحيدا أكثر من مرة في الفناء، أخذته من يده وانحنت على الحاجز الزجاجي (لم يقدر على النظر إلى الأسفل) لتريه الأفق البهي للمدينة، معالمها المعروفة، انحناءات وارتفاعات المتنزّه الغامقة الخضرة أمامهما، الأبراج الأشبه بألعاب وسط المدينة عالية مثل ألعاب ميكانو بهيّة

ومجنونة لطفل ما، لمعان النهر وحجاب الغشق دائم التورّد المائل إلى البنفسجي وهو ينزل على السماء العظيمة والمباني حولهما. كانت لطيفة بما يكفي لألّا تبدو ضَجِرة، لتُبدي تفاعلًا ما مع تعليقاته – علم أنها عبثية، واحمرّ مجددا لهذا الإدراك، مقطّبًا عينيه خلف نظاراته – وحتى، في التفاتة لامسته وفاجأته، وضعت يدها على ظهره وهي تُشير غربًا عبر المتنزّه لتريه المكان الذي تعيش فيه أسرة ثوايت، وحيث يعيش هو أيضا الآن. حتى آنذاك، كان على علم بالعَرَق الذي استمرّ ينزّ من بشرته، السمنة المنتفخة، وإمكانية التصاق قميصه تحت أصابعها، والإحراج الذي جعل ردوده غبيّة وبات على وشك الخرس.

مستمعًا إلى أنابيل ومراقبا المنظر، ترك بوتي عينًا تُراقب أفراد أُسرة ثوايت الآخرين، خاله مورّاي وابنته مارينا، وهما يتنقّلان منفصلين أو مجتمعين بين الحشد. بدا مورّاي أطول من معظمهم، شعره أكثر لمعانا في ارتجاجه الفضي، واستطاع بوتي في كل مرة التقاط رنّة ضحكته أو ارتفاع صوته المستمتع. كان يتنقل في خطّ من الدخان تقريبا، كفقاعات الأفكار، كحوار مستمرّ يخصه وحده. ومثل جنيّة، هزّت مارينا رأسها وتمايلت برقّة، وكأن الإحراج إلى جانب الجمال قد أمسى أبهى تكلّف. جعل الضوء الخافت عينيها أكثر لمعانا، وأحمَرَ شفاهها أدكن، فبدت من بعيد متوهّجة كأنها دُمية مرسومة على خشبة. لم يستطع تجنّب النظر، لم يستطع تجنب مراقبتها. كان على علم بأنها امرأة مُراقَبة تشدّ الأنظار، وأن نساء من طينتها لن ينتبهن إلى وجوده. التفتت إليه مرة أو اثنتين، بدت في حديثها كأنها تتحدث عنه، تشرح تواجده: «قريبي السمين من أعلى الولاية» وتخيّلها تقول «ليس ذنبي!» – انعكاس لأفكاره جعله أكثر تجهّمًا بالإضافة إلى خجله. وعليه، حينما حان وقت تجمعهم وانسحابهم من الحفلة، بوتي، نصف مخضّل، تحوّل من هادئ إلى محارب اقتحم هالة عطر مارينا الليمونيّ الطيّب في مؤخرة سيارة تاكسي، غير قادر على نطق كلمة شُكر لمضيفيه.

«لا بد أنك مرهق» واست أنابيل جبينه المقضب وفكّه المشدود. «ربما

طال الليل عليك؟ نم مطولا غدا- كلنا سنفعل.»

لكنه استيقظ ساعة الغسق، غير هادئ ومتضايق بالرغم من أنه لم يعرف السّبب، وخطّط لهروبه المؤقت. مجتمع أسرة ثوايت النيويوركي على كل حال لم يكن ما يصبو إليه (أو كان كذلك؟ لم يكن متأكدا). أراد بدل هذا حياة عقل خاله الخالصة. تاق لشيء أقل زيفًا وأكثر حقيقة، لأجل تعليم في المتناول: الاعتماد على الذات في آخر المطاف كان هدفه. يقرأ مجددا، أو على الأقل يتظاهر بذلك، نسخته الورقية قريبة إلى أنفه، ساخرة من قصر نظره. تساءل كيف يبدو - جالسًا على مقعد في طرف المتنزّه - للأم اللاتينية التي لم تبتسم، للمهرولين المسرعين، للفتيات المتلكّئات. إنّهن النساء دومًا ما شعر بعيونهن عليه، مُدركًا بأنه لم يتخيّل الرجال ينظرون إليه أبدا. وفيما هو يتساءل، رفع عينيه عن الكتاب ليرى إن كان أحد ينظر إليه حقًّا (كم كانت الروايات مملّة، بعد كل شيء، حتى هذه، هذا التولستوي، ولو أنه أفضل من غيره).

مجددا، في ضوء الصباح، لمعت مارينا. حتى لو لم يعرفها، كان لينظر إليها مسلوبًا بلمعانها. ارتدت سروالا قصيرا، قميصا قطنيا، حذاء رياضيا، كالبقيّة لكن ملابسها تقمّصتها، بشكل من الأشكال. لسوء حظ بوتي، رأته هي الأخرى، بالرغم من، أو ربما بسبب، تولستوي.

«ألست قارئًا نهما؟» قالت ملاعبة الغبار بقدمها، «ماذا تحمل في الحقيبة؟»

«مجرّد كتاب.»

«منذ متى وأنت هنا؟»

«ليس مطوّلًا.»

«إنه المكان الأمثل حيث يتلصّص عليك والدي من مكتبه، أتعلم؟» نظرت إلى الأشجار وأشارت إلى المبنى المطلّ بينها في الجهة المقابلة من الشارع. «أفضل في الشتاء، بسبب الأوراق، لكن الآن أيضا - تلك نافذته. عندما كنت

صغيرة، أمضيت وقتا طويلا أتلصّص على الناس من هناك.»

نفض بوتي يديه، كتابه، وتظاهر بالنهوض.

«لا تقلق، إنه لا ينظر. كنت أمزح. لكنه قد يراك إن حاول. أتفكر في إمضاء اليوم هنا؟»

«طبعا لا، أنا...»

«لأن المقعد غير مريح ربما.»

«إنه جيّد.»

«لأقُل لك. أنا ذاهبة إلى حصّتي المفضلة لليوغا في الهواء الطلق، إنها تبعُد خمس دقائق تقريبا – لكنني بعد ذلك سأذهب إلى وسط المدينة.» توقفت، حركت رأسها فسقط شعرها على عين واحدة. «هل رأيت وسط المدينة؟ سوهو؟ ذا فيلاج؟»

حرّك رأسه نافيًا.

«بوسعي أخذك. سألتقي صديقة، لأنه ينبغي عليّ العثور على شيء لارتدائه من أجل أمر رسميّ الأسبوع المقبل، فربما ستتسكع وحدك خلال ذلك» – صِيْغَ الأمر بكل الحرص الذي أمكنه تخيله لكي تصْرِفَه حين تقابل صديقتها – «لكنني سأريك أين تذهب.»

إلى جانب القراءة، لم تكن لديه أيّ خطط، وكانت تلمع أمامه، فحرّك رأسه: «نعم.»

«عليّ أن أُسرع» – كانت تترنح على أطراف قدميها – «لكنني سألاقيك في الأعلى عند العاشرة والنصف.»

«في الأسفل ربما؟»

«كما تشاء، في الرّدهة.»

«أو عند الزاوية؟»

نظرت إليه مليًّا، بدت وكأنها ستبتسم، شفتاها خطٌّ ضيّق. « في الردهة. عند العاشرة والنصف، حسنًا؟»

قالت بأنها قد أخذته عبر قطار الأنفاق عمدا. لكي يعرف كيف يعود إلى المنزل وحده. لم يركب بوتي قطار الأنفاق من قبل، سوى مرة وحيدة في واشنطن العاصمة خلال رحلة مدرسية مع عشرين طفلا آخر عندما كان عمره اثني عشر عامًا ولم يكن هذا يحمل أي شبه بتلك الذكرى. كان متفاجئا ومشمئزًا من العوارض المهترئة، البوابات الأشبه بقضبان السجن والرائحة العفنة. بَوْلٌ وعفن في الهواء بالرغم من أنه الربيع، لم ترتفع الحرارة كلية، والانفجاريّات الجليدية التي نُفثت على طول القطار نفسه. مجددا، كما في المتنزه، أراد أن يحدق في كل الأشكال والأوجه: جدائل طويلة، طلاء أظافر جذابة، أسنان ضامرة، ندوب حَبّ الشباب أو ذقون ملتحية. رجل أصلع في بذلة ممتازة، وعيناه على الأرض كما لو كان خجلا. امرأة كبيرة، ترسم بدقة وغنج بنظرة عارية وغير مهتمة شيئًا، ربما لم يكن لائقا. زينة مفرطة، ربما، تدلت قطرة متناهية الصغر على شفتها. لا، لم تكن لائقة، كانت هنالك بقع على معصمها، قميصها المخطط كان متآكلا، ربما كانت هي صاحبة الرائحة العطِنة. حدّق مجددًا، مرّر أصابعه على طول عمود الاتّزان الملوّث داخل القطار، مُدركًا لدهنه البشري المميّز. القطار أو مكيف الهواء، لم يستطع تحديد أيهما كان يصدر أزيزا أشبه بما يصدُر عن البعوض عند مرورها، وعند السّرعة كانوا يتخبطون ويصطدمون كأنهم في أرض معركة، لكن مارينا – التي أسندت ظهرها إلى زجاج الباب المضبّب بدل أن تلمس أي شيء بيديها – بدت كالبقيّة، غير منزعجة. عندما توقفوا دون تفسير في نفق وسط المدينة، وأطالوا الوقوف، اعترت بوتي نوبة قلق، لاحَت الجدران السوداء المغلّفة بالأسلاك قريبة جدا من النوافذ وأصبح الهواء فجأة متناثرًا وأكثر نتانة، ثمّ انقطعت الأضواء لحظة، وكوحش يحتضر، تنفّس القطار. انغلق حلقه، اشتعل عنقه وأذناه.

لا بد أن فزعه كان باديًا، لأن مارينا اقتربت في الظلام الدامس – نفحة من عطر الليمون والميازما – وقالت: «الأمر طبيعي. نحن خارج محطة بِن» ثم

أضافت «لستَ خائفًا، ألستَ كذلك؟»

حرك رأسه نافيا بقوة، فكّر بسرعة، أسرع من نبض قلبه حتى، ولهذا فقد خلط هزة القطار، منطلقًا، مشتعلًا، متحّركًا مجدّدًا، مع هزته، صدمته العنيدة. لم يكن بوسعه العودة إلى المنزل هكذا، لا يستطيع تحملها - ولو أنه لا يعرف أيّ طريقة أخرى ليعبر الجزيرة، ربما هنالك حافلة، ربما سيمشي، هذا الجحيم التحت أرضي بكل انقباضاته، لم يكن ليتعايش معه. لم يقل ذلك، شكّرها فقط، أومض بعينيه بشدة وهما يصعدان الدرج خارجين من المحطّة مثل خُلْدَين، وانطلقا في الضوء.

كان يجب أن يراقب حشد المشاة، خليطًا آخر على هذه الأزقة الضيّقة المحدودة بأبنية أقصر، يكادون يصطدمون به، غافلين بشكل عادي، يدردشون لغات مختلفة وهم يدخلون المحلّات ذات الواجهات الزجاجية ويخرجون منها، لكنه وجد نفسه يراقب ابنة خاله، مشيتها مختلفة قليلا ويدها ترتفع لتقليب شعرها مرارًا، كأن إحساسها بنفسها، كعارِضة، تضخّم في تلك اللحظة. كانت تدفع ذقنها إلى أعلى قليلا، وتمدّد شفتيها. لأول مرة حضر بباله أن قميصها القصير المهلهل، بوردة مخمليّة مهذبة، لم يكن بقايا مفككة من النسيان، بل كان قطعةً من الموضة. حاول أن يخمّن أي اهتمام كانت ترغب في جذبه - ليس اهتمامه طبعا - آنذاك فقط لاحظ بأن الحي ينضح بالشباب والجمال، فيضٌ من البشرات الذهبيّة، كائنات بسيقان طويلة بدت مارينا في حضرتها منتمية لها طبيعيًّا ومن دون تكلّف.

أتت الصديقة بعد ذلك كمفاجأة: منحنية على فطيرة بيغل في مطعم دين وديلوكا، كانت صغيرة، حادة الأنف، أنقذها نور عينيها وانتفاخ شفتيها من أن تكون عادية. عندما ابتسمت بثقل تجعّدَ وجهها إلى شيء أحَبّ وأسهل منالًا من الجمال. أحّبها آنذاك، وكذلك من أجلِ لطخة كريما الجبن على تنورتها الزرقاء.

«كيف وجدت مانهاتن؟ هذه زيارتك الأولى هنا أليس كذلك؟»

«ليس تماماً. المرة الأولى ككبيرٍ» حتى كلمة «كبير» بدت له طفولية بعد أن قالها. حاول إخفاء احمراره. تمنّى لو أنّه قال «راشد.»

«جرّه والدي ووالدتي إلى منزل أسرة بيفورس ليلة البارحة» دوّرت مارينا عينيها «تعلمين، لديهم منزل الشرفة ذاك المطل على المتنزه الذي أخبرتك عنه.»

الصديقة – دانييل، كان اسمها دانييل – ابتسمَت بغموض.

«منظر رائع لكن الناس كانوا جدّ متيبّسين. بدا فريد المسكين وكأنه يتوق للهرب.»

«لا، لا. كنت – ربما قليلا – كان الأمر مختلفا» نظر إلى يديه. كان بمقدوره الإحساس باحمراره وهو يرتفع، لا يمكن إيقافه.

«إيه، أعرف هذا الإحساس» بدت دانييل كأنها تبتسم له. كانت أسنانها ناصعة البياض. «أنا من كولومبوس، أتعرف، لا كملكة جمال نيويورك هذه التي لا تستطيع تخيّل الحياة في مكان آخر.»

«ليس عدلاً.» احتجّت مارينا.

«والتي حسب علمي، لم ترَ بروكلين حتى دخلت عامها الأول في الجامعة.» ضحكت مارينا و دانييل لهذا. تاريخهما، نكتة سرية. انتظر بوتي. «على أيّ حال، ما أود قوله هو أني أعرف جيدا كيف هو الأمر.»

«ما هو الأمر إذا؟» سألت مارينا.

«إنه مُقلق. وكأنك تعرفه ولا تعرفه، في نفس الوقت. رأيته مرارا، الصور، الأفلام، على التلفاز – تشعر وكأنه ملكك، لكنه مختلف طبعا. ما تحلم به مختلف عن الحقيقة.»

«أهذا صحيح بالنسبة لك؟» غمزت مارينا لقريبها.

«أعتقد ذلك» سحب يديه من المائدة، حيث كانتا تبدوان شاحبتين وكبيرتين، ودسهما بين ركبتيه. «أعني، لم أمض هنا وقتا طويلا. قُدت السيارة من كوينز ثم – لم أر الكثير إلى الآن.»

«عليك أن تعترف بأن رائحته تبدو حقيقية! أليس كذلك؟ قطار الأنفاق؟»

«طبعا. تماما.»

«فْرِدرك، إن لم تمانع سؤالي، هل أنت هنا في عطلة؟ أم هو أمر أطول أمدًا؟ مارينا لم توضح الأمر.»

«أظنني أنا من لم أوضح. أنا، أعني، لا أريد لأمي أن تعرف – فقط لأنها مهووسة بالمدرسة، تظن بأني لن أحقق شيئًا من دون شهادة غبية غير ذات معنى، ولهذا...» توقف. استجمع وأكمل: «أحب أن أقول، لا مع والديك، طبعا– أعني، كان موريّاي وأنابيل رائعين، ليس الأمر وكأنه ... – لكنك تفهمين ما أعني. الخطة هي العثور على مكان ما، ثم، تعلمين، شكل من أشكال...»

«العمل؟» اقترحت دانييل.

«أجل، طبعا. ثم الدراسة.»

«أوه صحيح، رائع، أين؟»

«ليس في مدرسة. أعني...» بدأت ركبتاه في الارتجاف، محرّكًا الطاولة. لا يجب أن يكون الشرح صعبا. «لم تكن الفكرة طبعًا راديكالية لهذه الدرجة. أعني، لا أثق في المؤسسات في هذه المرحلة. أظنني سأجني المزيد، أتفهمين، وحدي.»

«واو» قالت دانييل، ولم يعرف بوتي ما الذي عنت بذلك. حدقت مارينا فحسب بابتسامة مثبتة وواسعة، كما لو كان يطنب.

«ألديك، لا أعلم، شكل من أشكال البرامج في دماغك؟ أم أن الأمر عام في الأصل؟»

«أتعنين إن كان مجرد هراء؟ لا، لدي برنامج. لائحة قراءاتي. وآخذ ملاحظات وأكتب أشياء، لكنك تعلمين...»

«من يقرأها؟» سألت مارينا.

أومض «حتى الآن – حسناً، أظن أنني حتى الآن لم أرتب ذلك بعد.

إنني... حتى الآن...»

«قد يقرأ والدي أوراقك.»

مسح وجهها، شفتيها الحمراوَين، عينيها القرمزيّتين – أكانت تمزح؟ لم يستطع أن يحدّد. «أتعنين ذلك؟»

«حسنا، لا أستطيع التحدث باسمه...»

«بل تكاد تفعل ذلك» قاطعتها دانييل.

«لكنني بحق أظن أن عليك سؤاله. أو أن أسأله بنفسي. أعني، أنت قريبه. وهو يحب – كيف نسميها؟ التلقين. يحب تغذية العقول اليافعة وكل ذلك. يبقيه ذلك يافعًا، أنت تعلم.»

«ما هي الأشياء التي تدرس؟» كانت لدانييل تلك النظرة الأمومية الصّبور تقريبًا. انتفض: «أعني، أهو الأدب أم عِلم الأعصاب أم أي شيء؟»

قطّب. «عمومًا أي شيء،» وشعر بالسوء لقولها فأكمل: «الآن، إنّه إمرسون وتولستوي.»

«قراءة خفيفة» ضحكت مارينا. «لكنها أمور رائعة، فعلا، أي من أعمال تولستوي؟ أحبّ آنا كارنينا. إنها واحدة من رواياتي المفضلة.»

«الحرب والسلام في الحقيقة.»

«صحيح.»

من حيوية حركة رأسها، تساءل بوتي إن كانت ربما لم تقرأ الحرب والسلام. لم يرد التدقيق في الأمر واحتسى قهوته بدل ذلك.

«في موضوع مختلف تماما» قالت دانييل، ممتدة لا لتلامس مقدّم يد بوتي، بل مارينا: «ربما نعرف مكانا يمكن لفردِرك العيش فيه.»

«فعلا؟»

«فكّري في الأمر – ماذا عن الشقة المهجورة لصديقنا المختفي؟»

«إنه في حاجة بالفعل لمُكْترٍ، أتذكّر أنه قالها...»

«ما الأمر؟»

أخبرتا بوتي عن جوليوس، عن تغييره الأخير للمنزل. «وكأنهما في شهر عسل دائم – لا يمكنك اقتحامه للوصول إليهما» وضّحت مارينا. «أو ربما نحن السبب. هذا الديفِد – لا أحد منا التقاه، تعلمين، يحبّ جوليوس تجزئة حياته، لطالما فعل، لكن هذا سخيف، وكأنه لا يرانا جيدين كفاية لنتعرّف على ديفِد أو شيء كهذا.»

«أو أن ديفِد غير جيد كفاية حقًّا!»

«إذًا لماذا التعلّق به؟ لا لا، الأمر يتعلق بإعطاء رفيقه ما يريد. الأمر الذي يجعلني أكره الرجل وإن لم أكن أعرفه.» رفعت دانييل صوتها، ضربت فمها بيدها. «أيّ نوع من الرجال لا يودّ أن يلتقي بأصدقاء رفيقه؟ أعني، بحق. أن يمضي بعض الوقت معنا ثم يرفض رفقتنا هو شيء، لكن أن يرفض العشاء معنا– هو شيء آخر...»

« هل رفض العشاء؟» سأل بوتي. لم يكن طرفا في محادثات كهذه مُذ كانت أخته في الثانوية – فاجأته التحليلات اللامتناهية وغير المثمرة بكونها أنثويّة بحق، خصوصية بشكل غير مريح، كملابس داخلية من المخمل.

«الأمر ليس على هذا النحو، لا» شرحت مارينا. «نستمر في تلقي الرفض من جوليوس، والسبب غير واضح. ولهذا فنحن نلوم رأس المخروط هذا، هكذا نناديه. اسمه ديفِد كوين[13]»

«رأس الكوكايين أصح» علقت دانييل «هكذا أرى الأمور على أيّ حال.»

كان بوتي مصدوما قليلا وعلم أن عليه ألا يكون كذلك، فاكتفى بقول: «فعلا.»

«حسنٌ، جوليوس، بالرغم من أنه مستقيم – باستثناء كونه مِثليًّا طبعًا، لكنك فهمت ما أرمي إليه – لطالما أحبّ أن تظهر حياته على أنها... ممم، خطيرة قليلا. الجنس والمخدرات وموسيقى الروك آند رول، أشياء تبدو

---

(13) رأس المخروط (Conehead) نسبة لاسم Cohen.

فاتنة له.»

«والافتتان مهمّ لجوليوس – إنه متزعزع هكذا» أكملت مارينا.

«لكن هذه المرة» – هزت دانييل كتفيها – «هذه المرة هنالك المزيد – ماذا أسميتها، ممم؟ متفرّدة. هنالك أمر متفرّد ومخيف بخصوص تلميحاته عن المخدرات.»

«سنقلق إذا ما توقف عن ذكرها كلية بعد الآن».

قالت مارينا بفظاظة مفاجئة، ململمة فناجين القهوة الفارغة وأوراق الورق المشمع من الطاولة أمامهم. «لكن الآن، داني، علينا شراء بعض الأثواب.»

وقف بوتي مع البقية، واعيًا مُجدّدًا لسُمنته وطوله، مثلما أثبتت دانييل صغر قامتها عند وقوفها. كان مُدركًا أيضًا أن احتمال العثور على مكان يعيش فيه قد تسرّب من المحادثة وبالتالي من مناله. لم يكن يملك عملًا بعد، ولا مالًا لأمرٍ كهذا، ومع ذلك، شعر وكأن الأمر خسارة صغيرة في سيل دردشة مارينا ودانييل حول حياة جوليوس الغرامية، إلى أي مدى انحرفت أولوياتهما. لم يكن هذا أفضل من أمهيرست، ولا أوسويغو –وهذا في عالم تخيّل أنه سيكون أعلى. ما زالت آماله متعلّقة بخاله. لكن مارينا، هنا أمامه، كانت أجمل، غزالة، حَلْوى. ولو أنها دعته للتسوّق بدل أن وكزت خده وأشارت لاتّجاه مركز التجارة العالمية لتصرفه – «يمكنك أن تأخذ المصعد إلى أعلى. خذ صورا للمنظر. يجب على كل شخص في نيويورك أن يقوم بهذا مرة واحدة»– كان ليذعن لها باستعداد تام. لكنها كانت مستعدة للهرب، استشعرَ الأمر، في ثنيّات عينيها البنفسجيتين، في انقطاع أنفاسها الطفيف، وكانت دانييل التي قالت، ضاحكة «أو يمكنك التسكع معنا بين أرماني وأنا سو، إن شئت. لأنني لم أرَ البرجين التوأم بنفسي، وكفتاة من كولومبوس دائمًا ما أفكر في أن عدم القيام بأفعال السياح هو ما يجعلك نيويوركيًا حقيقيًا.»

ابتسم بوتي للأمر، وأومض خلف نظاراته رافضًا – لأجل قريبته –

الدعـوة الـودودة. «من الأفضل أن أذهـب» قـال، ولأن الأمـر لـم يبـد منطقيا، فإنه لـم يعـن شيئًا، وكـذب: «لطالما أردت رؤيتـه. أعـني المنظـر.»

الفصل العشرون

معضلة جوليوس

سرت قشعريرة عبر أطراف أصابعه، واشتد الضغط في أذنيه. كان جوليوس يتصرف بشكل خاطئ، براديكالية، وحمّسه الأمر وأخافه على حد سواء. مساء الإثنين، ما زال النور باديا، وكان ينتظر عودة ديفِد من زيارة عائلية في سكارسدايل، ينتظر نقرة المفاتيح في القفل رغم أن السّاعة مبكّرة جدًّا على عودة ديفِد. لكنّه فكّر أنّ ذلك قد يحدث في أيّ لحظة، أليس كذلك؟ قد يركب ديفِد قطارا باكرا، أو يختار تجاهل عادة والديه في تناول الطعام الصيني يوم الأحد، مفتونًا باحتمالية التواجد الدائم – أو هكذا أحب جوليوس أن يتخيل – لرفيقه الخلّاق بلا هوادة، الذي كانت بشرته المسمرة الخالية من الشّعر مُترعة ومعطّرة بزيت إستحمام مُكلِف، ومغلّفة في روب استحمام مسروق من فندق. وفي الوقت نفسه، بشكل ما لا يقل أهميّة في مخيلة جوليوس، ولو أن الأمر كان في هذه اللحظة أكثر تأكيدا، أو على الأقل أقرب، أنه ينتظر بحماس مماثل وصول رجل آخر غير معروف، التقى به عبر الإنترنت يُدعى دايل، فقط دايل، حصان أصيل (أو هكذا وعد) ومدرّب رياضة (أو هكذا ادّعى)، كان لَقَبُه صاحب الخدود الحلوة والذي وعد بلقاء سرّي، مع الميزة الإضافية لكونه يعيش على بعد ثلاث مربعات سكنية من هنا (أو هكذا

أكّد) وعليه فهو يستطيع الخروج والدخول (كما كان) في رمشة عين، وحتما - ولو أنه لا أحد يمكنه الحسم، وألم يكن هذا هو المغزى؟ - قبل عودة ديفِد.

لو كان لجوليوس أن يفسّر تصرفه، لانطلق في اتجاهات متعددة. كان أسعد في حياته العاطفية من ذي قبل، ولم يكن هنالك أي سبب واضح لخيانته، إن نظرنا للأمر من هذه الناحية - ناحية مارينا ودانييل الباردة الرزينة، ومع ذلك، مع ذلك، فقد... أوّلًا كانت المسألة مسألة عادة: بعض الناس يدمنون على الشراء من موقع إيبَي، ربما كان جوليوس مدمنًا بالشكل نفسه على هذا - الانجذاب، كالمزايدين الذين كانوا يقتنون مرطبانات الهلام من ألاسكا أو السجاد الشرقي حتى تصير مكدسة على الأرض، إغراء الاحتمال، الإحساس، كل مرة، يحمل المحجوبُ الجوابَ، بأن هذا الرفيق، هذا الخصر، هذا الصدر المشدود، هذا الذقن القاسي قد يكشف عن ترياق بحثَ عنه منذ زمن. كيف يمكن لأي كائن، كيف لجوليوس، أن يُتوقع منّه التخلي عن كل هذا، من أجل مسار وحيد معروف، بالرغم من حبه لكل خصلات شعر مؤخّر عنق ديفِد أو خطوط فخده، مهما كانت حياتهما الخاصة سعيدة؟ ألا يمكن للمرء أن يكون بيير وناتاشا في الآن نفسه؟

كان هنالك الحماس المختلف والملازم لخطر القبض عليه. عندما كان يعيش وحده، نسي تلك المتعة، شعر بها فقط بعجالة، تحسّسٌ رطب في أماكن عامة، أو مرة في الحمام في حفلة عشاء راقية لأحد المعارف القدامى من براون. لكن هذه - هذه كانت متعة على طراز مراهقته، متعة كتلك التي كان يعرفها في دانفيل عندما كان في عمر الرابعة أو الخامسة عشرة وكان والداه يظنانه في السينما أو مركز التسوق بينما في الحقيقة كان يصيد في موقف السيارات خلف حانة كانت تُدعى ذا هاب، تعدُ بلقاءات دافئة في السيارات، وحيث كان الفتية طريّين مثله، ويُعتبرون مكسبًا، وأيضا حيث كان تهديد مداهمة الشرطة يحوم (يعرفون المكان كالجميع) وأكثر إخافة، الإمكانية الطفيفة لغارة من الشباب السكران بالسكاكين وعصي كرة المضرب وعين

غاضبة على المثليّين. وهناك، في ذلك الفيض الأبيض الغربيّ في المكان، فإن العثور على مراهق آسيويّ بعينين واسعتين، رفيع كساق بامبو، يكفل له معاملة خاصة. عندما كان جوليوس في الخامسة عشرة، تعرّض بائع سندات تأمين متزوّج من بلدة بعيدة للضرب حتى تحول إلى خضار (باذنجان، دائما ما تخيله جوليوس، بنفسجي، اسفنجي) من طرف ثلاثة لاعبي كرة، بعد إغراء مختلق قاده إلى الطريق الحجري حيث وقع في الفخ. ليس وكأن جوليوس كان يُستثار بالعنف، لا. لكن رائحة الخوف التي كانت تجعل الهواء البارد لموقف السيارات ذاك أكثر برودة، وكيف كان يرسم خطوط المباني، والأشجار الوضيعة، وفوق كل هذا أشكال الرجال الظّليلة في طمأنينة عالية - كيف كان الخوف مثيرا، جعله بارزًا - كان هذا مُشتهى، لذيذا. كمراهق، لم يكن الرعب الأكبر أن يمسكه معنّفو المثليّين، أو حتى الشرطة، بل أن يراه وجهُ مألوف، أن يُفتح باب السيارة ليكشف عن وجه صديق لوالده، أو عضو من الكنيسة، أو لخطأ في حساب الوقت يجعل والده يمر من هنالك ليحمل ابنه من أمام الإشارة الضوئية آخر الطريق، فيلمح الشاب مشتبكا ومفضوحا تحت نور المصباح الأصفر والمعيب. كان الخوف الأكبر أن يعرف والداه بالأمر، أكبر انتصار له هو أن قبعت الحياة السرية غير معروفة لهما وقتًا طويلًا. هذه الحياة السرية كانت تعرّفه، حتى أسرّ لهما عن طبيعته.

منتظرًا الجرس ليرن، (لماذا تأخر دايل؟ حتما لم يكن على بُعد بضع مجمعّات سكنيّة؟ في هذه الحالة، فقد كذب أيضًا بشأن أنّه مدرّب رياضة، وأنّه حذر. الإمكانية المتضخمة المتسارعة المخيفة لأن يكون دايل أي أحد، أي شيء، يمكن أن يكون رجل العصابة الملوح بالعصى خارجًا من كابوس مراهقته. فكر جوليوس قليلًا في نتائج الإمساك به، ليس من قبل والديه هذه المرة بل من قبل ديفِد، في شقة ديفِد، في سرير ديفِد. في خياله الأقل إمكانية، تخيّل جوليوس أن ديفِد قد يجد السيناريو بأكمله كإعداد لمتعة مشتركة. لكن هذا لم يبدُ ممكنا. حاول أن يتخيل غضب ديفِد، خيبته، واكتشف أنه

لا يستطيع – لم يعرف ما كان بإمكان ديفِد أن يفعله – وهذا نفسه حمّسه، كانت جاذبية خيانته غير معقولة.

لأنه في عالم الخيال على الأقل، كان جوليوس معتادا كفاية على الخيانة ومخلفاتها. لكن سببا آخر لهذا المهرب هو يقينه – غير مثبت أبدًا، ولا دليل عليه، لكنه خوف حماسي من نوع آخر، وفي مخيلته كان حقيقيا – من أن ديفِد يخون أيضا. لم تكن مسألة علاقة صحيحة وطويلة. كان مقتنعا من أن ديفِد رفيقه هو، جوليوس، فقط، ليس فقط لأن ديفِد أراد الاحتفاظ به مكبّلًا إلى جانبه، مدلّلًا بترف ومحفوظًا بحذر، زوجته الجائزة، مثل ديسديمونا[14] تخصّه – لكنها مسألة علاقات عابرة، من دقائق مسروقة بعد اجتماعات العمل، من أحضان مع مضاربين في غرفة البورصة في بارني، أو مع نادلين في الباب الخلفي لبالتازار، للّهو في المطارات أو غرف الفنادق عندما كانت مسؤوليات بلايك، زيلمان وويفر (درجة رجال الأعمال طبعا) تحمله إلى شيكاغو أو دالاس أو لوس أنجلوس. فزع جوليوس لفكرة هذه العلاقات العابرة بالقدر نفسه الذي أظهره لاحتمالياتها له. بالنسبة له كان هذا منطقيًا رغم صعوبة تفسيره. لم يكن لديه أدنى دليل على تصرف ديفِد المحطم والجارح غير خياله الخاص الذي كافحه بخياله، خيال أصبح حقيقة، خيال دايل.

دايل الذي ظهر بشكل وجيز، لم يكن لا فردًا من عصابة ولا الإله أدونيس، بل بدا لطيفًا، وجهه شاحب، وفي عمر جوليوس، برأس يكاد يكون حليقا، ولحية داكنة خشنة، وصفّ من الأحجار المعدنية حول شحمة أذنه. كانت عيناه دائريّتين ودون أجفان، غطى جلده الشاحب نقاط شاحبة وجُرح واضح لحروق حلاقة. مالت تعابيره إلى الكآبة، إمّا طبيعيًا وإمّا بسبب خوفه (هل سيهدأ خوفه مع منظر ورائحة جوليوس العطرة في روبه المسروق؟) أثبت أنه قليل الكلام قبل احتسائه شراب شعير واحد، ثمّ بادر قلقًا إلى التعرّي.

اقترح جوليوس حمّامًا، وسطرًا أو سطرين من الكوكايين (كان هذا

---

14) من شخصيات مسرحية «عطيل» لويليام شيكسبير

متوقعا، وقد أخذ جزء صغيرا من مخزون ديفِد لهذا الغرض. شعر بالقلق كأمّه، لكنه لم يرد أن يلمّح لاحتمالية هيجان ديفِد المجهول أمام وفرة المخدرات، أن يستولي على الكمية، يترك رفيقه ويهرب). وُضع شريطٌ خلاعيٌّ على شاشة التلفاز الكبيرة المعلقة في غرفة المعيشة. لم يعترض دايل قليل الكلام على كل هذه الاقتراحات، بل احتفظ وجهه بملامحه الكئيبة، ثم سقط جائعا ومتيقظا في المغامرات التي افتعل وقوعها - مثل بوليمي غربي، فكّر جوليوس، أمام علبة حلوى ملفوفة بالقرفة. سبّبت لحيته مشاكل حتى النهاية في غرفة المعيشة، خادشة جوليوس. لم تقدر الكوكايين على جعل لقائهما حُلوًا أو حتى - لجوليوس على الأقل - مثيرا. كان في معظم الوقت خائبا، ومنشغلا بتخيل مفاتيح ديفِد في القفل، خطواته غير المنتظمة، شهقته المصدومة. لكن هذا على الأقل كان خيالا خالصا، مع كل ما للخيال من أمان. استحمّ دايل اللطيف - حتما مدرّب رياضة بعد كل شيء؟ مشدودًا، مُمِلًّا - بسرعة وغادر، وبدا عند النظر إلى الأمر أنّ كل شيء كان ملفّقًا. استحمّ جوليوس للمرة الثانية ذلك المساء، فتش نفسه في الحمام البخاري بحثًا عن خدوش واشية ولم يجد أيّ واحدة. بدت عيناه أوسع من العادة، وكأنهما تنطقان كذبًا. فكر في الأمر كتأثير بينوكيو. لم يندم بالضبط على جُنحته، بل أكثر، ندم على أنها كانت غير مشبعة. نفض وسائد الأريكة، أرجع قُرص الفيلم إلى مكانه على الرف في غرفته. غسّل وجفّف أقداح الويسكي، رشّ الهواء بزيت خزامى فرنسي مترف، وأكمل، مرتديا روبه، إعداد كريما غراند مارنيي مثيرة قبل عودة ديفِد.

لم يشعر جوليوس نتيجة لقائه بأنه متخم أو مذنب، بل كانت مشاعر معاكسة وملائمة. شعر بأنه حزين ومتعب. هذا لأن لا جزء من الخيال صار حقيقة: لأنه مهما كان ما تطلع إليه - وربما كانت القدرة على تسمية الأمر لتُهدّئ اللهفة - بدا مُستعصيًا. كان الأمر كمفارقات زينون، لا يمكن للسهم أن يصيب هدفه، قريب دائما لكن غير دقيق أبدا. لكن بالنسبة

لجوليوس، لم يعرف السهم وجهته، عرف فقط أنه يريد واحدًا.

هذا هو ما كان مُريحًا بشأن ديفِد، التي كانت رغباته شفافة. مع ديفِد، مهتمًّا به، مُسَكِّنًا إياه، مدلّلًا له، يمكن لجوليوس أن – أو يحاول أن– يتخلى عن اللامسميّات. يمكنه الحصول على أشياء جميلة، اهتمام مثير، بعض الراحة من معاناته الغريبة اللامتناهية. لأجل إنجاح هذا، كان في حاجة فعلا لأحد يهتم به، وأين هو ديفِد بحق الجحيم الآن؟

عندما عاد رفيقه أخيرا في العاشرة والنصف، أوه، أين كان؟ من المستحيل عدم التفكير في احتمالية الرّجال في محطة ميترو نورث، أو أولئك في حانة غراند سينترال – تمدّد جوليوس على الأريكة، آلة التحكم عن بعد فوق صدره كمسبحة خرزية لرجل ميت، مستمعًا إلى لا والي بأعلى صوته ومضمّدًا كرامته المجروحة.

«إذًا، قرّرت الظهور بعد كل شيء؟» قال، متهرّبًا منه وهاربًا من الغرفة.

« كرم منك، أظن ذلك.»

«يا إلهي، آنسة كلارك– انس الأمر. حضر عمي ميرف، الذي يبيع المعاشات في وايت بلاينز؟ أراد بعض المثلجات، وانتهى بنا الأمر في بين وجيري خلف بانتا غاردن. أخذ الأمر وقتا.»

«إذًا لن ترغب في أيّ كريما كذلك.»

«ما الذي تتحدث عنه؟ كذلك؟»

رشق جوليوس، أو أومض بنظرة من فوق كتفه غاضبًا، كان يحاول كتم غضبه. لم يعرف إلى أيّ درجة كان يعني كلامه: «أعددت غراند مارنييه المفضلة عندك، لكن اعتبر الأمر لاغيًا، وكذلك لأنني، أنا، موجود طيلة المساء دومًا، لكنني لست متوفرا بعد الآن.»

كان في انزعاجه، كما توقّع، مزاحٌ كاف لإحداث اندفاع في المقابل، أو بالأحرى، شجار. أو بالأحرى، اندفاع مصطبغ بالغضب، أشبع به رغباته مع رفيقه – رفيقه إلى الآن، كما أثبتت زيارة دايل بما يكفي.

الفصل الواحد والعشرون

ليلة الجوائز

صَعُبَ على دانييل أحيانا ألّا تحسد مارينا، بالرغم من نقائص مارينا، بالرغم من حقيقة كون دانييل مثلا تبقى مُقتنعة سرًّا بأن مارينا لم تحمل قدر ما تحمله هي من ذكاء، ولا خفّة ظل. علمت دانييل أن حسدها ينبع من شخصيتها الأكثر سطحية – لم تكن لتتبادل الأماكن مع صديقتها مقابل أي شيء، أن تكون في الثلاثين وغارقة دون إنجاز – لكنها لم تقدر على كبح الأمر. إنّها محاصَرة بالحشد في الرّدهة، حشد المشاهير الصاخب المتجمع في انتظار حفله السنويّ، فيما دانييل، واعية بصغرها، يضيق عليها فستانها القرمزي، مدركة مع كل نَفَس تأخذه لشقّ صدرها الأبيض المكشوف (اختارت مارينا الفستان، سمحت دانييل لنفسها بالاقتناع)، لمحت مارينا الممسكة ذراع والدها وهي تترنح مع الحشد الزمرديّ العبثيّ.

كانا بين الزحام ثنائيًّا مميّزًا. كان بمقدور دانييل رؤية الهالة الطفيفة حولهما – ضيف الشرف وابنته الجميلة – بمقدورها رؤية النساء ذوات الأكتاف العارية والشعر المجعّد إلى أعلى يهمس بعضهن لبعض بينما يمرّ أفراد أسرة ثوايت. كانت الردهة المنمقة التي اجتمع فيها الجميع، هي نفسها ردهة الفندق السفليّة الكبيرة، تصلح بالضبط لمثل هذه المهام، كان لها هالة فيكتورية

مزيفة طفيفة – الجصّ المشكّل كقطع حلوى زفاف على جدران ويدجوود زرقاء، ثريات ضخمة ذات رنين، يبدو السجاد من تحت أقدامهم كسجاد من السوق، خليط ألوان – كل شيء قديم الشكل لكنه لامع جديد، التواءات زهور السجاد في تألق مبهر. في هذه النسخة الهوليوودية من نيويورك، تقدّم موراي ومارينا بالسُّلطة، بالالتزام النبيل، للاعبين الرائدين. قد يكون الأمر مجموعة غير مهمة من المجتمع – ألقت دانييل نظرة بعين مشككة على جموع الكتّاب والصحفيين، كلهم ثرثارون ومنتفخون حتى في أناقتهم – لكن أسرة ثوايت مع ذلك كانت لهم سُلطة على الأمر، أوه، لو كان الأمر سهلا.

طفا ثوب مارينا الشفاف الأزرق الخافت والبارد على طول انحناءاتها، ملطفا رفاعتها، مغازلا ذراعيها النحيلتين، وركبها البارزين قليلا، مضيئا تورد خديها الطبيعيين وعينيها الرائعتين. وجهها إلى أسفل، رأسها مائل بعض الشيء، ضحكت مارينا، كعاشقة خجولة، لشيء همسه والدها في أذنها، شعرت دانييل بالحسد من جديد لمنظر شفتيه تلامسان تقريبا شعر ابنته. لم تسمح لنفسها تماما بالتفكير في علاقة الأب وابنته معا، الآن وبما أنها قد أنمت علاقتين منفصلتين سريتين معهما. علمت أنهما سيصلان معا، أن مارينا لم تحضر لهذا الحفل إلا لتكون رفيقة والدها، لكنها بطريقة ما، لم تكن تعرف الأمر فعلا. ولم تكن تتذكر بالضبط الوجه الذي يقبع خلف الرسائل الإلكترونية: صارما ووسيما، في عمره المتقدم، متدثرا بمتعة بالشراب والسجائر، بشفته الجميلة البارزة بعض الشيء وشق ذقنه الطفيف، والآن وقد نظرت جليا إليه كان من الواضح أنه مُوَرّث صفات مارينا الجميلة. هذا هو الوجه الذي ستتحدث سريا إليه، عندما يلتقيان لشرابهما بعد يومين من الآن فقط. لقاء ليس لمارينا شك بخصوصه، ولن يكون، الأمر الذي فاجأ دانييل وهي تراقبهما في خصوصيتهما السرية. فاجأها موراي ثوايت (مجددا، جد طويل وجد فضي)، ثم لمحها قبل أن تفعل ابنته وأشار ولوح لها بابتسامة ساذجة عريضة. تخبطت معدة دانييل – وكأنها تكنّ مشاعر للرجل – وحتى

وهي تفعل، وجدت نفسها تتساءل عن كنه صراحة تعبيره، هل كانت مراسلات موراي ثوايت المثيرة للاهتمام تخدم، كما زعم، مصلحة ابنته فقط. ربما تخيلت دانييل فقط، اخترعت – يا لسخف – الغزل المضمن؟ ولو أنها، وهما يقتربان، كادت أن تقسم بأن نظرته سقطت وتلكأت لوهلة على خط عنقها وانحناءات ثوبها.

«سيد ثوايت» مدت يدها وانحنت إلى الأمام في آن والتقط أصابعها وقبل خدّها معا – شعرت مجددا باحتمالية ضغط مفرطة– «مارينا، تبدين رائعة»

«ألا تبدو كذلك دوما؟» قال موراي، بتسامح بدا أنه يتجاوز الاهتمام الأبوي «تبدين ساحرة بدورك»

«جعلتها تقتني الثوب، بابا» انزلقت يد مارينا حول كتف دانييل «ألا تبدو رائعة؟»

ابتسم موراي ثوايت مجددا

«لم تكن ستجربه حتى. لمحته لمرة واحدة في المتجر وقلت: يجب أن تملكي الصدر المناسب لهذا، ولداني الصدر المناسب ألم أقل هذا داني؟»

«اعذري مارينا– أظن بأن صديقتك تتحول إلى لون ثوبها» ثبت عينه على دانييل «لكنها غير مخطئة، لعلمك.»

لملمت دانييل نفسها بما يكفي للضحك، وكانت ستجيب، لكن موراي ثوايت استدار وتفاعل مع رجل أصلع صغير وبوجه أشبع بقرد يرتدي بذلة رسمية مخملية.

«محرر» همست مارينا. «غير لطيف وممل للغاية. لكنه قوي بشكل مريب. تعلمين كيف تسير الأمور»

«نعم. البار هناك. قد نصادف نادلا ونحن في الطريق.»

كان تقدمهما بطيئا. تردد تنافر القبلات الهوائية والثرثرات حولهما.

«جوليوس غير قادم، أليس كذلك؟» سألت دانييل، عندما تمكنا

أخيرا من جمع أنابيب الشامبانيا من شابة ترتدي ربطة عنق فراشة.

«لم يذكر الأمر، ولهذا فلا أظن ذلك. جزء من تصرفات الرجل الخفي – تخيلي أن يفوّت هذا؟ لكنني سأراه لاحقا هذا الأسبوع»

«ستفعلين؟»

«لا تتصرفي هكذا. كنت لأدعوك. لكنه قال بأنه يريد محادثتي بشأن بعض الأمور.»

«ولكن ليس معي؟»

«أنت تتصرفين بسخف»

هزت دانييل كتفيها «أظن أنه يتم إقصائي من الحلقة. أعلم، أكثر منك، لا تدوّري عينيك. لأنك فرد من أسرة ثوايت، أو شيء من هذا القبيل. لأنك ستكونين أكثر ملاءمة لرأس المخروط.»

«لمَ كل هذا الشك؟ لم ألتقيه بعد»

«أراهن على أنك ستفعلين.»

قامت مارينا بحركة مسرحية عريضة بأنبوب مشروبها، وتجنبت بحذر إصابة ذقن حليقة لرجل نبيل أمامها «استغنى جوليوس عن كل هذا» قالت،» لا بد أن يكون مقابل أمر ما.»

«عن ماذا تخلى؟» سألت دانييل وقد أكملت كأس الشامبانيا وصارت تبحث بين الحشود على النادلة صاحبة ربطة العنق المقوسة «انظري إلى كل هؤلاء الناس. أنريد فعلا أن نكون هكذا؟ متملقين ومهنئين لذواتنا؟»

«سيمنحون والدي جائزة، أتذكرين؟ نحبهم الليلة.»

عندما مر نادل آخر مندفعا، وضعت دانييل كأسها الفارغ وحملت كأسا آخر من دون أن تطلب منه التوقف «أعلم. أعلم. لكن ألا يمكننا فقط قول الحقيقة هنا لدقيقة؟ انظري إلى كل هؤلاء البهلوانيين المتأنقين، مرتدين أفضل ملابسهم، كُلّ منهم يريد أن يكون أفضل ممن بجواره – الأمر مقرف»

«أهو كذلك؟ ألا تريدين أن تكوني أفضل من الشخص المقبل؟ أنت،

من دون الجميع؟»

تنهدت دانييل. كانت مارينا تزعجها. كانت هذه إحدى طرق مارينا، إخلاص متبلّد لأكثر الرموز انكشافًا «والدك يعرف ما أعنيه» قالت،» لم يهتم أبدا بما يفكره هؤلاء الناس، هؤلاء الكراسي المستبدة الذين لم يغادروا دوائر نيويورك الصغيرة. ينطلق ويفعل ما عليه فعله، يكتب ويقول ما يريد، وهم من يأتون إليه. إنه مهم فعلًا. ليس كهؤلاء اللامبالين الذين يمضون وقتهم في حفلات كهذه»

«واو داني، ما الذي يزعجك؟»

الوحش أخضر العينين، فكرت دانييل، يقضم بنهم على أعصابي. لكنها رشفت، ابتسمت وعدلت خط رقبتها.

«ثم لعلمك أنت مخطئة بشأن والدي. هو طبعا يهتم. يتظاهر بأنه لا يفعل، ذلك هو الشخص الذي يريد أن يكونه، أو بالأحرى، ذلك هو الشخص الذي يريدونه أن يكون عليه. لكنك ملزمة بأن تهتمي، أو أنك لن تنجحي. لقد راقبت طويلا لأعلم أن هذا صحيح. لن تنجحي مثلا في الانتقاد هكذا.»

أخذت دانييل نفسا عميقا، أغلقت عينيها، فقط عندما تسمح لنفسك بالإيمان بأن مارينا كانت بلهاء قليلًا، كانت تخرج برأي حاد ومزعج. تحدثت دانييل وجوليوس مرارا بشأن هذا. عندما كانا يتحدثان طبعا. لم يكن لمارينا الخيار في الغطرسة أو التواضع: هذه اليقينيات كانت سهلة التبني كفاية عندما تكون الابن الوحيد لموراي ثوايت، بالإضافة إلى الجمال. ربما كانت مارينا ببساطة في حاجة للاهتمام بشأن النجاح، فكرت دانييل بألم، من دون أن تفعل شيئًا. كان استثمار دانييل في البحث عن التقدير أقل أهمية بكثير من العمل الحقيقي الذي تنتجه. لم يهتم رئيسها كلية بنظرية الثورة «تبدو قديمة» قال نيكي «من السبعينيات. ليست هنالك ثورة في قالب سخرية ذكية، داني. يحتاج الأمر لأكثر من ذلك.» حاولت مجددا أن تشرح له ما رأته في ثورة العدميين في ربوع نيويورك، التطهير الساخر لفقاعة الإخفاق

الناتئة –هكذا تصفه، ظانة أن الموضوع يبدو جميلا – لكن نيكي لم يقتنع. اهتم بالنجاح كثيرا، ألم يكن بمقدورها اختيار شخص ناجح؟ سألها ضاحكا.

«ألا تذكرين ذلك الرجل من مكان ما؟» تغيرت نبرة مارينا إلى ما هو تآمري، وهي تشير بإصبعها المقضوم للمظهر النحيل الموهن للودفيك سيلي. كانت بذلته مفصلة بعناية، لكنه لم يكن يرتدي ربطة عنق سوداء، لم يرد ذلك، توقعت دانييل، ليحرم هذا المجتمع من المتعة.

«ذلك لودفيك سيلي. الرجل الأسترالي الذي يحرر تلك المجلة الجديدة، ذا مونيتور. التقيته معي عندما كانت والدتي هنا.»

«يبدو أفضل مما أذكر. بدا هزيلا قليلا، ذلك اليوم في متحف ذا مِت.»

«أو ربما جعله النجاح أكثر... حسنا. أكثر» لم تقتنع دانييل بأن مارينا ستفهم سخريتها. استسلمت، غيرت نبرتها. «إنه رجل مثير للاهتمام في الحقيقة. بصفات حربائية، أظن، لكنه مثير للاهتمام.» توقفت» لقد أخبرته بأنه يجب عليه منحك عملا»

«أي نوع من العمل تماما؟»

«عمل يهيئ الطريق لسمعتك، طبعًا.»

«وماذا قال عن ذلك؟»

«اسأليه بنفسك،» قالت دانييل «أظنه في طريقه إلينا» وحاولت مجددا، بكل الخلسة الممكنة، تعديل فتحة صدرها في غطائها القرمزي، قبل أن يصير سيلي قريبًا كفاية ليقبل ظاهر يدها.

«دانييل مينكوف» قال، عيناه مثبتتان بحزم وكليا وبشكل يكاد يكون عاطفيا على عينيها «إنه يوم حظي.»

«لم ذلك؟»

«لقد صعدت إلى فوق لأدخل الحمام ورأيت برنامج الجلوس. يبدو أننا على المائدة نفسها.»

«أوه حقا؟»

«سمحت لنفسي بتغيير مكان البطاقات. والآن سنكون جنبا إلى جنب»

«إلهي، كم هو مشرف»

«لا تفعلي – كنت أعفي نفسي من الجلوس بجانب ذلك التنين الأرمل من جريدة ذا أوبزيرفر.» استدار إلى مارينا، نقر كعبه «التقينا، آنسة ثوايت، مع دانييل، في الحقيقة، قبل شهر. لودفيك سيلي»

«طبعا»

لاحظت دانييل أن شيئًا غامضًا يحدث لمارينا، وعي ملموس بالذات جعلها أكثر طولا، وأقل حضورا. مثلما عدلت دانييل من خط عنقها. علامة على إعجابها به. وهو؟ حاولت دانييل تفرس عمق نظرته على صديقتها لكنه بدا أقل شهامة، وأقل معرفة –وفعلا، أقلا تغزلا بالكامل– مما كان مع دانييل.

صعد الثلاثة الدّرَج، مضغوطين بعضهم إلى بعض بفعل الحشد المتحرك الذي اتجه من الردهة إلى أعلى، متدفقين إلى قاعة الرقص الواسعة والمرصعة بالثريات. هنا، كانت الموائد قريبة من بعضها حتى استحال المرور بينها حالما يستقر الضيوف في أمكنتهم. في هذا المكان الواسع، ارتفع الضجيج، مترددًا، يهوي مجددا كغطاء يُخرس كل الحوارات، لم تسمع دانييل ما قالته مارينا لسيلي، لكنها سمعت فقط «أراك لاحقا، سأذهب للانضمام إلى رفيقي لليلة.» ثم انسحبت مارينا نحو مائدة الشرف، حيث تراءى موراي خلفها منشغلًا، يحمل سيجارة غير مشتعلة في يده ومتواريًا خلف عرض متوهج ومتفجر من الزهور.

هذا الترتيب – المكون من زهور طيور الجنة، الواراتا وزهور بتلات أقدام الكنغر (وهذا للغرابة أثناء الموسم القصير لزهور الفاوانيا) – كان مكررا في ترتيبات أصغر على كل مائدة، زهور بدت في محاورها المغزولة وشكلها الأشبه بمصابيح، ألوانها الجريئة من الأحمر والبرتقالي والبنفسجي، علت فوق الضيوف وكأنها تسخر من تنافرهم.

«المرأة الأرمل أشبه بزهرة الواراتاه» همس سيلي لدانييل، « وتلك أشبه بطيور الجنة.» أشار لامرأة طويلة ونحيلة في حوالي الأربعينيات وهي تمر باحثة عن مقعدها. منقادة بأنفها البارز الشبيه بأنف فرد من أسرة سيتويل[15]، ارتدت معطفا كئيبا أصفر صارخا وحريرا مجعدا. الأرمل، كانت فعلا تشبه زهرة الواراتا عالية وصارمة، مغلفة في طقم أحمر داكن أكدت ألوانه وخطوطه على ضخم صدرها. شعر رمادي، وجه صارم، بشفة عَبوس لضفدعة كبيرة، كان اسمها سيرينا بالو «ألبالون، أكاد أراه» أشار سيلي بصوت باح «أما الرصانة فلا أراها للأسف»

«انتبه» قالت دانييل «أنا أرتدي الأحمر كذلك»

«القرمزي مختلف تماما. إنه ثوب جميل. تبدين رائعة»—

«أرجوك» احمرت دانييل «اسخر مني بشكل صريح حتى أعرف على الأقل الداعي لذلك.»

«أتهرّبت من مجهوداتي المتوددة؟ يا للخجل. لكنني صادق بحق. تملكين العينين المثاليتين لما يناسبك. حقا.»

«اختارت مارينا الثوب» قالت دانييل دون أن تفكر ثم تمنت لو أنها لم تفعل.

«صديقة جيدة ومفيدة» قال سيلي « تمسكي بها»

«أنوي ذلك»

«أتساءل إن كان يمكن للمرء تجاهل الأب لمدة طويلة» أكمل سيلي

«لقد ناقشنا هذا. ألم نفعل؟»

«طبعا. لكن لي سبب أكبر لإيذائه عندما يتجمع إعلام المدينة كقطيع خرفان من أجل مكافأته علنيا على توسطه. مهرجان حب مشترك. في غاية البغض.»

« وكأن إعلام المدينة كان يملك خيارًا أفضل»

---

15) أسرة سيتويل The Sitwells أسرة من ثلاث إخوة هم إيديث، أوزبيرت وزاكفيريل سيتويل كوّنوا في بدايات القرن العشرين صالونا أدبيا وفنيا مرموقا بلندن.

«ألم يكن لهم ذلك؟»

«ما أقوله هو أن اختيارهم حقير دوما. كلانا يرى الأمر نفسه من أوجه مختلفة. أنا أوافق على موراي ثوايت، وأشعر بأنه قد استُصغر نتيجة قبول هذه الجائزة، لأن هؤلاء الناس وهذه الجنة المسماة بالزملاء، مروعة ومتوسطة جدا. تعتقد بأن موراي ثوايت هو المتوسط، وأشعر بأنها الجائزة نفسها، وربما اللجنة أيضا، أو ربما أقل لأنه هو من يتم الاحتفاء به لكن هذا يجعلك مناصرا للمؤسسة، موضع غير راديكالي، أليس كذلك؟

«أو ربما أضع الجائزة ومتسلميها في كفة واحدة، مما يجعلني على الأقل شخصا صاحب نظرة»

«لماذا أنت هنا إذًا، لودفيك؟»

«أجل بالفعل، لماذا أنت هنا؟»

رفعت دانييل كأسها « الأمر كله مصدر كسب، أتعلم، قد تتعلم شيئًا ما، حتى هنا»

«بالفعل» وافقها سيلي «مراقبة الحيوانات في موطنها الطبيعي»

«وأنت ذئب في ملابس خراف؟»

«أنا مجرد رجل سعيد لأنه يرتدي كافة ملابسه» عدل سيلي السكين والشوكة في طبقه، «بينما معظمنا عارٍ تقريبا»

لم تستطع دانييل مقاومة النظر إلى أسفل، فجأة وعبثًا، خائفة من أن ثوبها قد تحلّل وكشف عن صدرها بالكامل» العري –حتى كاستعارة– يخونني فحواه أحيانا»، «أجابت أخيرا. «الكلّ متأنّق على أكمل وجه»

«وفي اهتمامهم، عارون حتى أولئك الذين يحطمون القواعد لإثبات وجهة نظرهم»

«»هذا سيكون أنت»

«نعم نعم، هذا أنا. فعند البحث لإثبات وجهة نظر، نحن نبحث عن التميز عن الحشد»

«لكن في هذه الحالة فحتى الناس الذين اختاروا عدم القدوم أبدًا، الذين مكثوا في المنزل وشاهدوا التلفاز، حتى هم مقصودون، وفق كلامك، هم يثبتون وجهة نظر ما»

«تماما»

«حسنا، إن لم يكن بمقدورك الهرب من النظام بأيّ طريقة فما الداعي إلى التفكير في الأمر حتى؟»

«نسيت أمر نابوليونك، دانييل عزيزتي»

«ها قد بدأنا مجددًا»

«لا تدوّري عينيك، إن كنت لا تستطيعين الهرب من النظام فعليك ببساطة أن تصيري النظام»

«تغيره من الداخل»

«لا، لا أبدًا، ليس من الداخل، الفكرة بحد ذاتها وهمية. لقد مررنا بهذا سابقا: تصبحين النظام، تصيرين ما يريده الناس»

«إذا كان بمقدورك تخمين ما هو»

ضحك لودفيك « الليلة، وللسخافة، يبدو أن ما يريدونه هو موراي ثوايت»

عدلت دانييل جلستها ورتبت شعرها. صبغ النبيذ ودفء الغرفة خدّيها – كانت تشعر بدفء الحرارة «كنت لأسعد لو كنت موراي ثوايت بنفسي، لقد كتب أمورا عدّة مهمة وصريحة»

«وجهة نظري تماما. حتى أنت كنت لتتقبليه، الدجال العجوز والكسول.»

«لن تهتم للقائه، إذا؟»

مدد سيلي يدا طويلة خلف كرسي دانييل المنسوج من البامبو المزيف، وانحنى عليها، وجهه شاحب، نابوكوفي، له مسحة مفترسة ومتوترة. «أتقدمين لي عرضا؟»

«حسنا، يمكنني ذلك. لكن فقط إن وعدتني بالتصرف بلباقة.»

«صدقيني، لا أعرف شيئًا غير أخلاقي. كانت أمي جد حريصة على هذا. لكنني أتوق بالفعل لأن أرى ذلك الحيوان في بيئته الطبيعة، أرغب وبشدة.»

لم تسنح فرصة دانييل لتعريف سيلي بثوايت سريعا. أولا، كانت هنالك السلطات المنقوعة في خل التوت، وأسياخ الجبن الأشبه بهوائيات، ثم شرائح لامعة في صلصتها، وأبراج متصلبة من البطاطا المحمرة في الفرن. كان هنالك نبيذ أحمر وأبيض، مياه عادية وغازية، ثم، قبل الحلوى، انتقال إلى الخطابات. أسكت صوت رجل محشرج الغرفة – رأت دانييل أنه الرجل الأصلع المرتدي للمخمل الذي كان قد تحدث مع موراي أثناء الكوكتيل– ومن خلال الصدى انطلق استظهار جديد حول جمعية الصحفيين وإرثها، في الستينات، مع نقابة الكتاب ومنشأة هذه المنظمة الفريدة حيث قد يجتمع كُتّاب أعمدة كُثُر. «حيث تجتمع زهور الواراتا وزهور طيور الجنة « همس سيلي، مشيرا برأسه إلى السيدة مالو، الّتي بدا ذقنها الرفيع مرتجفا فوق معطفها الأحمر وتثاقلت عيناها مع توالي الخطاب، بينما خلفها، على بعد عدة طاولات لكن على مرمى البصر جلس الجذع الحريري الأصفر الذي كان قد أشار إليه سابقا، يعلوه أنفه المهتز بحماس. من زاوية في الوسط بين سيلي ودانييل، بدا الأنف وكأنه ناتئ من انحناءة سيرينا بالو المتصلبة. الرجل المنتفخ الصغير – مجرد نائب رئيس مجلس الجمعية لأنه كان، كما توضح، ستقدّم رئيس الجمعية الأشبه بسفينة حربية زرقاء برّاقة («أو ربما عليّ أن أقول، تقديرًا لها، رئيسة الجمعية» صحح نفسه بضحكة نابعة من أنفه) – خطابًا يهيم من التاريخ إلى المهمة الحالية («آها» همس سيلي «أرأيت: هنالك مهمة. هذا بنفسه يمكن الاستيلاء عليه. لماذا لا تكون مهمتي، يا ترى؟») وصولا إلى الجائزة السنوية، المختارة بعناية، للشخص الذي كانت مساهماته للكلمة المنشورة («التباس في المهمة» قال سيلي بصوت خافت، «أو أن تَلْفَزِيّاتِك غير مسموح لها؟») في النهاية انسحب الرجل الصغير الذي كان اسمه من المفروض معروفا، ولم يذكر ولا

مرة، عائدا إلى كرسيه تحت التصفيق الواجب والمتعالي، لتعوضه السفينة الحربية على الخشبة، التي تحدثت بفك منطبق ومبتسم وكأن جملها كانت منتزعة بجهد من بين شفتين مقاومتين. سخر سيلي من هذا أيضًا، ومن بروز صدرها الأشبه بدرج. على الأقل لم تتحدث إلا قليلا، توطئة لموراي ثوايت، ثم عادت بهدوء لتستقر خلف أكبر ترتيب للزهور، إلى يمين ثوايت.

«دور المؤخرة في الحديث» همهم سيلي، رمقته دانييل بنظرة مغازلة يلازمها شعور بالذنب جرّاء خجلها، وشعرت بحضور يد سيلي الغامضة والناعمة على مؤخر عنقها. تذكرت ذلك المساء خلال أول لقاء لهما بسيدني، والطريقة التي رأته ينحني بها على مويرا – وما أحسته هي، دانييل، آنذاك. تقبُّل السخرية من موراي ثوايت بهذه الطريقة ومن هذا الرجل حتما يعني الخيانة لصديقتها العزيزة ولمحطّ السخرية نفسه، صديق جديد وبالتالي حقيقي لها، ومع ذلك، ولأجل هذه اليد، هذه الابتسامة الساخرة، كان واضحا أنها أكثر من موافقة.

في الحقيقة، لم يكن خطاب موراي ثوايت مميزًا، أو ربما لم يبد كذلك في ظل سيلي. كان بمقدور دانييل تخيل تعابير مارينا الطروبة – تعابير عرفتها جيدا– ووجدتها معكوسة على أوجه نساء عدّة حولها، بما فيها وللمفاجأة وجه سيرينا بالو. تحدث موراي ثوايت عن أهمية النزاهة، عن السعي للحقيقة حتى عندما لا تكون لائقة. تحدث عن الأوقات المتغيرة، عن ثقافة منشغلة بالشكل أكثر من انشغالها بالفحوى، عن مسحات المشاهير الذين يعبدهم جمهورهم.

«لا تفهموني خطأ رجاء.» قال، «يشرفني بأن أقف هنا الليلة، وسعادتي تفوق الأوصاف للاعتراف الذي أنعمتموه علي.» توقف، نظر بعمق ووسامة للجمع، ورفع حاجبا دفع بسيلي للهمس «كيتش، كيتش خالص» وأكمل «لكنني ترعرعت وأنا أتساءل حول ماهية كل جائزة ومكافأة، الوعد بأن أي فكرة مقدمة أو شخصية قد تكون أهلًا للثقة. كنت يافعا في الخمسينات، وعدت إلى رشدي في الستينات– وقت بعضكم كبير كفاية لتذكره– عندما

آمنا بتمزيق كل شيء والبدء من جديد. عندما كانت أيّ مؤسسة، وحتما أيّ منظمة كهذه مصدر شك. تذكروا إن استطعتم ذلك الشعار من باريس نهاية الستينات: الحلم زائد التطور يساوي الثورة. تهور مبين، آنذاك، وساذج أيضا، وربما مؤذ في سذاجته: لكن الكثير من الخير توفر في تلك الأوقات، تلك الآراء، لا يمكن النكران بأنها شحذتني وشحذت الطريقة التي أسعى فيها إلى واجباتي.» توقف مجددًا وسعل كما يسعل المدخّن.

«منفضة سجائر مقززة وعجوز» قال سيلي، «وكما كشف لنا الزمن بوضوح، الحلم لا يحدث أيّ ثورة أبدا، صديقتي»

«إن لم أكن أؤمن بالفكرة، فلن أقولها، ناهيك عن أن أكتبها. إذا ما لمحت افتراءً أو ظلما، إن عملي يقتضي تصحيحه، أو على الأقل محاولة ذلك. لا أؤمن بأن شيئًا مهمٌ فقط لأنني أُخبرت بأنه كذلك. والعكس، ربما بشكل أكثر حتمية، صحيح كذلك: شيء ما ليس واهيًا فقط لأنه تم تجاهله بشكل كبير من قبل الآخرين. سأتوقف عن المحاضرة، لأنني أومن كذلك بأني لا أريد أن أكون مملا» – هنا، ضحك الجميع بحماس أكبر، ورأت دانييل بأن الأمر مشروع– «لكنني ملزم بأن أتقبل هذه الجائزة الكريمة» – أشار إلى السفينة الحربية، التي حرّكت رأسها بالإيجاب أيضا– «وأرجو بأن تسهم هذه الطريقة العتيقة في رؤية العالم، في محاولة رؤيته على حقيقته. أو على الأقل، أن نستمر في الاحتياج لغاضبين ورافضين مثلي في الجوار، لإحياء الأمور قليلا.» ابتسم، بدا وكأنه يغمز» الآن أقول لكم شكرا وليلة طيبة، لأنني متشوق للخروج وتدخين سيجارة عتيقة.»

«أكان هذا ضروريا؟» سأل سيلي أثناء التصفيق. «مع هذه العبارة الأخيرة المبتذلة»

«لا أعلم» قالت دانييل. « التدخين مبتذل، الخطاب ربما كذلك، لكنه إن كان يعنيه؟ أليس على صواب؟»

«يعنيه؟ أرجوك عزيزتي، الأمر لا يتعلق بما يظن أن الناس يودون

سماعه حتى – إنه بالضبط ما يعتقد بأن الناس لا يودون سماعه، كتأثير زيت كبد الحوت. لا يريدون سماعه، إذا فهو جيد لهم. أخرق، مهينٌ عمدًا، مما يبدو لي أسوأ بكثير من الإهانة غير المقصودة. إنه لا يؤمن بها مثلي ومثلك»

«ظننتني أؤمن بها»

«تضحكينني»

فكرت دانييل في تعليق مارينا السابق حول والدها، تلميحها بأن شخصيته كانت أقل، أو أكثر أصالة– شيء قالته دانييل على مر السنين، مشيرة أكثر من مرة لصديقتها. ما بدا واضحا الليلة هو أن مارينا رأت بوضوح تبجح والدها، تصنعه، لطالما رأتها، ولم تهتم. ربما رآها الجميع ولم يهتموا، ولو أنه من المفترض أن تكون أصالته المدعاة قوتّه الأساسية. أكانت هي نفسها منجذبة أم نافرة منه؟ أكان ثوايت بطلا أم منافقا؟ أم هما معا؟

«عليك أن تفهمي اللعبة» كان سيلي يقول «إنهم– نحن، كلنا نريد زيت كبد الحوت من موراّي. نريد أن نهزّ رؤوسنا ونتلقّى الرّفض بيسالة لأننا آنذاك سنشعر أننا أبرياء، أحرار في مشاهدة الأوسكار على التلفاز والاستمتاع به، بالشكل الذي يُسمَح للكاثوليكيّين بالشرب ليلة السبت ما داموا يتلقون اللوم غدًا صباحًا. اسمح للجميع أن يكون جادًا وأن يستمتع. موراّي أضحوكة. هو يعلم ذلك ونحن نعلم ذلك. نحن متواطئون جميعًا في هذا. الآن، أتظنين أنه انتهى من مهمّته؟ أيمكنك أخذي لأعبّر عن احترامي؟»

وهما يصعدان ببطء بين الحشد – الذي قام مجتمعا عن كراسي البامبو المزيف واحتشد الآن بضيق أكبر في الردهة السفلى – استقبلت دانييل مدركة السحر الذي ألقي عليها: لم تستطع فهم مشاعر سيلي الصادقة تجاه ثوايت، كان يزدري الرجل العجوز بقوة، لكنه طالب برؤيته. لم تنتبه إلا قليلًا الى خطئها التقديري في الافتراض – بأن لسيلي مشاعر «صادقة»، بأنه فعلًا عندما يتعلق بسيلي فكلمة الصدق مفقودة من قاموسه. لم تستطع تمييز الأخلاقيات التي تسيّر هذا الرجل، بالرغم من أن بعض القوانين يلزم أن

تتضح، وبالرغم من ذلك، شكت أيضا بأن طريقته المبهمة في الحديث إليها قد صارت اعتيادية عنده. عندما مرت بمحاذاة السيدة التي تشبه زهرة طائر الجنة بابتسامة مثبتة على وجهها، فكرت دانييل، «شيفرة. شيفرة نابوليون» بدت هذه الطريقةَ المثلى لوصفه، رغم صعوبة فهمها. هذه الأخلاقية البديلة، هذه الشيفرة غير المفهومة لها كانت طريقة سيلي في التحكم. لجعل الجميع ينظر بطريقة مختلفة، طريقته، ثم جعل تلك الطريقة هي الأساس. ثم جعلهم – كل نابوليونات المجتمع الصغار، كلنا، فكرت– تحت سطوته. رغبتها في صرف النظر عن خطاب موراي ثوايت باعتباره عبثيًا، لفهم شجاعته العبقرية في التشكيك بالأكاديمية كتلاعب لمصلحته – كل هذا، فكرت بأنها طريقة اقتحام سيلي لدماغها.

أو ربما كان هذا هراء؟ ربما كانت حالة عادية لشاب يحتاج لذبح والده – قلق التأثير، كما كان ليسميها أستاذ جامعتها– لأنه لماذا إذًا أراد سيلي لقاء الرجل؟ رأت ظهر مارينا وهو يطفو إلى أعلى، الذراعان النحيلتان تحاولان بأناقة التحرك رغم الزحام. لكنها قبل أن تترجل من قطار أفكارها، أرادت أن تمنح سيلي حق الشك. يعلم الله، قد تنزعج من أمها لكنها تحبها. ولهذا فسيلي أيضا يستطيع الإعجاب وكره ثوايت، قد يمقته لأنه كان معجبا به سابقا. قد يفسر هذا رغبته في لقائه، ولا يجعل منه الأمر وحشا أكثر مما هي عليه. بدا أن سيلي كان يرغب في أن ترفه عن خيالاته الجامحة بخصوصه، شجع ذلك. لكن هذا ربما كان أكثر زيفًا من رغبة ثوايت في الوقوف ضد المؤسسة بينما قبل الجائزة.

«والدي في الأعلى» أخذت مارينا نفسًا. «وَعَد بأخذنا لحانة أوك روم بفندق البلازا. وربما من ثمة بعدها إلى المنزل مع الجميع، إن بدا الأمر ماتعا. أعلم أنها ليلة مدرسة لكن هيا داني، وافقي على الأمر»

«أيمكن للودفيك سيلي القدوم أيضا؟ يريد أن يلتقي»– لحق بهما سيلي، وضع يده الناعمة والآسرة على خصرها– « كنت أقول لتوي لودفيك،

بأنك ترغب في لقاء والد مارينا.»

«حتما أرغب في ذلك. إنه – شخص مهم في تكويني.» «لا تخبره بهذا.» ضحكت مارينا «ستجعله يشعر بأنه عجوز. ثم مجددا، إنه يعشق الإطراءات، ربما عليك إخباره بذلك إذا. سأترك الاختيار لك.»

كان هذا شبه دعوة. تحرك الثلاثة مع حركة المد الحاشد إلى الساحة المعبدة خارج قاعة الرقص، ومن ثم إلى انتظار السيارة ضمن السيارات، مميزة فقط بسائقها الأنيق.

«هي، حسين، أيمكن للودفيك الجلوس بجانبك؟» سألت مارينا، وتوجهت للآخرين قائلة « متأكدة من أنه يلزم على والدي استقبال مزيد من التربيتات والهتاف، قبل أن يستطيع الهرب. لن يتأخر طويلا»

«أنت لا تدخنين» نظر سيلي إلى مارينا، وهم متكئون على السيارة ينتظرون، ملفّعين في نسيم المساء البارد.

«أهي مفاجأة؟»

«ربما»

«ثم من قال بأنني لا أدخن؟»

«لأنني كنت لأحتاج لبعض التدخين بعد كل هذا» حرك سيلي رأسه نحو الجمهور المتفرق، بينهم كانت طائر الجنة أكثر بروزا.

«لو ترعرعت في الدخان مثلما فعلت، ما كنت لتتوق إليه، صدقني»

«كان آل السمين مدخنا، أليس كذلك؟» قالت دانييل ممازحة.

«نعم»

«من هو آل السمين؟ حيوان منزلي مطرود؟»

«تقريبا. كاد أن يكون خطيبي سابقا.» تجهمت مارينا ولوحت بيدها «مختف في الأثير الآن، لا أعلم إن كان يدخن أم لا. ليس من شأني بعد الآن.»

عض سيلي شفته السفلى «أكان بالفعل سمينا؟»

«يعتمد الأمر على معاييرك، بالنظر إليك – أقول إنك كنت لتعتبره

سـمينا»

«لقد كان سـمينا» قالت دانييل. واعتقدت أنهما بديا متفاجئين معـا، وكأنهما كانا في طـور نسيان تواجدها هنـاك» لم يكن منتفخا، لكنه كان حتما سـمينا. اعتادت مارينا إمسـاكه من بطنه وقـول إنها كانت تحبه لهذا»

«أرى ذلك» قال سيلي.

«ها هـو والـدي قـادم» قالـت مارينا، واسـتدار الجميع لمشـاهدة الرجل العظيم يمشي ببطء قاطعا السـاحة، ربطة عنقه مفتوحة وياقته غير مزرّرة، شـعره اللامع يطايره الريـح. كان محاطا بمـن يتمنـون له التوفيق والذين تخلفوا واحدا بعد الآخر وكأن الأمر منسّـق، من دون مقاطعة مشيته. سـيجارة مشـتعلة عالقة في زاوية فمه، ابتسـم، ولم يكن واضحـا لمن.

«كإلـه ما» همس سـيلي. نظـرت دانييل إليه، ونظـرت إلى مارينا وهي تنظـر إليه، وتسـاءلت ما الـذي كان يحـاول قولـه بحـق الجحيم.

الفصل الثاني والعشرون

كفانا حديثًا عن أنفسنا

«إنه فقط يبدو لي غريبا،» قالت مارينا وهي تسير خارج طريق رولربلايدر المكتظ «لا أستطيع تحديد السبب»

«من؟» كان جوليوس يعاني ليتابع حديثها. تأخر الليل ووهج الشمس قد أظلم، وكان مركزا على ألا يتقيأ، بالرغم من أنه لم يتناول أي إفطار. ربما لأنه لم يفعل. بدل ذلك، تلكأ تحت حمام ساخن، وأيقن أن بشرته الناصعة وشعره اللامع لم يوحيا بأنه يعاني. لم تجد قطرات فيسين عينيه بأي نفع ولا أنفه، الذي بدأ الآن بحكه والسيلان.

«ما الذي تعنيه بـ من؟ أتستمع حتى، جولز؟»

«متعب فقط، هذا ما في الأمر. لا ترمقيني بهذه النظرة. أخبريني من؟»

«قريبي، فْرِدرك. أتعلم بم تناديه أمه؟ بوتي. إنه راشد بحق الله، كان بمقدوره إيقاف هذا.»

«بوتي؟ كما في أغنية هزّ مؤخرتك[16]؟»

«لا أظنه قد رقص كفاية، بالنظر لحجمه»

«إيه صديقتي لقد عشت مع آل السمين واعتبرته مثيرا»

---

16) Kc & The Sunshine Band Shake Your Booty 1980

«لسبب ما يبدو أنه على لسان الجميع هذه الأيام. ستكون مهتما بأن تعرف بأن انجذابي الجديد نحيل بالكامل.»

«هذا جديد. أريد إسهابا بشأن هذا. لكن لماذا يخيفك قريبك؟»

أكملت مارينا في تفسير كونه في ليلة عشاء الجوائز، عندما عاد الجميع إلى الشقة، متأخرين في حوالي الواحدة والنصف، وتجمعوا في غرفة المعيشة -ست أو سبع أشخاص فقط، ثملين جدا، آنذاك بشكل احتفالي- قامت لإحضار بعض الماء ووجدته يحدق في المطبخ المظلم. واقف هناك فقط. «آسف، هل أيقظناك؟ سألته فقال لا، لا لم يكن نائما، كان يرغب في الحصول على مشروب، ثم بعد ذلك وقف هناك، وقف هناك فحسب من دون أن يتحرك من دون شراب، وبدا، أفهمت، بتلك النظّارات الثخينة والعينين المخيفتين، كان يحدق إليّ كمخلوق فضائي، فقلت في النهاية إن كان يريد الانضمام إلينا – أمر غريب بحد ذاته لكن الأخلاق أملَت عليّ ذلك – فقال نعم. أليس هذا مخيفا؟»

«لماذا؟» تثاءب جوليوس. خطواتهما البطيئة خلال المتنزه كانت تتعبه أكثر. هو الآن بجوار حيّها. شعر وكأنه يسبح بدل أن يمشي. لم يكونا بعيدين عن المتحف. «أليس للفتى الحق في لمحة من البهاء؟ أعني، إنه من بافالو أو شيء من هذا القبيل»

«واترتاون»

«وهو يافع. أتذكرين كيف كانت الأمور؟ إنه خائف منك»

«هذا ما تقوله والدتي دوما بشأن العناكب»

«بحق، فكري في الأمر»

فكرت مارينا « لم أكن خائفة يوما. ليس من الناس. لقد تربيت على ألا أكون كذلك»

«ربما هذه هي مشكلتك»

«ماذا يعني هذا؟»

هز جوليوس كتفيه «أظنني بحاجة إلى بعض القهوة، قبل أن أتلقى

أي فن»

«لن أشعل شجارا بسبب ما قلته. لأنني لا أراك كفاية، ولا يمكنني تحمل هذا. لكن لا تظن بأنني لن أسجلها»

شعر جوليوس أيضا بأن هنالك بعض المسافات بينهما لا جدوى من تقليصها. عليك أحيانا أن تتصرف مع مارينا وكأنها نزلت من ثقافة مختلفة – والتي، إلى حد ما، هي كذلك. « من الجيد معرفة أنك لم تتغيري. الآن جدي لي مقهى»

«في شارع ماديسون»

«لا أعلم كيف يمكنك العيش هنا»

«لا أفعل. أعيش في الجهة الأخرى من المتنزه»

«كله موت. نفس الشيء»

«قالها الحكيم! الذي كان إلى وقت قريب يعيش في مشاريع الإسكان، والآن في جنة شقق تشيلسي!»

«أوه، أنت تتصرفين بحقارة؟»

«حسنا، لمْ تدعُ أحدا في الجوار، لا بد أن يكون هنالك سبب»

«فعلا؟»

«فكرنا دانييل وأنا بأننا ربما لسنا ذكوريّتين كفاية، أو مثليّتين كفاية، لديفِد.»

«أرجوك، لا تكوني سخيفة» لم يرد خوض هذه المحادثة أيضا. إن لم تفهم، كيف عساه أن يشرح لها؟ عندما ينتقل شخص من بلدته الأم لأجل عمل جديد، لا تشعر عائلته أو أصدقاؤه المقربون بالتهديد. يشعرون بالفخر من انجاز الرجل. وألم تكن علاقة –بحق الجحيم، في حياة جوليوس، إنجاز علاقة دائمة لشهرين حتى الآن – شيئًا يجب على مارينا ودانييل أن يكونا داعمتين له وفخورتين به؟ كان هنالك ثمن، فكر بحرقة، لأي شيء.

«نفضل أن نفكر بأنه ليس للأمر علاقة بكوننا مملّتين»

تنهد جوليوس «ديفد مشغول للغاية. يملك عملا مهما، على خلافي وإياك. لا يملك الكثير من الوقت للاجتماع، وعندما يفعل فإن له الكثير من الناس الذين يحتاج لرؤيتهم»

«يريد ذلك، تعني»

«طيب، يريد ذلك. ما العيب في هذا؟»

«أن تعتقد فقط بأن عليه لقاء الأصدقاء القدامى لرفيقه. لا التسكع معهم بالضرورة، لكن يلتقيهم على الأقل»

«أن تعلمين كيف تسير الأمور. نحن نحاول إيجاد بعض التوازن في علاقتنا، نحن الإثنان فحسب. سيكون هنالك وقت –فائض من الوقت– حتى يلتقي الجميع، وليصبحوا أصدقاء»

«لقد مرت أشهر جولز»

«شهران فقط» توقف. « أتذكرين مفارقة ناتاشا/ بيير؟»

«إلهي، كيف لي أن أنسى؟»

«حسنا، أتذكرين ما حدث لناتاشا في النهاية؟ ولا أحد راقه الأمر، كلهم قالوا لكن أين ذهبت ناتاشا القديمة؟ لكن المغزى هو أنها مستمتعة. إنها سعيدة. هذا هو المغزى.»

تنهدت مارينا « كم مرة عليّ أن أذكرك جوليوس؟ لم أقرأ الرواية اللعينة.»

عندما اقتعد الاثنان أريكة تغليفها القديم والفورميكا المصنوعة منه أذهل عيني جوليوس الجافتين – اختارت مارينا مسامحته، والسبب الأكبر لهذا –فكرت– هو أنها أرادت الاستمرار في الحديث. من الواضح أن حوارهما على الممشى قد أعطاها معلومات كافية حول حياته الجديدة، لأنها لم تسأل لوقت طويل مزيدا من الأسئلة.

«حسنا، أظنني مهتمة بشخص ما» اعترفت، منحنية إليه بحماس مستهدف.

«هكذا قلت قبل قليل. من هو، هذا الذي يستطيع مجاراة معاييرك؟»

«للغرابة، هو نحيل، ويفقد شعره، وجاف جاف للغاية – حس دعابته، أعني،– »

«يبدو رائعا»

«اعفني من سخريتك»

«لا، بخصوص حس الدعابة، أعني ذلك. لا الجزء المتعلق بالجمبري الأصلع.»

«ليس نحيلًا كالجمبري. طويل وبارز – أو بالأحرى رفيع. هذه هي الكلمة التي تصفه»

«مِثلي؟»

عدلت مارينا من جلستها «لا. على الأقل، لا أظن ذلك»

«يبدو مثليا»

«لا. أنا متأكدة من أنه ليس كذلك. أسترالي، ويصعب فهمه، أنت تعرف.»

«الأستراليون مفتولو العضلات أو مثليون. أو مفتولو العضلات ومثليون، أسلوب سكان ذا فيلاج.»

«توقف»

«أسف. إن كنت تظنين أنه مستقيم، فهو على الأرجح كذلك. ما الذي يفعله؟»

«حسنا، هذا هو الأمر»

«أي أمر؟ أهو ممثل أفلام إباحية أو شيء من هذا القبيل؟»

«غير مُضحك، جولز، توقف عن الأمر. لا. الأمر ومافيه بأنه ربما سيوظفني.»

«يوظفك؟ من في كامل قواه العقلية قد يوظفك؟»

عبست مارينا.

«حسنا، حسنا. من الواضح أنه لا يمكن ممازحتك في هذه. أخبريني إذًا بالقصة كاملة. لم تكن لدي أدنى فكرة بأنك تبحثين عن عمل. ابدئي من البداية لأجلي؟ هل التقيته في مقابلة عمل؟»

شرحت مارينا كيف تعرفت في البداية بلودفيك سيلي. وكيف رأته مجددا في العشاء، وكيف قدم معهما لاحقا وجلس بجانبها في حانة ذا أوك روم، وكيف وجدا أنهما يتفقان على الكثير، من إعجابهما بآن صوفي موتر أو ميلهما إلى السوشي أو تجنبهما للشراء عبر الإنترنت، لأن تجربة الاستمتاع بمنتوج، استعمال الحواس الخمس، كانت أساسية. «إنه يهيّئ لهذه المجلة، ستنطلق في أيلول، تدعى ذا مونيتور، وسأل فجأة، بدون سابق إنذار، في سيارة الليموزين في الطريق إلى المنزل إن كنت مهتمة بعمل.»

«ما نوع العمل؟»

«لا أظنه مَسْح الأرض. كانت داني قد اقترحتني عليه، لكنه قال بأنني مثيرة للاهتمام، كانت هذه عبارته، كما وصفتني»

«الآن ماذا؟»

«اقترح مقابلة عمل. لقاء رسمي. لكنه كان اقتراحا عابرا، وكنا كلنا ثملين – قنانٍ عدّة، فهمت – ثم في النهاية، عندما غادر، قال فقط «لنبق على تواصل»، والآن لا أعلم إن كان عليّ الإتصال به أم أنه حدد وقتا قد نسيته أو»

«أتريدين النوم مع الرجل أم العمل عنده؟»

«ألا يمكنني القيام بهما معا؟»

تذكر جوليوس أسبوعه الأول في العمل تحت إمرة ديفِد: حماس المسألة، النظرات، لمسات الأنامل الأولى. «لا قانون ينافي المسألة. لكنها ربما ليست الطريقة المثلى للبدء، ربما. ماء عكر. يسبب الأمر مشاكل في نهاية الطريق، أو من البداية حتى.»

«كيف هذا ؟»

«لا شأن لي بهذا لكنني ظننتك لا تريدين عملا. على الأقل، لا قبل الانتهاء من الكتاب.» رافعًا حاجبيه الكثين، أكمل «أو ربما ذلك قد تغير؟» بدا دائما بأنه يحاول الاستيعاب. يحاول فهم ما يفكر فيه الآخرون وما يتوقعون، ما الذي يأملون فيه، حتى هذا، كان بخصوص التمحيص فيما تريده مارينا منه. كره الأمر. وكأنه كان العلاقة الأضعف. بدا بأن الحياة الوحيدة التي يملك، الحياة خاصته، كانت حياته السرية، وكان سيبقيها محمية فقط بأن يبقيها سرية. لم تكن مارينا لتعرف عن الأمر، وإن فعلت، لن تهتم. كانت غارقة في تفاهة أخذها وردها في حياتها الخاصة. الكتاب غير المكتوب الأبدي.

«لو كنت تحافظ على اتصالك بأصدقائك جولس، كنت لتعرف عن هذه الأمور. لقد كان الأمر أزمة كبيرة لي، الأشهر الأخيرة، أن أحصل على عمل أو ألا أفعل.»

«أرجوك» دوّر عينيه.» كفانا حديثا عما لا أفعله كفاية لأجلك، لقد كنت متواجدا لعشر سنوات لأسمع عن هذه الأمور. وإن غبت لبضع أسابيع، تضايقينني بخصوص الموضوع؟ رجاء» حرك شعره وكأنه يطارد بعوضة.

«أخبريني إذا، لماذا الأزمة؟»

«ما الذي تعنيه بلماذا؟ كانت لك نجاحاتك، فربما تعرف ما هو عليه الأمر.»

«رجاء، مجددا، رجاء. لا تحدثيني عن نقص نجاحاتي. بوصلة مستقبلي مشروخة طيلة العامين الماضيين وحتى وقت قريب، لم يكن بمقدوري ادعاء امتلاكي لعلاقة لائقة»

«إذا كنت تعرف جيدا كل هذا، فتوقف إذا عن التقليل من شأن حياتي. أنا في الثلاثين وعاطلة عن العمل، وأبدو في غاية العطلان أيضا، مع مرور الوقت. يبدو أن والدي كذلك صار يرى بأنها فكرة جيدة. لكنه لا يمكن أن يكون عملا غبيا، شيئًا في غاية السخف والعبثية، لا شيئًا أقبله فقط لأني

بحاجة للمال أو للخروج من المنزل أو –»

«لا كالعمل المؤقت مثلا» قال جوليوس لإشباع سخريته الخاصة.

«تمامًا، لا شيئًا في غاية السخافة»

«هل أنت متأكدة من أن هذا لن يكون كذلك؟ أهو أمر متعلق بالكتابة، التحرير أم ماذا؟»

«لا زلت لا أعلم»

جفل جوليوس، مرر يديه على وجهه. كاد طموحها الطفولي العنيد أن يسبب له عدم ارتياح جسدي. «أخبريني فحسب» قال. «أخبريني أنك لا تريدين قبول هذا العمل المجهول فقط لأنه هو من منحه، هذا الرجل النحيل الأصلع صاحب الاسم السخيف؟»

«لا إطلاقًا»

«حسنا، إذا كان الأمر لا. الآن أخبريني بأنه لا يعرض عليك هذا العمل فقط لأنه يريد استدراجك إلى السرير؟»

«هذا أدنى منك، وسأتجاهل الامر»

«أخبريني بأمر آخر»

«ماذا؟»

«كيف تشعر داني بخصوص الرجل؟»

«تقول بأنه معروف في أستراليا، ذكي جدًا وربما قد يكون أكثر طموحًا. طموحٌ يافع مقارنة بما وصل إليه.»

«هذا لا يجيب عن سؤالي.»

«لا أفهم ما تعنيه»

«كيف تشعر بخصوصه؟»

كان دور مارينا في وضع يدها على وجهها، مررتها بطريقة مرتعشة، جاعلة أصابعها تستريح فوق عقدها الفضي عند حلقها وبدأت بالتلاعب بها، محاولة رفعه فوق ذقنها. «لا أظن أنها تشعر بأي شيء تجاهه إطلاقا. التقيا

في سيدني، صادفته هنا، وتفكر في صنع شريط يتضمنه – شيء بخصوص الأشخاص الذين لا يقدسون أعلام المجتمع وعليته»

«لكن أهي معجبة به؟»

«لا أظن ذلك» نظرت إلى النافذة، وكأنها تعتصر دماغها. «لا، إنها متشككة بشأنه. ليست معجبة به كما عبرت. كانت لتخبرني، لو أنها فعلت»

«أتخبرك بكل شيء؟» لم يستطع جوليوس إخفاء السخرية من صوته لكن مارينا لم تلحظ الأمر.

«أي شيء متعلق بهذا، نعم»

«إذًا فمن يعجبها؟»

«لا أعلم، لا أحد. لم تهتم بأي أحد منذ مدة. منذ الشاب المتخرج ذاك الذي هرب وتزوج»

«إن كنت تعتقدين هذا. ربما عليها الخروج مع قريبك؟»

«مضحك للغاية.» صمتا لوهلة. آنذاك أخرجت مارينا محفظة نقودها. «وقت الفن الآن. كفانا حديثا عنّا.»

عنّا؟ فكّر جوليوس. عنّا؟ لكنّه تجاهل الأمر. حتى أنه سمح لنفسه بالشعور بإحساس عارم من الحنان تجاه مارينا، التي بدت جد عادية، بسيطة وعادية للغاية. كان من الجيد رؤيتها، سهلا، كالعودة إلى الوطن. معروفا رغم استفزازاته. لقد اشتاق إليها. «إن كنت تريدين رؤية الرجل، أصوت على أن تتصلي به،» قال. «لا جدوى من لعب دور الكمان المنكمش. لن يوصلك إلى شيء. وقد ينجح العمل أو يفشل. في كل الأحوال، لست أسوأ حالا من دونه»

الفصل الثالث والعشرون

يد مساعدة

لم يكن موراي بحاجة إلى اختلاق أي عذر من أجل ملاقاة دانييل على شراب: نادرا ما عادت أنابيل إلى المنزل قبل الثامنة، كان لديه التزام غداء مع بوريس القادم من لندن. وكانت تعلم حاله. إن لم يكن موراي في المنزل وقت قدومها، كانت أنابيل لتتوقع بأنه لا يزال «في الغداء» مع بوريس. وستحرص على ترك بعض العشاء على المنضدة في حالة ما إذا أراده. كان موراي شاكرا دوما لاستقلالها، وشاكرا أيضا لأنه لم يكن يستغل الأمر. في السنوات التي غادرت فيها مارينا إلى الجامعة وبالذات الآن مع عودة مارينا اللامحددة، كرست أنابيل نفسها للعمل الخير في القانون، ووجدت مصباها في الأسر المفترقة وغير المستقرة والمحرومة. كان موراي أحيانا يمازحها، يتذمر لأنها نبذته من أجل ربة بيت نحيلة ومجروحة أو شاب قوي عنيد منقطع عن الدراسة. لكنه كان مزاحا فحسب: كان يخبر كل من سأله بأنهما قد حافظا على التوازن الأمثل بين الاستقلال والزواج المشبع بالثقة. لم تكن بحاجة لمعرفة أين يمضي كل ساعة –وحتما لا عندما كان يسافر من أجل محاضرات أو جولات تسويق كتب– لأنها كانت تعلم بأنه يعود إليها ليلا. وكان يعلم بأن

تعاسة العالم لا يمكنها زعزعة مكانه في قلبها. ما زالا يمارسان جنسا رائعا، بتواتر كاف ليطمئنهما معا. وإلى جانب ذلك، ماذا كان أخذ شراب بسيط مع صديقة مارينا، غير التعبير الصحي عن قلق أبوي لأجل ابنته العزيزة؟

تبريرات، تبريرات، تمتم وهو يحلق بكل شك. لم تكن المرة الثانية: لم يهتم بالحلاقة لأجل بوريس الذي لم يهتم طبعا هو الآخر بالحلق لأجله، رجلان متعبان على حافة نافذة مطعم، يغمزان من خلال القماش ناصع البياض لبعضهما، لحاهما - رمادية وبيضاء بالتتابع- تلمع تحت أشعة الشمس الثائرة. طلبا شرابا، ووصلا لمرحلة من التفاهم في الوقت الذي فرغ فيه المطعم من رواده وقت الغداء واقترب الوقت من الرابعة، كان لموراي متعة -كإيصال امرأة صعبة إلى النشوة- انتزاع ضحكة بوريس المجلجلة الزائرة، اهتزاز سمين مكور حرك كتفه، رجّ اللحم تحت قميصه وحرك فكه قبل الاندلاع الكبير، في الغرفة الفارغة الآن. بعد هذا، أخيرا، تمكن موراي من الانسلال متجها إلى المنزل قبل أن يدخل حشد الكوكتيل عبر الباب.

من أجل هذا اللقاء، حلق ووضع كولونيا - رائحة جين وتونيك التي كان يراها تخصه بالرغم من أنه كان في الحقيقة معتادا على الويسكي- وقميصا نظيفا كان يعجبه مخططا بخطوط ضيقة. بدت يداه وكأنهما ترتعشان قليلًا، عندما رفع موس الحلاقة إلى وجهه، عندما أسرع في تزرير قميصه، وتساءل عما إذا كانت هذه تخمة الغداء قد شرعت في الزوال، نداء حاجة نادرٌ إلى مشروب مزيل لدوار الثمالة أم أنها رعشة نابعة من تخوف صادق. هذا الخوف قد فاجأه لأن عادته هذه - المشروب الغريب، الاندفاع الغريب، عقد ربطة العنق المطوّل الغريب - كان جزءً منه بالقدر الذي كانت أنابيل، أو مارينا، أو - في تشابه بدا له الأرجح- أو كما كانت البابا لصيقة به. إن كان قلقا أكثر من العادة- وهذا كان صحيحًا، لأن نبضات قلبه كشفت إما عن أعصاب أو جلطة منتظرة- فلأن هذا بسبب عقابه لنفسه بشهيق حزين وهو يبلع جرعة ويسكي صغيرة قبل المغادرة، يجب عليه ألا يتخيل،

ألا يغري، صديقة ابنته الأقرب. لأنها ستُغرى، كان متأكدا من هذا- شيء ما بخصوص ترددها في الردهة، وقت العشاء. شيء ما بخصوص ارتجاف شق صدرها الأبيض. فستان رائع بحق.

لمحها بمجرد دخوله للحانة، وحيدة في الظلام جالسة إلى مائدة قبالة الجدار – حيث كان يمكن لكشك أن يشغل المكان نفسه، ولم تكن للحانة أي ذريعة حيال هذا. لو كان كشكا لكان أفضل في تقديره- كأس نبيذ أحمر على الأقل أمامها. بدت أصغر، أشحب، عادية أكثر مما تصوره خياله، أنفها أكثر بروزًا وشعرها بدوره كبير ومتموج داكن، مصفف جانبيًا فبدت خدودها عريضة كلوح. لكن هذه الحقائق التي كانت لتعتبر نقائص حمسته، وعندما رفعت عينيها وابتسمت -بخجل، كان ليقول- توقف وتنحنح.

«عزيزتي» استهل، منحنيا لتقبيل خدها الذي كان باردا وذا عطر حلو.

«لم أكن متأكدة من أنك ستأتي.»

«أتأخرت؟» تظاهر بالنظر إلى ساعته. «أحاول أن أكون دقيقا.»

«لا، ليس هذا – لكننا لم نتحدث عن الأمر ذلك المساء ولم أكن متأكدة...»

«لا أنسى موعدا.» ابتسم. «خصوصا عندما أعقده بنفسي. لم أكن أبدا لأنسى موعدا معك.»

لعقت شفتها، تأملت فسيفساء الطاولة. «وأنت قلق بشأن مارينا.»

«ألست كذلك؟ لنكن صريحين، ألست؟»

حركت دانييل رأسها إيجابا «اقترحت – اقترحت لمرات عدّة- أن تحصل على عمل.»

«أخبرتني. دعيني أحصل على شراب.» أشار للنادلة، طلب وأشار لدانييل بالإكمال.

«والكتاب – لا أعلم– »

«بصراحة عزيزتي، أتعتقدين فعلا أنها ستكمل الكتاب؟»

«لا أعلم»

«إنها بالأحرى علامة سيئة، عليّ أن أقول، المخطوطة المتلكئة، لأشخاص مثلنا تعتمد حياتهم على الإتمام. كنت لأكمله لها بنفسي لو استطعت.»

«أظنها تريده أن يكون مثاليا، هذه هي المشكلة. بدون إهانة، لكنها تحاول أن تعيش وفق سمعتك، وتوقعاتك -تريدك أن تكون فخورا بها- وترزح نتيجة هذا تحت ضغط كبير.»

«لطالما أخبرتها بألا تكتب. خذيها من شخص يعرف هذه الأمور جيدا، قلت لها، عندما كانت لا تزال طفلة، افعلي أي شيء، أي شيء غير هذا. ولو أنه يخوّل لك على الأقل لبعض الوقت بأن تنامي طيلة الصباح.» كان وجه دانييل غامضا، وامتد موراي - كانت هذه إمّا أسوأ لحظة وإما اللحظة المثالية- ليضع يده، كبيرة ومحمرة على يدها الصغيرة البيضاء. «كانت مزحة. اعتبرته دوما مزحة. أنا فخور بها مهما فعلت» لم تزل يدها، حركتها فحسب قليلا تحت يده، كعصفور أسير. «إن سعادتها هي ما يهمني» استمر، واعيا فوق كل شيء بدفء تلامسهما، بهشاشته، أو هشاشته المزعومة، بأصابع دانييل المتحركة. «لا مقياسا من مقاييس النجاح العالمي.»

هنا استخرجت يدها، بلطف، لدس خصلة الشعر الكبيرة خلف أذنها. وجد أن أذنيها اللتين كانتا مستديرتين بغرابة، مثيرتين. «أعلم، سيد ثوايت.»

«موراي رجاء، موراي.» قال بصرامة.

حركت رأسها إيجابا، مجددا محدقة في الطاولة الملونة. «موراي إذا. أعلم ذلك. أظن أن الأمر بها هي، المشكلة. الثقة بالنفس، أعني، أعلم بأنها واثقة بنفسها، كلنا نعلم ذلك، لكنها من جهة أخرى لم تكن - اقترحتُ عملا لأنني فكرت بأنه قد يساعد ثقتها بنفسها، زخمها. أظنني فكرت بأن امتلاك عمل آخر قد يساعدها على إتمام الكتاب.» رفع موراي حاجبه. «أو لا. ربما

لا. لكن في كلتا الحالتين، هي لن تكمل الكتاب هكذا.»

«لا.»

«وفي الحقيقة، لقد وجدت لها عملا. لست متأكدة.»

«لم تحدثني عن هذا.»

«لا، ليس نهائيا. سيكون مع مجلة لودفيك سيلي الجديدة.»

«سيلي؟»

«الأسترالي الذي كنا معه ذلك المساء.»

«أهو حبيبك؟»

«أوه لا، لا شيء من هذا.» لكنه لاحظ بأنها احمرت. «مجرد شخص أعرفه. لكن المجلة، ذا مونيتور، ستنطلق في أيلول.»

«هل هو من سماها؟»

«لا أعلم، لماذا؟»

«لأنه بالإضافة إلى إيحاءات لجماعة العِلم المسيحي، لقد كانت عنوان ورقة نابوليون، كما حدث. توضح أن للفتى طموحا.»

«أظنه كذلك.»

«بدا لي شخصا ساخرا وغير ودود»

هزّت دانييل كتفيها، «غريب.»

«هل أنت متأكدة من أنه ليس حبيبك؟ عشيقك السري؟»

«أنا جدّ جدّ متأكدة.»

«كان ليكون محظوظا»

«أنت تطريني.»

«لكن طبعا،» توقف. «تقولين بأنه قد يوظف مارينا؟ لتفعل ماذا، أتساءل؟»

«لست متأكدة عما إذا كانت الكتابة أم التحرير»

«وتظنين بأنها ستكون فكرة جيدة؟»

صمتت دانييل لوهلة. «بصراحة لا أعرف.»

«لا.» نظر مورّاي إلى قعر قدحه الفارغ. «لا يمكن للمرء أن يعرف أليس كذلك؟ ولا يمكن للمرء أن يقرر مكانها، في أي شيء. لكل منا قراراته الخاصة.»

«نعم، أظن ذلك.»

«أتريدين كأسا آخر؟ سأحصل على آخر.»

«حسنا، أنا...»

«لم يكتب القدَر بعد كأسك الثانية؟»

«أوه!» ضحكَت مجدّدًا، دسّت شعرها المتدلي خلف أذنها، أذنها اللذيذة.

«لا يمكنك أن تعرفي أليس كذلك؟ ما الذي يمكن أن يكون مقدّرًا؟» بدت محرجة بشدة. قالت: «ولم لا؟ سآخذ واحدا آخر. بينو نوار.»

الفصل الرابع والعشرون

يد مساعدة (2)

«لديه بعض التفسيرات ليقدّمها لي حتمًا...» هذا ما استمرّت في ترديده لنفسها، والدةُ بوتي، فيما تنفض الغبار عن سرير غرفة نومه المهجورة. كان لأخيها بعض التفسيرات ليقدمها. كيف كانت لتعرف بأن بوتي في نيويورك منذ البدء؟ كان عليه أن يكون في المنزل الآن، ثم لتتنازل بسهولة بخصوص الدروس الصيفية، تلمّع بينما تسجّل تسجيلا رسميًا – شهادة في أربع سنوات – في جامعة ماساتشوسيتس، لم تكن شيئًا سهلا، كانت متأكدة من أن أناسًا مشهورين قد تخرجوا من هناك، وصديقه، ذاك الفتى من الثانوية، أرقط ذو عنق هزيل مهما كان اسمه، يسبقه بعام، كان مثالا جيدا – كان فتى مجتهدا، سبق ودرّسته في حصتها– فهو الآن هناك.

شبكة عنكبوت، زغب رمادي خفيف تدلى من السقف فوق سرير بوتي، كظل أو كفأل سيء. ارتجف قليلا بفعل النسيم الذي حركته بنافضة غبارها – لهذا لاحظته لكنها لم تستطع الوصول إليه إلا إذا وقفت على السرير. توقفت، أخذت تفكر. بدا الصعود بحذائها على سرير بوتي، بشكل ما، خيانة صريحة، ولو أن بوتي قد لا يعود. علمت أن هذا سخيف، غير منطقي، ومسحت طبقة الغبار من على رأس السرير، رأس السرير الذي صقله

وصبغه بيرت منذ زمن طويل، بشكل غير مثالي، دوما ما تعلق ماسحة الغبار في شق ناتئ منه تاركة خيطا قطنيا عالقا خلفها. خارج النافذة لمحت هيلدا وهي تمشي ببطء رفقة كلبها العجوز الذي جعلته قدمه المصابة يرتجف ويبدو كئيبا. كان الزجاج معرّقًا من الداخل. ألم تنظف الغرفة بصورة صحيحة منذ أن غادر؟ متى ذهب؟ تذكرت كرات الثلج المتسخة والبراعم المندفعة. وقت طويل منذ الآن.

وما الذي كان موراي يفعله بمنح الفتى عملا؟ توظيفا مدفوع الأجر؟ جنون. ربما كان بوتي يكذب، أو على الأقل يحور الحقيقة؟ ربما فهمت خطأ؟ شعرت دوما خلال الأسابيع الماضية بأنها لم تعد تسمع جيدا، أو لا تستوعب المعلومات كما يجب عليها – مثلا، تخبطت كثيرًا وهي تنصت للقصة التي حكتها جوان سوان وقت الغداء الأربعاء الماضي، قصة إيما أو إيرما التي تدرس في الصف الحادي عشر، التي انتحر والدها أو ظنوا أنه انتحر لكن الحقيقة كانت بأنه توفي فقط. أو العكس، ربما. هذا كان المغزى: ليس لأن جوان سوان كانت قاصة جيدة، لكن وكأنما جودي قد كانت تشتغل وفق ما يشبه محركًا آليًا – أين يسرح بالها؟ – ولم تستطع أن تحدد حتى ما إذا كان الإنصات هو المشكل أو عدم الإنصات، أو سمعها هو المُعاب. في جميع الأحوال، نفس النتيجة: سألت جوان سؤالا بدا بعيدا كل البعد ودليلا على أنها لم تكن تفقه شيئًا. وربما حدث هذا الآن على الهاتف مع بوتي، بالرغم من أنها لا تعتقد ذلك. لم تكن تفكر في أمر آخر – كيف أمكنها وهي تحادث ابنها الوحيد؟ – ولو أن احتمالية ذلك واردة، أن تفكر في كل الأمور التي لم تقدر على قولها والتي تلخصت في «بوتي، عد إلى المنزل» – بدل التركيز على ما كان يهمس به (لقد كان يهمس فعلا، لأن صوته بالطبيعة منخفض ولأنه لم يرد إزعاج أسرة ثوايت) في أذنها المشوشة.

كانت هيلدا والكلب قد اختفيا منذ وقت طويل من الإطار الضبابي. تدلّت الشمس الآن منخفضة، برتقالية وبثت أشعة مقدسة تنير لحظات

صغيرة ومختارة على طول الشارع، بما فيها شرفة منزل أسرة راندال، المنخفضة بنوافذها الخشبية. في غاية الكآبة. عندما استدارت، لم تستطع جودي رؤية شبكة العنكبوت على السرير من دون إشعال النور. لم ترد أن تعرف إن كانت لا تزال هناك. لم ترد إشعال النور. غادرت الغرفة نحو الممر ومنه إلى الدّرَج. منذ أن غادر بوتي، وجدت أن واقعها غير قابل للتغيير. بدا أنه صار في مقدورها أن تتحكّم أكثر فيه، بطريقة ما. لم يكن هناك شيء أو بالأحرى أحد ليعكس لها تجربتها، ولهذا صارت تجربتها هي حقيقتها الكاملة. حقيقة لم تثق بها. أحيانا كان الأمر عاديًا – تقرّر تجاهل شبكة العنكبوت، كأنّ هذا الأخير لم يكن قط. لن يكون هنالك أي تأكيد مستقلّ على وجود الشبكة، ولا وجود العنكبوت نفسه. وأحيانًا تستيقظ ليلًا مقشعرّة في الظلام المزرقّ، ولا تكون – بالرغم من سريان دمها – متأكدة من وجودها الخاص، كأن المنزل الصامت قد ابتلعها.

لم تشعر هكذا عندما كان بوتي في أوسويغو، ولم تتوقع بأن تشعر به هذه المرة. ثم مجددا، لم تتوقعه بأن يغادر هكذا، هاربا من المنزل فجأة. ناسخ، قال بوتي – حتمًا عبارة من عبارات موراي. ثق بأن موراي سيستخدم كلمة رخيصة عندما يمكن استخدام كلمة عادية. كان يعني، سكرتيرًا. هذا ما سيفعله ابنها اللامع. لا خجل من هذا، قال. قام باوند بهذا لأجل ييتس[17] أتعلمين. «أخي ليس ييتس.» كان هذا جوابها، بشكل لاذع، واثقة كفاية من أنها لم تكن تتخبط خلال المحادثة.

في المطبخ، في الظلام، فكرت في العشاء. فطيرة الدجاج المجمدة ستأخذ وقتا طويلا وستترك بقايا. وتستلزم السّلَطة تقطيعًا. أكانت جائعة حتى؟ لم تكن تعرف لكنه كان وقت العشاء. ما الذي كان الأقوى؟ العادة أم الإهمال؟ ما الذي كان الأحق؟ ما الذي يهم؟ والآن أعليها أن تتقبل بأن ابنها

---

17) ويليام بتلر ييتس William Butler Yeats (1867–1939) شاعر وكاتب مسرحي إيرلندي

إيزرا باوند Ezra Pound (1885–1972) شاعر أمريكي. جمعت الإثنين صداقةٌ متينة في عام 1913 عندما حلا بجامعة سوسيكس وصار باوند مساعداً لييتس.

لن يعود إلى المنزل مجددا؟ في كل الأحوال، فكرت وهي تفتح علبة فاصولياء جاهزة حذرة من أن تجرح إبهامها على الحافة، فكرت بأن ترسل له حذاء المناسبات. لاحظت وجود الفردتين الآن فقط، لامعتين كخنافس، تقابلان الجدار مرتبتين أسفل قدمَي سريره بطريقة غير معهودة. كانتا دليلًا، فجأة فهمت التعارض، على طبيعة خططه قبل أن يغادر المنزل. ليس خيالها. كانت متيقنة من هذه الحقيقة.

الفصل الخامس والعشرون

يد مساعدة (3)

«ربما لن تلاحظي الأمر، لأنه في غاية... لا أعلم، مختلف ربما، لكنني أعتقد أنه مثير جدا. هذا ما بقيتُ أفكّر فيه، طيلة الوقت. مكثت هنالك لبضع ساعات، وقد مرت سريعا. أنه في غاية – ما هي؟»

«الجاذبية؟»

«تماما. إنه جذاب. له طريقة في الحديث إليك وكأنك الوحيدة التي قد تفهمينه–»

«اعرضي علينا كل الكليشيهات»

«لكن ليس بطريقة متخمة. هو ساخر ومتحكم. بريطاني جدا.»

«أنا أعلم» قالت دانييل «ما عدا أنه أسترالي.» تنهدت، أغلقت ملف الحاسوب أمامها. كانت تحاول تجميع عرض يُطرب رئيسها، تجمع التقديرات وتثير الاهتمام. فكرت بأن لودفيك سيلي رهان جيد، لكن ربما كانت العمليات التجميلية أفضل. نساء يمتن في مكاتب الأطباء وهن يخضعن لشفط الدهون وقت الغداء. سيرفع هذا نفس الأسئلة حول النزاهة والأصالة بطريقة أكثر درامية. «أخبريني إذا بخصوص المقابلة. أكان العمل معروضا؟»

«أوه داني، وكأنه فُصّل لأجلي. وكأنه مفصّل لأجلي. إنه رائع» كان

بمقدور دانييل أن تعرف من الغرغرة في حنجرة مارينا بأنها متكئة على ظهرها وركبتاها إلى أعلى، ربما على سريرها - وضعية تعرفها دانييل منذ سنتهما الأولى في الجامعة، كقطة سعيدة. كانت مارينا تستقيم في جلستها عندما تكون غير سعيدة.

«أعرض عليك شيئًا؟»

«قال بأن المنصب لي إن أردته، قلت سأفكر لكن- »

«ما هو العمل؟»

«إنه تحرير قسم ثقافي. لا ثقافي سخيف كاللوائح - يريد مقالات، جدية وجدلية حول مسائل ثقافية.»

«مثل ماذا؟»

«مثل أي شيء صدقا. مقالات مشككة. مثلا هل مؤسسة بين مؤسسة ذات قيمة، مثلا. أو هل التوصيات الخائنة للفن المعاصر، المشهد الفني النيويوركي، هل ماثيو بارني دجّال؟ أمور كهذه.»

«حسنا. سيضمن لك هذا كسب الأصدقاء والتأثير على الناس.»

«لن أكتب المقالات إلا إذا كنت أريد فعلا، حتى يكون هنالك شيء يأسرني.»

«مناسب جدا، في الوقت نفسه يمكنك تشجيع كتاب طموحين على القضاء على سِيَرهم بأنفسهم»

«عذرًا؟»

«يمكنك أخذ عمولات بدون أن تخسري شيئًا - أي كل شيء - وتجعليهم يكتبون عروضا مشتعلة ستدمر وظائفهم للأبد.»

«ايه، أتعلمين- »

«المرادف الصحفي لعامل مواقف السيارات. يبدو الأمر رائعًا.»

«ما خطبك؟»

«آسفة، يوم سيء في العمل» قضمت دانييل ظفر أصبع، وأكملت

«إنه مشروع خطير في هذه المدينة.»

«لكن على أحد ما إخبار الناس بأن الإمبراطور لا يرتدي ملابس»

«نعم، لقد أخبرني بهذه الجملة أيضا، مفحمة بحق، لدقيقة أو دقيقتين .»

«ما الذي يعنيه هذا؟ إنها ليست جملة، إنه التزام طموح. إنه شخص رائع – لو أمضيت معه بعض الوقت...»

«تناولنا الغداء معًا، أتذكرين؟ للحديث حول فكرة برنامجي؟»

«أعلم. لكنه سبب مقنع حتى يكون حريصا معك. المجلة سر الآن– هي طفله، لعلمك. يريد أن يفاجئ العالم»

«صحيح، طبعًا»

«يجب أن تكوني سعيدة لأجلي. أنت تتصرفين بغرابة.»

«أقلت نعم إذا؟»

«ليس بعد. سنتناول العشاء معا غدا مساء وأخبرته بأنني سأجيبه آنذاك.»

هكذا هي الأمور إذا. مزقت دانييل ذلك الظفر بأسنانها، شعرت بالجلد يتمزق بعيدًا، ألم طفيف ومشتعل. طبعا لم يخطر لمارينا بأن دانييل قد تكون مهتمة. مارينا التي قالت مرة، مخمورة، في سنتها الأولى، وهما مستلقيتان على سريريهما، مرتديتان ملابسهما، منتعلتان، وأقدامهما على الأرض لتبطئة دوران الغرفة: «أنت محظوظة فعلا داني.»

«لماذا؟»

«ليس عليك أن تقلقي أبدا عما إذا كان الرجال معجبين بك لشكلك أو لأجلك.»

دانييل سخرت من الأمر، وعاكست مارينا حتى صارت القصة واحدة من نكاتهما القديمة المشتركة. لكن مع ذلك، كان يجب عليها أن تحرز بأن لودفيك سيلي لن يكون ثوريا كحال أي رجل لاحق. طبعا سيتناولان العشاء.

وتلك اليد الخفيفة والقوية، ستستقر على ظهر مارينا بتلك الطريقة المرعشة المتشعبة التي يقوم بها، وسيتلاعب بها كيفما أرادها.

«أتعلمين، لدي فكرة» قالت دانييل، منتبهة إلى أن صوتها قد عاد إلى طبيعته «عليك أن تفكري في تفويض قريبك لتلك الصفحات.»

«بوتي؟ تعنين فْرِدرك؟»

«أعني ذلك الفتى السمين ذو النظارات. طبعا أعنيه. يبدو ذكيا ولطيفا. وضائعًا قليلا. يمكن أن يشتغل بلا مقابل مباشر، لنقل. إن اتضحت موهبته سيساعده هذا على الانطلاق. ألا تعتقدين؟»

«ربما.»

«لا ترددي هكذا. هذا هو دور عمل كهذا– تتاح لك فرصة تغذية مواهب يافعة. هذا ما تُعرفين على إثره.»

«ممم. لا أظن بأن فْرِدرك ‹بوتي› تاب قادر على هذا.»

«لن تعرفي حتى تجربي. امنحي الفتى فرصة. انه قريبك.»

«أتعنين، بدافع طيبوبة قلبي؟»

«شيء من هذا القبيل.» توقفت دانييل. «على كل حال، ما أسوأ ما يمكن حدوثه؟ أنت تفوضينه، يمنحه الأمر بعض الثقة، ترفعين منها بتشجيع وفي المرة المقبلة يكون أكثر استعدادا للمحاولة لأي شخص آخر.»

«ربما»

«ويمكنك تفويض جوليوس أيضا. بحق أعني.»

«يمكنني ذلك. يبدو وكأنه محتاج للعمل. بالحديث عن الضياع. أشعر وكأنه قد ضاع، أتعلمين؟ الأضواء مشتعلة لكن لا أحد في المنزل؟ حاولت أن أفهم. إنه عالق في أوهام كبيرة.»

«كيف كان ذلك اللقاء؟»

قدمت مارينا تفاصيل مزهتها مع جوليوس. قالت إن عينيه كانتا حمراوتين وأنفه يسيل. قالت بأنه بدا نحيلا. قلت بأنه رفض الأكل وأبدى

اهتماما ضئيلا باللوحات. «وكانت له رائحة غريبة.»

«رائحة غريبة؟»

«كدواء أو شيء هكذا، لا متسخًا – مريضًا فحسب. ربما كان كولونيا جديدة.» تنهدت. «لا أظنه سعيدا، أتعلمين. حتى وإن كان يظن أنه كذلك. تعرفين كيف تحسّين بضعف وقوة الأشخاص وكيف يمكنهم اختيار تطوير هذه أو تلك؟ وكأنه اختار الضعف الآن، وكأن روحه تتبخر.»

«ربما هذا ما يبدو الأمر عليه لأننا لا نراه كثيرا.»

«حسنا، أن تكون روحه تتبخر فعلا أو أنها تجربتنا فيما يحصل، ألا يقود هذا إلى النتيجة نفسها؟»

«لا إيم. ليس تماما.»

بعد أن أغلقت مارينا الخط، عادت دانييل إلى لائحة أفكارها، ملهمة تقريبا: مستجدات حول الإيدز، كتبت: ما الذي يحدث للجيل الجديد المنفصل عن الجامعة الآن والمواقع الإلكترونية تسقط؟ ثم مجددًا: ما الذي يحدث للمليارديرات العشرينيين المسرّحين من مناصبهم؟ وكأن أكوامًا من هذه التقارير غير موجودة سلفًا. تفقدت بريدها الإكتروني. كانت هنالك رسالة من موراي ثوايت. كان يدعوها للقاء صديق له، أكاديميٌ قادم إلى المدينة لتقديم محاضرة – شيء بخصوص فكرة برنامج محتملة، أمر مهم وصعب المتابعة حول غواتيمالا. غير ذي نفع لها. تفقدت التاريخ على مفكرتها، وأجابته فورًا بأنها ستكون سعيدة بالقدوم. عادت إلى ملفّ أفكارها. آباء وبنات، كتبت، رجال ونساء. ثم مجدّدًا: أخلاقيات؟»

الفصل السادس والعشرون

يد مساعدة (4)

بعد أقلّ من أسبوعين في مانهاتن، ها هي حياة جديدة قد بدأت بالتكوّن، طبيعيًا، وكأنها كانت مقدرة. لم يستطع بوتي تصديق كون الطريق سهلا هكذا. ليس لأنه لم يتوقع الأمر، لأنه، وفي مكان عميق غير مفهوم بداخله، حيث لم تخالجه غرابة ولا شك، كان قد توقع الأمر. لا: أكثر من هذا، لقد رغب فيه. كانت هذه النتيجة الطبيعية لهروبه من واترتاون، في قواه المستجمعة للاتصال بأسرة ثوايت من أمهيرست. هكذا كان قد تخيل الأمور.

بداية، هنالك موراي. لا، حسنا، هنالك مارينا. كان قد وقع لا محالة وبكل غباء تحت سحرها، عيناها القزحيتان، ضحكتها المحشرجة، صوتها حتى. كانت في الوقت ذاته طبيعية، أنوثية، ثم رسمية، تكاد تكون مزيفة. أحب مراقبتها فحسب، رؤيتها من الزاوية، من الخلف، انحناء ذقنها وهي تفكر أو وهي تتظاهر بالتفكير، كيف كانت يدها تلاعب شعرها بعفوية، ثم تتوقف، وكأنها وعت بنفسها فجأة، ثم تكمل وتنفذ حركاتها على كل حال، بروح مختلفة تماما. فكر في أنه وكأنما سنحت له فرصة مراقبة صبيّة وهي تصير امرأة أمامه. أو بالأحرى وكأنه يرى امرأة تعذّر عليها كبح صباها. لم تكن لطيفة معه دوما -مزاجية، فظة أحيانا- وحتى هذا قد أحبه. كان يمر عليها

في الرواق وهي تحمل قهوتها وجزء من الجريدة إلى غرفتها وبالكاد تعترف به. بالرغم من أنها كانت تتصرف بصراحة، وكأنها العكس من والدته، التي كانت تلهث دوما، تلوّح وتبتسم وتحاول جعل الجميع يشعرون بتحسن، مثلما لو كانت مدينة لهم بشيء. حتى لا اهتمام مارينا كان مثيرا، وفي كل ليلة قضاها بمنزل ثوايت، وفي كل صباح استيقظه هناك، كانت نسمة توق طفيفة تلفّه.

ثانيا، هنالك موراي. ما كان دُون صديق بوتي ليصفه بالرجل الموثوق. لسبب ما، هذه هي الجملة التي التصقت بذهن بوتي، بخصوص موراي، كغروب هوميروس المتورد، الجملة التي بدت أنها تلخصه. على غرار مارينا، كانت له طريقة عامة تميزه، نوع من المزاح بدا نيويوركيا للغاية لبوتي، سائم ومُريك، لكن عندما تسنح لك فرصة التعرف عليه أكثر يصير بمقدورك أن تعرف بأن هذه كانت هي طريقته في حماية نفسه، لأن أناسا كثيرين أرادوا منه أشياء، وكان يلزم أن يبعدهم، بعضهم، بما أمكنه من اللباقة. رأى بوتي في تلك الليلة الأولى بمنزل أسرة بيفور، على تلك الساحة الكبيرة المطلة على المتنزه، كم كان خاله مطلوبا، واستنتج بأن عليه عدم إضجار موراي بأسئلة غير مهمة أو طلبات. فكر بأنه سيقوم بأقصى جهده ليراقب في صمت، ليرى كيف يشتغل خاله، وأن يحاول جمع معلومات، على مائدة العشاء، حول فيض أفكاره، ومن حركاته، من مكتبه، الطبيعة اليومية لممارسته الفكرية. يجب القول بأن بوتي عرف كيف لا يتجاوز الحدود. اعتبر نفسه حاجا، سيكون عليه أن ينتقل حتمًا، ولو أن لا حياة ستكون مباركة بهذا القدر - فكر منذ البداية، الأمر الذي بدا، بعد كثير من المشاعر، أطول من أسبوعين - بأنه سيصير أفضل وأهدأ تلميذ لموراي ثوايت.

لكنه لم يُمض هناك أسبوعا بعدُ، أمضى خمسة أيام، أو أكثر قليلا، ابتغاء للدقة - عندما، ولمفاجأته، وفرحه وكل عرفانه بالجميل، أتى خاله موراي إليه. قام بهذا بكل أريحية، وكأنه لم يكن يمد يدا منقذة للحياة بل يصوغ محادثة مهذبة فقط. لكن بوتي حزر بأن مارينا قد حدثت والدها عن

دراسات بوتي المستقلة، فهم موراي ثوايت تماما ما يحاول بوتي فعله، تماما ما يعنيه الأمر، كم هو مهم، هذا الالتزام. أدرك ذلك بالتحديد.

كان بوتي مستلقيا على سريره، على جنبه، مساء، يقرأ بكسل لإمرسون. كان قد بدأ لتوه مقال «الاسميّون الواقعيون» – «لا يمكنني القول كفاية بأن الشخص هو فقط طبيعة مرتبطة وممثلة...» –عندما دفعه قرعٌ خفيف على الباب إلى رمي كتابه، الجلوس، تعديل نظاراته وترتيب شعره، لأن الخيال – آه من الخيال – قد اقترح عليه فورا بأنها قد تكون مارينا.

لكن موراي دخل، وقف بجانب الخزانة، حرك شعره هو الآخر، ابتسم «أتقرأ؟» سأل.

«نعم سيدي»

«لا تنادني بسيدي. كنت أتساءل عما إذا لم تكن نعسانًا قليلا، مستلقيا هنا.»

«ربما قليلا»

«تعال إلى الغرفة المقابلة قليلا، سأحضر لك شيئًا لتشربه.»

فأمضى بوتي الساعة ونصف المقبلة بمكتب موراي، يرتشف الويسكي –ببطء، لم يهتم بالمذاق– وقت الشاي ويتحدث لخاله كما كان يحلم قبل الآن بأن يتحدث لأي أحد. «أشعر وكأن عليّ قراءة هذه الروايات،» قال لموراي، «لكنني بصدق لا أستمتع بكثير منها. الأمر غريب فحسب، أتعلم، لم لا أقرأ التاريخ مثلا؟ الذي يخبرك بالكثير، أظنني فكرت بأن أقرأ تلك الأمور على أيّ حال، وكأنها فروض منزلية، لكن المسألة هي أنني منجذب إليها، أعني الروايات، وكأنها علاقة حب وكره»

«أنت على صواب تماما. عليك أن تقرأها» أجاب خاله. «هذا ما يعنيه أن تكون متحضرا. الروايات، التاريخ، الفلسفة، العلوم – كلها. تُعرّي نفسك ما أمكن، تتشربها، وتنسى معظمها، لكنها مع الوقت تغيرك.»

«لكنك لا تنسى الأشياء»

«بالطبع أفعل. الكتابة تساعد. عندما تكتب بشأن شيء، تفكر فيه مليا، تتعرف عليه بطريقة مختلفة.»

«أعلم، كنت أحاول –لأجل نفسي، لنفسي فحسب، بأن أكتب مقالات. أنت تعلم، أوراق، كالتي تخص مدرسة، حول قراءاتي.» توقف بوتي. أدار موراي قدحه في يده. «لا أريد أن أكون وقحًا، لكن» كان بوتي قد وعد نفسه بألا يفعل هذا، بالذات هذا، لكنه شعر بإلزام، وكأن موراي كان يطلب منه أن يسأل، وكأن موراي كان يعلم سلفا –مارينا قد أخبرته حتما؟ يفترض أن تفعل – وكان مستعدا للمساعدة، لكنه احتاج، كحاجة معلم لبقة، لأن يمدد بوتي عنقه.

«اسأل يا صديقي» سمح له موراي أخيرا. «مهما كان الأمر. لن أقول أسوأ من: لا.»

«تساءلت إن كنت ترغب يوما ما في قراءة، واحدة فقط حتى. لأن الحصول على رأيك – حسنا، إنه... حسنا.» نظر بوتي إلى الأرض.

«أنت تطريني. لست أستاذا. ألديك واحدة لتمدني بها الآن؟»

«الآن؟» مجددا، كان على بوتي التوقف. لم يتوقع كل هذا الكرم.

«لدي بعض الوقت هذا المساء، الآن. نستطيع قراءتها معا.»

دفع بوتي نظاراته إلى أعلى، تلكأ. «لست... أعني، كنت لأسعد بهذا – لكنني أريد – » أخذ نفسا عميقا. «أريد أن أطلعك على شيء أفتخر به. أحد أفضل أعمالي.» شعر بأنه يومض كما يفعل عندما يتوتر. « لا أظن بأن أي شيء مضبوط الآن. أتمانع؟»

هز موراي كتفيه، ابتسم. كان سهلًا. وكأن الحياة برمتها قد تكون مريحة. «متى ما كنت مستعدًا.» قال. «لكن لمَ لا تخبرني قليلا عن نفسك.»

«عني؟»

«فِردرك تاب. ما الذي تهتم لأمره. طموحاتك. مشاريعك.»

حرك بوتي رأسه. لم يعرف ماذا يقول.

«أخبرتني أمك بأنك انقطعت عن الدراسة. لكنني أشعر بأنك مثقف جدا»

تساءل بوتي لاحقا كثيرا عما إذا كانت هنالك سخرية في نبرة خاله. آنذاك، شعر بنفسه وهو يجلس، ينفتح وكأنما لكلمة سحرية «مثقف. نعم، أظن ذلك. الأمر وما فيه،» قال، «ولن تفهم والدتي هذا الأمر أبدا، لكن الجامعة كانت أبعد ما يكون عن الثقافة. غير مثقفة أبدًا.»

«والسبب؟»

«السبب هو أن النظام التعليمي مهزلة.» احمر بوتي، يا له من إعلان، ربما لم يكن لديه أي أصل لإلقائه. ومجددًا: حتى الآن، لم يخبر أحدا بما يفكر. لا أحد عرف كل هذا عنه.

«مهزلة؟» كرر موراي، بصوت هادئ ومشجع.

وأخبره بوتي. ليس كل شيء: بالرغم من أنه كان مدفوعًا وبشدة لإخباره بشأن هارفارد. احتفظ بالأمر لنفسه. لأنه لم يرد لموراي أن يشفق عليه. ليس مقابل أي شيء. ولم يرده أن يعتقد بأن بوتي كان يحسده. بأن بوتي كان يتوق لشيء حصل عليه موراي. فكيف بالأحرى هارفارد. لكنه تحدث عن لورك وجيرك وإيلين كوفاكس، وتحدث عن صحواته، ثم تحدث عن الوقت الذي أمضاه بيو ماس، كيف شعر بالإغراء بالبقاء، كيف فكر في الأمر كالمسيح يافعا في البرية (ظن بأن موراي قد عبس، هنا.) كيف أقنعه هذا بالانتقال إلى هنا ولكن بالتحديد للانتقال أقرب من الخال موراي، الذي لم تكن لديه أيّ علاقة بالهراء، الذي كانت حياته نموذجا، دليلا على أنه لا يجب الاستسلام للفشل والتوسط، أبدا. عندما انتهى من الحديث، شعر بالحرارة تسري معه. حزر بأن خديه كانا ناصعي الاحمرار.

«أنت تطريني.» قال موراي مجددا. «أرجوك لا تفعل. سيخيب ظنك فحسب. لكن المغزى هو أنك هنا، وما ينتظرك، المستقبل العظيم الذي يمكنك نيله»

«لا أعلم بشأن هذا.» بدا موراي وكأنه يضحك على روح ابن اخته العارية.

«ولم لا؟»

«لا أعلم.»

«الأمر كله مرتبط بالسلوك. فْريد عزيزتي، السلوك.»

في نهاية المساء، عندما احتاج موراي لمراجعة مقال، صرفه بيد دافئة على كتفه. اكتنف بوتي شعور بالدوار والارتياح معا، وكأنه كان يترنح على حافة عالية ومطمئنًا لوجود شبكة في انتظاره تحت. لقد تحدث، وسُمع، فُهم.

من هنا تملكته الثقة. انكب يقرأ من ذلك الحين، لا الكتب التي ألزم نفسه بها فقط بل كتب موراي أيضا – المقالات في كتاب السيدة السمينة، حول التعليم العمومي، حول الهجرة غير القانونية، حول إرث الحقوق المدنية، حول الجيش الجمهوري الإيرلندي وحزب سين فاين (كانت المرة الأولى التي يفهم فيها بحق بأن هنالك دولتين في إيرلندا تفصلهما حدود في الوسط، وتعلّم إلى حد ما، سبب صراعهما) – وكان يحاول كتابة مقال حول بيير[18] بعد سقوط موسكو، حول ما كان يعنيه أن تكون وحيدا وسط حدث تاريخي. لم يكن الأمر يسير جيدا، من جهة لأن الأمر كله كان مجرد فكرة له. لم يكن بمقدوره تخيل كونه وسط حدث تاريخي، لكنه شعر بأهميته فحاول فهمه، ومن جهة لأن موراي ثوايت بدا منشغلا بالعالم، مرتبطا بكل حدث كبير منذ حوالي عام 1960، منذ نصف قرن. وجاهد لينصت، ما أمكن، لما كان يقال حوله.

هكذا، بعد جائزة موراي، عندما دعته مارينا للانضمام إلى الحفلة، سمع صديقة مارينا دانييل تهمس للأسترالي النحيل بينما كان موراي يحصل على مزيد من النبيذ من المطبخ ومارينا ذهبت للمساعدة، وخمس آخرون

18) بيير كيريلوفيتش بيزونوف، الشخصية المحورية في رواية الحرب والسلام (1865) لليو تولستوي

انشغلوا بالحديث بفصاحة حول سيلفيو بيرلوسكوني، لسبب ما، انحنت عليه وهمست (أو ربما أساء السمع؟ لكنه لا يظن هذا) «إذا، ألا زلت تعتقد بأنه دجال؟» كان بوتي متأكدا من أنه سمع كلمة دجال. ثم رأى الرجل وهو يبتسم ابتسامة، بطيئة، صغيرة وجادة، ويحرك رأسه برفق، ليس وكأنه يقول «طبعا لا.» بل وكأنه يعبر عن تفاجؤه من أنها قد أثارت أمر دجل موراي ثوايت الجلي في غرفة معيشته.

اعترت بوتي موجة اشمئزاز، كقرف. لم يستطع تصور كون ضيوف موراي المفضلين والأعزاء سيتحدثون عنه هكذا. ما عدا إن كان المعني شخصا آخر؟ لكن من يكون يا ترى؟ مسح الغرفة، لم يفكر في شخص آخر. وحميميتهما المتآمرة، لُطفُهما المتصنع المبالغ فيه – حاول ألا يتوقع الأسوأ منهما، دانييل قد كانت جد لطيفة معه، ولو أنه منذ البدء لم يستسغ الرجل الأسترالي، فقد جعله واعيًا بقوّة لما كان يشعر به تجاه خاله. وكأن مورّاي كان جزءً منه، أو الفتاة التي أحب. صار لبوتي مشاعر متأجّجة تجاه أسرة ثوايت. أرادهم أن يكونوا أسرته.

خلال الليلة التي تلت عشاء الجوائز، على مائدة الطعام – أنابيل، موراي وهو فحسب، لأن مارينا لم تكن موجودة – سألته أنابيل عن عمله، عن مشاريعه. من الواضح أنها قد سمعت من مورّاي، نسخة مشوّهة عن برنامجه التعليمي – بدت وكأنها تعتقد بأنه واقع تحت تأثير ظنونه بأنه سيعلم نفسه العلوم، الكيمياء وكل ذلك – وسألته، بطريقتها المرحة، اللطيفة والملحة في آن، طريقة تحققية حتى، كستيلا وودز، طبيبة أسنان طفولته، بصوتها الناعم، صاحبة اللسان المثير، وصوتها الذي لا مفر منه. فسر مجددا لائحة قراءاته، تحدث قليلا حول مهزلة أوسويغو، أقل مما تحدث إلى موراي.

بقي موراي صامتا، لكنه لم يكن شارد الذهن. أحيانا، كان أحدهما ينظر جانبيا إلى وجهه الخامد المركز على لحم الدجاج المقدد، سلطة الكابريسي والهندباء والجوز، غافلا كما يبدو. علم بوتي (متى سيتوقف عن التفكير بنفسه

باسم بوتي؟ لامَ أمّه على هذا، لكن بوتي كان الاسم الذي يطفح بلا استئذانٍ، كان للأسف، ماهيته) أن لموراي القدرة على إنقاذه، يملك القدرة على تحرير ابن أخته من هذا التكرار المحرج. لكن أنابيل استمرت في التحقيق، واستمر بوتي رغم توجّعه بالبوح بأسراره. اقتربا بخطر من موضوع هارفارد. بدا أن هنالك أمرا مختلفا – متلصصًا أو مازوشيًا أو كلاهما معًا – في هذا. حتى أنه قال «أرجوك لا تخبري أمي» مدت أنابيل يدا منقذة، لكنها تلكأت لوهلة، على المائدة المصقولة بينهما، كفكرة مكشوفة. في هذه اللحظة تكلم موراي أخيرًا، واضعا الشوكة والسكين بتأن عظيم على طبقه.

«لن يكون بمقدور أمك أبدا أن تفهم أي شيء يعنيك.» قال بهدوء، «إنها امرأة جيدة، لكنها لا تملك أدنى فكرة عنك.» آنذاك نقب بين أسنانه بلسانه (خيط لحم مقدد، توقع بوتي، وهو يصارع خيطًا في فمه) وأكمل الأكل. لم يعد للحوار حتى أفرغ طبقه. «كنت أفكر، فريد. أنابيل وأنا تحدثنا عن الأمر. وأظن بأن لدي شيئًا قد يساعدك.»

«لقد كنتما كريمين كفاية.»

«أعلم من أين أتيت، إلى هنا، صغيري. كبرت هناك أيضا. كان لينتهي بي الأمر في أوسويغو، ولو فعلت لكنت استدرت وهربت ربما» – مزيد من النبش الفموي– «ربما لم أفعل. لكنني أقدر هذا الاندفاع كثيرا.»

«ليس هربا، أو على الأقل لا أراه هكذا.»

«معانقة المستقبل، مستقبلك. تقرير المصير.»

«والاعتماد على الذات أيضا.»

«نعم، لكن إذا لم تكن لديك قطعة أرض وتخطط للزراعة الاكتفائية»– توقف موراي ونفخ دخانا، كتنين، من فتحتي أنفه– « الاعتراف بأن سيناريو كهذا غير محتمل، ستحتاج إلى عمل. ستحتاج إلى كسب بعض المال لتمويل دراستك.»

«أعلم»

«ليس سهلا في هذه المدينة. ليس لأنه ليست هنالك وظائف - بالرغم من أن معظمها محطم للروح طبعا- بل لأنها مدينة باهظة. لم لا تعود إلى واترتاون، حيث يمكنك العيش في المنزل والقراءة في سلام؟»

دفع بوتي نظارته على أنفه، أخذ نفسا عميقا. «أنا مستعد أتم الاستعداد للعمل في وظيفة محطمة للروح.» قال. «سأنظف المراحيض، سأعمل بوابا، أو أقلب الشطائر. لا مشكل عندي في هذا. لكن الأمر هو أنني أريد أن أكون في المدينة، أن أتعلم من المدينة، أن أتعلم من الحياة، بالقدر نفسه الذي أتعلم فيه من الكتب.»

«وليست هنالك حياة في واترتاون؟»

«لا، لا وجود لها. ليست الحياة التي أصبو إليها.»

ابتسم موراي ابتسامة واسعة، أحنى كرسيه إلى الخلف. «جيد جدًا. فْريد. جيد جدًا. كنت أعلم أنك ستقول هذا. الخروج من تلك المدينة عند أول فرصة كان أهم شيء قمت به في حياتي.»

ابتسمت أنابيل أيضا، عيناها مركزتان على الجدار، لكنها لم تقل شيئًا.

«إذًا فْريد،» استمر موراي، «أنا خالك، بوسعي تقديم المساعدة، إن سمحت لي. أولا، لدي درس في الحياة أود أن أقدمه لك، ولو أن الوعظ ليس أسلوبي. عليك أن تأخذ الجميع على حين غرّة. تلك هي المسألة المفصلية. تذكر ذلك دوما.» نحنح صوته حتى يؤثر أكثر. «لكن عليك أن تكون مستعدا جيدا. أريدك أن تسمعني، وأريدك أن تفكر في عرضي بجدية. طرأ ببالي منذ أيام. أنا أعرفك، أعرف كيف تفكر، فدعني أخبرك بأن هذه ليست حسنة أبدا.»

استمر موراي في القول بأنه كان بحاجة إلى سكرتير منذ سنوات. بأنه أثقل كاهل زوجته (ابتسمت أنابيل مجددا، بصبر، فعرف بوتي بأنها كانت مساندة لهذا الاقتراح كليّةً، وربما قد دبّرته حتى) وكاهل القيمة على المنزل، وأنه لم يُنقَذ إلا مع عودة مارينا إلى شقة والديها. «لقد قامت بالعمل،» قال،

«وأظن بأنه يعجبها حتى. لكنه من الجلي لنا– ولمارينا، قد أضيف، لست أخون أيّ ثقة هنا– بأنها لن تنهي كتابها حتى تزاح كل المعيقات، كلها. هي تبحث عن أي عذر للتماطل، وقد وفّر والدها العجوز عذرًا نافعًا بالفعل.»

حرك بوتي رأسه.

«لقد أخبرتها بأن عليها الحصول على عمل. وعليها فوق كل شيء أن تتوقف عن العمل لصالحي. تحدثت معها بشأن هذا – لديها ما يكفي من المخططات، لست تسرق من قريبتك. أنا على علم بأنك أفضل من ذلك» توقف موراي مجددا. «ولهذا أقترح أن أشغلك كسكرتيري. لنقل ناسخي. مثل باوند وييتس. مقابل راتب محترم طبعا. عمل حقيقي. علينا أن نجد طريقنا لتنفيذه، أنت تعلم، حتى نُعرّفه مع الوقت، لأنني خلال كل هذه السنين لم أحصل قط على سكرتير. قد يأخذ الأمر وقتا حتى نوازن الأمر. ما أنا متأكد منه عمومًا هو ما أريدك ألّا تلمسه، إن فهمت قصدي. لا يُطلب منك أي تنظيم في مكتبي. لا تحريك للأكوام في كل مكان. لطالما قلت بأن الدخول إلى مكتبي هو كالدخول إلى عقلي. عليك أن تحترم هذا. أعتمد على الأمر. عليك أن تتعلم الفوضى– أن تحفظها– حتى تبدو لك منظمة كما تبدو لي. لكن ذلك تحدٍّ. وقد تتعلم شيئًا في خضمّ كل هذا. قد تلتقي أناسًا مثيرين للاهتمام.» صمت موراي، حدق ببوتي، الذي حدق فيه بالمقابل خاليا من أي تعبير، يومض بتواتر خلف نظاراته. «ما الذي تظنه؟»

«ممتاز سيدي.»

«لا تناديني بسيدي. أنت أفضل من هذا.»

«مورّاي، الخال موراي. إنه عرض رائع. أنا مشدوه، هذا كل ما في الأمر.»

«إنه يعني ذلك،» قالت أنابيل. « موراي صارم في عدم قول أشياء لا يعنيها.»

«طبعا أعني ذلك. ولا تقلق بشأن مارينا. قد تشعر بأنها اضطهدت

قليلا ليوم أو يومين، لكن لديها خططا كبيرة، كما أخبرت. سيكون أمرا جيدا للجميع.»

هز بوتي رأسه.

«ستقوم بالأمر إذا؟»

«أنا– أنا فقط–»

«أعطي المسكين برهة من الوقت،» قالت أنابيل. «لا تضغط عليه وقت العشاء. سأحضر للجميع بعض المثلجات، حسنا؟»

لكن بوتي كان يعلم، من اللحظة التي عرض عليه فيها العمل بأنه سيقبل. أفضل من المراقبة السلبية، بدت هذه هي الطريقة الأمثل للتعلم من خاله، لتعلم خاله بحق كما لو كان كتابا. كان الأمر منعشا ومخيفا في آن: أن تكون له كل هذه المساعدة، ألا يكون وحيدا. أن يكون بمقدوره فعلا أن يفاجئهم جميعا.

كانت هنالك مسألة الراتب الملحة. في نقاشات أخرى، بدا أن موراي يعتقد بأن 30 ألف دولارا –مبلغ خيالي لبوتي – هو راتب محترم كبداية. ثم مسألة العيش مع أسرة ثوايت. كانت الأمر الوحيد الذي استمر بوتي في العودة إليه: لم يستطع تصور العيش والعمل في الوقت ذاته في تلك الشقة. لأنه لم يشعر بالراحة على أيّ حال، ولأنه بدا إلى حد ما –غير صحي، غير آمن حتى. أن يتنفس دوما الهواء الملوث بالسجائر. عليه أن يجد مكانًا آخر للعيش.

هنا أيضا، ابتسمت الآلهة له. تفوق على نفسه في أن يثير مع مارينا، مارينا صاحبة العينين القزحيتين صعبتي المنال، حول منزل صديقها – أكان اسمه جيمس؟ أو جوليان؟ بدت متفاجئة في البداية، تلاعب خصلة بين سبابتها ووسطاها، تعض بخفة على شفتها المنتفخة، لكنها أُثيرت، بفرح – بدت فجأة مستعدة للفرح – عندما ذُكِر جوليوس. اسمه على ما يبدو كان جوليوس، وشقته شرق ألفابيت سيتي، أميالًا على طرف المدينة (لم يعن هذا الكثير لبوتي) مع ما وصفته بمعاناة للوصول إلى هنا.

كانا يقفان وسط مطبخ الأسرة وهما يتحدثان « سيكون عليك أن تقطع المدينة وتأتي إلى هنا – تأخذ القطار الرابع من ديلانسي إلى روكفيلير سنتر، ثم القطار الثاني نحو سنترال بارك الغربية. سيكون عليك الصعود قليلا للوصول إلى شقته. ليست حتى على خط الباص، لا أظن ذلك. سيكون عليّ أن أسأله كيف كان يذهب إلى أي مكان عندما كان يقطن هناك. أتظن أنك لا تمانع ذلك؟»

«طبعا لا أمانع. لا شيء. يبدو مثاليا.»

«إنه بعيد في الحقيقة. ذهبت إلى هناك مرة واحدة فقط وكان ذلك كافيا. لكنه رخيص.»

هز بوتي رأسه محاولا ألا يكشف عن حماسه. لم يردها أن تعتقد بأنه معلق بلا وعي بهذه الفرصة ولو أنها بدت فرصته الوحيدة.

«علي أن أحذرك من أنه حتى وإن لم يكن ذلك جليا، يبدأ والدي العمل باكرًا صباحًا.»

«باكرًا إلى أي مدى؟»

«لا بد أنك قد سمعته من غرفتك. أو شممت السيجارة الأولى على الأقل.»

«نومي عميق.»

«حسنا، حوالي الثامنة والنصف على الأقل.»

تردد بوتي، متذكرا ساعة الحشد والفزع المدفوع تحت الأرض.

«لكنه قد لا يريدك بالجوار ساعتها. ذلك وقت كتابته الهادئ بالعادة. قد يكون سعيدا بتواجدك بعد الزوال، أو شيء كهذا.»

«من المؤكّد أننا سنجد حلًا.» لم يستطع بوتي التظاهر أكثر بأنه غير مهتمّ بالشقة. «أتعتقدين حقا بأن صديقك قد يكتري لي الشقة؟ بدءً من متى في نظرك؟»

«سأسأله.» قالت «عندما أتحدث إليه. لكن كما تعلم، إنها فارغة الآن.»

لم ينتظر بوتي إلا يومين لكنها بدت للأبد. لم يرد أن يزعج مارينا، لكنه وجد أن مسألة الشقة كانت تطفو في عقله كفلّين، كلما التقيا. لذا فهو الآن يحاول تجنب رؤيتها، متماطلًا في غرفته إن مرت هي في الرواق، أو مندفعا من المطبخ عبر غرفة الطعام، إن سمعها قادمة في المصعد بخطواتها المميزة على البلاط. ظن بأنها قد استشعرت هربه، مرة أو مرتين، وأنها ربطته بإعجابه بها -لأنه كان يعرف بأنها مدركة لضعفه. كان حوارا غير منطوق بينهما وعرف أنه يُمتعها. لم تفكر في الشقة حتى، في أهميتها له. ربما نست حوارهما تماما. ربما وجب تذكيرها. ثم يتذكر ذلك التعبير المستاء. لم يرد إثارته مجددًا. تاه في دوائر مفرغة، يحوم حول مسار قلقه، وعائدا في كل مرة إلى المكان نفسه. أدرك بأن هذا ليس اعتمادًا على الذات. ليست هذه هي النية التي ينوي أن يعيش بها حياته. لو كان مستقلا، فكر، لكان سيمسح الإعلانات المبوبة أو موقع كريغليست لجريدة فيلاج فويس، ويجد شقة ليشاركها مع أشخاص مجهولين. لكنه لم يستطع دفع نفسه لفعلها: بدت حياته غير حقيقية، ذاتُه شيئًا هشًّا، مرتبطةٌ هنا والآن بأسرة ثوايت. لم يستطع مقاومة تخيل نفسه وهو ينحل، يسقط من السماء إلى قطع لا متناهية، ليسمح لنفسه بالخروج من الباب إلى الأغوار السحيقة لمدينة نيويورك. كان إحساسا جديدا عليه – كما كان إحساسه بالاختنباق في قطار الأنفاق جديدا عليه. ومشابها على تناقضه لذلك الوضع. في كلتا الحالتين، تعلق الأمر بالإحساس بالدونية، شعور آليس في بلاد العجائب شعور مروع، محمِّس وغير مستقر، مفرغ. عندما اكتشف بأن عليه أن يبقى على الأرض، اكتشف أيضا بأن عليه الحصول على شقة بها بعض الارتباط المنطقي الملموس. شيء يمنعه من الغرق، أو الاختفاء أو قتل نفسه هناك (لن تجرح معصمك لتنزف حتى الموت في منزل شخص تعرفه أو في منزل شخص يعرف أشخاصا تعرفهم. الأمر غير لائق) ليس وكأنه كان يحمل أفكارًا انتحارية، أبدا. لكنه كان خائفا من – كيف نصفها؟ خائفا من ألا يملك ظلا، أو أن يترك أثرا. لكنه لا يستطيع أن يقول هذا لمارينا: أحتاج إلى الشقة

لأني بحاجة لامتلاك ظل. بدا هذا كجنون خالص.

بينما كان ينتظر السماع منها – ينتظرها أن تلحقه عمدا إلى المطبخ، أو أن تطرق على باب غرفة نومه– حاول، كما أشار موراي، أن يحفظ الفوضى في مكتب خاله. صار واضحا بأن هذا من المتطلبات الأساسية لأي مساعدة سيكون قادرا مع الوقت على تقديمها، كما كان واضحا بأنه لن يستطيع التمكن من هذا الحفظ وخاله يعمل. –على الأقل ليس وموراي جالس إلى مكتبه. لحسن الحظ، تخلل «عمل» موراي التزامات وسفر متعدد، سيارات ليموزين تحمله إلى قنوات تلفزية وغداءات رسمية وحفلات شراب، بدون ذكر الحفلات المتوقعة خارج المدينة، محاضرات في الحرم الجامعي والمكتبات، وفي القاعات العمومية في مختلف مدن البلد، تنوع أعمال بدا لبوتي متناقضا مع أي روح تأمل أو تفكير، وغير ملائم بطريقة ما مع مبدأ العمل نفسه. لكنه لم يحكم عليه مقابل هذا (ولو أنه كان يسمع حكم سيلي يتردد في مؤخر عقله). هذه العالمية، فكر بوتي وهو يجلس عاقدًا ساقيه على أرض مكتب خاله في جلسة غير مريحة، كان الثمن المستخلص لحياة جادّة ومستقلة. لا يمكنك أن تكون أبدا حرا تماما، وحقوق موراي كانت في ساعات مسروقة من الزملاء، المحررين، والمريدين المجهولين. كومة المراسلات التي يحملها بوتي في يده كانت مكونة من رسائل بائسة، على طول العام، غير مصنّفة وغير منظمة، تتوسل لحضور موراي لعشاءات من لوس أنجلوس إلى كالغاري إلى أوستن، وما بعد ذلك، في غرف دراسة بنورثهامبتون، ماساتشوسيتس، أو آن أربور، ميشيغان، في ملاجئ في بَوادي كينتاكي وجنوب كاليفورنيا، في مؤتمرات لرجال أعمال بميامي أو مؤمنين متدينيين بأركنساس. على كل صفحة، بخطه الذي يصعب قراءته، كتب طبيعة رده، مع التاريخ، وعُلّق تقويم كبير على الحائط مسودًّا، بالدقة نفسها، بلطخات حبر منتشرة، بالموافقات الإلزامية. فهم بوتي بأن الأمر لا يعني بأن الرجل يريد هذا. لن يكون للرغبة في هذا أي عذر أخلاقي.

في هذا اليوم، كان موراي يخاطب صف التخرج بجامعة في

كونيتيكوت، مفتتحُ جلسة. تساءل بوتي عن ضرورة هذا الالتزام: المؤسسة مغمورة ومن الأرجح أن الخزائن كانت غير ملأى، فلا الشرف ولا المال... حضر ببال بوتي بأنه يمكن اعتبار خاله، في هذا، شريكا في مهزلة التعليم الفاشل. لكنه لم يفكر طويلًا في الأمر. تساءل بدل ذلك عما إذا كانت مارينا تعرف هذه الأكوام كما كان يتعلمها، وتساءل أيضا إذًا ما كانت تختبئ منه كما كان يختبئ منها، منزعجة من دوره المتدخّل.

عبق المكتب برائحة السجائر والأوراق الرطبة، والغبار الساخن المندفع من الحاسوب الذي لم يطفأ قط. كان يسمح لأوروبا بإفراغ سلة المهملات فقط، وفي المقابل، كان السجاد غير المنظف غارقا تحت الأكوام، رماديا بالرماد والفتات. حاملا بعض الأوراق في يده، نقل بوتي نفسه إلى مكتب خاله. أزّ جلده قليلا، وبعث برودة خلال سرواله. كان مكتب موراي غير مرئي تقريبا بسبب الملفات والأوراق، شذرات الرماد، المنافض والقدوح الملتصقة بخشب الماهوغاني المخروم. بعثت الفوضى والتعليمات الصريحة بعدم تنظيمها بعض الكآبة ببوتي: كان عملا غريبا، غريبا كموراي، أن يراقب فوضى أحدهم ويتركها كما وجدها. لكن ما دام هذا هو العمل، فسيقوم به بعناية.

هكذا وجد المخطوطة، في يومه الرسمي الثالث، بينما كان موراي يفتتح جلسة في كونيتيكوت. حضر بباله – كيف لا؟ – بأنه كان يتجاوز الحدود، ينقب أعمق مما كان مسموحا له في دماغ موراي. لكن الأمر كان مشوِّشًا: مجموعة المفاتيح على المكتب، درج المكتب، المغلق، صرخ من أجل التحقيق، أصغر المفاتيح ناسب القفل، دار، كالسحر. كأن الأمر برمته كان مقررًا. أقنع بوتي نفسه بأن عليه بعد كل شيء أن يعرف عقل معلمٍ بالكامل ما استطاع. ما دام لم يخرّب، ما دام ينتظر فقط، يتعلم.

حزمة الأوراق المكتوبة بخط اليد الوحيدة: علم بوتي لحظتها أنها كانت مهمة، علم أنها سر. لم يستطع تجاهل الأمر. وقبل أن يبدأ في القراءة، تخيل مترددا بأنها قد تكون عاطفية، أو أكثر صدمة حتى، مذكرة حميمة، آراء

استثنائية حول زملاء موراي وأقرانه، حول ثديي أنابيل، أو صدر مارينا – أو، بالفعل، حول بوتي نفسه (تخيل أنه إن كانت هذه هي الحال، فسيشار إليه باسم بوتي، لم يكن ليستطيع تغيير شيء).

لاحقا، تساءل عما إذا كان قد فكر في عدم فتح الملف لكنه اعترف لنفسه بأنه لم يفعل. ليس تمامًا. الأمر الذي نمّ عن هفوة أخلاقية لم يكن بالضرورة فخورا بها. لكنه لأجل تبادل الأفكار الحرة، في سعيه للحقيقة والمعرفة، سمح لنفسه بأن يتخيل بأن هذا ما كان موراي ليرغب فيه. حتى يتعلم منه بوتي، تلميذه، الأفضل، أن يشكل نفسه بدقة في مخيال خاله.

حقيقة الصفحات لم تكن خيبة: بل أبعد من ذلك. من الجملة الأولى، أدرك بوتي بأن هذه المخطوطة مجهولة العنوان تخفي سر خاله الأكبر، محاولته الصادقة السرية، أخطر من أيّ نميمة مهنية أو شخصية.

كيف نعيش: أليس هذا هو السؤال الذي يزعج كل واحد منا، بشكل متقطع منذ وعينا الأول؟ لنسأل، كما فعل ويليام جايمس، ما إذا كانت الحياة تستحق العيش، فهو استفزاز لجواب ممازح «يعتمد الأمر على الكبد.»[19] كبدي مقتول طبعا. لكن روح هذا الجواب اللامع على الأقل، صحيحة. فقط إن كان بإمكانك إرساء مسألة كيفية العيش بشكل كاف، تستطيع آنذاك أن تقرر إذا ما كان نهر الدموع هذا يستحق العناء. لحسن الحظ، ليس للمسألة حل ولا نهاية – مع أمل ألا يكون هذا الكتاب بلا حل ولا نهاية. – وعليه فنحن مدفوعون، بأسئلة مصيرية، عبر منتصف الحياة ونحو نهايتها. يمكن للحياة في أغلب الأحيان أن تصل إلى تداعٍ بيكيتي[20] تمسُّك بارد بالناجين، مكويون بجمر خسارة الأحباء، من دون انهزام الكبد. لنقل إن أسئلة الانتحار، سواء كان الأمر الأسى أم لا، لن تشغلني هنا، ليس لأنها غير وثيقة الصلة بل لأن منطق كُنَهِ الحياة، ما يجب على المرء فعله بها، يبدو لي أن هذه الأسئلة أجدرُ بالإجابة أولًا. وفي هذه الصفحات، هذا ما سأحاول التطرق إليه.

---

19) تحمل هذه العبارة مزحة ذكية فمفردة الكبد Liver هي نفسها اسم فاعل لفعل «عائش» to live/liver.

20) في إشارة إلى ساموبل بكيت الكاتب والمسرحي الأيرلندي (1906-1986)

كان موراي ثوايت يكشف نفسه – لا أفكاره، بل دواخله، هو نفسه – وهذا، لو فقط قدر بوتي على قراءته لكان أثبت قيمة الرجل. لكن بوتي تصفح الفقرة الأولى قبل أن يغلق الملف، يعيده إلى مكانه، بدقة كبيرة، مطويا قليلا في الدرج. خاف من أن يكتشفه أحد – لا من طرف موراي، فهو يتناول المقبلات ويحتسي شامبانيا رديئة في حفل تخرج الجامعة على أبعد نقطة من خط ميترو الشمال، بل من طرف أورورا، أو الأسوأ مارينا. لكن خاف فوق كل هذا، اكتشافه الخاص: خاف مما قد يجد. قد يحمسه ويسعفه، لم يتق إلى أمر أكثر من هذا– ولو أنه لم يستطع وصف الأمر– لكنه لم يستطع التهرب من خطر خيبة الأمل.

الفصل السابع والعشرون

الطفو

وافقت مارينا على العمل مع لودفيك سيلي أسبوعا كاملا قبل قُبلتهما الأولى. كان ساخرا ولبقا في قبول قبولها، ساخرا بطريقة صارت تتوقعها، «أنا متحمس، لأنني أثق بك كلية. لأنني أعلم بأنك تريدين ما أريد. لأنني أعرف كيف أجعلك تريدين ما أريد، وأعلم بأنني إن لم أعرف، ستجعلينني أومن بأنني أفعل. وهذا في آخر المطاف خدعة الأمر» الخدعة في تلك اللحظة وخلال الأسبوع الكامل الذي تلاها، كانت التخلص من التناوب الضمني لحواراتهما المهنية. كان عذابا حادًّا، اختبارًا ما. لم تكن متأكدة تماما بأنه يشاركها فَوَارَها وتأجُّجها الداخلي، لكنها كانت متأكدة تقريبا. ثم كانت تحاول أن تكتشف عما إذا كان سيشعر بأن أي تقدم هو ضعف، سيعتبر بأن الالتقاء الواقعي لأصابعهما، لأطرافهما، أو شفاههما، الفشل الأساسي لتناغم عقليهما. قررت ألا تخاطر، لا تستطيع القيام بالحركة الأولى. بعد ما بدا كمدة لا متناهية، نقلت خلالها لدانييل كل مساء التفاصيل المرهقة لتفاعلهما في المكتب ذلك اليوم، عندما ضغط أخيرا شفتيه على شفتيها، كادت مارينا أن تدمع لغرابة الأمر، لارتفاع الحمرة على خديه والرطوبة البادية على يديه المتقدتين.

«أنا جيد في معظم الأمور، لكني لست كذلك في هذا» غمغم، وهو

يدفعها مقابل الباب الداخلي لمكتبه، وكأنه يتعلق إلى جذع شجرة في عاصفة رعدية. لم تعرف ما إذا كان يعني الموقف نفسه، أم القبلة، أم شيئًا أوسع، كالجنس عموما.

«تبدو جيدا جدا بالنسبة لي» بدا هذا الجواب الوحيد الممكن، مهما كان قد عنى، وفي حميميتهما الأولى، أخيرا، لم تشعر بالفوار والتأجج بل بألم في داخلها، غير متوقع ولا يمكن إيقافه، دفعها إلى التربيت على خده وحاجبه بأصبع متردد، لتحني رأسها إلى الخلف وتقول، «أريد أن أنظر إليك. للحظة فحسب. صدقا.»

حكت كل هذا لدانييل لاحقا ذلك المساء، مستلقية على سريرها وقدماها مرفوعتان والحشرجة المعهودة في صوتها. «بدا كل شيء كجمل مبتذلة عدّة، أتعلمين. أعرف هذا أكثر من أي شخص آخر. حتى عندما قلت بأنها بدت كجمل مبتذلة، لكنني عنيتها، أيضا.»

«ممم همم»

استشعرت مارينا بأن مخاطِبتها كانت منشغلة بشيء آخر، وجاهدت لألّا تنزعج. «أظن أن الامر كان رؤيته ضعيفا، أفهمت؟ لم يكن فعلا جيدا في الأمر، كان محقا. لا التقبيل، أعني المراوغة كلها. هذا الرجل الذي يستطيع موازنة مزحتين في اجتماع افتتاحي، يجعل عشرة صحفيين خائفين ويضحكون في الوقت نفسه. ثم فجأة، يصير أبله. في غاية الصدق. حقيقة، ملأت الدموع عيني. دمعة واحدة على الأقل.»

تنحنحت دانييل.

«ما الذي يعنيه هذا؟»

«لا شيء»

«داني؟»

«لا أظن أن كلمة صادق مناسبة هنا. الرجل دجال»

«هذا ما أقصده. علنًا هو كذلك، لكن هذا كان مختلفا. أظنني

أعجبه فعلا.»

«لا أظن أن والدك يعجبه كثيرا، لعلمك»

«ماذا؟»

«سأسأله عن الأمر إن كنت مهتمة. لقد قال بعض الأمور لي– »

«العديد يختلفون مع والدي. أنت كنت تختلفين مع أشياء قالها أو كتبها، مرات عدّة. قلت بأن علي أن أكون أقسى معه.»

«صحيح، لكن– »

«ما الذي يحدث هنا، داني؟ أعني، تتصرفين بغرابة بخصوص هذا منذ البداية تقريبا. ما الأمر حقا؟»

«لا أثق به. لا أقول بأنه لا يروقني، أنا فقط– »

«لا تريدينني أن أتأذى. شكرا جزيلا على اهتمامك. تلك جمل مبتذلة أيضا، لعلمك.»

«أعرف هذا.»

«الأمر لا يتعلق بكونك لا تثقين بلودفيك سيلي.»

«حقًا؟»

«الأمر يتعلق بكونك لا تثقين بي، بما إذا كنت تعتقدين بأني قادرة على اتخاذ قرارات مناسبة لي.» توقفت مارينا، هذه أيضا كانت جملا مبتذلة. «أريدك أن تكوني سعيدة لأجلي. لأنني جد سعيدة الآن. أنا أطفو.» توقفت مجددا. «ألا زلت هناك حتى؟»

«طبعا أنا كذلك. أنا سعيدة لأجلك حقا.»

لكن مارينا شعرت بأن هنالك صمتا غريبا حول كلمات دانييل، سكونًا في الجملة، وقررت أن دانييل تقول بأنها سعيدة فقط لأن ذلك ما يجب قوله، لأن عدم قولها سيكون فاضحا. لم تكن مارينا متأكدة ما إذا كان هنالك جدوى من القول: أحيانا يكون التظاهر هو أفضل ما يمكنك رجاؤه.

الفصل الثامن والعشرون

أنا أراك

ماذا كان عليها أن تفعل إذا، ما دام السيد موراي يقول دوما «لا تلمسي، لا تلمسي،» لكنه بعد ذلك يعطي لابن أخته الحق في هذا؟ يقول السيد موراي دوما بأن هذه الفوضى هي بالنسبة له أكثر المنازل تنظيما – لا تتحدثي عن السجائر النتنة والقنينة المفرغة في الدرج، إنه يعني بأنه يستطيع إيجاد أي شيء، يعرف مكان كل شيء. وهذا الفتى، ابن أخته، ربما يقول بأنه يستطيع الحفاظ على الفوضى منظمة كالسيد موراي، لكن أورورا تعرف. تعرف بأنه حرك الأكوام، خلطها، تعرف من النظر فحسب بأنه فتح الأدراج، ربما الأقفال، وإن كان شيء ما في غير مكانه، سيأتي السيد موراي زائرا، نعم، إلى السيدة أنابيل، هو يعتقد بأن أورورا لا تلاحظ، يعتقد ذلك لأنه لا يرفع صوته معها، حتى لا تعرف بأنه يصرخ، لكنه يصرخ بشأنها، أورورا هذا واللعنة على ذاك، لكنها سمعته، طبعا فعلت. كلهم يعيشون في البيت ويتظاهرون بأنه سهل ومحبوب لكنه في الحقيقة صعب المراس، إنه مطالب وأناني وغاضب دومًا، عادةً حول أشياء أنانية، مثل أين لُفافة طعامي، ولماذا قميصي الأزرق غير موجود في الخزانة، أقصد القميص ذا أزرار المعصم، وأين هي أزرار المعصم أيضًا، وأنابيل، أو مارينا، لقد أخبرتكما بأن علينا المغادرة قبل ساعة

ما الذي يجري بحق الجحيم. والمدهش هو كم أن الجميع يحبّه رغم ذلك. ربما هذا ليس مفاجئًا: إنّه ساحر ومُضحك وأحيانًا في المطبخ يأخذها، أورورا، من خصرها بذراعه الطويلة ويرقص معها، ضاحكا وملتفًّا، حتى تشعر بالدوار قليلا، وبالرغم من أن هذا يجب أن يزعجها لكنه لطيف، يجعلها تحرك فوطة الشاي وتقول، هيا سيد موراي، هذا سخيف، توقف حالا. يجعل كل الفتيات يشعرن بأنهن جميلات، حتى عندما لا يكن كذلك. لقد رأت ذلك. وعندما لا يقوم بالمجهود، يكون الأمر واضحا لكل من يعرفه ويعرف طباعه، حتى قليلا. كصديقة السيدة أنابيل التي قدمت البارحة مع الفتى، السيدة التي تشتغل معها والفتى الأسود الكبير –ديفوغن، هذا اسمه. رأت أورورا كيف نظر إلى المرأة، العاملة الاجتماعية، ونعم، لم تكن جميلة، بوجه كساحرة، أحمر ومتغضنٍ، شعرها كمكنسة قديمة وذقنها مدفوع إلى الأمام وناتئ، وعليه بثرة أيضا. لكنها كانت مؤدبة، كانت كذلك سابقا واستطاعت أورورا أن تلاحظ بأنها لا تروقه. لم يبتسم، أو يغازل، أو حتى يتذكر اسمها. الآنسة روبرتس، لم يكن رجلا لطيفا معها. لم يرقه الفتى، الأسود الكبير كرجل، عريض الكتفين وسمين من الوسط، وبدت المرأة وكأنها تريد من الفتى أن يبقى، أن ينتظر السيدة أنابيل، التي لا يعلم أحد متى ستعود إلى المنزل. كانت مصرة، وحاول ما أمكن بأن يحافظ على صوته منخفضا، كان بمقدور أورورا أن ترى ذلك على خطوط فمه وطرف لسانه، في الطريقة التي امتدت فيها يده إلى شعره، إلى جيبه، ولم يخرجها، حتى لا ترى الآنسة روبرتس بأنها قبضة.

الفتى – في الخامسة عشر ربما – أسود كالحبر، سواد من الجُزر أو سواد إفريقي، لا سوادًا أمريكيًا، ظنت، بعينين كبيرتين وشفتين منتفختين ترتجفان، قليلا – بدا خائفا و غاضبا ومحرجا أيضا. علم بأن السيد موراي لا يريده هناك، بأن لا أحد يريده هناك. (لا ينتمي إلى هناك، بوسع الجميع أن يحزر هذا.)، وكان هذا أسوأ لأنه هو نفسه لا يرغب في أن يكون هناك. سيكون الأمر محرجا ألا يكون مرغوبا فيك في مكان أنت نفسك لا ترغب

في التواجد فيه، شعرت أورورا بالسوء لأجله. لكن شرائح سالمون منقوعة كانت تنتظر أن تجزها وأغطية الفتى الآخر لتغييرها، وحمام مارينا لتنظفه بسبب لطخات فقاقيع الحمام العنيدة، وهذه البداية فحسب، ولهذا لم يكن بمقدورها البقاء والمراقبة، لكن عندما سألها السيد موراي قالت –وكان صحيحا– بأنها لا تعرف متى يمكن للسيدة أنابيل أن تعود ولا، قالت، ليس لديهم غرفة نوم أخرى، بسبب الفتى فْرِدرك. ثم أرادت الآنسة روبرتس، بأنفها وذقنها وتلك البثرة، أرادت من ديفوغن أن يمضي الليلة. لكنه لم يتكلم، كان بمقدورها أن ترى بأنه لن يتكلم حتى تأتي السيدة أنابيل إلى المنزل، الشيء الذي لن يحدث، وهي، أورورا، انصرفت إلى السالمون والحمام والأغطية، لتبدأ، وحاولت أن تسمع وألا تسمع في الوقت نفسه، لكنهما لم يغادرا الرواق الأمامي وحيلة السيد موراي بيده قد نجحت لأنه لم يرفع صوته، ولم تعرف ما قالوه. غادرت الآنسة روبرتس الحمراء المتغضنة وديفوغن. في الوقت الذي انتهت فيه من الحمام، كان الفتى الآخر، ابن الأخت، قد عاد، وعندما كانت تخلط السلطة لتضعها في المبرد (كانت تكره غسل الخس، أو بالأحرى، كانت تكره تنشيفه، ذلك الوعاء الدوّار) عادت مارينا أيضا، ولم تعرف أورورا ما إذا كان السيد موراي سيتحدث بشأن الفتى، ديفوغن، أم أنه سينزعج بخصوص الفتى الآخر، ابن الأخت، الذي حرك الأشياء في مكتبه، ولن تعرف إلا إذا سمعته يصرخ، ولن تخبر أحدا إلا إذا سألوها، الأمر الذي لن يفعلوه. لكن الأمر لم يكن مرحا، أن يتظاهر الجميع بأنِ السيد موراي رجل سهل. حتى فيما بينهم، كانوا يتظاهرون.

الفصل التاسع والعشرون

لأجل العار

إن كان العار الإنساني نتيجة السقوط الأوّل لآدم وحوّاء، والملابس جوابَنا على ذاك العار، إذًا فالملابس التي نُلبِس أطفالنا تصير إرثًا لهم، العار الذي نُمرّره. طبعا، إنها فخرنا كذلك - لكون الفخر والعار وجهين لعملة واحدة. عندما ألبست السيدة رامزي الأمريكية صاحبة فضيحة نهاية القرن (حتى لا نخلطها بالسيدة رامزي رمزُ الأسلوب الوولفي[21] الحديث والرفيع، نقيض مثير لها) ابنتها بملابس مكشكشة وجلد مطبَّع، وأشرطة وربطات، بأحمر شفاه وماسكارا، حمل وجه جون بينيت الصغيرة الأشبه بدمية باربي والمعروف لدينا جميعًا، حمل كما لاحظ كثيرون آنذاك عار والدتها وفخرها معًا. ملكة جمال صغيرة سابقة، تغضّنت وكسبت وزنا، بظلّ شوارب على شفتها العليا، خدين حمراوين لا بالنضارة الطرية للشباب بل بقدّم منتصف العمر، تهديد شعيرات دموية مكسورة على أنفها، رأت السيدة رامزي في ابنتها حتما، في تنورتها المكشكشة والمُخمل، ذاتها غير الفاسدة، المثالية التي لم تستطع تحقيقها. استثمرت بما فيه الكفاية، لتقتل: للحاجة لدفن عارها كلية. إذا لم تكن قادرا على أن تصير فائزا، يمكنك صناعة واحد، وإذا كان ما

21) السيدة رامزي، الشخصية الرئيسية لأحد أهم أعمال فيرجينيا وولف «إلى المنارة» (1927)

صنعته ليس ما رغبت فيه، آنذاك ما الذي أنت عليه؟

شعرت مارينا بأنها تعود من جديد للكتاب أخيرا. آمنت بغموض وبدون اعتراف بأنها عندما تعرّت هي ولودفيك، شفافية جديدة وعري منير، أنار حياتها. شعرت بأنها قد فهمت أخيرا ما يَعنيه فعل «الارتداء»، فهم آدميٌّ– أم كان فهمًا بريئًا؟ ولم لا يكون حوائيًّا؟ – التظاهر، تمثيلية الأمر برمته. الحاجة المتواترة للمسرحية وعبثها المورِّط المؤلم. وكيف يكون هذا أكثر مع أطفال المرء نفسه: أي والد، إلى جانب مجتمعه، يفرض بالإكراه حمولة وافرة على الطفل، الحمولة المفصَّلة الأكثر وضوحا لشبكة كبيرة خانقة من الإسقاطات والتكوينات الأسرية أو المجتمعية. أن تكون ذاتك المستقلة، أن تجد نمطك الخاص – كانت هذه طلبات المراهقة والنضج الأول، مدفوعة في خضمّ ثقافة مهووسة بالشباب، حتى منتصف العمر. وعت فجأة إلى غرابة توقِ الكبار لأن يكونوا شُبّانًا بينما لم يسنح للشُّبّان الوقت الكافي لان يكونوا أنفسهم وهم عموما ما يصنع الكبار بهم، ما يريدونهم أن يكونوا عليه ياله من ضغط سيء، من افتراء قاس. تذكَّرَت كيف أن داني يوما مزحت وهي تحزم لجمعية جيش الخلاص مجموعة من السترات الصوفية الزرقاء والبرتقالية والحمراء، هدايا من راندي، وأنها إلى حدود عيد ميلادها السابع والعشرين، أمام قطعة ملابس فاضحة من أمها، أدركت دانييل بأنها لا يمكنها اختيار ملابسها الخاصة فحسب بل أنها ملزمة أخلاقيًا بذلك. الانفصال الضروري عن الوالدين – الآن فقط، وهي تتحدث مع لودفيك، رأت ضرورة الأمر – قد يأخذ أشكالا متعددة. اللعنة نفسها، ليس فقط لأن مارينا نفسها كانت حرة في القدوم والذهاب، حرة في ارتداء ما تشتهي، منذ مراهقتها الأولى (كان لديها ذوق مميز، منذ البدء – حتى أمها قالت ذلك) لا يعني هذا بأنها قد خاضت معاركها. لا يعني بأنها كانت حرة.

شفافية جديدة: شعرت بهذا مع لودفيك، بدء علاقة جديدة من الأول بشكل لم تفعله منذ سنوات (كل أصدقائها كانوا أصدقاء قدامى، لقاؤها

الأول بآل السمين قد تلاشى، كما فعل آل السمين نفسه، في غياهب الزمن) كانت لها فرصة، كانت لهما فرصة أن يكونا منفتحين مع بعضهما البعض، أن يكونا طاهرين وواضحين. تحدثا عن الأمر، أو على الأقل، هي فعلت. لم تعرف لماذا خطرت لها هذه الحاجة الملحة إلى الصراحة التامة، لكنه بدا متفهما كلية. رأى منذ البداية بأن الأمر يتعلق بوالدها.

«إن كنا نتحدث عن الوضوح، عن النور، فعلًا،» قال، «إذًا فالاستعارات، العبارات المبتذلة، كلها مستعدة وتنتظر. أنت تحت ظل والدك. أنت تخبئين ضوءك تحت وعاء. هل أحتاج للاستمرار؟»

«ما الذي يعنيه هذا تحديدًا؟»

«بأنه من المستحيل رؤيتك بوضوح - لنفسك وحدك - بسبب تشوه النور الصادر عن أبيك.»

ومن هناك، في عمق الليل، على السرير الكبير الأشبه بعوامة في شقته المطلة على متنزه غراميرسي، بنوافذها المفتوحة على مصراعيها على الجو المعرّق (لم يؤمن لودو بمكيفات الهواء، كان يعتبرها مزيفة)، وعطانة نباتية طفيفة صادرة عن قمامة زاوية الشارع أو الحديقة المشتركة أو كليهما، تحدثا عن كتاب مارينا، حول موضوعه («رائع» قال لودو، وشفتاه على كتفها العاري. «أعني ذلك. موضوع في غاية الغِنى - الأسطح وأعماقها، هذا ما يتعلق به الأمر، فحوى عصرنا وضرورته»).

«طبعًا ستجدينه مستحيلا - تذكري، ظل والدك؟ وقد وطأت مجددا تحته. كيف يمكنك أن تكوني حرة إن لم تستطيعي إزالة هذا عن كتفيك؟ مجددا، الكلمات تتحدث عن نفسها، إزالة هذا عن كتفك، يعني إزالته هو عن كتفك. راحة تكاد تكون جنسية. عاطفية حتما - من المحزن طبعًا أن يكون هو العبء الذي ترزحين تحته. بهذا، ستهربين بها من كل التوقعات التي تتخيلين بأنه يشكلها عليك، وتصنعين طريقك نحو أن تكوني، مستقلة بنفسك.»

«وما الذي يعنيه هذا؟»

«من يعرف؟ أليس الأمر محمّسا؟»

«يبدو مخيفا بالنسبة لي قليلا.»

«لن تكوني وحدك. تستطيعين دوما الاتكاء علي.» كانت شفتاه بين نهديها، حيث عرفت بأن بشرتها ستكون ذات مذاق مالح.

«لن أكون مستقلة آنذاك، أليس كذلك؟»

توقف، هزّ كتفيه، ابتسم في الظلام. «الأمر برمته كلام فحسب، جميلتي.» بدا لها في تلك اللحظة بغرابة كوالدها.

«لكن أليس ذلك ما نحاول فعله، أنا وأنت، مع بعضنا، وكذلك مع المجلة، أليس هذا الغرض من ذا مونيتور؟ أعني، ألا نقول كلاما فحسب؟ ألا نسقط بالتحديد في مسارات معروفة؟ أنت من قلت بأنه ليس للإمبراطور ملابس، صحيح؟»

«تشبيه مفيد، كنت أفكر، لأجل كتابك. ربما يجب أن يكون هذا عنوانه.»

«إنه كتاب حول الأطفال، ما يرتديه الأطفال»

«حسنا، إليك هذا: أطفال الإمبراطور لا يرتدون ملابس»

«ألا يجعله هذا يبدو وكأن فحواه عن الأطفال الجائعين في دول العالم الثالث؟»

«إنه جذاب. إنه مثير. صدقيني.»

«لكنه أيعني شيئًا؟»

«ستجعلينه يعني. هذه هي الكتابة – التلاعب باللغة بحق الجحيم– عليك فقط أن تشرحيه للقارئ الذي يريد أن يثق بك، بالمناسبة.»

«حسنا أيها الذكي، اشرحه لي إذا.»

«ليس كتابي.»

«لكنني أريدك أن تفعل، أرجوك؟» رفرفت رموشها لأجله

«آه، السيدة صاحبة العينين القزحيتين – لا يمكن مقاومتهما. لأجلك سأحاول. لكنني لم أقرأ كتابك، عزيزتي»

«لا أحد فعل»

«ولا حتى والدك؟»

«في هذه المرحلة، ولا حتى هو.»

«حسنًا إذًا.» جلس لودفيك مقابل رأس السرير، تنحنح. «كآباء، نسلِّط عُقَدَنا مهما كانت على أطفالنا – اضطراباتنا، أمالنا ومخاوفنا، سخطنا. تماما مثلما يتصرف المجتمع الكبير كوالد، ويسلط عُقَدَه على أفراده إن أردت.»

«حتى الآن لم تتجاوز حدود مقترح الكتاب.» قرصت حلمته الوردية.

«أعطني وقتا. أنا أشرح العنوان فحسب، بعد كل شيء. أين كنت؟ يزيل كتاب مارينا ثوايت الرائد الغموض عن هذه العقد، محوِّرًا إياها حول خيوط ملابسنا، وبالتحديد ملابس الأطفال. في هذا التحليل اللامع لما نحن عليه وكيف يحدد هذا ما يرتديه أبناؤنا، تكشف مارينا ثوايت الأشكال والأنساق التي تقع تحت ثوب مجتمعنا. بفعلها هذا، تُخضِع الأطفال، والديهم وثقافتنا لفحص دقيق صريح وغير مسبوق، وبقولها الحقيقة ترينا بشكل لا يقبل الجدال بأن أطفال الإمبراطور لا يرتدون ملابسًا.»

ضحكت مارينا، صفقت، وفي احتفال ساخر ذهبت لتحضر لهما مثلجات توت العليق الأسود وجرعة فودكا مثلجة من ثلاجة لودفيك الخالية من أي شيء آخر.

جرّاء تأثير هذه المحادثة، وجدت مارينا ثقة جديدة في محاولتها. حاولت العمل بشكل دائم على الكتاب، لساعات كل صباح – حتى أنها وضعت حاسوبها في إحدى الغرف الكبيرة الفارغة لشقة لودو، حيث صارت بسرعة تمضي معظم الليالي – وحاولت الحديث عن التقدم مع لودفيك في المكتب بعد نهاية يوم المجلة المتعب. بالنسبة للودفيك، لاحظت بأنه كان من المرهق

له أحيانا أن يركز على الكتاب بينما تطالبهُ المجلة بالكثير، وقلقت قليلا من أن الطاقات الإبداعية التي نوى منها أنها ستمنحها للعمود الثقافي من ذا مونيتور كانت تُرَكِّز على أطفال الإمبراطور. لكنه هو من طمأنها بأن عليها إكماله، كان هو، أكثر من نفسها، أكثر من موراي بصراحة، من آمن لا بالمخطوطة فحسب بل بكاتبتها. وكانت تقوم بعمل جيد للمجلة أيضا، تستحضر أفكارا، تقترح مساهمين، تطابق مواضيع مع صحفيين. وكلما تلعثمت أو شعرت بالشك – عندما ظنت مثلًا بأن ليتي أبرامز قد سخر من اقتراحها لمقال حول فساد دور المزادات أثناء الاجتماع الافتتاحي – كان لودفيك يلاقيها في مكتبه، يغلق الباب، ويغدقها برغبته البادية. لم يعبثا خلف مكتبه – كانا أكثر مهنية من ذلك. لكنه كان يتودد لها طيلة اليوم، بالكلمات، بمداهنات مدوَّخة. بدا بأنه يعشق نهديها، رَبوتان صغيرتان شعرت دائما بأنهما يميلان نحو العادي، أثنى على نعومتهما، والنقاط المشدودة على حواف الحلمة عندما تثار «كفاكهة طرية صغيرة» قال «أنت إحدى المخلوقات التي وجدت لألا ترتدي ملابس على الإطلاق. حور عين، حلوتي. كل شيء بشأنك جميل، جسد جميل وجب الاحتفال به، وتنويره وحبه.»

«أوه توقف، لودو. أنت تسخر مني.»

«على الإطلاق. إنه لفي غاية السخرية بأن عليك كتابة كتاب عن الملابس، أنت من بين الجميع.»

«أظن أنه عن العري أيضا. بسببك»

«إذا فقد فعلت شيئًا جيدا في حياتي.»

الفصل الثلاثون

اندماج

ضد قناعتها، تركته يفعل ذلك. كانت هذه هي الجملة التي رددتها في بالها، لكنها كانت تعرف بأنها لم تكن تمثل الحقيقة أبدا. مثلت «الحقيقة» التي ستحتفظ بها لأجل مارينا، إن وصل الأمر إلى ذاك يوما. أمر لم تستطع التفكير فيه بجدية، وعرفت بأن عليها منعه من الحصول. لكن مارينا كانت أول فكرة طرأت عليها بعد مغادرته. كيف يمكن لدانييل أن تشرح لأي أحد تميز علاقتها بموراي، كم كانت منفصلة - وسريعا - كم كانت قوية؟ خلال مراسلاتهما - المترددة والكاشفة لكن لا غير اللائقة أبدًا- ثم على مشروب (مرتين)، الغداء (مرة)، (وبشكل مقدَّر) العشاء، عرفته في آخر يوم من أيّار، ليلة مضاءة بالنجوم وفي غاية الهدوء، حيث مشى معها من المطعم على شارع كورنيليا عائدين إلى مبناها وسأل، بأريحية عظيمة، وكأن لا شيء أكثر طبيعية، إن كان بمقدوره الصعود، (ولاحظت، بلا ذريعة: لم يقل لأجل القهوة أو لرؤية المنظر، أو لآخذ ذلك الكتاب الذي أعرتك إياه، أعذار كان من الممكن أن يتذرّع بها لولا أنه - كما أيقنت - كان رجلًا صادقًا) آنذاك، في وقت ضئيل، اعتبرت أن تواصلهما غريب، لقاء عقول، اجتماع أفلاطوني لأرواح مقسومة. لمن يمكنك أن تشرح أشياء كهذه؟ قد تقولها بصراحة له،

لا عن مارينا، ولا أنابيل. ليس وكأنه كان خائفا من التحدث عنهما – أحبت هذا فيه أيضًا، وتعجبت بأن وجدت نفسها تحب أي شيء، ناهيك عن أشياء عدّة في رجل كان منذ وقت طويل يمثل لها أمورا عدّة لكنه لم يكن موضوع حب عاطفي.

أُعجب بلوحات روثكو. بدا أشعث وكبيرا كقصر متداع، نصف أنقاض، في العتمة الطفيفة لشقتها البريئة، حزامه مفتوح وجذعه العاري هائل، جذبها إليه حتى سمعت دقات قلبه ينبض تحت الزغب الرمادي مقابل خدها. عندما تحدث، تردد صوته في صدره وولج أذنها كصدى عظيم.

«أتوقع أنهم يحافظون على رشدك» قال.

«من يفعل؟»

«لوحات روثكو. هذا ما تفعله لي. توقف كل شيء، غسلات الألوان، تجذبك إليها. تمنعك من القفز من النافذة.»

«ذلك احتمال دائم،» قالت، ساحبة رأسها حتى تنظر إليه.

«أعلم ذلك. كل يوم تجدين سببا لألا تفعلي. كما فعل هو– روثكو– في اللوحات.» توقف، «حتى لم يعد بوسعه ذلك.»

تماما،» قالت. «أتساءل عن الأمر، أتساءل ما إذا كان هذا هو السبب الذي يجعل الناس ينجبون أطفالا، ليتوقفوا عن طرح السؤال.»

«صحيحٌ أنه يضع نهاية له لبعض الوقت. فقط بإنهائه، إن فهمت ما أعنيه»

«لا أظن أنني فعلت» قالت.

«تنجب طفلا فتتوقف عن التساؤل بشأن العبث، صحيح. من جهة، أنت مشغول للغاية. من جهة أخرى، السؤال قد أُجيب، العبث قد تم تأكيدُه. لقد مرَّرته إلى الجيل المقبل، إنهم أساسيون، أنت لم تعد كذلك.»

«لكنك لا تؤمن بذلك حقا.»

«أفعل ولا أفعل،» قال. ظننت بأنها فهمت تمامًا ما يقصده.

«كل أعمالك، كل ما كتبته–»

«السؤال كل يوم. وأحيانا، ذلك هو الجواب.»

«وأحيانا هو هذا؟» أشارت للغرفة، لأجسادهما نصف العارية.

«أحيانا هو كذلك، «أكمل، ثم قطَب. «لكن أحيانًا لا. فقد يكون له تأثير عكسي.»

«هل أنابيل تعرف؟»

«تعرف ولا تعرف.»

«لا تسأل، لا تقول؟ ماذا عن مارينا؟»

نظراته هنا، كانت حادة. استدار لينظر من النافذة إلى ناطحات السحاب اللامعة تحت النور المخملي. «لا، على حد علمي. ليس عليها ذلك. ليس من شأنها.»

«لست متأكدة بشأن هذا،» قالت دانييل. «لكن إن كان في الأمر أيّ تعزية، لا أظنها تفعل. لن تتخيلك قادرا عن القيام بأمور كهذه.»

«بينما أنت استطعت.»

«لن أصف الأمر هكذا، أعني...»

«طبعا فعلت، وإلا فما كنا لنكون هنا. ما كنت لأكون هنا.» ابتسم الابتسامة العريضة الساذجة. «لكن ألست سعيدة لأنني كذلك؟»

عندما غادر، استلقت دانييل على السرير الذي كان يعبق برائحتهما، وبرائحة كولونيا الجين والتونيك قليلا، وفكرت أولا في مارينا، فيما عليها إخفاؤه عنها الآن. لم يكن لدانييل من قبل سر لم تستطع قوله لأحد، لكنها علمت بأن هذا لم يكن سرًّا مماثلا. لم يكن بمقدورها إخبار راندي، حتى، التي أرادت لابنتها أن تجد الحب. إن كان هذا ما وجدته. احتفظت في بالها بحقيقتين متباينتين: إحدى الحقيقتين كانت العطف العنيف الذي تشعر به تجاه هذا العملاق المتهاوي، الفرح للطافاته الصغيرة ونقاط ضعفه، الإحساس – المدهش والخاطئ، حتى هي كانت تعلم– بأن بوسعها توقعها كلها، أنها كشخص ضرير،

طوّرت حاسة إضافية، هو المعنيّ بها، وكان بمقدورها إتمام جمله. أما الحقيقة الأخرى فكانت يقينا من الخطأ الأخلاقي المشمئز. راجعت هذا نظريًا في عقلها ووصلت إلى أنها الحقيقة الأضعف. كانت مسحورة بهذا الصراع الداخلي، بمبدأه، لأنها في الحقيقة لم تفكر في نبذه. كان القرف فكرة، مسألة عرفت وجوب استحضارها مثلما يتعلم طفل متوحّدٌ الابتسام لأمه ليظهر السعادة. عظامها، جسدها، حكة فروة رأسها وأطراف أصابها كلها تحدثت دون حث جوقة من الرغبة. وهي مضغوطة إلى صدره شعرت بالأمان والسعادة معا، وكأن موجة نسيم داخلية عارمة جرفتها. وبدا من غير المعقول أن تقول لنفسها بأن الأمر غير أخلاقي. مارينا – أو حتى أنابيل– لم تكونا جزءًا من الموقف. خلال أسبوع أو اثنين، صارت إنسانًا لم تتوقع أبدًا أن تصيره.

لم يكن بوسعها التنظير لمستقبل لهذه العلاقة. ولا، فجأة، استطاعت تخيل حدّ لها، أيضا. كل ما تبقى لها هو الحاضر فحسب. أعطاها رقم هاتفه، الذي قال بأنه لا أحد تقريبا يعرفه. قال إنه يريد رؤيتها غدا – أول يوم من يونيو. قال بأنه يريدها أن ترتدي مجددًا الثوب من عشاء الجوائز– الثوب، لم تستطع كبح تفكيرها، الذي لم يؤثر على لودفيك سيلي. كانت تلك الليلة التي رمت فيها مارينا نفسها عليه، والآن هما زميلان وحبيبان معا. ودانييل التي كان عليها أن تتوقع الأمر، قد تخلت عن مشروع ثورتها مقابل مشروع عمليات التجميل. حتى أنها كانت تفكر في تتبع حالة شفط دهون فاشلة. إن لم يكن بوسعك كشف سيلي فسيكون دومًا بوسعك الانضمام إليه، أحداث التناقض في هذه الثورة الساخرة وإعطاء الجمهور القمامة التي لم يعرفوا بعد أنهم يريدونها. كان موراي ليعارض الأمر. أو ربما كان ليفعل لو عرف تاريخ الموضوع، لكنه كان يحاول إقناعها بأن تطارد هذه القصة الغواتيمالية، وظن بأن العمليات التجميلية كانت ضغطا من أعلى، فكرة نيكي. تركته على اعتقاده. لم تكن أبدا لتربط نفسها بمنافق ساخر، كاذب لمرات عدة. حمدا لله لأنها لا تلتقي جوليوس كثيرا هذه الأيام، كان ليكون قادرا على شمّ الأمر

عليها، كلب حساس للخوف. والفتى الآخر، القريب، فْرِدرك. بوتي. بوتي تاب. الذي يعمل لصالح موراي الآن. حتى وإن التقته لمرتين فحسب تستطيع أن تتكهن بأنه عقلاني وفخور، وأنه يحمِّل العالم معايير مستحيلة. عرفته هكذا، كان ليعرفها، ليلاحظ التغيير الطارئ عليها، إن رآها. لم يبد كشخص يشعر بالشفقة لسقوط الآخر، بل الغضب. لقد خاب أمله على نحوٍ ما، ولو أنه بالكاد بلغ العشرين، وأراد أن يجعل أحدًا يدفع الثمن. سيخيّب موراي ظنه، عاجلا أم آجلا، كانت متأكدة. كانت الحاسة السادسة، علم الغيب الجديد هذا. لم تؤمن بأن موراي سيخيب ظنها هي، لأنها تعرفه جيدا. شاردةً وهي تمسد مؤخر عنقها، اتكأت على الجدار والشروق يعانق نافذتها، تراقب لوحات روثكو وهي تزهر إلى ألوانها الكاملة، وتساءلت بخمول ما إذا كانت قد منحت فجأة، إلى جانب العاطفة، هبة النظر الثاقب. فكرت لوهلة، في نور النهار الأول، مستديرة إلى السماء، والأبراج والأسقف تتمدد أمامها، بأنه لم يكن هنالك شيء لا يمكنها تكهنه، وبأن هذا حتما سيبقيها – يبقيهم كلهم– في مأمن. استقرّ التوهج الذهبي إلى صباح صيفي ضبابي. أعطت النافذة ظهرها وخلدت إلى النوم.

يوليو

الفصل الواحد والثلاثون

إطاحة

كانت الغرفة ساخنة. يسري العرق على عنقك العاري، البخار على زجاج نظارتك، الهواء جامد كسخونة فرن. مروحة السقف معطّلة، ولم تكن هنالك أيّ إمكانية لتيارات الهواء لأن نوافذ الشقة الثلاث كانت بمحاذاة بعضها، محدقة إلى الزقاق الضيق عديم الهواء. وجد في الخزانة الواقعة قرب الباب مروحة متذبذبة[22] (عبارة قريبة جدا من «تقبيل[23]» لكنها بعيدة للغاية، كلمة تعلمها مؤخرا ولم تسنح له فرصة استخدامها)، واحدة صغيرة، وضعها على كومة كتب ووجهها قريبًا إليه فنشّفت بقع العرق على بشرته. كان يحتفظ بكأس ثلج على الطاولة بمقربة منه وكان يمص مكعبا كل مرة، الأمر الذي كان يؤلم ضرسه المنخور لكنه على الأقل منحه ولو لبرهة وهمًا بالبرودة. كان الثلج قديما يحمل مذاق الغبار.

كانت هذه أخيرا، أول ليلة لبوتي في نهاية الأسبوع الأولى في الشقّة، السبت المنتظر طويلا من نهاية الأسبوع هذه التي تسبق عيد الاستقلال، وكانت الحرارة قد ارتفعت إلى حوالي 100 درجة. تمنت أمه أن يعود إلى المنزل، لكنه باع السيارة ليدفع الإيجار (لم يخبرها بهذا بعدُ، من المرجح أنها كانت

22) oscillating

23) osculating

لتبكي)، إلى جانب هذا، بدت خطوة معقولة، في خضم التجربة المتقلبة التي آلت إليها حياته، بأن يمضي عيد الاستقلال مستقلا. دعاه موراي وأنابيل إلى ستوكبريدج، حيث كانوا ذاهبين إلى منزلهم الفخم مع مارينا وحبيبها الغريب، لودفيك، لكنه استشعر بأنهم لا يرغبون في قدومه فعلًا. ثم بالأخذ بعين الاعتبار ما كان يكتبه، لم يكن ليشعر بالراحة معهم على أيّ حال. ليس وكأنه يملك شيئًا ضد أنابيل، وليس كأن موراي يشكّ فيه. بوتي هو الآخر لم يعرف حدود غضبه حتى الأمس. على كل حال، أو كما قال موراي، يجب أن تأخذهم على حين غرة.

العباقرة العظماء يملكون أقصر السِّير، لا يعلم أقاربهم شيئًا عنهم. كان ليعطي الكثير ليعود إلى حالة الجهل الهانئ فيما يخص موراي. كل اكتشاف كان ينقص أكثر من بريق خاله المتلاشي. إن كانت أوسويغو إخفاقا، تساءل فرِدرك، ما هي الكلمة لوصف هذا؟ أخذه التفكير في نفسه مجددا، بكل الوعي، كبوتي[24]، لأنه نوى أن يرفع الجزمة، أن يركل عمه. طلبت مارينا منه – بدت أنها في الأصل فكرة دانييل، في عش الأفاعي العارم هذا: هي، بابتسامتها الأمومية، وطباعها الودودة المتنازلة، والسر الأكثر قبحا – إن كان يود أن يكتب مقالًا دون ضمان مقابل لذا مونيتور. كان عليه أن يسأل ما الذي يعنيه بـ «دون ضمان مقابل»، وقد شده وفوجئ في البداية لأن مارينا قد فكرت فيه لتمنحه هذه الدعوة. ثم عرف بشأن دانييل، وشك في الأمر. قالت مارينا بأن بإمكانه أن يكتب عن أي شيء اختاره، بشرط أن يكون مناسبًا لعمود «العروض الثقافية»، أكدت مطولا على كون ذا مونيتور نوعا جديدا من المجلات، جهاز حقيقة بلا حدود حيث أي شيء –أي شيء حقيقي– سيكون مرحبا به. كان هذا منذ أسابيع، حتما قبل أن يقرأ المسودة بأكملها وقبل أن يجد الرسالة الإلكترونية الأولى حتى. لم يعرف ما سيقترح. «لا تقلق» أومضت له بابتسامتها المشرئبة الخرقاء التي كانت تبدو عليها أكثر من مغرية،

---

24) Bootie، بالإضافة إلى ما يمكن لهذه الكلمة أن تعنيه فيما يخص فرِدرك (اللقب بوتي الذي يرمز إلى سمنته)، هذه الكلمة تعني أيضاً الجزمة أو الحذاء.

حميمية وغامضة في الآن نفسه «سيتبين لك شيء ما. سيكون الأمر رائعا.»

كانت فكرته الأولى أن يكتب شيئًا عن موراي ثوايت، عن كل ما كان خاله يرمز إليه. سيحتفظ بالأمر سرا، حتى ينتهي منه. تخيله في البدء كهدية لأسرة ثوايت، تخيل فرحة مارينا و– عندما سينشر، إن نشر، فرحة خاله كذلك. ليس عرضًا تمامًا، أو فقط – هكذا فكر – بل كشفا عن دواخله الخاصة. ربما وصف شخصي أو أقرب لسيرة ذاتية لما يعنيه أن يكبر المرء في الظل الطويل لرجل مثله، أن تتعلم من وجوده هو ممكن في الحياة – أن تعرف، حتى كفتى من واترتاون، ما يمكن أن تكون عليه حياة العقل – ثم أن تشعر دوما بأن تلك الإمكانية المحيرة كانت بعيدة المنال. في البداية، كقصة بأسعد النهايات: المجيء، أخيرًا ووحيدًا، للميتروبوليس، تصور الاعتماد على لطف الأقارب الذين كانوا أقرب إلى الغرباء، الاكتشاف خلال رفقتهم، لا راحة الجسد بل راحة – ربما القلق المريح (أو ربما مرض؟) – العقل: هنا، عند موراي، المستمع والمعلم، هنا كانت العظمة قريبة. كان التصور في باله آنذاك، في بداية يونيو، لعملاق هائل يحمل فتى بسيطا براحة يده الضخمة، ويعلمه شيئًا فشيئًا أن يكبر.

القلق، المرض: على طول ذلك الشهر الحار الحارق، توضح الوضع بشكل مغاير لبوتي. بدت الأمور مختلفة: بدا موراي مختلفًا: لا يزال مظهره الزائف مفروضًا، بصراحة، لكنه كان صرحًا مُفرغًا. لم يعجب بوتي بلودفيك سيلي أكثر من المرة الأولى التي التقاه فيها، لكنه تساءل – بضيق، إن كان مع الأسترالي حق. في كل الأحوال، كانت مجلة سيلي المكان الأنسب لإثبات وجهة النظر تلك. آمن بأن مارينا إمّا رأت الحقيقة بشأن والدها أو أنها يجب أن تكون مستعدة لرؤيتها. كان هذا أملها الوحيد للتحرر منه –أن تتخلص فعلا من أسطورته. رغم كل شيء، يجب عليها ذلك– أن تكون شاكرة بأن أحدهم، بأنه هو، بوتي، كانت له العزيمة القوية للتحدث. آمن بوتي بأن هذا ما كانت ذا مونيتور عليه. كان هذا قدره.

تراكمت الخيبات: في البداية طبعًا، تساءل حول افتتاح الجلسة في

كونيتيكوت. لم يستطع أن يحدد ما إذا كان هذا، أم همسُ دانييل وسيلي أو كلاهما معًا، الذي زرع البذرة الصغيرة من الشك. ثم أثناء أسبوعه الثاني من العمل عند موراي ربما، عندما ناداه خاله ليجمع قصاصات ملفات لعدة مقالات كان قد كتبها، سنوات من قبل، حول البوسنة. كان يكتب حول لاهاي، محكمة جرائم الحرب، وأراد، قال، بأن يتفقد بعض الحقائق والتفاصيل السابقة. لكن بوتي، الذي قرأ الأوراق الأولى وقرأ كذلك المقال الجديد وجد بأنها لم تكن عبارات فحسب بل جملا كاملة، وفي إحدى المواضع، فقرة كبيرة متخمة، قد أخذت كلية من الأعمال المنشورة سابقا والمنقولة إلى العمل الجديد.

قلق بوتي طوال الليلة، وجد نفسه يحلّل درجة الخداع وعدم النزاهة الممثلة في هذه السرقة. أراد – مثلما حين سمع بشأن تعاطي جوليوس للمخدرات مثلا– بأن يكون قادرا على اختلاق أعذار، أو على الأقل تجاهل المسألة. لكن وهو مستلق تحت غطاء ريش الإوز لم يقدر على التجاوز وفي الصباح المقبل، وأصابعه ترتجف، وقف في مكتب موراي وتنحنح.

«فريد»

«موراي. أنا فقط. عندي سؤال»

«نعم؟»

«مقالك.»

«نعم؟»

«مقال المحكمة فرغت منه للتو. يدور حول تاريخ صراع البوسنة»

«نعم؟»

«كتبت عن ذاك سابقا. أعني الصراع»

«أمضيت أسابيع في سراييفو. ذهبت إلى كوسوفو، سربرنيتسا. نعم»

«لكنك كتبت الأمور نفسها»

«ما الذي تعنيه؟ لقد فكرت في الأمور نفسها، تقريبا، آنذاك والآن»

«لكن أوصافك»

«رأيت تلك الأماكن، تلك الأحداث. لا أظنني أفهمك»

رأى بوتي الأوراق ترتجف بين يديه، وجد هذا صعبا للغاية «لكنك استخدمت نفس الكلمات تماما نفس الوصف. لقد سرقتها»

«لقد كتبتها»

«ثم كتبتها مجددا، نفسها»

ضحك موراي، اتكأ على كرسيه. «أوه، هذا جيد جدا. نعم لقد فعلت. كتبتها نفسها مجددا.» أشعل سيجارة، حاول، – كان واضحا أنه يحاول– بأن يحافظ على ملامح هادئة «سرقة. هذا جميل. أيمكن للمرء أن يسرق نفسه؟ يغنم، نعم، يعيد الاستعمال، حتما، لكن أن يسرق؟» عندما ضحك، أطلق صدره صوتًا وكأن حفارة كانت تقلب الأرض داخله. «أتتخيل حقا،» قال أخيرا، «بأن هنالك كلمات كافية في العالم حتى تكون دوما جديدة؟ التجديد عند الشباب مبالغ في تقديره. إن كنت قد عملتَ جاهدا لإيجاد الكلمات المناسبة لما تريد قوله، فحتما لن تكون طائشا في تجاهلها بسبب حس من اللباقة – إحساس بالخساسة من تكرار نفسك. هل أقدم نفس المحاضرة مرتين؟ طبعا أفعل. هل أخوض نفس المحادثة أكثر من مرة؟ بلا شك. أنا مذنب بمللي من التكرار. أنا آسف– لقد خاب أملك بمعرفتك لخالك العجوز الممل. يا حسرتاه» قال هذه الكلمة الأخيرة وابتسامة فائزة كبيرة تعلو وجهه، لحظتها شعر بوتي بالسخافة، غمغم اعتذارا وتجاوز الأمر.

لكنه لاحقا أدرك، استمر الأمر في مخالجته. عاد إلى إمرسون الذي شعر بأنه يفهم هذه الأمور « يوجد جميع الأشخاص في المجتمع بسبب صفة لامعة من جمال أو فائدة يملكونها. نحن نستعير أجزاء من الشخص، من تلك الصفة الجميلة، ونقيس عليه لإكمال الصورة، وذلك خاطئ، لأن بقية الجسد صغير أو مشوه» كانت خيبة أمل، تشويهًا، ولو صغيرًا. ربما كان خاله كسولًا قليلًا، مهلهلًا شيئًا ما. كان بوسعه تجاوز الأمر لكنه لم يستطع نسيانه.

ثم حدث أمر آخر، بعد أسبوع قصير لاحقا. موراي المنشغل بعد الزوال، ترك له لائحة من المهام، من بينها الاتصال بعشاء جمع تبرعات في برنامج هارلم للشباب نهاية يونيو، حيث كان من المقرر أن يلقي خطابًا. طلب من بوتي إلغاءه، أن يعبر عن أسفه العميق، لكن أمرا طارئا، كان عليه أن يقول، قد طرأ. ثم كان الأمر التالي في اللائحة، اتصال آخر، قبول دعوة عشاء مقدمة من ناشري مجلة ذا أكشن، تكريمًا لقدوم ناشطين فلسطينيين اثنين كانا قادمين للمدينة. حتى أن بوتي قد قرأ عن واحد منهما في الجرائد، علم أنه مهم – ومع ذلك. ومع ذلك فقد كان الحدثان في اليوم ذاته. لم يقل موراي شيئًا عن الأمر في رسالته، لكنه كان يصدَ البرنامج الشبابي لأجل الفلسطينيين المعروفين، كان بسيطا كعملية حسابية. وجد بوتي نفسه تائهًا: كل اعوجاج كان صغيرًا، لكنه شرع في القلق من أنها تصنع تشوّهًا. لم يفاتح خاله في الأمر، الذي كان متأكدا من أنه سيضحك بوسامة مجددا، لكنه عدل نظره بهدوء. بدا موراي ثوايت أقل فأقل ذاك العملاق اللامع.

الأمر الذي كان السيب – بالرغم من المظهر المنحرف للأمر من الخارج– كان بوتي منجنبا إلى العودة إلى المسودة المخفية. تمنى أن يُثبت تبرئة، بأنها ستوضح وتبسط نظرته لخاله. رؤية العقل الخاص. ظن بأنها ستكون الجواب. قرأها في أجزاء متعددة، في ساعات الغداء عندما كان موراي في المطاعم و في مساء طويل بينما كل أفراد الأسرة كانوا خارجين. قرأها منكفئا على مكتب موراي، معرقًا، يمسح يديه بين الحين والآخر في سرواله أو على قميصه حتى لا يترك لطخات بادية على الصفحات. جعلته الخيبة يعرق، وخوفه الحاضر، والقراءة نفسها – الكلمات على الصفحة– جعلته يعرق أيضا، وكأنه رأى الرجل عاريا، رأى حاجات الرجل ورغباته، وتروَّع من شكلها ومن شكله المادي معا. كانت تجربة مروعة خاصة وقوية جدًا.

لم يكن بمقدوره سلفًا توقع شعوره تُجاه الأمر، بأن المسودة ستبدو له طموحة وتافهة في آن، بأنها ستوضح تماما نظرته تجاه موراي، بأن كل ما

يراه الآن هو الذات الصغيرة المشوهة، حدودها الخارجة الكبيرة تبخرت. آمن الآن بأن فكرة الرجل العظيم مجرّد وهْم منذ البداية، مجرد تغليف نوافذ. مُكرها، انضم إلى فكرة لودفيك سيلي: كان موراي ثوايت خدعة مخادعة كبيرة، كسولا، منكفئا على ذاته ونجمًا مخادعًا ولعينًا.

صراحةً، جعله الأمر غاضبا. ليس قليلا فحسب بل غاضبا بقدر حياته. لم يكن منطقيا، كان يدري ذلك – ظهرت حقيقة موراي، وهي ربما كل ما يمكن أن يكون عليه – لكن بوتي شعر بالخيانة، باستصغار الإحباط. علّق آماله على رجل مفرغ. وأيقن بأن هذا هو المقال الذي أرادت منه مارينا أن يكتبه حتى وإن لم تكن تعلم ذلك. هذا هو المقال الذي أُرسل لأجله إلى مانهاتن من قبل قوى عظمى (إمرسون ربما؟) ليكتب. كان هذا قدره ونداءه – ليس مقالا لنفسه حول بيير المتسكع في موسكو، لكنه مقال حول موراي في نيويورك.

وكأنه لم يكن حانقا كفاية، فتح خطأ رسالة إلكترونية من دانييل لموراي. لم يعلم بأن موراي ترك إيميله الشخصي مفتوحا، ظن بأن صندوق الرسائل على الشاشة يحوي المراسلات المهنية فحسب. وبينما لم تحمل الرسالة أي شيء فضائحي، عرف فحسب، عرف فجأة. من اللهجة، من إيجازها. كان يافعا لكنه لم يكن غبيا. عرف فحسب. وصار التشويه نهائيًا وكاملًا.

والآن، وهو منشغل بالعمل على مقاله السري لمارينا، عرف بأن مارينا كانت على حق. بعد حوالي الشهر، توصل إلى موضوع. لم يكن سيكتب هجوما عاطفيا، لن يكون ذلك ذا قيمة، سيخون كل مبدأ يتمنى أن يرفعه في وجه خاله. قرر بأنه سيكتب تحليلا معمقا ودقيقا حول المسودة، عرضٌ للكتاب السري: لأن موراي، برسمه للبورتريه الفكري الخاص به، قد كشف بلا قصد عيوبه العميقة، جعل الصورة أكثر وضوحًا اخلاقيًا مما توقع. كان بوتي سيقول الحقيقة، ليظهر للعالم الرجل الذي هو عليه. سيكون مدمرا،

وكيفما اقترحت مارينا متهكمة، سيكون رائعا. قول الحقيقة: ما الذي سيكون أهم منها؟ كانت هنالك عظمة في هذا الالتزام، وربما تضحية أيضا - عرف بأن الناس قد ينزعجون من الأمر، يغضبون حتى، في البداية على الأقل- لكنه قد نُودي، نودي أخلاقيًا، ولم يكن ليشعر بغير الحماس العامر تجاه ذلك.

ها هو الآن، غارقا في العرق، سرواله التحتي القصير ملتصق ببشرته، بقية جسده عارية تقريبا في الغرفة القبيحة والمروحة المتزعزعة، يكتب المقال الذي سيغير العالم. أو يغير عالمه حتما. كانت هذه الثورة لك. أقرب إلى داستاييفسكي من تولستوي (لم يصل بعد إلى نهاية الحرب والسلام لكن الجريمة والعقاب، تلك بالفعل رواية)

فكّر بوتي في الذنب ثم طرده من باله، لابدّ أنّ موراّي أراد ذلك، وإن لم يكن يريده أن يقرأ المخطوطة فعلى الأقل أراده أن يعلم بوجودها هناك. إمّا هذا، أو أنه جهّز اختبارًا متعمدا لشرف قريبه، متماشيا مع جمل «ليس عليّ إخفاء مفاتيح مكتبي كما لا أفعل عادة، عليّ أن أثق، سأثق، بأن الشاب الصغير لن يخترق هذه الوضعية» هذا من شيم موراّي: التباهي الذي يخدمه هو نفسه باسم اللامبالاة النبيلة. في كل الأحوال، فشل بوتي في الاختبار. لكن ألم يكن موراي ليعرف بأنه سيفشل - كان عليه ذلك وإلا فلم ترتيب الموقف؟ وبالرغم من أن هذه الأمور لم تقل ولا تقال، تخيل بوتي خاله ينظر إليه بشكل مغاير مؤخرًا، نظرة ساخرة فضولية، مثلما لو كان ينتظر بودٍّ ردة فعل قريبه. عندما فكر في الأمر، تخيل بوتي بأنه لو كان الأمر كذلك، كما يأمل، لو كان متفاجئًا بكتاب خاله، متفاجئًا بعمقه وحكمته، لكان ليخبره، عاجلا أم آجلا. في تلك الحالة، لكان ليبحث عن افتتاح، طريقة لمشاركة تعجبه وللإطراء تحت قدمي الرجل العظيم.

ما الذي خيب ظنه لهذا الحد؟ كان يحاول أن يعبر عن حزنه بكل ما في وسعه، لكنه وجد الأمر صعبا. مقالته، في مسودتها الأولى على الأقل، كانت تعاني من هذا. لم يرد أن يظهر مباشرة اكتشافه - سلوكيات موراي ثوايت

الشخصية قد تجعل منه حثالة، لكن أكانت ذات صلة؟ – لكن كل هذا، الرسائل الإلكترونية، معرفة أنه هناك في ستوكبريدج، إلى جانب أسرة ثوايت، قد تنظم دانييل مينكوف في أيّ لحظة، تحت تظاهر كاذب، خضّب هذا أيّ جملة من نثر خاله، وجعل تحليل نقائص الكتاب بنزاهة أمرا صعبا عليه.

مرر بوتي يديه من خلال شعره الدبق، مضغ الثلج المغبر، وقف وحام في الغرفة الصغيرة. بالإضافة إلى حرارتها السيئة، كانت الإضاءة سيئة كذلك: بِرْكة الضوء على الطاولة، مصباح سرير جانبي محمر ومظلم على الأرض قرب الأريكة، شريط مصابيح مشع مثبت فوق منضدة المطبخ. لمح بعض الصراصير، صغيرة وهي تمدد قرونها في المغسلة. كان بوسعه سماع الصراخ والموسيقى، موسيقى سالسا، من إحدى الشقق المقابلة، وبعيدا، صوت حركة المرور. مرت سيارات قليلة بالشارع، الذي كان يعبق برائحة عفن رطب وحجارة قديمة. كان عاريا ومدركا لأنه قد يُرى إن اهتم أحد بالنظر إليه، وهذا لم يزعجه على غير العادة. شعر بأنه قد نزل إلى هذا القرف، كان ليصفه، عالقا في حثالة مانهاتن السفلى، بعيدًا عن أي شيء لا يعيش في سماكة الحياة. سمع صوت وقوف سيارة أجرة، وزعيق سكارى. تنفس بوتي عميقا، عطانته وعطانة الجو، ساعات من التعرّق، روّعته وفاجأته في نفس الوقت.

ثم سُمع صخب وشجار على الدّرَج، وبشكل لا معقول فُتح الباب، اقتحام مفاجئ للغرفة لأطراف وضحك. خاف بوتي، غطت يداه أقرب عُري من جسده، وأومض، ظهره مقابل النافذة. شعر بموجة عرق جديدة تسري على جسده، باردة هذه المرة.

«من أنت بحق الجحيم؟» سال أحد الرجلين، غير واضحين لبوتي، ذراعاه بدتا متشابكتين مع جسد الرجل الآخر، جثة ناتئة العينين ومثلية للغاية «وما الذي تفعله بحق الجحيم في منزلي؟»

نور في الضباب. «جوليان؟ لا بد أنك جوليان.»

«جوليوس. سحقا. أعلم من أنت. هز مؤخرتك. قريب مارينا،

صحيح ؟»

حرك بوتي رأسه، وهو يسير جانبيا كسلطعون نحو الأريكة حيث ملابسه الملقاة.

«أسف. ما اسمك؟ أعني اسمك الحقيقي؟»

«فْرِدرك»

«آسف يا رجل. لقد نسيت تماما. ظننته الأسبوع المقبل. قدومك»

«لا. اليوم»

«واضح» عم صمت، خلاله ارتدى بوتي سروال الجينز وقميصا كان قد سرقه من دونالد في أمهيرست.

«هذا لويس» قال جوليوس، مشيرا إلى الطرف الآخر من المخلوق رباعي الأطراف.

«أهلًا يا رجل» أومض بوتي بشكل رسمي للشاب مفتول العضلات، لرأسه الحليق عن آخره، لبشرته بلون الموكا، لعضلاته العارية. شعر بأنهم مشتركون في مواجهة صامتة. لم يستطع أن يحدد ما إذا كان جوليوس سكرانًا أم منتشيا ولم يرغب بوتي أن يعلق في الجهة الخاطئة لشجار مع مُدمنَي كوكايين متقلّبَين. لكن، رغم ذلك، لم يكن لديه مكان آخر يذهب إليه.

«ليس لدي أي مكان لأذهب إليه» قال أخيرا، بهدوء «وإلا كنت لأذهب»

انبعثت موسيقى السالسا من الجهة المقابلة غير مبالية. وكأنها تدعوه للحفلة. كان يسمع الأصوت التي تسير مع الموسيقى، كان اجتماعا.

«لا عليك فْرِدرك لا عليك» لكن جوليوس وقف فحسب، نحيلا، محدقا بعيني حشرة.

«لنذهب يا رجل، جوليوس؟ يا رجل لنذهب» وضع لويس يده الكبيرة على يد جوليوس النحيلة الشاحبة.

حرك جوليوس رأسه قليلا، كأنما كان يستيقظ « لم تذكر بأنك

سمين.» قال

«معذرة؟»

«لم أتخيّل أنّ مُكتري شقتي سيكون سميناً!»

«يا رجل، ليس هنالك داع لهذا.» وجه لويس جوليوس إلى الدرج. « لا تتحرش بالفتى هكذا. لم يفعل لك شيئًا.» سمع بوتي لويس وهو يقول، ثم همس جوليوس بشيء في المقابل. حشر لويس رأسه مجددا من الباب «أعتذر عن سوء الفهم، حسنا؟ مساءً سعيدا» أغلق الباب بحذر، بلا صوت تقريبا. سمع بوتي خطواتهما نازلة على الدرج، وبعد هنيهة، في فاصل بين نوتات السالسا، سمعهما يغمغمان لبعضهما في الزقاق بالأسفل وهما يسيران على طوله تجاه الشارع.

عرف بوتي بأن لويس لم يكن رفيق جوليوس. رأس المخروط. أين كان؟ ومن كان لويس؟ أخذ نفسا عميقا. لم يكن بحاجة إلى الموافقة على تصرفات صاحب المنزل. هاهو، في قذارة الوضع، في قلب الحياة، صحيح؟ عندما تأكد بأنهما قد ذهبا، أزال سرواله وقميصه، الذي كان قد تلطخ، واستلقى على الأريكة. لو لم يكن يهتم برأي مارينا، كان كل هذا ليكون سهلًا. لو لم يرد من موراي أن يثير إعجابه، لكان ربما أقل خيبة. كما هو عليه الحال، كان سيكتب المقال. سيجعله جيدًا جدًا حتى، بالرغم من كل شيء، ستضطر مارينا إلى نشره. سترغب في نشره. لأن الحقيقة ستُكشف. كلما توقفت موسيقى السالسا، كان يتخيل بأنه قد سمع الصراصير ترقص في المغسلة.

الفصل الثاني والثلاثون

عرض

غادر قبل الفجر بقليل. في طريقه إلى المصعد، فرك جوليوس عينيه، سعل، شعر بالقرف. كان قلبه ينبض سريعا، في مؤخر رأسه كما بدا. كانت عضلات فخذيه تؤلمه، وحلقه أيضًا. وشعر وكأن دخان السيجارة إلى جانب العرق قد استقرا فوق رأسه. لو كان يعلم بأن لويس يعيش على بعد ثلاث مجمعات سكنية من شقته هو وديفِد ما كان ليراوده بكل ذلك الحماس. عندما ذهب إلى الحانة القريبة من شقته القديمة، لم يخطر بباله بأن صيد اليوم يعيش في البناء المقابل لصالة ديفِد الرياضية. حتى وهو يطارد – كان مستيقظا طيلة الليلة الماضية– كان عليه أن يكون ذكيا حتى يفسد العش، توجه لشارع بيت – لو كان صادقًا، كان ليعترف بأنه قد خطط للأمر منذ البداية – حتى اكتشف ذلك السمين الغبي يكاد يستمني على أريكته. لم يتذكر تحديدا شكل «هزّ مؤخرتك»، النظارات فحسب والزّغب الطفيف على صدره، واللحم النسوي المُراق على تُبَّانِه الداخلي القصير. كان الفتى يحاول أن يحشر جسده في إطار النافذة، يداه على سرواله الداخلي كصورة تعذيب، كأن جوليوس كان يشهر خرطوم ماء أو مسدس خراطيش. كان خائفا. وكان جوليوس لئيما معه. شعر بالسوء تجاه ذلك، في خضمّ شعوره بالقرف، لكنه

كان غاضبًا. الأمر برمته كان تخبطًا لعينًا.

تمرغ جوليوس في يأس دوار الثمالة: ما الذي كان يفعله بحق الجحيم بحياته؟ بنفسه؟ نوى أن يرتب أمور مهنته هذا العام، تحول كليا بفعل الحب، والآن لم يعد جيدا حتى في ذلك. كان لئيما، أنانيا، أحمق متخبطا. كان عليه أن يستقل قطار العاشرة والنصف إلى سكارسدايل من أجل نهاية أسبوع مطولة بمنزل كوهين. فكر في والدة ديفِد، مختلفة كل الاختلاف عن والدته الحساسة بمخاوفها وتردداتها، ومراوغاتها المزهرة. كانت السيدة كوهين صغيرة لكن قويّة، ولديها خطط لنهاية الأسبوع. ديفِد الذي ذهب لاسترضائها البارحة، ضحك على الهاتف بخصوص صحون المالامين الوطنية (كلها تحمل نجوما) والكؤوس (المخططة). اقتنت مصابيح صينية بأعلام أمريكية عليها، وكان متعهد الحفلات سيحضر وليمة يهودية، تحتوي حلوى بكريما زرقاء. لم تكن أسرة كوهين تأكل الطعام اليهودي لكن أقرباء آديل من ألباني كانوا يفعلون، وكانوا سيكونون هناك. «ليس هنالك ضرر في القيام بمجهود،» أخبرت آديل ديفِد. «ما رأيك في طلاء أظافري؟» الذي وصفه ديفِد بأنه يلمع بأحمر قومي.

كان جوليوس خائفا من كلّ شيء: الاسم اليهودي لغير اليهود، الآسيويّ، المِثْليّ. كانوا لطيفين لكنهم لم يكونوا ليسعدوا للأمر. كشفت أديل دومًا عن تذمرها جراء فشلها في سماع ما يقوله جوليوس ونسيان جميع المعلومات بشأنه.

«أُوهايو؟» كانت لتسأل، «إيليونيس؟»

«في الحقيقة ميشيغان.»

«قل مجددا؟»

«ميشيغان»

«آه طبعا، كان لدي رفيق من ميشيغان مرة، لكن لم يكن بوسعي أبدا العيش هناك. لا مستقبل فيها» ثم «لا بد أن أمك قد مرت بوقت صعب

للتكيف. الوضع مختلف في كوريا، أليس كذلك؟»

«في الحقيقة فيتنام»

ثم ترمي يديها بأظافرها اللامعة «طبعا عزيزي، طبعا هي كذلك» ثم مجددا «ما الذي يشتغله والدك؟»

«يدرب؟»

«يفعل ماذا؟»

«يدرب، الرياضة، الريغبي في الحقيقة»

«لا تخبرني. نحن لسنا جيدين في أيّ رياضة، لا أحد منا. لكنني ظننته يسوق حافلة– مدرب، حافلة، أتعلم؟»

«ها. نعم، سيدة كوهين»

«أديل، أديل. طبعا. أديل»

بهدف تقصير الوقت مع آديل، ومع ساموبل، زوجها النحيل والممحي، الذي كان يوما وسيما كابنه، لكنّه بات شاحبًا أشبه بفاكهة ذابلة على كرْمَة، شخصًا متضائلًا. تحجّج جوليوس بالعمل. اقترحت مارينا عليه أن يكتب شيئًا لذا مونيتور، ليس للعدد الافتتاحي (ذلك العدد قد «أُقْفِل» استخدمت كلمة قُفل وقد أزعجته. لم تبد له الكلمة المناسبة فشّكَ بأنها تعود إلى سيلي لودفيك) لكن للعدد الذي يتبعه. مع مجلة أسبوعية، كان هنالك الكثير من المساحات لملئها. لم تقل مارينا بأن المقالة بدون ضمان ربحي، لكنه استشف الأمر من شساعته: موضوع العمود غير محدد، بلا عقد، وعدُ المرتب غير محدد، لكنه حتما أقل فخامة مما يأمل فيه. أرادت شكلا من أشكال العروض الثقافية، أو هكذا قالت، بالرغم من أنه بدا من غير الواضح أنها تعرف ما تعنيه. ولا، لذلك الغرض، فعل جوليوس: إنّ كلمة «عرض» تُحيل إلى «الكشف». منظر «حرّك مؤخرتك» في ملابسه الداخلية كان عرضًا غير سليم، أو المنظر غير الموثّق لحُسن الحظ (إلا من طرف المدعوّ تاب تلك الليلة، فكّر جافلًا). لكن مارينا أرادت شيئًا آخر،

وبينما كان يفعل ما بوسعه ليُلزم نفسه، لم يخرج بأيّ فكرة. وعليه، أخبر والدي كوهين وحتى – بقدر ما لمّح بأنه سيشرع في كتابة شيء – لديفِد. ظن جوليوس بأنه قد رأى عيني ديفِد تضيقان مؤنبًا، ثم، مباشرة قبل أن يغادر، قال «أتعلم، آنسة كلارك، لا كذب سيساعدك في كتابة أيّ قطعة إطلاقًا، أو حتى أن تبدأ».

«هل أنت قديس ما، الآن؟» أخرج جوليوس لسانه، كملكة، كالعاهرة التي كان عليها، فكّر. لكنه كان غاضبا بصدق، بداية الغضب حينما امتلأ عن آخره، جعله يُهين قريب مارينا الغبي.

والآن على جوليوس بحق أن يبلغ قطار العاشرة والنصف، أن يبتسم لآديل كوهين، أن يختنق تحت حلوى الاحتفال بعيد الاستقلال دون أيّ علامة إرهاق بادية عليه. والأسوأ، عليه أن يبرر ليلة تخلفه بموضوع مقال على الأقل. تنهد، لم يخفف هذا من ارتفاع ضغط دمه. سيكون عليه أن يترك الموضوع للاوعيه. ما زالت هنالك ساعات قبل أن يضطر إلى المغادرة نحو المحطة، أو ربما عليه أن يقوم ببعض التوضيب وينطلق مباشرة.

عرض. عرض. سيكشف جوليوس. كَشف جوليوس. يريد جوليوس أن يكشف[25]. كان هنالك رجل يتكئ على بناء العمارة بدا مألوفًا وغير مألوف في آن. كان شعره الشائك رماديا وأبيض، غير مختلط بل مفترق بشكل مميز كطائر، جزر متباينة من الرمادي والأبيض. رمق جوليوس بنظرة، أخافه بطوله وقوته. ربما يكون جاسوسا، عيّنه ديفِد لمراقبة تحرُّكات جوليوس؟ كانت هذه فكرة مجنونة. أم لم تكن كذلك؟ ذكّر جوليوس بشخص ما. بمن؟ ليس بآديل. آديل. سكارسديل. العاشرة والنصف. محطّة غراند سنترال للقطارات. عليه أن يستحم، عليه أن يحلق. لم يكن هنالك وقت. كان هنالك كثير من الوقت. هل ترك هذه الأضواء في الشقة منارة؟ يبدو أنه فعل. لم يكن عليه إهانة ذلك الفتى السمين. لم يكن عليه ممارسة

---

25) Julius sera exposé, Julius a été exposé, Julius a voulu être exposé

الجنس مع لويس. كم كان يتألم. لم يكن عليه أن يبقى مستيقظا طيلة الليل. كل ما كان بحاجة إليه هو موضوع. عرض. ليس عن نفسه بل عن آخر. وربما ساعة نوم فحسب. ساعة فقط.

الفصل الثالث والثلاثون

مخطوبة

النسيم العطر لبداية الصباح حام حول العريشة نهاية الحديقة، جذاب بشكل خاص. انسلّت مارينا من سريرها جوار لودو المُولي ظهره إلى النور الصاعد، عمود فقري ناتئ كذلك الخاص بالبابا في أيامها الأخيرة – وانحنت على النافذة المفتوحة التي تنفست من خلالها نسيم هواء من نبات العسلة. راقبت أمها، في ثوبها المنزلي البنفسجي، تخطو عارية القدمين على المرج الطويل، تاركة ظلالا مسطحة في خَطْوِها على البحر الزمردي. كانت أنابيل تحمل فنجانًا – شايًا من دون شك، من المرجح بالياسمين – وبيدها الأخرى جمعت أطراف ثوبها إلى ركبتها، وكأنها خادمة، وكأن ندىً يغلف العشب. النور المغبّر أنبأ بالحرارة، بدا من أعلى وكأنه يُنعم ويحوم على شعرها الخفيف، حتى أن مارينا توهمت بأن أمها كانت فتاة خارجة من كتاب قصص، غير مُفسدَة وحرة، أو كانت بالفعل نسخة من مارينا نفسها، استنساخًا بديلًا محرّرًا ما. أغريت بأن تنادي لكنها لم ترغب في إفساد سحر الصباح. عارية القدمين أيضا، ارتدت الثوب الصوفي المُنكمش المُلقى على الأرض، أغلقت باب غرفة النوم خلفها وهرعت على الدرجات الشائكة المغطاة بنبات السيزال لتنضم إلى والدتها بالخارج.

ابتسامة أنابيل، بطيئة ومقتضبة، كشفت عن أنها لم تكن متفاجئة من وصول ابنتها. نظرت مارينا مجددا إلى المنزل النائم «المكان جميل هنا، أمي»

«دوما.»

«في الحقيقة، شتاءً، كان المكان مخيفا. باردا ومعزولا.»

«يمكن لذلك أن يكون جميلا أيضا»

«تخيلت قناصا مختبئا هنا، ليلة بعد ليلة، يتجسس علي» مررت مارينا يدها على الكرسي المخطط، نافضة الغبار وأوراق الشجر المتساقطة قبل أن تجلس.

«فتاتي السخيفة»

«يبدو ذاك منذ وقت طويل»

«شهر آذار؟»

«تغير الكثير»

«لودفيك.»

«لودو، المجلة، حتى الكتاب. سأنهيه، أتعلمين. إنه منته تقريبا»

«أعلم»

«تقولين ذلك وكأن الأمر كان واضحا دوما، لكنه لم يكن كذلك. لم يكن كذلك في آذار.»

«لودفيك» قالت أمها مجددا.

«ماما، سأتزوجه»

جرعت أنابيل من شايها.

«ألن تقولي شيئًا؟»

«أنا سعيدة لأجلك، ابنتي الجميلة»

«لكن؟»

«ليس هناك من لكن تؤمنين به...»

«هو يؤمن بي»

«الأمر متبادل إذًا. من المفرح جدًا. لكن ليس عليك- »

«علمت بأن هنالك لكن»

«ليس عليك أن تجعلي الأمر مثاليًا فقط. هذا كل ما أردت قوله. ستتزوجين رجلا، لا فكرة رجل»

«طبعا. أعلم أن الأمر جاء سريعا. لكنني لست غبية.»

«بعيدة كل البعد من ذلك» ربّتت أنابيل على خد مارينا، وكانت أصابعها دافئة بفعل الإمساك بفنجان شايها. «لا تزالين فتاتي الصغيرة وأريد أن أحميك. الأمر مسموح به. إنه عملي.»

«لودو يحميني، أكثر من أي شخص آخر. لا تستسيغينه أليس كذلك ؟»

«يذكرني بشكل ما بوالدك»

«والدي لا يستسيغه»

«لا أظن أنه يفعل، لكن ليس هذا هو المغزى»

«ما الذي قاله والدي لك ؟»

أومضت عينا أنابيل عتابا. تذكرت مارينا، بأنها في مراحل وبشكل ساخط خلال حياتها، مرّت أوقات كانت علاقة والديها خلالها خفيّة عليها، منغلقة.

«الأمر وما فيه، أنت تعلمين، بشأن لودو. نحن شفّافان وصريحان مع بعضنا. ليس كمنزلنا، حيث نتظاهر كلنا بأننا صريحون لكن الأمر في الحقيقة هراء.»

نظرت أنابيل بتركيز إلى المرج، رشفت شايها.

«انا آسفة. جئتِ إلى هنا من أجل سكينة المكان وأنا أفسدت الأمور. لكنني أريدك أن تكوني سعيدة لأجلي.»

«أنا طبعا سعيدة لأجلك عزيزتي. لقد صرت مُنارة لهذا، مفعمة بالحياة.»

«لكن ماذا؟»

«متى تفكرين في الزفاف؟»

« فكرنا في نهاية أسبوع عيد العمال. ستنطلق المجلة بعد عشرة أيام من ذلك، وسيكون الأمر مختلفا – مناسبا– لنا بأن نكون رسميًّا معًا قبل ذلك.»

«ذلك مبكر. مثل الزواج قبل ولادة الطفل؟»

«تقريبًا»

وضعت أنابيل فنجانها على الكرسي، عقدت ذراعيها. كانت لا تزال تراقب المنزل، ستائره نصف مغلقة. لم تنظر إلى مارينا. «أنت تعرفين كم أحب والدك،» قالت.

كأبطال مسلسل «ليست كلمات متقاطعة قطّ» كررت مارينا مقولة عائلية قديمة، لكن الأمر صحيح. لم يتجادلا أبدا. كانت تتحدث بحزم إليه أحيانًا، عندما ينهمك في تبجح مستبد أو هراء، ثم قد يستاء بغموض أو ينغلق على نفسه حتى، لمدة قصيرة، ثم يزول الأمر. لكنهما لم يتجادلا. والآن عندما فكرت مارينا في الأمر، كان هذا من عمل والدتها، كلية، لأن موراي ثوايت قد يكون دائم الشكوى، وحاد الطباع حتى. مزحت دانييل منذ وقت طويل – مقابل انزعاج مارينا المستمر– بأن أنابيل بدت أحيانًا كوالدة موراي. النتيجة الملازمة غير المعلنة لهذا كانت بأن مارينا تبدو كعشيقته. أزعجها ذلك لأنه من جهة بدا صحيحا، متعة أسرية خاصة، لمارينا وليس لوالدتها، وفي الوقت ذاته، غير معلن، خاص للغاية. انزعجت لأن دانييل بدت وكأنها كشفت ولطّخت الحقيقة التي احتُفظ بها مخبأة سرًّا.

«لذا لا تنسي،» كانت أنابيل تقول «بأن الأمر مختلف، مع الوقت»

«آسفة؟ آسفة ماما، كنت أفكر فحسب»

«لا بأس. عليك أن تكتشفي بنفسك. لكنني أحببته لعقله، لمبادئه –ولمظهره طبعا، كل ذلك، كان وسيما جدا، وكبيرا قليلا، وبالتالي أكثر أناقة–

لكن عليك أن تري، كان شخصا مميزا وأحبيته قبل ذلك لما كان يكتب ويقول ويفعل، كان ليكون ذلك كافيا لي، أن أحبه من بعيد» ضحكت. «أو بالكاد كافيا. حسنا، ليس تماما. لكنك تفهمين ما أقول؟»

«أعتقد ذلك.»

«أقول بأنه بالرغم من أني ظننتني أعرفه جيدًا عندما تزوجنا، تلوّنت صورتي عنه بما كنت أعتقد بشأنه.»

«مم همم»

«لم يقطع أيّ وعود كاذبة. لم يكن أبدا شخصا مختلفا عما هو عليه. لكن كان عليّ أن أتعلم بأن أراه بوضوح، وأن أتعلم ألا يخيب أملي.»

شعرت مارينا بأن والدتها كانت تحاول الوصول إلى أمر محدد. لم ترد أن تخوض هذه المحادثة. «لا أظن بأن لودو بطل قصص مصورة، لعلمك.»

«حتما لا، حتما لا.» وقفت أنابيل ولفت ذراعيها حول مارينا، معانقة إياها حتى لانت ابنتها كطفل في حضنها. «أريد أن تكون صغيرتي سعيدة جدا. أستتزوجين هنا، ربما؟»

«نعم رجاء»

«في هذه العريشة نفسها، بزهور في شعرك»

«في سبت نهاية عيد العمال. نهاية الصيف وبداية بقية حياتنا. ما رأيك؟»

«سيكون جميلا، هل ستأتي أسرته؟»

«والدته فحسب. أعني، هنالك أمه فحسب. لديه أخ أصغر لكنهما غير متفقين. لا يظن بأن داريوس سيأتي.»

«داريوس؟ ذلك هو الأخ؟»

«صحفي في سيدني. غير ناجح نجاح لودو، أجد الأمر غريبا.»

«مم همم»

سكتتا لبعض الوقت، منصتتين لتغريد عصافير الصباح وعراك

الأغصان بينما شرعت الحرارة في الارتفاع. كانت هنالك أصوات ضرب خفيفة من المنزل.

«استيقظ أحدهم» نظرت أنابيل.

«ليس لودو، لا أظن»

«من ستكنَ إشبيناتك؟»

«دانييل فحسب» قضمت مارينا ظفرها. «مع أن الأمر غريب. يمكن القول بأنها هي من رتبت لنا، لودو وأنا، لكنها تتصرف بغرابة حول الأمر. حولنا.»

«كيف ذلك؟»

«نزقة. وكأنها غيرانة، وكأنه لا يعجبها. أو السببان معًا. لا أعلم»

«ربما الأمران معا. لم لا تسأليها؟»

«لست في الواحدة والعشرين ماما. ليس لدينا الوقت في الحياة للشروع في هذا النوع من الحوارات اللامتناهية. إلى جانب هذا، لا أعلم إن كنت أريد أن أعرف. طوال حياتي غار الناس مني بسبب شيء أو آخر، وقد تعبت من التظاهر بأني لا ألاحظ، وتعبت من الشعور بالذنب للأمر. الأمر وما فيه بشأن دانييل هو أني لم أضطر يوما إلى التظاهر. لا أريد أن أتظاهر.»

«أتظنين بأنها تريد أن تتزوج هي كذلك؟»

«طبعا تريد. نحن في الثلاثين بحق الجحيم. وأشعر بالأسف لأنها وحدها، لكنه ليس خطئي.»

«لا»

«ليس خطئي أليس كذلك؟»

«لا»

«وأظنها آسفة لأن لدي عملًا، عملًا جيّدًا بحق، وأظنها آسفة لأنني سأنهي كتابي. إنها آسفة. أيمكنك تخيل الأمر؟»

«ربما ليس عليها أن تكون إشبينتك.»

«لا أريد شخصا آخر. إنها أعز أصدقائي.»

«حسنا، متأكدة من أن هذا سيمر. هذه الأشياء تحدث.»

«لكن لعِلمك، لقد دعوتها لتأتي الآن، من أجل العطلة، لكنها قالت لا.»

«فقط لأن شخصا جاء لثلاث فصول صيف متتالية لا يجعله تلقائيا حرا في الرابع»

«لكنني متأكدة من أنها حرة، هذا هو الأمر. لم تكن ستزور أمها، ولا أباها، وليس لديها صديق حميم – أعني، ربما تعمل لكنها اختارت العمل علينا، أتعلمين؟ أنا مجروحة قليلا. أكثر من قليل. هي على علم بأن هذا مهم.»

«أتعلم بشأنك ولودفيك؟»

«بخصوص الزواج؟ ليس بعد» مسحت مارينا وجهها. « أنت أول من أخبرت. لم أخبر والدي بعد حتى.»

أشارت أنابيل تجاه المنزل، حيث ظهر شكل كبير ملفع واقف في ظل الأبواب الفرنسية «إنه خارج الآن، يمكنك ذلك إن أردت.»

اقتربت مارينا من مكان أمها، أخذت ذراعها « لكنني أريده أن يكون سعيدا للأمر. كما أريد أن تكون دانييل سعيدة له. تأملين أن يتصرف الناس الذين يحبونك بأنانية أقل، أليس كذلك؟ مثلك، أعني، لماذا ليس بوسعهم أن يتصرفوا مثلك، وأن يكونوا سعداء بصدق لأجلي؟»

«جريهم. جريهم.»

«ليس الآن ماما» بسطت مارينا نفسها، سارت على أطراف أصابعها على العشب ويداها على خصرها « صباح الخير أيها الكسول»

«ليس بقدر كسل رجلك الشاب على ما يبدو»

«لكنه لا يعرف بعد كيف هو الحال عند الاستيقاظ هنا، لكنك تعلم.»

«أعلم» تمدّد موراي، كدب في ردائه الضخم. «لو كنت مؤمنًا، كنت لأسمي الأمر نعمة. لكن كما هو الحال، سأقول بأنه رائع»

«آه، زوجي الفصيح» تحدثت أنابيل بكسل، من دون أن تتحرك من

مقعدها «أهذا أفضل ما يمكنك قوله؟»

تسلق موراي عتبات العريشة وقبّل بحماس زوجته، «الأفعال» قال «الأفعال تعني أكثر»

ضحكت أنابيل. راقبتهما مارينا لوهلة بإحساس الحسد الغريب القديم، إحساس الطفولة ذاك، ثم استدارت وركضت عائدة إلى المنزل، مدركة بأن العشب قد جف ودفأ تحت قدميها. عندما وصلت إلى الباب، سمعت والدها ينادي «هي هي، يا آنسة، إلى أين تذهبين؟» لكنها لم تلتفت.

الفصل الرابع والثلاثون

ألعاب نارية في ستوكبريدج

أمضت دانييل صباح الأحد في مكتبها، عرقانة لأن مكيف الهواء كان غير مشغل، تنظر إلى ملف صور ملوّنة تظهر أجزاء سفلى وأفخاذًا لأصحاب عمليات تجميلية فاشلة. لم تظهر الصور غالبا الأوجه، فقط زوايا لا نهائية من الأطراف الرثة المنتفخة والمتورمة، أطرافا بانبعاجات غريبة، أطرافًا بدت وكأنها وسائد محشوة بشكل سيء. مؤخرات ناتئة في زوايا غير ممكنة، أو متدلية بلا حدود على السيقان. وفوق كل شيء كان سبب الإزعاج الملمس واللون. أحضرت دانييل الفطور – حلوى زبيب في كيس ورق مشمع– لكنها وجدت أنها لا تستطيع أكلها. حتى الماء الفوار جعلها تتروّع قليلًا. كانت تعرف أنه في نهاية الملف هناك صور للمريضة التي توفيت نتيجة ذلك، أمٌّ لثلاثة أطفال ذات وزن زائد طفيف من تامبا. في وسط أربعينياتها. وافق زوجها على الحديث. كما فعلت نساء عديدات ممن كانت دانييل تحدق في مؤخراتهن. كان نيكي معجبا بهذه القصة. كانت قصة جيدة. عرفت دانييل هذا من قبل، لكنها من خلال النظر إلى الصور، مشمئزة ومجبرة، متسخة لكن غير قادرة على النظر بعيدا، شعرت دانييل باليقين الذي كاد أن يكون انتشاءً بالنصر. إن أبلت حسنا، إن كانت التقييمات جيدة، سيوافق نيكي على أيّ قصة تريدها: إصلاحات لسكان

أستراليا الأصليين، ثورة عدمية في الصحافة، سُحقًا، لمَ لا ساعة كاملة حول شيء مجنون، كالنساء الإرهابيات؟

من المفترض أن تكون في ستوكبريدج. على شكل ومضات فقط - أم كانت أمواجا؟ - كانت دانييل تعي ضخامة ما شرعت فيه، واستحالة انتهائه بشكل جيد. تخيلت بلا تفكير أنها ستمضي كل رابع من يوليو مع مارينا، تستيقظ في الغرفة الزرقاء والبيضاء تحت الأقواس التي كانت مارينا في الحقيقة تشير إليها بغرفة داني، حولها صوت الطيور السوداء والسيكادا وقبل الهواء الساخن المخضرّ بين شجر القيقب. وطبعا كان الأمر مختلفا هذا العام بسبب سيلي، وربما بسببه هو بقيت بعيدا (ليس وكأنها شعرت بأي ندم أو بقايا إعجاب تجاهه - لا، العكس تماما - لكن بسبب كونه قد استُغلّ خطأً، لأنها تشك بأنه يستغلّ مارينا، حتى وإن لم تقدر أن تعرف لماذا) ومع ذلك ففي ظل هذا لم تكن لديها أيّ نية للذهاب، وقد أدركت، تحت بعض الخوف بأنها ربما لن تمضي العطلة في ذلك المكان أبدا.

في السنوات الماضية، كان موراي وأنابيل في مكان آخر في يوليوز - كاليفورنيا، توسكاني، يتسلقان الجبال في كندا - ولكن حتى لو لم يكونا في المنزل، لم تكن دانييل متأكدة من أنها كانت لتتسكع بسعادة ضمن ممتلكاتهما المشتركة. كان لكل شيء لون جديد الآن. كونهما كانا هناك، من الطبيعي أن الأمر كان مستحيلًا. بمنطقية تعجبت من أن تغيرات غير متوقعة قد قلبت حياتها كلية هكذا - أكان عشاء الطعام الصيني منذ أربعة أشهر فقط؟ - دانييل في الغالب لم تكن تفكر بمنطقيّة.

مثل مّدمنة - لا، هي بالفعل مدمنة. كانت تفكر فيه طيلة الوقت، أو فكرت في التفكير فيه، وحقيقة كونها لا يجب عليها ذلك. كانت تشمه على ملابسها، نفحة السجائر المحروقة التي غزت الآن شقتها التي كانت كل محتوياتها يومًا ما نظيفة. جالسة إلى مكتبها، أو في قطار الأنفاق، كانت تتذكر تحت أصابعها، ملمس جلده، ترهلاته البادية، جسده الكبير. كانت تنفزع

لصوته، أو فكرة صوته. هي التي كانت تستهزئ من الهواتف النقالة، الآن لم تعد تستطيع القيام بخطوة من دون هاتفها مشحونا ومستعدا للاتصال غير المتوقع. عندما سارت بخمول على شارع هادسون مع مارينا في مساء خميس ثقيل، بينما تتجمع عاصفة رعديّة، نجت من التعذيب الفاتن لسماع الهاتف يرن في حقيبتها لمعرفتها دون أن تتحقّق بأنه مورّاي، تترك الجهاز يدغدغ ويرن في حقيبتها، قلبها ينبض غدرًا بين ضلوعها، بينما تُدير عينيها وتتحدث بخمول: «يبدو أن نيكي يعتقد أن بإمكانه إزعاجي حول أي شيء في أيّ وقت، هذه الأيام. الأمر مزعج جدا.» تحققت من صندوق رسائلها وكأنها ستوقظ ألمًا نائما. وحينما رأت الرسالة أخيرًا، تظاهرت باللامبالاة، تكاد لا تهتم، مثلما كانت ترتدي ملابسها ثلاث مرات كل صباح، مثلما اعتادت أن تفعل في الثانوية، بمجهود دقيق حتى تكشف عن النبرة الصحيحة: أبدو رائعة لكنني غير متأنقة. لست متأنقة ولو أني توقعت لقاءك، لأنني بالعادة، بشكل طبيعي، أنيقة فقط لأن تلك طريقتي.

الصور المقززة، أبعدت تفكيرها عنه لبعض الوقت ومع ذلك، بالرغم من معرفتها بأنه لن يتصل، لا يستطيع أن يتصل، وجدت نفسها تنصت إلى الصمت، آملة. لم يكن هناك أحد غيرها في المكتب صباح ذلك الأحد، لا طنين آلات، لا دردشة، الهواء الجاف الدبق فقط حيث سقط صمته عميقاً. عندما كانت في المنزل، بدا وكأن لوحات روثكو تنتظره أيضًا. تركت الأغطية الفاخرة على السرير طيلة الوقت (اقتنتها لهذا الغرض إذا) وترتيب الشقة لم يعد ينبئ عن وحدة تأملية، بل ينطق بدل ذلك بانتظار زائرها. كان ترتيبا مختلفا ومدروسا بشكل مختلف قليلا. فاجأتها الآن شقتها وكأنها خشبة مسرح لمسرحية، موقع ينتظر الحركة. وكأنها لم تعد حقيقية لوحدها بعد الآن. كانت الآن تحتفظ بقارورة لاغافولين في الخزانة فوق البراد وخلفها، مخبأة، علبة مالبورو ذات معنى لكونها غير مفتوحة. جعلت على مرمى اليد علبا من البسكويت بالغ الملوحة، التي بدأت هي نفسها باستساغته، وحبوب النعناع،

الذي كان موراي يضعف أمامها. شعرت بالفخر والخجل من هذه التجهيزات في آن.

أحيانًا كانت تقلق من أنها تضجره، تقلق من أن تبدو له يافعة، غير ذات معنى، جاهلة، بلهاء. في أحيان أخرى، كانت تقلق من أنها لم تكن تضجره، قلقت من أن هذا يعني إنزالا لمعاييره، بأن إطراءاته المثيرة على نهديها، شعرها، معصميها، وقفت في الطريق، بأنها، متبارية أقل احتمالًا، كانت تُشَيَّأ، تُستصغَر: مجرد امرأة، امرأة يافعة، ومتوفرة. لم تكن مغفلة، لم تطري على نفسها بأن موراي كان بتول زنى. بدلا عن ذلك، كانت تتوق للسماع عن مغامراته الأخرى حتى تصنّف نفسها بينهن، وتاقت لأن توقف كل الإيحاءات عن وجودهن. كانت تغار منهن كما لم تكن قادرة على أن تغار من أنابيل، أو حتى من مارينا، وهي، مثله، كانا يصران أن يتحدثا بشكل طبيعي عن هاتين الاثنتين، بأنهما لن يناورا بتصنع حولهما. لمفاجأتها، وجدت دانييل أنه ولمعظم الوقت، كان هذا متحملًا، وكأن هذين الشخصين، منافستيها، صديقتاها المقربتان وتحدّيها الأكبر، كانتا بعيدتين إلى مقدمة صورة الحياة وقد تكونان أي أحد، متحللتين في ضباب غير مميز. كان تهرُّبه أكثر تشويشا عندما كانت تسأل «أكنّ كثيرات؟ هل أنا الأصغر بينهن؟» و» كم دامت أطول واحدة؟» أرادت طبعا أن تسأل «أكنت تحبها؟» بالرغم من وضوح الجواب. رغم الخوف الذي من الممكن أن تشعر به عند أيّ جواب. لكنها كانت تتعلم الحدود، عرفت ألا تسأل هذا. كانت لديه – ألم يكن هذا جزءً من الإعجاب؟ – هوس بالصراحة كما رآها. (الأمر الذي لا يمكن خلطه مع الوهم المسموح به: لقد كان يؤمن حقا بأن كأسا من القهوة في نهاية ليلة سكر قد يجعلك تصحو كفاية للسياقة.) لو كانت لتسأله أكثر الأسئلة تحدّيًا (مثلا، وعلى استحالته «هل تحبني؟») كان ليجيب بدون انتباه لقلبها الهش، لأذنيها اللطيفتين. ولهذا كان عليها، في هذا الحب، أن تكون حامية نفسها. لم تتوقف للتساؤل عن هذا، بدا لها درسا لنضجها الخاص بدل أن يكون أيّ أنانية ممكنة من طرفه.

فكرت في كل هذه الأمور، فكرت فيه، كل الوقت. في أيّ لحظة صحو ممكنة. وكانت أفكارها تنتظرها، كجروح صبورة، عندما كانت في اجتماعات، أو في القاعات، تنتظر مهاجمتها في اللحظة التي تتفرغ فيها. أرادت أن تتحرر من عدم الراحة هذا، وفي الآن نفسه أحبت الوضع، نعم، كمدمنة.

لم تصدقها مارينا عندما قالت بأن لديها عملا كثيرا للقيام به. عرفت دانييل أن مارينا فكرت بأن الأمر برمته بخصوص سيلي.

«لا يمكنهم أن يطلبوا منك العمل في نهاية الأسبوع هذه من دون كل نهايات الأسبوع. انها أكبر عطلة في العام.»

«لم يطلبوا مني. لسنا في الروضة.»

«إذا؟»

«إذا، لم أتمكن من أن أقدم فكرة فيلم واحدة إلى الإخراج طيلة العام. يلزمني أن أنتهي في أسبوع. الأمر مهم.»

«لن تُتركي لوحدك، تعلمين.»

«أعلم.»

«إنها فرصتك أنت ولودو لتتعرفا على بعضكما. الشخصان أ أ بالنسبة لي»

«الشخصان ماذا؟»

«الشخصان الأكثر أهمية»

«تعلمين بأنه سيسعدني ذلك»

«ووالداي. يتوقان لرؤيتك. تساءلت والدتي البارحة مجددًا إن كنت ستأتين.»

جعل هذا التلميح دانييل ترتجف. ارتاحت، في ضبابيتها العاشقة، ما زال لديها الكياسة لتُفزَع. «أرجوك أخبريها بأني آسفة. تعلمين بأني لم أكن لأفوت العطلة لو لم أكن مضطرة.»

صمتت مارينا لوهلة. «أتساءل لماذا لا تريدين القيام بمجهود لشخص

جد مهم عندي»

«أوه إم.» ترقبت دانييل ثم سمعت ضعف قلبها. «أرجوك لا تكوني هكذا. أقسم بأن الأمر لا يتعلق بلودفيك. سأفعل أي شيء لأكون هناك نهاية الأسبوع هذه» وهذا، على الأقل، كانت تعنيه «لكنني لا أستطيع حقا»

«ليس لديك موعد غرامي مرتب ما أليس كذلك؟ موعد غرامي أعمى سري؟»

«منذ متى وأنت تعرفينني؟»

«فكرت بأن أسأل فحسب.»

والآن، في صمت المكتب، رن الهاتف، كاد يجعل دانييل تسكب الماء على فخذيها ومؤخّرتها الدبقة والبئيسة. رغبت في هذا الاتصال كثيرا حتى أنه لم يخطر ببالها بأنه قد يكون شخصا آخر غير موراي «محبوبي» همست للمتصل.

«سيسعدني أن أعرف بأنك تهتمين» أجابت مارينا «لقد تم كشفك عزيزتي»

«ما الذي تعنينه؟»

«أعني بأنك ربما تعملين كما قلت لكنني اتصلت متوقعةً صوتا حزينا لأجد عصفور حب بدل ذلك.»

«بالكاد.»

«من الرجل السري؟ محبوبك؟»

«ظننتها ستكون أمي. تشعر بالكآبة قليلا فأخبرتها بأن تتصل هنا»

«وهل راندي مينكوف هي حبيبتك؟»

«أذلك غريب؟»

«صديقتي، لدينا بعض الحديث لنقوم به. إن كنت مغرمة، يؤذن لك التغيب عن حفل الاستقلال السنوي لأسرة ثوايت، لن تُطرح أيّ أسئلة – أؤمن بالحب تماما، خصوصا هذه الأيام، كما تعلمين. لكن هناك خطب ما

بشأن الرجل حتماً إن لم تخبريني عنه»

«ليس هنالك رجل»

«وأمك هي حبيبتك؟»

«لقد سبق وسألتني ذلك. أنت تلقين عليّ محاضرة»

«أراهن على أنّ الاحمرار قد اجتاحك!»

«هيّا مارينا. أحاول إنجاز بعض العمل هنا، فحسب»

«وأمك هي حبيبتك؟!»

«نعم»

«بارك الله في قلبها المطبوع بطبعة الفهد!»

«ما الذي أردته، إلى جانب التحقق مما إذًا كنت فعلا هنا؟»

«هذا ليس لطيفا.»

«أنا أزعجك. أنت تزعجينني على كل حال.»

«تعرفين بأنني لا أحب أن أزعج.»

«من يفعل؟»

«أردتك أن تكوني أول من يعرف بعد والدي. سنتزوج.»

«أوه مارينا» ثم نفس عميق «أنا جد سعيدة لأجلك، هذه – أخبار رائعة»

«أهي كذلك؟ لطالما أخبرت جوليوس بأنني مفتونة بالزواج في أعماق قلبي»

«سيصرخ»

«سيلحقني ضرباً نحو المذبح إن استطاع. هو ورأس المخروط. من هو بيير؟ من هي ناتاشا؟ لعبة غميضة، ما هي العدالة، من هو اللص؟»

«إذا متى سيكون ذلك؟»

«لا يمكنه ضربي، إن كان ذلك ما تعنينه. سنفتح زوبعة رومانسية، إن لم تكن زفافا بداعي الحمل. نهاية أسبوع يوم العمال ونعم، بالرغم من كل

شيء، سترتدي العروس اللون الأبيض.»

«تبدين منتشية تقريبا.»

«أنا منتشية تقريبا. لنكن واقعيين، كانت حياتي سقوطا حرا، والآن انظري»

«لا تقولي بأنك تدينين بكل هذا لي؟»

«لكنني أفعل. قال لودو هذا مجددا هذا الصباح فقط»

«لا تدينين بأي شيء لي.»

«آه، محبوبتي...»

«من هن الإشبينات؟ جوليوس وديفِد؟»

«أريد واحدة فقط، تعلمين من هي.»

«يشرفني هذا»

«جهزي مؤخرتك إذًا وتعالي إلى محطة القطار مساء الثلاثاء»

«والسبب؟»

«لأنه حتى وإن لم يكن بوسعك أخذ أربع أيام من العطلة، أمر يسعني – أنا الكسولة – أن أتفهمه، ما زال بوسعك أخذ الرابع من يوليو. ستكون هنالك مفرقعات في ستوكبريدج، اعتبريها حفلة الخطوبة»

«لكنني– »

«لن أقبل بالرفض هنا. هنالك قطار سيأتي إلى ألباني على الساعة 7:42 من الثلاثاء. أحدنا سيأتي لاصطحابك.»

«لكن إم– »

«لا يمكنك التهرّب من هذا. سأتزوج بعد أقل من ستة أسابيع. نراك يوم الثلاثاء»

لم تستطع نكرانها. فكرت دانييل في ذلك، انحنت مجددا على الأطراف المترهلة المنقطة. أهنالك أيّ وسيلة للاتصال به؟ أيعلم ما يحصل؟ أيمكن أن يأخذها من المحطة؟ أيمكنها تحمل ذلك؟

في الشارع، جثم الحر كعلجوم على الزوال. ستمطر، لكن ليس بعد. قررت أن تمشي، لم تتوقع، في يوم هادئ وثقيل كهذا، أن تلتقي أحدا تعرفه، لكنها لمحت قرب ساحة أستور قريب مارينا، يمشي مشتتا نحو محطة قطار الأنفاق بكومة أوراق تحت ذراعه. حتى في هذا الحر، ارتدى قميصا مزررا، مكمشا قليلا، بأكمام مطوية إلى أعلى، وكانت جبهته لزجة بالعرق. عندما نادته – «فْرِدرك؟ أنت فْرِدرك أليس كذلك؟»– توقف، رافعا رأسه، أومض، كمخلوق خرج لتوه إلى النور. «قريب مارينا صحيح؟ دانييل – التقينا.»

«أعرف. أهلا.» وقف من دون ابتسام، ما زال يومض. كانت عيناه ضخمتين خلف نظاراته برموش كثيفة كبقرة.

«لم تذهب إلى ستوكبريدج؟»

بلّل شفتيه «لم تفعلي كذلك أيضًا»

« كثير من العمل، أنت تعرف. بالعادة أذهب. يبدو أنني سأذهب في الرابع من الشهر فقط.»

جر فْرِدرك تاب قدميه، عدّل كومة أوراقه. سلط نظراته مجددا على الأرض.

«أنت تعمل لصالح والد مارينا الآن أليس كذلك؟»

«عند موراي.» نطق اسم خاله بتحدّ في صوته. «نعم. أنا أعمل لصالح موراي هذه الأيام. لكن ليس لوقت طويل.»

«كيف هذا؟»

هز فْرِدرك كتفيه. جربت دانييل طريقة أخرى. «كيف حال دراستك؟ أتجد بعض الوقت لها؟»

«أكتب مقالا. لمارينا. لمجلة ذا مونيتور»

«تلك أخبار رائعة. أنا–»

«لقد قالت بأنك أخبرتها بأن تسألني.»

«حسنا، كل ما فعلته هو أنني اقترحت...»

«أظنني مدين لك بشكر.» لكنّه لم يبدُ شاكرًا.

«لا تدين لي بشيء أبدا. سعيدة لأن الأمور سارت على ما يرام.»

«لم تفعل بعد.»

«عذرا؟»

«الأمور لم تُرَتّب بعد. أكتب مقالًا، لكنها خدمة بلا ضمانٍ مقابل، أتعلمين ما يعنيه ذلك؟»

«نعم»

«إذًا فربما لن ينشروه.»

«وربما سيفعلون. عماذا يدور؟»

الآن نظر مباشرة إلى عينيها لكنه لم يومض. «إنه سر. لكنه سيكون كبيرا.» حرك رأسه فقط.

«واو» ضحكت دانييل، أشبه بنباح « يبدو هذا مثيرا للاهتمام.»

«نعم. إنه كذلك. سترين.» مسح حاجبه بمحرمة قماش منكمشة سحبها من جيب سرواله القصير. لاحظت دانييل بالنظر إلى أسفل بأن سرواله بدا كسروال طويل مقلّم، قطنيّ عريض مبقّع يصل إلى فوق ركبته فحسب، وأنه كان يرتدي جوارب داكنة مع حذائه الرياضي. بدت ساقاه شاحبتين، ثابتتين، مكسوتين بالشعر وبائستين. بدا وكأنه قد فقد سرواله الطويل في طريقه إلى المكتب وكان يجوب الشوارع مرتديا نصف ملابسه. بدا أحمق قليلًا. غير سليم.

«حظًّا سعيدًا في ذلك إذًا.»

حرّك رأسه، ثمّ أخفضه وأكمل طريقه.

الفصل الخامس والثلاثون

رسائل من تحت الأرض

كان بوتي يشعر بمغصّ على كل حال، واللقاء غير المتوقع بدانييل جعله أسوأ. بعد أن غادر جوليوس ولويس، بقيت الشقة صندوق حرارة جحيميًّا، وبدت بالإضافة إلى ذلك مكانا محتقنا بالحقد. ظنّ بوتي أنه سيستمتع بالمكان، رغم تعاسته، لكن مالكه قد أمسك به عاريا وأهانه، نعته بالسمين في وجهه، وبينما كان مستلقيا على اللحاف الرطب على الأرض، مستمعًا إلى موسيقى السالسا قبالة الطريق وأزيز شفرة المروحة، مستمعا، بالرغم من نفسه، وبلا جدوى، لكومة الصراصير، شعر بأن الغرفة، جبصها المتساقط وهواءها الدّبق الحار، كانت عدائيّة. لم يستطع أن ينام - بسبب غضبه، وبسبب الحرّ - لوقت طويل، وسقط مغشيا عليه قُبيل الشروق لمّا توقفت موسيقى السالسا أخيرا. استيقظ في حوالي الظهر بكفن يغطيه لا من العرق الجاف فحسب بل من الرعب المسترجع فجأة من ليلة البارحة. كان جوليوس منتشيا بفعل المخدرات أو سكرانًا، لكن مع ذلك، لم يتفهم بوتي مصدر النيّة السيئة. كان الأمر كركل كلب إلى الشارع. والحرّ: بدت الشقة أسخن، كما لو كانت مستودعا للسّكون الدّبِق أو خزّان شاحنة مملوء عمدًا بالبؤس.

قرر بعد تفكير قليل أن يذهب إلى منزل أسرة ثوايت، ليوم واحد على الأقل أو ربما أطول. كانوا غائبين كلهم. يملك مفتاحا. سيكون مكيّف الهواء مشغّلا. سيسير لأخذ نسخة من كتاب موراي الثالث من مكتبة بارنز آند نوبل الواقعة في ساحة أستور، ثم يركب قطار الأنفاق. الشيء الذي لم يكن ليُقلقه يوم الأحد الهادئ هذا. حمل ملاحظاته، مطلع مسوّدته، ولن يغادر الشقة حتى يكون تحليله المتقن لموراي تامًّا.

ومع ذلك، هادئا في طريقه إلى وجهته، الموقف الشمالي الشرقي فى الجادة الثامنة، قابلته دانييل. أراد أن يشمئز منها – مبدئيا، علم بأنه يشمئز منها – لكن معاملتها كانت لطيفة، وصادقة، بالرغم من أنه حافظ على هدوئه (حتما كان الأمر غامضا لها، كيف كانت لتحزر بأنه يعرف؟) شعر بالسوء للأمر. تساءل ما إذا كان – من دون قصد، طبعًا – قد أساء تأويل الرسالة الإلكترونية التي قرأ. ربما لم يكن يعرف ما كان يعرف؟ وإن فعل، أليست حينها دون شكّ شريرة؟ أن تبتسم وتتحدث في عزّ حرارة يوليو على زاوية الشارع البخارية، كأن العالم لا يزال في مكانه؟ كان الأمر كالأخبار اللانهائيّة، مثل فضيحة واشينتون، المتدرّبة المفقودة – أو شاندرا ليفي ورجل الكونغرس. لقد تزوّج، مجرّد صورة، خصلات داكنة وابتسامة بيضاء ساحرة. الآن انظر. كان عليه أن يقول لدانييل: «فكري في شاندرا ليفي. الأمر لا يستحق» كان عليه أن يحذّرها. لأنه في النهاية، بشكل أو بآخر، الرجل دومًا هو المجرم. كطفل جشع، يطالب بحلوى ثانية بينما لا يزال يدّخر الأولى، يأخذ قضمة واحدة، ثم يتركها. يجب على دانييل أن تعرف هذا. لم يكن عليها أن تسمح له، لم يكن عليها إيذاء صديقتها، أو والدة صديقتها، بهذه الطريقة. كان بوتي يتحمّل مسؤولية في هذه الفوضى. المعرفة تفرض المسؤولية. لكنه لم يكن متأكّدًا تمامًا من كيفية التعامل. ما هو العام وما هو الخاص؟ ما الذي عليه أن يكافح من أجله وما الذي كانت معرفته بساطة مؤلمة؟

ولماذا، صيفًا، كان الهواء خلف البوابات عَطِنًا للغاية، خليطًا فوّاحًا

من روائح البول والعرق وعفن القمامة، محمولة على بخار رياح محتدمة عبر الأنفاق الوسخة؟ غطّت المرأة التي بجانبه أنفها بيدها ذات الأظافر المطليّة، مُطلّة على مقدّم النفق. صغيرة ومسطحة، كانت ترتدي ثوبَ صيفٍ أحمر مسحوبا بضيق على صدرها، وتحمل حقيبة بحر، ربما كانت هي الأخرى في طريقها إلى موعد غرامي. كانت المدينة كلها بلا شك تزدحم بالخداع وعفن كعفن هواء الأنفاق. ادَّعى مورّاي ثوايت بأن الصراحة كانت أساسية، لكن الكلمة كانت تحمل معنى خاصًا به. ادّعى بأنه حارب الظّلم، بأن حياته كانت مكرّسة لما سمّاه «الصحافة الأخلاقية.» ادّعى بأنه عاش لأجل وبسبب استقلاليته، تلك الخاصة بأفكاره. استمرّ في التعبير على الورق حول كيف يجب على الحياة أن تُقاد، حول كل معنى للكلمة، بينما كان جليًا أنه شخص – كان بوتي يعني هذا بكل جد: عند بوتي الأدلّة – لم تكن للكلمات معنى ثابت بالنسبة إليه. على أحدهم أن يوضح هذا، علنًا.

جالسا في القطار، رشحت الرائحة العطنة قليلا بسبب متحكم الهواء، امتد بوتي إلى الأوراق تحت إبطه. كان قد نقل اقتباسات من مخطوطة موراي، بعضها طموح، بعضها سخيف، لكنها كلها تضم مشاكل من حيث السياق، وحاول أن ينظّمها. ملاحظات مبعثرة حول الثوايتيّة، دوّن بوتي تعليقاته الخاصة، بين ما هو تحليلي («أكان من الممكن فعلًا للنوايا والحقائق أن تتناسَب؟ أيمكننا فعلا أن نكون من نريد؟») وبين ما هو مُهين («م.ث. كاذب. هذه كذبة عارية.»). عندما بدأ بوتي مسودة مقاله، اليوم السابق، فعل ذلك في حالة من العواطف. يمكنه رؤية ذلك الآن. بينما يهتز القطار على السكة، أعاد قراءة المقدمة ووجد في وتيرتها ميولًا إلى العاطفة، ضعفَ مُرِيدٍ مظلوم. لا: ليكون المقال جيدا، عليه أن يفعل تحديدا الأشياء التي كتب مورّاي بكل إعجاب عنها وبوعود كبيرة، تلك التي لم يلتزم بها هو نفسه. عليه أن يكون دقيقًا، وهادئًا وواضحًا. عليه أن يكون صَبورًا، صريحًا، ثابتًا. عليه أن يكون سهلًا ووثيق الصّلة. عليه أن يكون حقيقيًا.

اكتشف أن أوصافه قد اختيرت لتطابق موسيقى القطار. اكتشف أن القطار يُبطئ من سرعته، في النفق. بأن القطار قد توقف.

نظر إلى أعلى، حدّق من خلال النافذة المتسخة إلى جدار النفق، سواده القريب. لابدّ أنهم خارج ساحة تايمز، حيث عليه أن يغيّر القطار. لطالما تذكّر، في لحظات كهذه، طمأنة مارينا اللامبالي في رحلة قطار الأنفاق الأولى، بأن القطارات دائما ما تتوقف في الأنفاق خارج المحطات الكبيرة. الأمر طبيعي جدا.

طبيعي جدا أيضا، عندما أومضت المصابيح ثم انطفأت. حدث الأمر من قبل. وبينما لم يهتم كثيرا له – لم يحبذه إطلاقًا – استطاع أن يتحمله. ركز على تنفّسه، على الحفيف في خياشيمه الذي عوّض أزيز المروحة. المروحة كما الأضواء قد خمدت. مصباح طوارئ باهت نبض قربه، كابوس صرَع. في نهاية العربة، في الظلام، امرأتان كبيرتان تحدثتا لبعضهما بالإسبانية. سعلت المرأة ذات الثوب الصيفي – كان سعالا مزيّفًا، لاحظ بوتي، علامة قلق – ونقّبت في حقيبتها. لم تعد الأضواء بعد. ارتفعت حرارة العربة، حرارة جافة آسنة. لم يكن هنالك نسيم نتن، لا مداهمة هواء حار، فقط تسرّب بطيء للثّقل، شعور بأن الهواء يجثم عليهم، على ساقيه وذراعيه وكامل عنقه، يلعق الحرّ حنجرتّه ويغلقها، رويدا رويدا، جاعلا التنفس صعبا عليه. لم تعد الأضواء بعد. لم يمر قطار على السكّة المجاورة. لم تُسمع حركة خارج العربة.

لكن داخل العربة، تحرك الركاب بطرق صغيرة، قلقة سريّة. وقف شاب ذو بشرة بلون الكوكوا يرتدي سروال جينز كبيرا ومهلهلا، تمتم، كما لو كان يودّ أن يتحرك، جلس مجددا، وقف وسار نحو نهاية الممر. وهو يهز الباب، ثم الباب الآخر، شاقًّا طريقه للغرفة المحجوزة الأخرى، ثم لعن «تبا لهذا الهراء يا رجل. تبا لهذا الهراء.»

تفقد بوتي ساعته. لم تمر سوى بضع دقائق، أقل من خمسة. انقطعت أنفاس العربة. ثقُل الهواء. لعق بوتي أسنانه مرارا ومرارا، داخلها،

بطرف لسانه. نظاراته اللزجة انزلقت عن جسر أنفه. انزلقت أصابعه مقابل بعضها. كانت المرأة ذات الثوب الصيفي تبحث بحنق عن آلة الموسيقى التي جلبتها معها، والآن ألصقت السماعات إلى أذنيها. تركت عينيها منطبقتين، وتسربت النبضات المكتومة لموسيقاها إلى العربة. شيء بهيج. ربما كانت تتظاهر بأنها على الشاطئ.

بوتي، كما الآخرين، حدق في فرقعة مكبر الصوت. انتشر عرق جديد على راحتيه. تحدّث صوت رجل حاد وعالٍ ككلب، بشكل مبهم. كانت كلماته الأخيرة «في أقرب وقت ممكن.» كرّر هذه مرتين. ثم عمّ الصمت مجددا، سمع بوتي الناس وهم يسأل بعضهم بعضًا بهدوء عمّا قِيل. لم يسأل هو. لم يكن واضحا ما إذا كان الجميع قد عرف الجواب. هو، كالمرأة صاحبة آلة الموسيقى، أغلق عينيه. ركز مجددا على تنفسه، حاول أن يضبط أنفاسه ليهدئ قلبه. نبض قلبه بشكل أسرع، أصدر عرقًا أكثر، أكثر من أي شيء آخر في العربة. لم يكن ليسمح لنفسه بالتفكير في أي نتائج ممكنة – نار وانفجارات فوقهم – من الممكن أن تكون هي التي سبّبت توقفهم. يجب ألا يفكر في أن تضغط الجدران، بوزن الأرض، فوق القطار كدودة أرض محفورة، عالقة، ممكنة الدهس. كان حلق بوتي ضيّقًا جدًّا الآن، الأصوات في أذنيه جارفة، عالية لدرجة أنه عندما صدر صوت القائد من مكبر الصوت، بالكاد انتبه بوتي له. أغلق عينيه بالكامل، حفر أظافره في راحتي يده، وحاول مجددا أن يركز على تنفسه الضائع. كان لا يزال يتنفس.

ثلاث وعشرون دقيقة. لقد توقفوا لثلاث وعشرين دقيقة، كعمال مناجم تائهين، كمستكشفي مغارات بلا مخرج، كرجال ميتين. بالنسبة لبوتي، كانت التجربة منيرة: لم يكن متأكدا ما الذي تغير بفعلها، متأكدا فحسب من أنه سيكون دوما مختلفا. عرف شيئًا لم يكن يعرفه من قبل، حول نفسه وحول حدوده. لن يسمح لهذا أبدًا أن يحصل مجددًا. لكنه على الأقل، فكر وهو يسير، بسرعة وإصرار كبير، على الجادة السادسة

لمسافة ميلين كاملين نحو شقة أسرة ثوايت، يبتلع تقريبا كل الهواء الثخين، مرتاحًا لوجوده من حوله، بوفرة، ولو ثقيلًا، على الأقل لم يستسلم ويصرخ. لقد سال دم على راحته اليسرى من قوة ضغطه، وسبّب صداعًا نصفيًا بسبب الصراخ داخل رأسه، لكنه ترك فمه مغلقا وعينيه مغلقتين، ركز على حفيف خياشيمه (ما زال يستطيع سماعه، كما يشعر بحّارٌ متجه نحو الشاطئ بتقلبات الأرض)، وقد نجا. ألا يعرف أحد في العربة كم كان قريبا من الانفجار، من الجنون – ولا حتى المرأة في الثوب الصيفي الأحمر التي ابتسمت له بتواطؤ وهم يترجّلون – بدا هذا له أشبه بمعجزة.

لطالما تخيل، وهو صغير، بأن والديه أو أساتذته، كالأخ الكبير، يمكنهم اختراق جمجمته والتجسس على أفكاره، يمكنهم انتزاعه من نفسه، وحتى في رشده، حمل بقايا إيمان وخوف من الشفافية. لكن ساعة دودة الأرض، كما صار يعتبرها، قوّت فيه غموض عزلة روحه، وعزلة أي شخص آخر. وضحت له ضرورة التحدث بوضوح، محاولة سماعه رغم كل الدم الذي يجري في آذان الناس. لا يجب أن يسمح لأحد بأن يكون المرأة صاحبة جهاز الموسيقى، تحجب بإرادتها وبتصنع التجربة والحقيقة: كان واجب بوتي أن يتفاعل، وأن يتكلم. ليس بشكل مبهم، كالقائد، لكن بصوت واضح للمنطق. لكن الموقف برمته جعله نصف مجنون، لا مناص من هذا.

الفصل السادس والثلاثون

على المشواة

«لم أتصورك يوما تشوي» اتكأ لودو إلى الباب، جذعه الطويل المخطّط كالحلوى مقابل الجدار الأحمر الداكن. كان قميصه أبيض. كل شيء بشأنه بدا عدوانيًا.

«ستُفاجَأ لما يضمّه دور ربّ الأسرة» أجاب موراي، من دون أن يزيل سيجارته من فمه. سقط بعض الرماد على المشواة. كان موراي يعرَق. « ستقوم بذلك أيضا، في وقتك، حتى وإن أقسمت بألا تفعل!»

ضيّق سيلي عينيه المتهدلتين وبدا كأنه يبتسم ابتسامة متكلفة. كأنه يقول «أبدًا!» غضبٌ هائج تحرّك داخل موراي كالدُّب، أراد أن يمسك به من ياقته ويهزّه بلا معنى. كانت دانييل تظن بأن هذا الرجل أفعى، لكن كل ما سمعه من عند أنابيل هو ذلك الإذعان المعتدل: أيًا كان ما يجعل صغيرتنا سعيدة.

«ما الذي ستفعله إن فشلَت مجلتك؟»

«لن تفعل.»

«طبعا لن تفعل، لكن ماذا لو.»

«هنالك دوما منفذ آخر. لكن ذا مونيتور ستغيّر المشهد.»

قلب موراي شريحة لحم بملقطه الدهني. انتشر الشحم على مقدم قميصه. شعر بأن هذا نفسه كان رجوليا. «أنت تعلم،» قال، «هناك سلسلة مطاعم لُفافات بريطانية تحاول أن تفتح فرعًا لها في مانهاتن. لكن الأمريكيين يأكلون بشكل مختلف، يريدون طعامهم مُعَدّلًا حسب الطلب.»

عدّل سيلي من اعوجاج ظهره، عقد ذراعيه على صدره الضيق.

«لست أقول بأنه أمر جيّد. كلّنا بدينون هنا، أعلم ذلك. لكن الأمور تجري هكذا. فقط لأن المكان جديد ومتجدّد، لا يعني أننا لا نملك ثقافة.»

«أنا أستراليّ ولست بريطانيًّا.»

«بمعنى؟»

«بمعنى أني أعرف.»

ظهرت مارينا من جانب المنزل حاملة مصفاة ملأى بالفاصوليا. كان جبينها يحمل لطخة طين مثاليّة كأن قِسم الماكياج قد رسمها ليميّز العذراء الشابة التي نبتت لتوها من المرج. كانت الفاصوليا قد التُقطت لتوّها، كومة مغبرّة. «رجلاي المفضلان في العالم بأسره!»

«تكاد الشرائح أن تنضج. يأخذ الدجاج وقتا أطول.» رمى موراي عقب سيجارته عبر المشواة إلى الجمر.

«هذا مقزز، أبي.»

«يعطي معنى جديدا للتدخين السلبي،» أجاب موراي، «سيشكرني اللحم»

«لا تفعل هذا عندما تأتي داني، حسنا؟ إنها شخص جد نظيف، وربما لن تستطيع تناول العشاء.»

«صديقتك دانييل ستأتي إلى هنا؟» امتد موراي لقدح الويسكي على جدار الفناء. «ظننتها لن تستطيع القدوم هذا العام.»

«لقد تنمّرتُ عليها. ليوم واحد في الأربعاء. لكنني أراهن أني أستطيع إرغامها على المبيت.» وضعت مارينا المصفاة على الطاولة ولفت ذراعيها حول

خصر سيلي. «أخبرتها أنها حفلة خطوبتنا، في عيد الاستقلال.» بعد لحظة من الصمت أزّ فيها اللحم بوضوح قالت مارينا، «ظننتها تروقك أبي.»

«نعم، تروقني كثيرا. إنها شابة ممتعة جدا.»

«ممتعة؟ ستصرخ، أبي، لو أنها تسمعك تناديها بذلك. إنها ذكية، في الحقيقة. لقد استشعرت ذلك لودو، ألم تفعل؟ إنها جد ذكية، وعملها مهم جدا.»

«شيء في مجال الأفلام أليس كذلك؟»

«كيف لك ألا تتذكر أي شيء؟ كانت ستقوم بفيلم وثائقي عن لودو، أتذكر؟»

«لكنها غيّرت رأيها» أضاف لودو، محرّرا نفسه من عناق مارينا. «دعيني أحضر صحنا لتلك الشرائح» انسحب راجعا إلى المنزل.

«أبي، هل أنت سعيد لأجلي؟»

«طبعا أنا كذلك، أميرتي. يبدو الأمر سريعا.»

«سرعة رومانسية. إنها سرعة رومانسية. لكن إن كان كلانا متأكدًا، فلماذا الانتظار؟»

«فعلًا.» مورّاي، مداعبا ورق الألومينيوم الذي يلف عرانيص الذرة، حرق إصبعه. «سحقا.» قال. «سحقا، سحقا، سحقا.» الآن فهم لماذا كشف هاتفه عن أربع رسائل. لم تسنح له فرصة الاتصال بها بعد، لكنه كان قلقا – بشكل سلبي ومتقطع – بأن مكروها ما قد أصابها. هذا، وقد كان منزعجا. لأنهما اتفقا على ألّا تتصل به نهاية الأسبوع هذه، أنه سيتصل بها إن استطاع، لكن بأن تتركه وحيدا كفاية. وهو قد فكر في أنهن لا يستطعن الانتظار، النساء، ولا يُنصتن حقا. لكنه نوى بها سوءً والآن يشعر بالندم. مع القليل من عدم الاتزان. عرف بأنه قادر على التمثيل – دورٌ كبقيّة أدواره، مثل دور الشواء الأبوي أو الدور الحميد للأب الشغوف – لكنه سيكون اختبارا بالنسبة لدانييل. بدت في غاية الصدق – كانت إحدى السّمات التي جذبته، والآن يبدو

محصور الإعجاب بالفتاة تقريبا، نار هادئة ومستمرة يمكن إضرامها بسهولة – وربما لن تهتم لدراما الخيبة. الأمر دومًا متعلّق بالحدود، الصحيحة منها: الأحضان الصامتة السريعة في الخزانة كانت دوما أمرًا يتوق إليه، والتبادل المتوتر للنظرات يجب تجنّبه مقابل أي شيء.

هل فعل هذا من قبل؟ نعم ولا، لم يقم بالأمر بشكل فاضح أبدًا. نقل خطأً عرانيص الذرة إلى صحن الشرائح، الأمر الذي سبب نظرة عتاب حنونة من مارينا، ثم أرسلت سيلي مجدّدًا إلى المطبخ ليحضر وعاء آخر. لم يخض من قبل علاقة مع صديقة لابنته، كل شيء قريب من السطح بخطر ولذّة. ما الذي كان يفكر فيه ليسمح بهذا الاجتماع في ستوكبريدج، التي كانت إلى حدود الآن أرضًا أسريّة مقدّسة؟ أمّا عن درجة ولعه: كان يفقد التحكم، في الوقت الذي كان على علم بأنه ليس في ذلك من بدّ، كان دومًا، إلى حد ما، يرغب فيه. كشرب آخر جرعة ويسكي يعلم بأنه لم يكن عليه شربها، كان يحب أن يفكر فيها – بشرتها، طراوة متطلّعة أكيدة، ثقل خصلاتها، ثقل ثديها بين يديه – وكان هذا كما يجب. لكنه لم يكن قادرا على عدم التفكير، وهنا بدأ بالفشل. لم يكن على صوتها أن يكون جاهزا للتنفس في أذنه، سيقوده التهور إلى أخطاء وفي هذه اللحظة – نظر إلى ابنته، مسحت اللطخة الآن عن جبينها المشعّ، يداها مجددا وبحماس غير معهود على جذع حبيبها. المخاطر عالية.

عبق الهواء برائحة السيترونيلا، وكان النور الأخير شفّافًا وجميلًا. طافت مجموعة حشرات فوق المرج. أنابيل، في الجانب الآخر من المائدة، شاخصة إلى طبقها، إلى ذرتها وشريحة لحمها، بجبين مقطب.

«ما الذي يزعجك، إلى جانب الرطوبة والحشرات، حبيبتي؟»

هزت رأسها. «ديفوغن»

«مجددا؟»

«توصلت لتوي بالاتصال. لقد تم اعتقاله بتهمة محاولة إضرام

حريق. سيارة زوج والدته.»

«ربما هي علامة جيدة،» اقترحت مارينا. نفخ سيلي بمرح.

«كيف ذلك؟»

«حسنا، ألا يضرم الناس الحرائق من أجل التأمين، بالعادة؟ ربما كان يتعاون مع زوج والدته. وهذا سيكون أمرا جيدا.»

«أتظنّين حقا بأن هذا وقت مزاح؟» حملت أنابيل بنفسها الفاصوليا الخضراء، بحماس زائد. «سيكون عليّ الذهاب إلى هناك. سيتم استدعاءه للمحكمة صباحًا»

«لا يمكنك الذهاب،» قالت مارينا. «هذه عطلتنا الأسريّة. الرابع من الشهر. حفلة خطوبتنا. الأمر مهم.»

«من سيذهب إن لم أفعل؟»

«أليست لديه مساعدة اجتماعية أو شيء من هذا القبيل؟»

«حسنا، في الحقيقة، أنا محاميته.»

«لا أكاد أصدق هذا.»

«مارينا،» قال موراي. «تدّعين بأنك تريدين القيام بشيء مهم في حياتك. أمك تفعل شيئًا مهمًّا. سيكون من الأفضل لو تتصرفي مثلها.»

«نحن نحتفل بخطوبتي، أنا ولودو. أنا ابنتكما الوحيدة.»

«سأعود الأربعاء. من للمكن أن أحضر دانييل معي، لعلمك. هنالك دوما جانب إيجابي.»

عبست مارينا، بشكل مبالغ فيه، معبرة على نكدها وساخرة منه في آن.

«كم قضية تتسلمين في وقت معين؟» سأل سيلي.

«الأمر لا يتعلق بالعدد، ليس هنالك الكثير. الفتى قد تسرب إلى دواخلي.»

«لأن بمقدورك مساعدته؟»

نظرت أنابيل مباشرة إلى وجه سيلي. «لأنني لا أستطيع في الحقيقة. لأنني مهما فعلت، لن يكون الأمر كافيا. حياته لا تطاق، لا يمكن إنقاذه.»

«انجذاب القضية الخاسرة» تأمل سيلي.

«نحن معروفون بهذا الانجذاب في منزلنا.» حمل موراي الذرة بأسنانه، كان يكره الذرة. «لا أظننا نعرف أي نوع آخر»

«هذا عاطفي أليس كذلك.»

حدقت مارينا في سيلي وكأنها لا تعرفه. موراي في المقابل لم يكن متفاجئًا. «لا يوجد عاطفيون هنا، صديقي. ولا متدينون أيضا.»

«يمكن أن نتفق على هذا على الأقل» قال سيلي. «ولو أنني أعترف بأن هنالك الكثير ممن يعتبر الدين أساسيًّا لهم. بأننا نريدهم أن يملكوه»

«نحن؟ هم؟»

«كان ماركس على صواب: أفيون. إنه ضروري. دعنا لا نكن عاطفيين بل عمليين بدلا من ذلك. ألم يكن ديفوغن ليكون أفضل لو كان يؤمن؟ ألم يكن زوج والدته ليكون كذلك؟ إن كان هنالك أي مخرج من مستنقعهما المروع، ألن يكون هو هذا؟»

«أنا مدركة بأنه ولعديد من الناس في ظروف صعبة، الإيمان هو ما ينقذهم» قالت أنابيل. مدّت أصابعها العشر على المائدة، وبدت بأنها تضغط بقوة مقابل السطح «وأحترم ذلك كثيرا. لا أؤمن، شخصيا، ولن أشجع أي أحد على وضع ثقته في شيء يبدو لي تلفيقا واضحا. سيكون أمالا زائفا.»

«لكن لماذا؟» انحنى سيلي على المائدة الزجاجية، أصابعه الطويلة بدت وكأنها تربّت على الهواء العطر بالسيترونيلا. «أليس أي أمل أفضل من انعدامه على الإطلاق؟ من يمكن أن يقول بأنك غير مخطئة؟ ومن أنت لتحرمي ديفوغن حتى من ذلك؟»

«أن أقدم له الإنجيل في زنزانته؟ هنالك قسيسون ذلك هو دورهم. بالنسبة لي، سيكون هذا غير مبدئي. إن لم أكن وسيطة صريحة، فمن أنا

إذا؟»

«آه،» تراجع سيلي، ابتسم. «كما قلت، أنت عاطفية.»

هزّت أنابيل رأسها.

«لأنه، فعلا، تظنين أنك تعرفين ما هو الأفضل له. أو الأسوأ: تحكمين بأن الأفضل لك سيكون الأفضل له، سيخدم بشكل ما تخيُّلًا – كلماتك – لحقيقة موضوعية تؤمنين بها، بينما في الحقيقة، حياتك وحياته مختلفتان حدّ أن الحقائق نفسها ببساطة لا يمكن أن تتناسب.»

«سفسطة خالصة، صديقي،» قال موراي، وهو يطوي محرمته. كانت مودته حقيقية ومزيفة كما كان نكد مارينا السابق. «مارينا، لا يزال الوقت مبكرا حتى تغيري رأيك.»

حدقت فيه. ضحك سيلي. «لست أحاول إزعاج أي أحد. بعيدا عن غير الأخلاقيّ، أنا أدافع عن وصفة علاج مثبت. يمكن للدين أن يُحدث معجزات.»

«لا يبدو أنني أومن. لكن من الواضح بأنه وبالنسبة لمن يفعلون، ذلك ممكن. لنصغها بطريقة أخرى: أكان لديفوغن أن يكون أسوأ مما هو عليه؟»

«أيمكننا أن نتحدث عن شيء آخر؟» جمعت مارينا الأطباق. «أرأى أحدكم صغير الغزال وأمه اللذين يعيشان في الغابة هناك؟ ومن يريد بطيخا؟»

«لدي أمر واحد أريد أن أقوله لك لودفيك، هنا...»

«أبي، ليس عليك أن تكون صاحب الكلمة الأخيرة دوما. سألتُ عن الغزال.»

«يعيشان خلف ملكية جاسبر،» قالت أنابيل «كانت إيفلين تشتكي فلا شيء يمنعهما من دخول حديقة الخضروات. لقد أفسدا نباتات الخسّ رغم أسلاك الدجاج الشائكة.»

«لكن ليس فاصوليانا؟ هذا غريب. أتظنين بأنهم لا يحبون الفاصولياء؟»

استشعر موراي أن سيلي كان يرتجف قليلا، وكان لعينيه لمعان محموم. كحيوان قوطع في خضم صيده. «مزيدا من الفاصوليا لنا،» قال موراي، بابتسامة عريضة يمكن أن تعتبر استرضائية. « أليس هذا صحيحًا لودفيك؟ مزيدًا من الفاصوليا لنا!»

الفصل السابع والثلاثون

بعد العشاء

«لا تنزعج من أبي،» قالت مارينا. «إنه قديم بطريقته الخاصة. سيغضب لو سمعني أقول هذا.»

«لم أنزعج بتاتا. إنه يسلّيني كثيرا.»

«لكنني أظنك كنت قاسيا على أمي.» قالت. تفرّست ملامحه في انتظار جواب. كانا مستلقيين في السرير، عاريين لكن تحت الأغطية رغم الحرّ: موزّاي، مقابل انزعاج لودفيك المكتوم والواضح، أدار مكيف الهواء وصار البيت باردًا بإحكام. أغلقت النوافذ حاجبة أغاني ضفادع الأشجار، والأغصان المتعاركة.

«لم أقصد أن أكون كذلك،» قال سيلي.» كنت أحاول أن أشرح وجهة نظري فحسب.»

«وجهة نظرك جارفة.»

«التغييرية هي سمتي، إنها صحيّة، إنها ضرورية.»

«إذا كنت تعتقد ذلك.»

«لم تشعر بالإهانة، أليس كذلك؟»

«أكنت لتهتم لو فعلت؟»

«طبعا سأهتم. أعتقد أنها امرأة جليلة جدا.»

«ووالدي؟»

«أنت تعلمين.»

«لم تقل قط. كنت متحمسا للقائه لكنك تختلف معه في كل شيء.»

«هل أفعل؟»

«أنت تعلم، قبل أن تتزوجني، عليك أن تقبل بأنني ابنة والدي في معظم الأمور.»

«بمعنى؟»

«بمعنى أنني أتفق معه معظم الوقت. أفهمه أفضل من أي شخص آخر.»

«لا أظن ذلك.»

«لا تظنني أفهمه؟»

«أظنك تشبهينه. على العكس. أظن بأن ذلك وَهْمٌ حاول جاهدًا الحفاظ عليه، لأنه يناسبه.»

«كيف ذلك؟»

«لقد تحدثنا عن الأمر. كيف أنك تنعكسين عليه. حول إشكالية الانعكاس برمتها. أنت امرأة جميلة، في غاية الاتقاد، وموهوبة لوحدك. لم أكن لأوشك على الزواج بك لو لم تكوني كذلك.»

تنهّدت مارينا، تقلبت قليلا تحت الغطاء. «أنت حتما تعرف كيف تجعل فتاة تشعر بالتميز.»

«صدقا، عزيزتي. عليك أن تفصلي نفسك عن والدك. ضعي بعض المساحة بينكما.»

«أنتقل إلى أستراليا؟»

«ليس في هذه المرحلة، لكن ربما، يوما ما. عليك أن تأخذي موقفا.»

«تبعا للمبادئ؟»

هز سيلي كتفيه. «لأنني أقول ذلك. ولأنني دوما على حق.»

«أرى ذلك، كيف لي أن أنسى.»

«أنا لا أعلم بحق.»

«أشعر بالبرد.»

«اقتربي إذًا. أنا جاهز لتغليفك.»

«لفعل ماذا؟»

«استسلمي، فتاتي. استسلمي.»

الفصل الثامن والثلاثون

«مورّاي ثوايت: بورتريه خائب»

لغرض كشف كل شيء، دعوني أصرّح بأن مورّاي ثوايت هو خالي. الأخ الأكبر لوالدتي. هو أيضا، حاليًا، مُشَغِّلي. أعمل ناسخًا له (على حدّ تعبيره) أو سكرتيره (تعبيري الخاص)، أعمل في مكتبه الواقع في شقته في الجهة الغربية العليا من نيويورك. شقّة جيدة جدا. دعوني أصرّح أيضا، بأنه وزوجته، خالي وعمّتي، كانا جد لطيفين وكريمين معي. أسكناني وأطعماني (ولو أنني الآن أعيش وحدي)، وطبعا، دبّرا لي عملًا. السؤال إذًا هو: لماذا كان مورّاي ثوايت خيبة أملي الكبيرة؟

بالرغم من أن أسرتينا لم تكونا بالضبط قريبتين من بعضهما عندما ترعرعت في واترتاون، نيويورك، فلقد كنت دائما فخورا بإنجازات خالي. ذكاؤه ومعرفته أثارتا إعجابي منذ سنّ مبكّرة، وقد كنتُ قارئا مُخلصًا لكتبه ومقالاته منذ بدأت أستوعبها. من العدل أن أقول بأنه كان بطلي.

ارتاحَ بوتي لهذه المقدّمة، ولو أنّه لم يكن متأكّدا تماما بخصوص كلمة «بطل»، التي بدت كأنها تعكس مظهرًا جَسورًا. فكّر في استخدام «أيقونة»، كلمة كان الزّيف يتأصّلها، بدت الاستنباطات دومًا ازدرائيّة بشكل طفيف، لكنّه أراد أن يُحاكي البراءة والصّدق في إعجابه. «بطل» كانت مناسبة لهذا، تُلمّح إلى ما يُشبه محاربي الإغريق أو رجال الإطفاء. لم يكن في مكتب مورّاي، ولا على مائدة غرفة الطعام، لكنه كان مرتاحا في غرفة نومه السابقة، في

الكهف الهادئ، على السرير الواسع. وجد بقايا حساء لحم حُمل في الثلّاجة للعشاء، سخّنها وتناول قِطَع بطيخ أصفر في علبة بلاستيكية، بالرّغم من أنها كانت غازيّة قليلا على اللسان لكنها كانت صالحة للأكل. بقيت بقاياها مجمّدة على الطاولة الجانبيّة، واتّخذت غرفة النوم رائحة لحميّة. كما أنه قد أسقط بضع قطرات من الحساء على الغطاء الأبيض: بعد مسحها، بدت للأسف كبقايا براز.

شيّد مورّاي ثوايت سمعته على كونه مصوِّبًا مباشرًا، يصف الحقائق كما هي. من حركة الحقوق المدنية إلى فيتنام مرورا بصفقة إيران وعملية عاصفة الصحراء، من سياسة التعليم إلى حقوق العمّال إلى المعونات إلى حقوق الإجهاض إلى عقوبة الإعدام - عبّر مورّاي ثوايت عن آراء مثيرة للاهتمام. لقد صدّقناه، ولقد آمنتُ به.

تردّد بوتي بخصوص الجزء الذي تلاه: أراد أن يذكر بشكل محدّد أكثر إسهامات مورّاي المؤثّرة، بقدر ما كانت تعنيه هو، بوتي. كان من الصعب ألا يبدو الأمر كلائحة غسيل أو مجلة معجبين، لكنه ربما لا بأس من أن يبدو كمُريدٍ مُخلص. ربما سيكون الأمر قويًا بشكل معاكس، ويدعم تأثير الجزء الثاني من المقال.

طبعا، بالرغم من أنه شعر بالحماس تجاه الأمر، فقد كان الالتزام برمّته شعورا مُصطنعًا. لم يكتب بوتي مقالا من قبل، ناهيك عن كتابته للنشر. لم يكن متأكدا مما يجب أن يكون فيه، لم يكن متأكدا أيضا من التوازن بين الحقائق والرأي. بدا كأنّ بوسعه أن يضع رأيه في الواجهة باقتضاب شديد، في بضع مئات من الكلمات، وهذا أساسا لن يتطلّب أيّ إثبات: يجب على سُلطة إقناعه أن تكفي القارئ. مثلًا، على الجميع أن يعرف ما الذي يعنيه عندما نعت موراي بـ «المُصَوّب المباشر» أو «ضمير البلد المتحرّر.» ربما سيحتاجون لبعض التوجيه ليفهموا خصوصيات مورّاي الأقل شهرة - تحفّظه المالي المقارن، الذي يعود إلى وقت سحيق، قُربه وشهرته الواسعة بين أفراد المجتمع

الأسود، على الأقل على الورق، ما كان تمسُّكًا من أيّام نشاطات الحقوق المدنية القديمة، لكن عموما، ظنّ بوتي أن بإمكانك الاستهانة بالكثير. أو ربما لا؟ ربما قُرّاء ذا مونيتور لن يكون لهم إلا معرفة ضئيلة بمن هو موراي ثوايت. مما يعني بأن على بوتي أن يبدأ منّ البداية، في واترتاون، ويوفّر الخلفية برمتها: حقائق أكثر، رأي أقل.

نعم، ستكون هذه هي طريقة التعامل مع الأمر. شكل من أشكال السيرة القصيرة. لكنه اكتشف بأنه لم يكن يعرف الكثير عن خاله، من هذه الناحية. لا أين عاش ولا ماذا فعل، ومتى بالتحديد. عرف أشياء أخرى: أساطير العائلة، الهالة، أجواء منزل أسرة ثوايت. أما ما تبقى، فقد يسأل أمه عنه – وهو ما لن يفعله – أو ربما يعتمد على أبحاث الآخرين. مُغادرًا الغرفة المضاءة نحو مكتب موراي بنسيمه المشبع بالنيكوتين دومًا، جلس بوتي ليبحث عن خاله في محرّك البحث. انطلاقًا من معرفته بالرجل بالقدر الذي يفعل الآن، شعر بخيبة يقينية من أن موراي، جالسا في هذا الكرسي، قد بحث عن نفسه أكثر من مرّة. أحد أقرب الأمور إلى مقدّمة البحث كان ملفًا شخصيًا من جريدة طلّاب جامعة كولومبيا، أعدّته طالبة اسمها روان ليفين. عندما قرأه، وجد بوتي نفسه يتساءل، نظر لسلاسته، عمّا إذا كانت هي أيضا، قد أغواها خاله. كاد يسمع تقطّعات نفَسِها بين جُمَل المقال. هو نفسه احتاجَ إلى لهجة مختلفة وأبرد.

اشتغل بوتي على مقاله طيلة الليل وبعد الفجر. شنّ مرّات عدّة غارة على المطبخ من أجل الطعام، حيث وجد، بين أشياء عدّة، قطعة شوكولا مخبأة خلف مذكرة الهاتف حتى أنها صارت بيضاء. وهو يأكلها، فكر إلى من تعود: أيّ من أفراد ثوايت خبّأ الحلوى؟ ربما كانت تخصّ أورورا. استهلك أيضا علبتي زبادي فواكه اثنتين، وصحن رقائق ذرة، ونصف كيس كبير من شرائح البطاطا المقلية، النوع الباهظ، في كيس ورقي ثقيل، بنكهة دقيقة اقتربت من مذاق الكريما المُرّة والبصل. حوالي السادسة والنصف، قبل أن يخلد أخيرا إلى

النوم، سار ببطء نحو المطبخ ليُكمل الكيس. ليس لأنه كان جائعا، بل لأنه آنذاك لم يكن إلا نعسانًا، لكن لأنها بدت هجومًا هادئًا، حركة ضد موراي الذي لن يلاحظ حتى. لقد أرضته على كل حال.

بعد دراسة الاحتمالات بكلّ دقة، قرّر بوتي ألا يذكُر دانييل في المقال. كان هذا تنازله لأنابيل، الذي كان معجبا بها، ولمارينا أيضا. لم تكن تستحق الصدمة المزدوجة لأبيها ونذالة صديقتها المقرّبة مرة واحدة. لم يكن ليتجاوز الأمر برمته، لكنه اقتصر على تلميح فضفاض. كان سعيدا للغاية بتركيبته، منزلقا ضمن فقرة حول شفافية موراي المزعومة، التي كانت في الحقيقة (طبقا لبوتي) مغلّفة بتشويش مقصود وقوي، حتى لا نقول عدم أمانة. لقد وضع جملة كاملة بين معقوفتين بين جملتين أخريتين: «(موراي ثوايت هو على نفس القدر من التعقيد والغموض عندما يتعلق الأمر بحياته الشخصية، سلسلة تشابكات عاطفية مقصودة بالفعالية الميكيافيلية لأقصى استفادة شخصية.)» أُعجب بوتي باستخدام «ميكيافيلية»، التي عكست الكثير من اللمس المبهج، لم يعتقد بأن أحدًا غير مفعم بالذكاء سيفهم ما كان يحاول أن يقول.

لم يُطِل بوتي في النوم عندما أيقظته تحرّكات شخصٍ ما في الشقة. يفتح ويغلق الأبواب، يفتح الماء. يضرب الأشياء بصراحة. في البداية لم يعرف بالضبط أين هو. ثم لم يعرف كم الساعة – الثامنة صباحًا – والأكثر، لم يستطع موضعة الضجيج. حضر بباله أن أحد البوابين – ربما ميلي، الصربي الضخم – كان يستخدم شقة الأسرة وأفرادها غائبون. لكن شيئًا بخصوص الأصوات أغضبه. في النهاية، بانزعاج، كان أحدهم يحاول إثبات وجوده.

ارتدى بوتي نظارته وفرك خصلاته. ذهب ليرى، وهو يقطع الردهة، وجد بأنه ربما لم يكن الضيف المثالي. حذاؤه وجواربه مرميان في المدخل. في غرفة المعيشة، كانت وسائد الأريكة مكدّسة على الأرض – حاول، لوقت وجيز، أن يجد وضعية مريحة ليعمل. وعاء زبادي فارغ وملعقة دبقة عَلِقت فوق

زجاج طاولة القهوة. تجرأ على الدخول إلى المطبخ: أحدهم قد حمل طبقه المشحّم من غرفة النوم ووضعه في المغسلة. بينما كان نائما. أحدهم مسح شرائح البطاطا المقلية التي جمعها على الأرض وتركها كُتَلٌ مُعَاتِب قرب الفرن. علبة الحليب الفارغة موضوعة بحقد فوق المنضدة، قرب آلة تحضير القهوة، حيث كانت قهوة طرية تغلي. منتفخا، معميًّا، شاعرا بالمرض، فهم بوتي أن أحدا ما – أنثى – قد عاد إلى المنزل، بشكل غير متوقع.

أفرغ بعض القهوة لنفسه، شمّ، انتظر، ستظهر قريبًا. فكّر بأنه حيثما وضع رأسه فهو غير مرغوب فيه. لحسن حظه لن يُهان الآن، لن تنعته بالسمين. لكن من الممكن نعته بسافِر البلل. وطئ على بعض رقائق الذرة، ساحقا إياها تحت قدمه العارية. طار غطاء حلوى الشوكولا على المنضدة بفعل ريح مكيف الهواء. المسكين بوتي، فكر. لا أحد يريده. المسكين بوتي. ثم فكر في أمه، التي تريده. فكر فيها كوحش مجنّح جشع، عيناها الحزينتان اللامعتان مدمعتان، شعرها سيئ التموج مرعب، جسدها المنشور منتفخ على واترتاون برمتها، وجهها القبيح المهلهل، تحاول أن تبتلعه، أن تعيده إلى المنزل. تتحنح. يُفضّل أن يكون وحيدا وغير مرغوب فيه على أن يكون عاديًّا. ظن بأنه يريد ذلك لكنه لم يتخيل وِحدة كهذه. لم يعرف بأنها موجودة، ولا أنها قد تجعله حزينًا وغاضبًا.

«بوتي. لقد استيقظت.»

«أنابيل.» مستحمّة لتوّها، ارتدت ملابس العمل، نحيلة وفاتحة، تتصفّح أوراقها وهي تلج الغرفة.

«كانت مفاجأة» قالت، من دون أن تنظر إلى أعلى. «ظننتك قد وجدت مكانا.»

«أنا آسف، الأمر فقط – كنت أشتغل على بعض الأمور وطريق العودة طويل. والجو حار جدا.»

«الأجواء اليوم أفضل، في الحقيقة. لقد قدت من ستوكبريدج هذا

الصباح، وكان الجو باردا هناك.»

هزّ بوتي رأسه، لكنها لم تنظر إليه بعد. عبست بقوة لأمرٍ رأته على الأوراق.

«أنا ذاهبة للمحكمة الآن،» قالت، وهنا نظرت إليه أخيرا، «أستكون هنا على العشاء؟»

«لا – لا أظن ذلك. أعني، حتما لا.»

«حسنا، طيب، سنراك قريبا إذا. لكن أيمكنك رجاء التوضيب قبل أن تغادر؟»

بدأ بوتي بالتمتمة – أرادها أن تفهم بأنه لم يعرف أنها قادمة، لم يكن ليُحدِث كل هذه الفوضى لو عرف.

«لأنه كما تعرف، إنها عطلة لأورورا أيضًا.»

قبالة الباب الأمامي، تأخّرت قليلا، ونادته: «هل أنت متأكد تماما من أنك لا تريد الذهاب إلى ستوكبريدج غدا؟ سأعود إلى هناك، ربما مع صديقة مارينا دانييل.»

انضمّ إليها وهي تنتظر المصعد. «شكرا، لكنني لا أستطيع. مشغول جدا بسبب هذا المقال.»

«مقال؟»

«لأجل مارينا، طلبت ذلك. من أجل مجلتها.»

أنابيل، مشوّشة، ابتسمت وسط الكلام. «سيتزوجان، أتعلم. أليس هذا حماسيا؟»

«من؟»

«مارينا ولودو.» فتح باب المصعد ووقف ميلوس ليوقف الآلة حتى يُنهيا حوارهما. «سنحتفل غدا؟»

«سيتزوجان؟»

«ليس غدا. في أيلول. قريب جدا.»

لم يعرف بوتي ما عليه أن يقول.

«سيكون رائعا إذا وضعت غطاء السرير في آلة الغسيل،» أضافت أنابيل بينما تحرك ميلوس لإغلاق الباب. «رشّ عليه بعض مسحوق التنظيف فقط، على تلك البقع.»

«إنها من لحم الخروف،» قال. بدا مُهمًّا أن تعرف. لكنها ذهبت.

بوتي، متضرّرًا من حدّة أنابيل، حاول أن يرتّب الشقّة بكل الفعالية التي يعرف. كان يعلم – لطالما اشتكت أمه من ذلك – بأنه لم يكن يعرف شيئا عن النظافة. «يتعلق الأمر برؤية القذارة» كانت أمه تقول دومًا، «وكأن القذارة لغة أو موسيقى.»

هذا الخبر عن مارينا: لم يقدر على تجاوزه. أراد أن يؤمن بأن هنالك سوء فهم ما، لكنه كان يعرف. لقد راقب مارينا – هل مرّ وقتٌ لم يكن يراقبها فيه؟ المُتعة والألم اللذان تسبّبهما حركاتها له كان جسديًّا – ورأى يديها تتحولان إلى طائرين على عنقها، عينيها تتفتحان أوسع وألمع، فمها الواسع نفسه يبدو وكأنه ينكشف – كل هذا خلال الحوار مع سيلي، لودفيك، ذلك الحبيب الكاذب، انحناءته الأرستقراطية على غرار الحرف الأوّل من اسمه، وكأنه كان دوما ينحني نحو الأرض، يسير ببطء بعيدا. في البداية، في تلك الليلة الأولى التي التقت به، عندما انضمّ بوتي إلى المجموعة في غرفة المعيشة بعد عشاء ليلة الجوائز، حتى آنذاك رأى وجهها يُتابع سيلي بتوق مميّز، الانتباه المُنَار الذي حاولَت – كما حاول هو، بوتي، دوما عند الحديث إلى مارينا – وفشلت في إخفائه. ظنّ آنذاك أن دانييل تغار منها، أن السيدتين تنافستا على اهتمام سيلي، لكن عند التفكير في الأمر مجدّدًا، لابدّ أنه كان مُخطئًا. كان عليه أن يراقب مورّاي. يا لغبائه، طيلة تلك الأسابيع، واحتمالية هذه الشهوانية لم تخطر بباله. كان لا يزال مؤمنًا بخاله.

تلكأ بوتي في غرفة المعيشة بعد حمل الوسائد، وعاء الزّبادي، ملعقته الملازمة: تذكّر جَوْدة النور، مطلع ذلك المساء، الطريقة المُغرية التي سطعت

فيها شعور النسوة تحت لمعانه، المسبح الخوخيّ، كالدفء، على الأرائك البيض. كان قد خرج من غرفته عندما سمع الأصوات، الضحكة، وانزلق عبر الممر في الظل، تأخر، متلصّصًا، في المطبخ حتى دعته مارينا مفاجئة إياه لينضمّ إليهم. شعر كأنه يوم عيد. عرف أنها كانت تتصرف بلباقة فحسب لكنَ لُطفها، على غرار أنابيل، قد حرّكه، جعله يشعر كأن بَكَرة عجلةٍ ما قد تحرّكت في صدره. كان شاكرًا لهذا الحد. ومن ثم راقب، راقب كل شيء من كرسي صلب خارج الحلقة المُنَارة، حامَ، غير مُلاحَظ، كشبح محظوظ. استمع جزئيًّا أيضا إلى الأحاديث الدائرة، لكنّ حماسه وتوتّره كانا عارمين، والصوت في عقله كان عاليا – تلك كانت النهاية. هذه، أخيرًا. الصالونات المُسكِرة للحكمة وحُريّة النقاشات الفكرية، حماس حياة العقل، الحياة التي تخيّلها طويلًا، غنيّة التأثير، تماما مثل هذه، مستلقيًا في حوض استحمام منزل والدته الأصفر في واترتاون، خائفا دوما من أن الحياة لن تأتي إليه، أو هو لن يأتيها، وها هي الحياة الآن، في روعتها الخافتة لكن الجميلة، مجموعة صغيرة، كل الأعمار، يتحدثون، يضحكون، يدخنون، يُنصتون، كما في غرفة معيشة السيدة دي شتايل، أو في بلاط كاثرين العظيمة، أو منزل راهف بعد اجتماع ذا بارتيزان ريفيو. مفكّرو العصور مأخوذون بما كان يناقش. لا أحد تحدث إليه، بعد التعريفات، لكن دانييل ابتسمت تشجّعه عدة مرات، ابتسامة رآها مطمْئِنة ومُزعجة في آن. حتى ما قالته دانييل ولودفيك لم يشوّش تجربته عليه. بدوا جميعا أذكياء فيما شعر هو كأنه أطرش، أو ينصت إلى لغة لم يكن يجيدها بطلاقة، كما لو كان يُفوّت جُملًا، إشارات، يُفكّك كُلًّا مُشِعّ الألوان وانطباعيًّا من معلومة جزئية واحدة. لم يكن ليعرف أي تجزيء: كم كان ليعرف عن موزّاي منذ الليلة الصادمة تلك، والآن، غير بعيد بعد ذلك، مارينا ولودفيك سيلي سيتزوجان.

الفصل التاسع والثلاثون

الرابع من يوليو (1)

لم يستطع جوليوس أن يصدّق بأنه لم يذهب. أو بالأحرى، أنه ذهب للنوم لساعة كما افترض حين أيقظه ديفِد بعد أربع ساعات، على الهاتف، من محطة قطار الأنفاق الشرقية هناك في ويستشيستير، متسائلا عن مكانه بحق الجحيم، انفعاله المثير تحوّل إلى حنق كامل. استطاع جوليوس أن يتذمّر بصراحة، أن يسعل، أن يرثي صداع رأسه المرتج، درجة حرارته المتقلّبة وأنفه الذي يجري.

«إنه شكل من أشكال زكام الصيف، أتعلم؟ غريب جدا. بقيت مستيقظا معظم الليل. ضبطتُ منبّهًا حتى أتصل بك، لكنني نمت خلاله حتما.»

«إذًا فأنت لم تعمل على مقالك في نهاية المطاف؟» كان انزعاج ديفِد باديًا.

«تعال إلى المنزل واهتم بي، يا رفيقي. أنا مريض ككلب.»

«هذا لا يعقل. أمي...»

«كل علاقات الأم والابن مريضة. ستكون سعيدة بالاستحواذ عليك لنفسها فقط.»

«ليست لديك أيّ فكرة كم من المتاعب خاضتها.»

«اسمع، إن كنت تريد فعلًا ماري تيفوئيد، فيمكنني أن أجرّ نفسي خارج السرير من هنا، وأرفرف إليك على جناحَي قَيء!»

«ممتاز»

«حتى وأنا مريض، لا زلت عبدًا لك!»

«سعيد لسماع هذا. لكنك تخيب أملي بشكل عميق.»

«سأعوضك، أعلم بأنني سأفعل.»

«بإمكانك أن تأتي غدا»

«تماما. أستطيع أن آتي غدا.»

لكنه في الغد، ادّعى جوليوس بأنه لم يتحسّن. لم يستطع تبرير الأمر تماما. مكث في المنزل، أعدَّ عجّة بَيْض، أخذ حمّامًا طويلا باردا. في اليوم الموالي، فكر في التراجع مجددا، لكنه، معترفا بأنّ توقه اللحظي للهدوء والوحدة قد يُفضي إلى إنهاء علاقته، تراجع عن ذلك.

كان حضور احتفال أسرة كوهين بالرابع من يوليو أقلّ صعوبة مما تخيّل. لديهم حوض سباحة، الأمر الذي ساعد، ومجموعة من سبع أقرباء تتراوح أعمارهم بين التسع سنوات والثلاثة والسبعين، كثيرون منهم وسيمون مثل ديفِد. حضر عدد من الجيران أيضًا، حاملين صواني من السالمون المدخن وأوعية من سلطة البطاطا. قدمت أسرة كوهين نبيذ بروسيكو وجعة حلالا، وخلال الساعة القصيرة قبل أن تبدأ السماء بالإمطار انتقلوا جميعًا إلى الداخل، استطاع جوليوس أن يمزح لديفِد الذي لا يزال غاضبًا بأن التسكع على حافة المسبح بكأس شامبانيا جعله يبدو كملكة في الوحل. هنا صاغ ديفِد لقب الملكة موك أو السيدة موك، الذي سيستخدمه لاحقا، لإزعاج جوليوس، بحماس كسلاح تقريبا.

بعد مرور العاصفة، اجتمعوا، مبلّلين بربطات عنق مرتخية، وشاهدوا الألعاب النارية المحلية، هو وديفِد على العشب بجانب مسبح سكارسديل.

هنالك حميمية تجاهلها والدا كوهين بصدر رحب (أحب فرانك كلارك ابنه، لكن جوليوس كان يعلم بأن لا مدرّب كرة من الوسط الغربي يحترم نفسه قد يحتمل رؤية شابين يمسكان يدي بعضهما علنًا. لو كان على أرض أسرته ما كان ليتجرّأ ديفِد على القيام بأمر كهذا). قام جوليوس بتقديم أفضل عرض أخلاق، ساحرًا عمّة السيدة كوهين وحاملا أصغر الأقرباء على ظهره، فتى قويّ بأسنان ناتئة يُدعى أوين.

على القطار في طريق العودة، صباح الخميس، أخبر جوليوس ديفِد بأنه قد أمضى وقتًا رائعًا: «لم يكن والداك ليكونا أكثر ترحيبًا. شكرًا»

رفع ديفِد عينيه من قسم التجارة لجريدة التايمز «كان بمقدورهما أن يكونا أكثر ترحيبا في الحقيقة لوقت اطول. كان بمقدورهما. أرادا ذلك. أكثر ترحيبا ليومين، كما تعرف جيدا. لكنك لم تظهر.»

«هذا ليس عادلا. كنت مريضا. لم أكن أفتعل الأمر»

«حسنا، كنت مريضا. لكن لا تبدو كأنك تقدّر كم كان يعني هذا لأمي.»

«أو كان يعني لك، كما يبدو»

كان شعر ديفِد مدبّبًا، عيناه خلف نظّارته متّسعتين، بشرته شاحبة جرّاء الجلوس في المكتب. « أو لأجلي، أظن أن ذلك صحيح.»

«لو عرفت بأن لي القدرة على إغضابك، لقمت بها في وقت أقرب. تلك قُدرة مُثيرة جدًّا.»

استدار ديفِد عند سماع هذا.

«أخائف من أن الأب على متن القطار؟ أو أصدقاء الأب في غولف ويسشيستر؟ لا تقلق عزيزي، الكل يعلم بأنك مِثْلِيّ كبير وعجوز.»

«أرجوك.» قال ديفِد، ملتفتًا مجددًا إلى الجريدة. «ليس هنا، ليس الآن.»

«أنت تفاجئني،» أصرّ جوليوس. «هل أنت خائف من أن تُكشَف

لمجموعة من الرجال ذوي البدلات؟ أو من أنك ربما تعرفهم؟ ما الأمر، دايفي؟ يمكنك أن تخبرني»

«إن لم تصمت الآن، سأغيّر المقعد وأتظاهر بأنني لا أعرفك، حقًّا.»

عرف جوليوس بأنه لم يكن يمزح. «يمكن لاثنين لعب تلك اللعبة عزيزي.» قال، ثم رفع قسم الفنون إلى أنفه. رأى فجأة أن أحد منافسيه السابقين في مكتب فيلاج فويس، امرأة عادية ممتلئة تدعى صوفي – لا تزال عادية وممتلئة، في صورتها النصفية – قد حصلت على قراءة نقدية لأوّل رواية لها. لصالحها. كانت تصغره بثلاث سنوات. أراد وبشدة في تلك اللحظة أن يكون مع مارينا أو دانييل. مع أناس يفهمون كل الجوانب المختلفة لما جعله يشعر بالسوء. لكنه آنذاك شعر بأنه لن يسترجعهما أبدًا: لقد نفّذ مُساومَته، اختار ديفِد، والآن هو كل ما يملك. لا سيرة، لا رواية، هذا أكيد. لا أصدقاء. ديفِد فقط، الذي لم يكن يفهمه تمامًا.

الفصل الأربعون

الرابع من يوليو (2)

كانت دانييل قلقة بشأن سفرها بالسيارة مع أنابيل. لم تعرف ماذا ستقولان لبعضهما، نظرًا لتغيّر وانشحان علاقتهما، أو انعدامها تمامًا الآن. أدهشتها أسرة ثوايت، وانتابها الذنب حتما. لطالما كانت أنابيل لطيفة معها. فكرت في أخذ القطار بدل ذلك، لكنها قررت أن ذلك سيبدو في الآن نفسه غريبًا جدًّا وبأن القدر قد رماها حتما مع أنابيل لسبب ما. كانت أمها حتمًا لتفكر هكذا.

في ضوء الأحداث لم يكن عليها لتقلق. اتضح، في السيارة على الأقل، بأن آليات دانييل القمعية كانت محكمة الإغلاق: إن لم يكن لأنابيل أي شك، وإن ظلت علاقتهما على حالها، بالنسبة لأنابيل، فهي حتمًا كذلك. كان الأمر في الحقيقة يعتمد على زاوية الرؤية، وما الحقيقة هنا. وجدت دانييل أن ولوج نظرة أنابيل البريئة مُمتع وغير معقّد في آن، واكتشفت، لدهشتها ورضاها، بأنها كانت مستعدّة للقيام بهذا من دون تفاقم، من دون أيّ حسّ مهما كان بأنها مُخادعة. رحلتهما معا كانت مثيرة كما هي حواراتهما دومًا.

في الحقيقة تذكرت دانييل حديثهما ليلة الربيع تلك حول الطعام الصيني، الليلة التي اعتبرتها منبع كل شيء، دردشة مع أنابيل حول زبون،

الفتى المضطرب، وتذكرت حيثيات تلك القضية في السيناريو الذي كانت أنابيل تصفه. الصباح الماضي، أمام القاضي، لم يمض جيدا، والفتى كان في حجز المحكمة. الطريقة الوحيدة الممكنة لتجنب ذلك، فكرت أنابيل، هو بأن تقترح أخذه إلى المنزل طيلة الأسبوع.

«كان القاضي ليوافق» قالت « لكنني لم أسأل. إنه فشل أخلاقي، أشعر بهذا، لكن...»

«إنه الرابع من يوليو، وحفل خطوبة مارينا.»

«أوه، هنالك أسباب عدّة. لكن الأهم هي نظرة مورّاي، ذلك ما بقيتُ أتصوّره. لا أظن أن حس دعابته سيمتد حتى عيد الاستقلال في ستوكبريدج مع ديفوغن.»

كادت دانييل أن تقول شيئًا آنذاك – شيئًا بريئا من قبيل «أراهن على أن الأمر لن يعجبه» – لكنها قلقت من أن تكون النبرة التي ستستخدمها غريبة، أو تصريفها هشًّا، ولهذا فبدل ذلك نظرت من خلال زجاج النافذة نحو الإسفلت المقابل وابتسمت بشكل غامض وموافق. شعرت بأن أنابيل كانت مُحرجة للغاية من نفسها، وكأنها قد فشلت في اختبار.

«الليلة الماضية قال لودفيك بأني مخطئة في فرض قِيَمي، إيماني، ثقافتي على شخص مثل ديفوغن. اختلفت معه حينها، لكنه ربما على صواب. أظن بأنه كان من الأفضل إحضار ديفوغن إلى ستوكبريدج بدل أن يمضي العطلة في السجن – لأنه أساسا، سيكون هناك – لكن ذلك أفضل بالنسبة إلى أيٍّ منّا؟ حتما ليس لأيّ أحد منا – أعتقد أن بوسعك قول إنني اخترت راحة ابنتي على راحة ديفوغن، ما رأيك؟»

«أظن بأن لودفيك بارع في جعلنا جميعا نشك في أنفسنا ونشكك في قراراتنا. لكن إن نجح الأمر، فمن سيعارض؟»

أنابيل لم تجب.

«أعني بأنه إن كان منطقه السلس يساعدك على أن تفهمي وتشعري

بتحسن بخصوص ترك ديفوغن في المحكمة، فذلك رائع.»

أنابيل لم تتحدث بعد، ربما بسبب زحام حركة المرور، صَعُب التأكد. دانييل، معذَّبة، تحدثت أكثر. تمنت لو عرفت ما إذا كانت أنابيل معجبة أو غير معجبة بسيلي. لطالما كانت حذرة من هذه الأمور. «لا أعني بأنك تبررين – أو إن كنت أعني ذلك، فأنا لا أعني بأنك تبررين من دون مبرر. الأمر وما فيه هو أن هذا يبدو تكتيكا ينهجه.»

«ماذا يفعل؟»

«سيلي – يبدو بأنه يريد أن يجعلك تشعرين بتحسن. لكنني في الحقيقة لطالما ظننته يفرض نظرته على العالم بينما يعطيك وَهْم كونها نظرتك الخاصة. يريد أن يكون نابوليون، أتعلمين؟»

«يا إلهي. تأخر قليلا على ذلك أليس كذلك؟»

«ليس حرفيا طبعا. لكن ذلك هو التأثير. يريد أن يتبعه الناس. يريد أن يُحدث ثورة ويتحكم في الحياوات كلها.»

«أنحن نتحدث عن لودفيك سيلي نفسه، الجيد في المساعدة في المطبخ، والذي سيتزوج ابنتي؟»

«أعلم بأن الأمر لا يبدو ممكنا. لكنه صريح جدا بشأن طموحاته. اسأليه.»

ضحكت أنابيل. «أظن بأنه يريد أن يكون أنجح محرّر مجلّات في نيويورك. يريد أن يتفوق على تينا براون بجلالها. ذاك انطباعي.»

ابتسمت دانييل للطريق مجددا، بشكل غامض. كانت هنالك أشجار عدّة وكبيرة على طول الطريق، وكانت وافرة بشكل مثير للإعجاب. كان الضوء عسليا. تعجبت قليلا لصراحتها مع أنابيل. ربما، بسبب موراي، شعرت بأنها قد قامت بقفزة جِيليّة: وكأنها عمّة مارينا، بدل صديقتها، أو في نفس الوقت وهي صديقتها. شعرت وكأنها رِقٌّ كُتب عليه مرارًا، وكأنها أشخاص عدّة في آن واحد.

«ليس كأننا نقول بأنه لا يحمل جوهرًا ما.» أكملت أنابيل. «سياسيًّا، كما هو واضح، ليس على الموجة نفسها كموراي، ولا حتى أنا. لكنه نزيه.»

«واو. لستُ متأكدة ما إذا كانت هذه هي الكلمة التي أربطه بها.»

بدت الأشجار وهما تسيران، أشجار فوق أشجار، لا متناهية ووارفة.

«إن كانت لك مشاعر قوية تجاهه، ربما عليك أن تقولي شيئًا لمارينا. إنها تخطط للزواج به بعد كل شيء.»

«أعلم. الأمر ليس سهلا.»

«إن شعرت بأن صديقتي المقربة ستقدم على خطأ مميت...»

«نعم، لكنك ستكونين مذنبة مجددًا بكل تلك الأمور التي يتهمك سيلي بها. ستفرضين وجهة نظرك، من دون أن تفكري ما إذا كانت الأفضل لصديقتك.»

«إذا فسيلي، في نظرك، قد يكون رجلا سيئا، لكنه جيد لمارينا؟»

«لم أقل هذا. قلت بأنه من الممكن أن يكون هذا صحيحا.» توقفت دانييل. «وأعتقد بأنني الآن أقول بأنني لن أخبرها بأي شيء بخصوص مشاعري. إنها مشاعري فحسب.»

«المشاعر» تنفست أنابيل. «هي كل ما لدينا لنستمر. وأنا أشعر بالسوء تجاه ديفوغن.»

«كان ليكون بائسا في السيارة، وفي منزلك. بائسًا.»

«لكننا لا نعلم ذلك.»

«بلى نفعل.»

وصلت أنابيل ودانييل إلى ستوكبريدج قبل الظهر بقليل. كانت قد بدأت تمطر، والأغصان المنفوخة كانت تكشف عن دواخلها، منذرة بعاصفة.

«ليس ما تصورناه تماما» قالت أنابيل وهما يركنان على الممر. «لا شواء اليوم.»

«لا قيلولة في العريشة، أيضا.» قالت دانييل. من الأمور التي دومًا

ما راقها القيام بها في منزل ثوايت الريفي هو الاختباء خلف النوافذ مع كتاب وكأس ليمونادة لينتهي الأمر بها غافية على المقعد، الأمر الذي كان غير مريح ومسعدًا بغرابة في آن. «ربما سنلعب المونوبولي.»

«ربما،» قالت أنابيل. «شيء من هذا القبيل.»

على الأقل لم يكن مورّاي في الجوار عندما دخلنا. كان لودفيك يقرأ على الكرسي قرب الأبواب الفرنسية المفضية إلى الحديقة، واستلقت مارينا ممددة على الأريكة، تأكل نصف كعكة. لعقت الزبدة الذائبة عن أصابعها كهِرّة.

«أنت هنا» قفزت دون التخلي عن الكعكة، رمت ذراعيها حول عنق دانييل. تساءلت دانييل ما إذا كانت الزبدة قد علقت على شعرها. «يا لها من راحة. هنالك نشرة إنذارية بخصوص إعصار.»

«قادت والدتك كالريح»

«لا تفعل ذلك أبدا. كنت أراهن لودو بأنكما لن تصلا قبل الغداء.»

«أين والدك؟» كانت أنابيل في طريقها إلى أعلى.

«يعمل، ربما. في غرفتكما.»

مُريحًا كان، ألّا تشهد دانييل لقاءَ والدَي الأسرة. أرادت دانييل لعاطفتهما – أو عدم عاطفتهما – أن تُخبّأ عنها.

«هل تناولت أي شيء للغداء؟» قالت، نصف ممازحة بسبب الكعكة، مُدركة وهي تضحك أنها ولودفيك لم يحيّيا بعضهما مباشرة. وكأنه كان يعرف ما تظنّ بشأنه. أو كما لو كان يظن الأمر نفسه بشأنها. لمست كتفه، عمدًا: «هي، هنيئا لكما، أنتما الاثنان.»

لم ينقر كعبيه، الأمر صعب بسبب الخفين، أرادت أن تخبر أحدا، لكنها لم تقدر.

«أيلول ها؟ ذلك قريب جدا.»

«سنسمع هذا كثيرا. لكن الخطة هي أن نحصل على منظم حفلات،

أن نقوم بها هنا، حتى لا يكون التنظيم صعبا.»

كانوا يناقشون الخطط على طاولة المطبخ عندما نزل موراي أخيرا على الدّرَج. سمعت دانييل خطواته، ظنت بأنها استشعرت خدودها وهي تتورد. عندما دخل الغرفة، وقفت واستدارت، لكن ببطء، حتى تكشف نفسها بالكامل، ووجدت نفسها للغرابة، بجسارة في مواجهة موراي ثوايت الذي عرفته لسنوات، المحبّب، الأب الأرستقراطي المشوّش صاحب النظرة غير المركزة والمتطوّعة التي تنساب عليها كالماء. هزّ يدها وقبّل وجنتها، في هاتين الحركتين سعت إلى بعض الاعتراف - ضغط أكثر، كلمة هامسة واحدة، أو حتى نظرة متلكئة - لكن قِناعه كان كاملا، غير قابل للاختراق أبدًا، حتى تساءلت دانييل بشكل عابر، ما إذا كانت حميميتهما مجرّد نسج من خيالها، تساءلت أيضا، إن كان يظنها عاهرة - كانت هنالك إهانة ما مُضمرة في نجاح تمثيليته - وما إذا كان الأمر برمته، في كل جنونه، مجرد اختراع. تحرّك، أفرغ القهوة، أشعل سيجارة، سأل عن ترتيبات الزوال («إن لم أكن سأشوي، فعليّ أن أعرف ما هي مهمّتي»)، سأل لودفيك ما الذي كان يقرأه، زرع قُبلة هيّنة (ومثيرة للحسد) على جبين ابنته - بفعله لهذا، سمح لعينيه للحظة بالغة القِصَر أن تلتقيا بعيني دانييل، في تلك اللحظة، بتفاؤل، أرادت أن تعتبر القُبلة لها بالرغم من أنها وقعت على مارينا - واختفى مجددا أعلى الدّرَج.

لم تستطع دانييل التنفس بشكل عادي مجددا حتى غادر الغرفة، أو هكذا تراءى. كانت تشمّ رائحة الجين والتونيك حتى بعد مغادرته. أدركت أنها لم تكن تتابع ما كانت مارينا تقول وبأنها كانت تمسك فنجان الشاي المثلج إلى فمها ربما لدقائق، كما لو كان دافئا وكما لو كان الفصل شتاء، وكأنها كانت تدفئ وجنتيها. بدت احتمالية البقاء أربعًا وعشرين ساعة طويلة فعلًا فجأة.

«ما لون زهور الباقة؟ سألت. «أو ما نوع الزهور عموما؟»

«حسنا،» قالت مارينا، «أنا حائرة بين مجموعة زهور برية متأخرة - أنت تعرفين، زهور رباط الملكة آن وزهور القنفذية والخزامى، زهور محلية

كهذه، أتعلمين، تلك التي تُظهر جمال هذا المكان، أو ربما شيئًا أكثر تعقيدا، لنقل، لا أعلم، نصف دزينة من زهور الليلك المربوطة بشريط»

عندما نطقت «الليلك»، هزّ سيلي المتثائب رأسه وأشار بإصبعه.

«لست متأكدة ما إذا كان على العريس التقرير بشأن باقة الزهور»

«أوه، سأحشر إصبعي في كل فطيرة،» أجاب سيلي، بابتسامته الساحرة. «كما تعلمين، تلك طريقتي البسيطة»

«هل ستختار الفستان أيضًا؟»

«لو استطعت.» ابتسم، أخذ حبة توت من الوعاء وسط الطاولة ووضعها كلها في فمه. «لكن مارينا نموذج مثالي في الذوق، كما ستختار الباقة المناسبة، ستحصل حتما على الثوب المناسب.» لفظ البذرة في يده المغلقة وتخلص منها برشاقة. «إنها ملابس الآخرين التي تزعجني»

بالكاد كانت دانييل تنصت، وبدت ابتسامتها عالقة. كان أغرب إحساس ممكن: أهذا هو الجنون؟ ربما تخيلت نظرته، لم ترها، وبفشله في ذلك، لم يحاول بأيّ طريقة الاعتراف بها. أخبرت نفسها بأنها لم تكن تتوقع منه أن يفعل، لكن كيف لم تفعل؟ حتى الآن، لم تتقبل كلية قوة رغبتها، وفي هذا السياق لم تكن مُخجلة فحسب، كما يجب على علاقة غير شرعية أن تكون، بل إحراجًا عاديا أيضا. وكأنها كانت واقعة في حب والدها. والد مارينا الذي هو هنا، ليس المتودّد الضخم الأيقوني الذي كان يزور شقتها وحيدا وفي أوقات غريبة، أو الذي كان يقوم نصف قيام من كرسيه بطريقته الأرستقراطية المخزية عندما كانت تلج حانة أو مطعما. كانت دانييل تتورد – ذكرى خدها على صدره، ملمس شحمة أذنه، بزغبها الدقيق، رائحته الشهية – وضحك سيلي.

«لا أعترض على حسك في الموضة،» قال. «حتما، لست في يومك الأفضل اليوم، دانييل، لكنك عموما تبلين بلاء حسنا.»

«هذا كرم منك.»

«بالرغم من أن عليك ارتداء أحذية ذات كعب عال. أنت صغيرة.»
«شكرا جزيلًا. هذا ما تقوله أمي أيضا.»
«والدة دانييل هفوة. اسمها راندي[26]»
«الاسم راندي، الطبيعة: شهوانية.»
«إن كنت تصدق فقد أُخبرت بهذه النكتة مرارًا. لكنها غير بعيدة عن الحقيقة.»
«التقيتها،» قال سيلي، متناولا حبة توت أخرى. «في متحف ذا ميتروبوليتان. عندما التقيتك أول مرة.» التفت إلى مارينا بنظرة عاطفية.
«أوه يوم القدر» قالت دانييل. «يبدو ذلك وكأنه منذ وقت طويل.»
«بالرغم من أنه ليس كذلك.» أجابت مارينا. «ليس منذ وقت طويل أبدا.»

طيلة بعد الزوال، كان لدانييل الإحساس الغريب المتألق بأن شيئًا سيئا سيحدث. كيف لن يفعل؟ الكثير من المشاعر كانت مكبوتة بداخلها فكان لزامًا أن – كالتخاطر، كالأشباح – أن يحرك الأثاث، الأشخاص، الأحداث. مشاعر محفزة. لكن هذا الحدس كان يخصها وحدها: كانت تشعر، ولو بشكل خافت، بأنه بالنسبة لبقية سكان المنزل (ما عدا مورّاي طبعًا، الذي احتجز نفسه بالعمل على مقال) كان هذا يوم راحة. من حين لآخر، التوى سيلي ومارينا على نفسيهما مثل أفاعٍ. قرآ، لعبا مونوبولي. شاهدا المطر. انغمسا في حوار مفكك. جاءت أنابيل وذهبت، حضّرت فطيرة تفاح، ارتدت معطفا مضادا للمطر وخفين بلاستيكين وقطفت بعض الخس من الحديقة. اجتمعوا جميعا في الغرفة الكبيرة (مجددا باستثناء مورّاي، كان لرؤيته بينهم أن تُفزعها، لم تستطع احتمال ألّا تفعل. كيف يمكن أن يكون في غرفة فوقهم مباشرة، وغير ممكن الوصول بتاتا؟) ليشاهدوا العاصفة الرعدية الزوالية الأكبر. انحنت الأشجار ضعفين. لمع زجاج العريشة. كان

26) راندي هو وصف رائج في المنطوق الشعبي للشخص الشهواني والتوّاق للجنس.

المنزل مغلقًا بإحكام – «كسفينة» قالت أنابيل. «جعلناهم يبنونه كسفينة» – حتى بدت العاصفة صامتة بغرابة، عرضٌ أبكم لأوراق الشجر المتقلبة والمطر الهاطل، لا يتخلّله إلا الرعد، الذي بدا أنه يضرب عبر الأرض ويهتز تحت أقدامهم. كان الوضع هائلًا وغير مهم في آن، فكرت دانييل، والسماء تومض. فوق كل شيء، متفجرة. كمشاعرها تجاه موراي. ربما كان هذا تأثيرها التخاطري، في كل الأحوال، بالرغم من أنه لم يكُن مباركًا، على الأقل كان مدمّرًا بشكل وحشي. وهي تفكر في هذا، انكسر غصن كبير أسفل الحديقة وسقط بالكاد مخطئًا العريشة.

ظهر موراي لاحقا فقط، كالأشعة المقتضبة التي انسلت بين غيوم المساء. وقف، السيجارة في يده، على حجر الفناء الأملس، مُمعنًا النظر في الحديقة. «يبدو أنه سيُنَادى عليّ للشواء على كل حال،» قال. «إذا سأذهب لساعة أخرى قبل ذلك. يريد جوزيف مني أن أنهي هذا المقال عن تشعبات الانسحاب من كيوطو قبل حوار بون.»

«والدك مهووس بالشواء» قال سيلي متمعّنًا عندما ذهب.

«إنه الطبخ الوحيد الذي فعله قط. وهو فخور به للغاية.»

«قد أذهب لأحصل على قيلولة» قالت دانييل مفكّرة: إمّا الآن أو أبدًا.

«لديك ساعة على الأقل.» منحتها مارينا إحدى ابتساماتها. «سآتي لأوقظك. يمكننا أن نحصل على بعض الوقت الحصري للبنات»

«تعنين أن تتحدثا عني» قال سيلي.

«في أحلامك» قبّلته مارينا على خده.

عرفت دانييل أين سيكون، في أيّ غرفة. كانت في النهاية المقابلة من الرواق لغرفتها، عند منعطف. لم يكن هنالك سبب للذهاب إلى هناك ما عداه. بلا شك، كان الباب مغلقا. وقفت دانييل خارجه، على علم بكومة السجاد تحت قدميها، تنظر إلى الغيم المندفع عبر نافذة الرواق الصغيرة

العالية. أنصتت. فكرت في أن تطرق. لكن ماذا لو كانت أنابيل هناك – كانت لتسمع أصواتًا خلف الباب، خافتة، ولو من الممكن أن يحادث نفسه، سمعته يفعلها – ماذا ستقول إذا؟ لا يمكن أن تتظاهر بأنها قد ضاعت، بعد زيارات كل تلك السنين. قد يكون عندها سؤال، لكنها لم تفعل. لو عرف بأنها في غرفتها لساعة سيأتي، أليس كذلك، ولو للحظات قصيرة؟ لكلمة بريئة، أو عناق عابر. أو لا. لأنه من الممكن أن يكون قد نسي بأنها هناك، أو أن لوجودها معنى. الرجال بارعون في مثل هذه الأمور، لطالما قالت راندي «انظري لوالدك،» اعتادت أن تقول « مقسَّم إلى أجزاء. إنهم كالأبقار بأربع معدّات. قد يبدو الأمر معقّدًا لكنه في الحقيقة علامة على نظام أكثر بدائية.»

تنهدت دانييل (بشكل مسموع، آملة، حتى وهي غير آملة) ولجأت إلى غرفتها الزرقاء الصغيرة، بأغطيتها ووسائدها ذات نقشات دي جوي، وسرير فرديّ، سجادها القماشي الأزرق تحت قدميها بدا مهترئًا أكثر من العام الماضي، الأمر برمته احتفال دافئ بعزوبيتها، بوحدتها المزعومة. كانت هنالك غرفة نوم غير مستعملة أخرى، في مقدم المنزل، الغرفة الخضراء، بسرير مزدوج، لكنهم لم يضعوها هناك أبدا. لم يبد أن للأمر معنى حتى الآن.

عندما أيقظت مارينا دانييل، كان لعابها يسيل وطرز الوسادة مطبوع على خدها. كان الجو قد انقشع والشمس المتأخرة أرسلت أشعة نور قوية فوق المرج. فتحت دانييل النافذة، وبدا الهواء مغسولا، بطريقته العابرة لمنتصف الصيف بعد عاصفة. رمت مارينا نفسها على مؤخر السرير، تلاعبت بأعمدته، بينما ناضلت دانييل للعودة إلى تأهبها.

«لماذا لا يروقك؟» سألت مارينا.

«من؟»

«دعك من هذا داني»

«يعجبني، يعجبني. أنا لا أعرفه بحق الجحيم.»

«أردتني وبشدة أن ألتقيه، والآن تتمنين لو أنك لم ترتبي للأمر.»

«هذا سخيف»

«أشعر وكأننا نبتعد عن بعضنا، أتعلمين؟»

«أنت واقعة في الحب، يا سخيفة. أنت تنسين ذلك: إنه مستهلِك. وإن ابتعدنا قليلا، حسنا، أليست هذه طبيعة الأمور؟»

«نحن نعرف بعضنا منذ أكثر من عشر سنوات.»

«انظري إلى جوليوس. هي ربما تلك المرحلة من الحياة فحسب. لعلمك. الناس يتزوجون.»

«ولكن ليس أنت.»

«ليس بعد. من يعرف، قد لا أفعل أبدا.»

«لكنك لا تحاولين حتى.»

«ما الذي يعنيه هذا؟ لم أعرف أن عليّ أن أحاول.»

«أنت تعرفين ما أقصد. أقلق من أنك منكفئة على نفسك في العمل حتى تنفلتي.»

«تعنين، أنني متزمتة بما يكفي حتى لا أقع في الحب؟»

مارينا، عاقدة الساقين، أمالت رأسها بجمال. بدت معتدة بنفسها بشكل لا يمكن تغافله. لم تتحمل دانييل الأمر. «ماذا لو أخبرتك بأنني واقعة في الحب؟»

أمسكت مارينا ركبتي دانييل بيديها الاثنتين. «عرفت ذلك. محبوبي، تعال إليّ محبوبي. من هو؟»

«هذا سخيف. تلك كانت والدتي التي كنت أنتظر اتصالها. لا، المغزى هو أن أكون واقعة في الحب – إنه غير لائق.»

«ما الذي يعنيه هذا؟»

«إنه، إنه... غير متبادَل. هذه هي الكلمة التي أريد.»

«أوه. أنا آسفة.»

«لا، لا تكوني. إنه أيضا – أعني، إنه غير لائق أيضا. من الأفضل أن

يكون غير متبادل إذًا.»

«أهو في الثامنة عشرة؟» اتّخذ صوت مارينا نبرة مرحة. «أهو أكبر؟ ليس متزوجا أليس كذلك؟»

هزت دانييل كتفيها. «لم يكن علي أن أقول أي شيء. ليس مهما.»

«طبعا هو كذلك. يمكنك دوما أن تتحدثي إلي.»

توقعت دانييل بأن مارينا متلهفة لسماع المزيد، من جهة لأنها شعرت بحزن صادق لصديقتها (لو أنها تعرف) ولأنها كانت تحب الثرثرة من جهة أخرى.

«نهاية القصة، ليس هنالك قصة. فقط لا تعتقدي بأنه لا قلب لي أو شيء من هذا القبيل. الأمر وما فيه هو أن مشاعري موجهة خطأ.»

«يبدو هذا جديًّا. سأُخرج الأمر منك، تعرفين»

«لم لا تجدين لي شخصا لائقا بدل ذلك؟»

«لأنه إن كنت مسحورة بحق، فلا شيء سينجح أبدا، أليس كذلك؟ ليس نيكي؟»

«أرجوك.» عبست دانييل. «وليس جوليوس أيضا، في حالة ما تساءلت!»

«هل أعرفه؟»

«لا أظن ذلك. لنترك الأمر جانبا، حسنٌ؟»

كانت يدا مارينا لا تزالان على ركبتي دانييل العاريتين، ضغطت عليهما قبل أن تُرخيهما.

قبل العشاء – إن كان من الممكن تسميةُ وجبةِ العطلةِ الفضوليّةِ نهاية المساءِ عشاءً: يحصل هذا التشويش في وقت الوجبات في عيد الفصح أيضًا وبشكل واضح في نهاية العام لأولئك الذين يحتفلون به، وهذا لطالما شوّش دانييل، التي كانت تعتمد على نظام غريزي صارم في انصرام أيامها – تم تقديم شامبانيا باهظة، من خلالها هُنِّئ الثنائي الجديد. احتست دانييل

كأسين بسرعة وشعرت بأنها، في طفوها الدائخ، قادرة على التعامل أفضل، على تجاهل الغرابة المحيطة. ساعدت أنابيل على إعداد المائدة خارجًا، تضمّن الأمر في البدء الكثير من المسح بمناشف الشاي. ثم، في خضم ابتعادها الذي يكاد أن يكون يأسًا، اقتربت من موراي الذي وقف يدخن بجانب الشواء.

«تبدو خبيرا في هذا،» قالت.

بالكاد نظر إليها. «أنا كذلك. لربما أخبرتك مارينا، إنها خبرتي المطبخية الوحيدة.» بدا صوته وكأنه مسجل للراديو، قوي قليلا. تساءلت عما إذا لاحظهما أحد.

«في الحقيقة لقد أخبرتني.» لم تستطع دانييل أن تفكر في أمر آخر لقوله. انتظرت مورّاي ليتطوع في قول شيء.

«من المؤسف أنك لا تدخنين،» قال أخيرا. «قالت مارينا أنك ستعارضين تدخيني قرب اللحم.»

«لا يزعجني ذلك. أجد أن المرء يمكنه التعايش مع أي شيء.» كانت تنظر إلى المشواة الآن، وليس إليه، لكنها ظنت بأن عينيه واقعتان عليها.

«هذه هي العزيمة،» قال «التعايش مع الظروف المتوفرة.»

وقفت لحظة أطول، تظاهرت بالذهاب.

«تريدكِ أن تكوني إشبينتها، أظن.»

«نعم أظن ذلك.»

«عضو فخري للأسرة.»

«لم أفكر في الأمر هكذا حقيقة.» انتظرت مجدّدًا، لكنه بدا أنه انتهى، مُنكبًّا تماما على تقليب أفخاذ الدجاج وشرائح اللحم.

عادت إلى المطبخ، بالكاد قادرة على تحريك أطرافها، منتبهة إلى أن سلوكها يعكس – يجب أن يعكس – لا مبالاة باردة. تلك كانت المعاناة المتقنة: لم يكن الذنب، كما توقعت. ولا الغرابة أيضا مع مارينا أو والدتها، بما أن تلك العلاقات بدت – كانت – ثابتة. لا، الغريب كان حبيبها، الرجل

الذي شعرت بأنها تفهمه بالكامل، مَن كانت الآن لتعترف على مضض بحبّه (كم كان هذا غبيًّا؟) الذي يبدو بغَيظٍ واستحالةٍ وحتميةٍ قادرا على إطفائها كقابس، على إنزالها إلى مملكة التافه، صديقة لعِبٍ لابنته لا يمكن إلّا التسامح معها، ومن المحبذ التهرّب منها. أرادت أنت تكرّر مداهناته بصوت عال على المائدة. صدمة الموقف. أرادت أن تذكّره، سواء أكانت عائلته هناك أم لا. أرادت. وأرادت. واحتملت رغبتها: المقعد المبلّل، الدجاج الجاف، مزيد من الشامبانيا، صداع الرأس الذي سببته الشامبانيا، الذباب الصغير، الحوار، فشله، لا، رفضه للنظر. انظر إلي، لقد سببت عاصفة رعدية برغبتي وأجلس هنا مرتجفة تحت جلدي وأنت لا تلاحظني لأنك تحاول جاهدا بألا تلاحظ زوجتك ذلك، لكن من دون جميع الناس على المائدة ليس هناك إلا أنت وأنا فقط وأنت تعلم هذا. الهواء مشحون برغبتي، إنها حرارة، ريح ساخنة، ومارينا وسيلي زائفان أمامها، أنابيل تتوقف عن الوجود، طُمست في عاصفة الحرارة، هذا ليس خيالا جامحا، ولا مخيّلتي، أستطيع أن أعرف من الطريقة التي تنظر فيها إلى شوكتك، ونظام فكك، من السيجارة السادسة، أنت تدخنني، أو ترغب في ذلك لو استطعت، لكن إلى متى سنكبح الأمر، إلى متى، حتى الانفجار؟ حتى تعود العاصفة مجددا ويصير بمقدورهم أن يعرفوا ما يحدث، ما يحدث بحقّ؟

«أنت هادئة للغاية الليلة، داني» قالت أنابيل.

«لابدّ أنها القيلولة. أنام جيّدًا هنا. أعتقد بأنني لم أستيقظ تمامًا من قيلولتي»

«قد يكون الضغط الجوي،» قال سيلي، «إنه يؤثر على بعض الناس»

«وبعض الناس يدّعون بأن الكافيين يبقيهم مستيقظين ليلا، أيضا.» قال مورّاي، مطفئا سيجارته السادسة، كالبقية، نصف مستهلكة.

رأت دانييل فجأة، من خلال ضباب أو عاصفة رغبتها، كم كان مورّاي لا يستسيغ الرجل الذي ستتزوجه ابنته. لم يكونا وحيدين على المائدة، أو في

العالم. كما هو الوضع العادي، آلمها هذا الإدراك – لم ترد أن تعترف بالعادي – وحررها.

لاحقا، لوحدها، جلست إلى المائدة وراقبت فراشات الضوء ترقص خلال المرج في الغسق، واستنشقت الهواء المبلل الأزرق. موراي، وهو يجمع ملاقط الشواء ليتم غسلها، توقف لحظة خلفها في الظلام، وضع يده كاملة على رأسها كغطاء دافئ. لم يقل شيئًا، ثم ذهب، لكنه كان كل ما كانت بحاجة إليه، نعمة.

الفصل الواحد والأربعون

الرابع من يوليو (3)

«أظنّ أن داني مغرمة بك» أخبرت مارينا لودفيك وهما يغيران ملابسهما .

«بي أنا؟»

«قالت بأنها مغرمة بشخص غير لائق. إنه حُبّ غير متبادل. ولم ترغب في إخباري بمن هو»

«ربما هو هو هي؟»

«بصدقٍ، لودو. حضر ببالي – كل حديثها عنك قبل أن نلتقي، وأرادت أن تنجز ذلك الفيلم عنك، وبعدها بدأنا في الخروج معا، ربما لم تستطع تحمل الأمر – هذا يفسر سبب تصرفاتها الغريبة.» كانت مارينا تدهن كريما بعطر الليمون على ساقيها. «أتعلم، حتى أن جوليوس أشار لهذا. سألني ما إذا كانت دانييل مغرمة بك، وضحكت. إلهي، أشعر بالأسف الشديد.»

«لماذا تشعرين بالأسف؟»

«هي، أنت تعلم، الآمال المعلقة. ما زالت تفعل، إنها مغرمة، لقد أخبرتني بذلك.»

«قد يكون اختيارًا غير لائق آخر. أنا متأكد من أن هنالك الكثير منها.»

«لكن ماذا لو كنت أنت؟»

«إذا فقد فشلت في أن تأخذ بعين الاعتبار مشاعر الشخص الذي تحبه. هي آنذاك، محبة مسكينة، وتعاطفك معها يجب أن يكون محدودًا.»

«هذا ليس لطيفا منك.»

«بصدق. إنه لمن النرجسية أن نحب جدارا ونستاء من ألا يبادلنا الحب. إنه انحراف. الحب متبادل، إنه يزهر عند التبادل. لا يمكنك امتلاك حب حقيقي من دون مقابل من العطف – وإلا، سيكون هوسا فحسب، وإسقاطًا. إنه طفولي.»

«إذا في الحقيقة، يجب أن أشعر ببعض السخط عليها، لأنها لم تنضج.»

«أمر كهذا.»

«تملك أسلوبا، أليس كذلك؟ تقلب كل شيء رأسا على عقب.»

«أملك أسلوبا، نعم.» ضحك ضحكة جافة. «صديقتك دانييل تسميها ثورتي. إنها مجرد رغبتي في أن يرى الناس الأمور بوضوح.»

«أو بطريقتك. اعتمادا على طريقة رؤيتك للأمر.»

«يعتمد الأمر دوما على ذلك. بالحديث عن الأمر، لا أظن بأن صديقتك مغرمة بي. ولست أتصرف بتواضع. قدحت علامة اهتمام طفيفة في البداية، الأمر الذي تجاهلت بنبل ولياقة...»

«لماذا؟»

«لأنها ليست النوع الذي أفضل. لأنني كنت أنتظرك. ومنذ ذلك الوقت، لا شيء، قلب صخري. إن كان هنالك أي شيء، فهي غاضبة مني.»

«الآن ذلك غير منطقي.»

«لأخذك بعيدا عنها. لا، لا أقول أي شيء غريب هنا. إنها صديقتك الحميمة، معتادة على الحصول على ولوج لا نهائي، ولنواجه الأمر، في بعض الأحيان معتادة على الحصول على حياة أكثر تنظيما منك – العمل الذي يبدو

ناجحا، الشقة. ثم فجأة، أنت لست أكثر جمالا وأكثر إثارة للاهتمام فقط، أنت مخطوبة أيضًا، وموظفة وفي مرحلة متقدمة. لا تحتاجين نصيحتها بعد الآن. لابدّ أن يكون الأمر مؤلمًا.» متّكئًا على السرير، وضع لودفيك يديه خلف رأسه. «ربما أنت مشروع حبّها غير اللائق. أفكّرت في الأمر من قبل؟ ليس جنسيًّا بالضرورة، ولو أنني لا يمكن أن أحسم في هذا. لكن في جميع الأحوال، كنت في مركز حياتها، والآن لست كذلك.»

«أكنتُ صديقة سيئة؟»

«للمرة الأولى في الذاكرة الحية، أنت تتّبعين طريقك الخاص. ليس هنالك أي سوء في هذا.»

«لقد أنقذتَ حياتي.»

«المهمة غير تامة بعد. فعلى كل حال، لا زلنا في منزل والدك.» عانقها، ربّت على ذراعها السمراء. «لكن ليس لوقت طويل، حلوتي، ليس لوقتٍ طويل.»

الفصل الثاني والأربعون

اترك الأمر

التعافي من أحداث الرابع من يوليو السيئة لجوليوس وديفِد كان بشكل ما مجهودًا مشتركًا. من جهة، روتينهما قد عاد - ساعات ديفِد الطويلة في المكتب، الاجتماعات الملتهبة في المساءات، دوّامة الصيف الاجتماعية من الكوكتيلات، العشاءات، الحفلات - ومن جهة أخرى، جوليوس، على الأقل، شعر بأن الأمور قد تغيرت. ربما بردت حماسته. أو بالأحرى، جزء منها قد فعل. لم يعد يدغدغه التوقّع نفسه، لم يعد يجد تملّك ديفِد، كقبضة عُطيل، شهوانية. شعر بدل ذلك ببعض القمع. كان كالاستيقاظ من حلم: نظر إلى السّابق واستطاع رؤية ما كان قد أحسه، لكنه لم يقدر على الشعور به مجددًا. لا يمكنه أن يمكث في المنزل إلى الأبد: بشكل ما، يجب عليه وعلى ديفِد أن يراجعا ديناميّتهما. احتاج إلى مساحة أكبر. ومع ذلك، طبعا، فكرة تواجد ديفِد مع شخص آخر روّعته، أغضبته، وفي المساءات، عندما يتأخر ديفيد ويفشل في الاتصال به، يحنق جوليوس، يشعر بالتعاسة، وعندما يطبخ، يُفسد الوجبة عمدًا. حساء محترق، هليون مرتخ، صلصات منفصلة: انظر إلى ما دفعتني لفعله.

بعد أسبوعين فقط من رحلتهما إلى سكارسدايل، في يوم جمعة، لم

يعد ديفِد إلى المنزل، ولا اتصل. كانا قد خططا للعشاء. أخذ الأمور برويّة، ثم الذهاب إلى حفلة في حانة بالحي، الفلورينتين، حوالي الحادية عشر. جوليوس، بعد بضع كؤوس نبيذ، وتعاطي بعض أسطر الكوكايين، اتصل بهاتف ديفِد المحمول وأغلق في وجه المجيب الآلي. في النهاية، بعد أكل نصف وجبة الكوري الخضراء بالبطّ التي حضّر، ورمي النصف الباقي بحقد في القمامة، اتصل جوليوس، بامتعاض كبير، بالمكتب. لكنها كانت ليلة جمعة وقد غادر الجميع. حاول الاتصال بهاتف ديفِد مرة أخرى، وأُخرى بعد ذلك. تأنق للحفلة – كانت حفلة ينظّمها أصدقاء ديفِد: نيد وتريستان، لا بد أن ديفِد سيظهر هناك – بأسلوب ناتاشا الخالص: جرّب ست أقمصة قبل أن يجد قميصا رضي عنه، قميصا يعود لديفِد، إيطاليًا وضيّقًا بخيط عابر أزرق لازورديّ، وترك الخمسة الآخرين لا مرميين على الأرض ببساطة بل مكمشين تحت قدميه. رمى مناشف على أرض الحمام، أودع حفنات كريما حلاقة هلامية، ملأى بشعيرات حلاقة، في المغسل، إلى جانب لطخات معجون أسنان ملتصقة. جرب معاطف كما جرب الأقمصة، جامعا عند ركبته فيضانًا ملتويًا من الأثواب الباهظة التي ركلها بحذاءه الأسود اللامع. بالإضافة إلى ذلك، ركل رزمة مجلات لامعة عن طاولة ديفِد الجانبية، فانزلقت، بسهولة كجبل متداع، على السجاد. فتح أدراج خزانة التزين – الخزانة الأنيقة الخالية من المقابض ذات الخطوط العصرية التي كان ديفِد مولعا بها – وتخلص من محتوياتها وترك الأدراج مفتوحة.

محصورة في غرفة النوم، كانت علامات ضيق صدره واضحة. غادر جوليوس. ديفِد، المتقلب والمنكفئ على نفسه، يستحق الأسوأ. في الوقت الذي غادر فيه جوليوس متوجها نحو الفلورينتين، على الحادي عشرة والنصف، كان ديفِد متأخّرًا ستّ ساعات غير معلنة.

لم يكن أصدقاء ديفِد بخلاء قط – كانت هنالك مشروبات مارتيني البيلفيدير على المشرب، وشراب كير ملكي لأصحاب القلوب الضعيفة، وهنالك

أوعية قريدس ضخم ورديّ لامع وصفوف عسكريّة ممتدّة لسوشي أسود وأبيض. سلّة فواكه مقطّعة بشكل فنّي على الطاولة نهاية الغرفة. حتى في العتمة الزرقاء، استطاع جوليوس أن يحزر بأن ترتيبات الزهور كانت مُكلفة. سمحت الموسيقى في البداية بالحديث، ثم، وكأن منسق الأغاني اتفق مع جوليوس على عبثية الحديث في هذه المجموعة، رفع الصوت. كان الرقص مشجعا: امرأة، غير يافعة، بلحية بيضاء وسوداء وأنف بارز، محصورة في قميص واضح الضيق، نتأت منه ذراعاها، أمسكت نيد من خصره وجرته إلى أكثر أماكن الغرفة انفتاحا، حيث قلّبته كدمية. لقد كان، تذكّر جوليوس، عيد ميلاد نيد.

بعد منتصف الليل وبضع كؤوس فودكا المارتيني بالليمون، تجول جوليوس خارجا ووقف، إلى جانب بعض المدخنين المدمنين، في زاوية الشارع. كان الحي يوم الجمعة أكثر حركة، وتدافعت المجموعات بحماس، وكأنها تتجه إلى مكان ما. صديق لديفِد، خرج الآن، لمس كتف جوليوس وسأل عنه:

«لا أعلم. ظننته سيكون هنا.»

«هذا غريب.» قال صديق ديفِد. «هذا ليس من طباعه. ديفِد دقيق المواعيد.»

أكان الأمر غير معتاد منه؟ لم يفكر جوليوس بأن غياب ديفِد قد يكون أمرًا آخر غير كونه حقيقة، لكنه توقع، إن كان قد فعل، بأن ديفِد كان مسؤولًا أكثر منه هو نفسه، حسب معايير العالم، وأنه من الغريب فعلا بأنه لم يظهر.

«أهو، مثلا، مريض؟»

«لا أظن ذلك.» هز كتفه. «أنا متأكد من أن شيئًا قد طرأ فقط.»

«ممم» الصديق – لم سيتطع جوليوس تذكر اسمه – نظر إلى جوليوس بعيني الريبة وعاد إلى الداخل. جوليوس، الذي لم يكن يدخن، أخذ سيجارة من المرأة التي تقف بجانبه (قميصها القصير الخالي من الأكمام،

شعرها الملّس، محاولتها لتكون مثليّة، بدت له محزنة) وقطع الشارع ليدخن وحده، متظاهرًا بمراقبة محتويات واجهات محلّات الأنتيك.

كان أمرا مقلقا كونه لم يفكر في احتمالية وقوع شيء سيّئ. تخيّل – ما زال يتخيل – بأن ديفِد بيساطة اشتهى تغييرا، قليلا من عدم المسؤولية. يعلم الله، كان جوليوس على علم بهذا الشعور، حتى وإن لم يكن مستعدا للتسامح معه عند الآخرين. منذ فترة، لم يكن جوليوس يشعر بغير ذلك الشعور، دُفعة مستمرة، عدم ارتياح مجلجل دغدغه منذ لحظة استيقاظه صباحًا. إن فكّر في الأمر، كان ليعتقد بأنه غير سعيد، لكنه لم يكن يستطيع تفسيره لأنه يملك، أخيرا، كل ما كان يرغب فيه. صحيح أنه بالرغم من إتقانه الآن لحلواه المنفوخة، لكنه لم يعد يطوّر فرص عظَمَته. كتب بعض المقالات منذ بداية الصيف، وترك عمولات معيّنة تنزلق من بين يديه. كان عليه أن يقوم باتصالات، أن يداهن محرّري المجلات المنتشرين حول نيويورك والبلد الذين يعتمد رزقه على لطفهم. لم يفكر في مستقبله، باستثناء مستقبله المنزلي. هو الذي كان يقرأ دوما، لم يكن يقرأ كتابا حتى.

لم يرد جوليوس مع ذلك أن يفكر، بأن ديفِد قد يكون، ولو عن غير قصد، مسؤولا عن عدم سعادته – لأنه، بينما كان يتأمل من خلال الزجاج كرسيا من حقبة العشرينات بتغليف من جلد البقر، أطلق على قلقه المادي اسم «عدم السعادة»، سامحًا للأمر في الحال لأن يكبر ويغير شكله – ولا اهتم بالتفكير في ما إذا كان ديفِد أيضا غير سعيد. إن كان هو جوليوس، غير سعيد، أكان هذا يعني أنهما معا كذلك؟ أم كان مجرد إسقاط؟ لم يبد الأمر محتملا، بشكل ما، بأن جوليوس قد يكون غير سعيد بينما ديفِد مرتاح تماما، لكن كيف ليعرف؟ أدرك بأنه توقع بأن غياب ديفِد راجع إلى الخيانة، بسبب خيانته – منذ أسابيع سابقة، مثلا، مع لويس الوسيم – لأن غيابه كان بسبب ذلك بالضبط. لكن صديق ديفِد المجهول كان على صواب: لم يعتد ديفِد على الفشل في الظهور نهائيا. بالرغم من إمكانية تعاسة جوليوس، كانت

لديه مسؤولية تجاه من يحب. ربما عليه أن يتصل بالشرطة، أو المستشفيات.

كانت الساعة توشك على الواحدة عندما أدار جوليوس المفتاح في القفل. عبقت رائحة الشقة بالبطاطا المقلية وشراب الجين. جلس ديفِد إلى الطاولة، كماه مطويان إلى أعلى، ربطة عنقه البنفسجية مرتخية ومبرقعة بصلصة الطماطم التي بدت كالدم. بدت عينا ديفِد خلف زجاج نظارته المضبّبة. وضع أمامه لُفافة ضخمة وأصابع بطاطا على ورقة شمعية منكمشة، وكأس شراب تانكيراي مع ثلج. عرف جوليوس بأنها تانكيراي لأن القنينة كانت مفتوحة وموضوعة على الطاولة، ونصف فارغة تقريبا.

«انظر ما الذي جرّته القطة إلى المنزل» قال جوليوس، يداه على خصره.

«يمكنني القول إن الأمر نفسه عنك»، لطخ ديفِد ذقنه بمحرمة متسخة .

«لقد كنت أمثّل كلينا في حفلة نيد وتريستان البغيضة» قال جوليوس. «أنت الذي كنت غائبا بلا عذر.»

«مررت بيوم عصيب.»

«حسنا، من الواضح أنه لم يكن بالسوء الذي يمكن أن يكون عليه. غير سيئ كفاية لتتصل بي وتخبرني عنه. وها أنا ذا، قلق عما إذا كانت قد دهستك سيارة.»

«غير قلق للدرجة التي تمنعك من الذهاب إلى حفلة.» قلّص ديفِد عينيه الضبابيتين «غير قلق كفاية لتحول غرفة النوم إلى مكب قمامة. أو لترتدي قميصي دون استئذان.»

«أنحن في الثامنة من العمر، حتى نكون متملّكين؟»

«لا،» قال ديفِد، بكرامة ساخرة: «نحن نستعرض حقيقة فحسب.» أخذ رشفة متيقظة من شرابه، فارعا مكعبات الثلج مع أسنانه. «ما خطب الغرفة؟»

«غير مهم الآن. لقد أعددت العشاء، لعلمك. بط بالكوري.»

«هذا مضحك. لم يكن هنالك شيء عندما وصلت إلى هنا. خرجت مجددا لأُحضر هذا.»

«لا أكاد أصدق بأننا نخوض هذا الحوار. وكأنني زوجة من الخمسينات، ولديك الحق لتغضب لأنك عندما ظهرت بعد ست ساعات متأخرا لم تجد العشاء على الطاولة؟ أهذه مزحة؟»

«كل ما قلته هو أنه لم يكن هنالك عشاء عندما وصلت. مجرد مكان يبدو كأنه كان هدف غارة من طرف لصوص، ولا جوليوس. الذي، نظرًا لما مررت به اليوم، لم يكن لطيفا.»

«تستمر في الرّغي بشأن الأمر، من المحبذ أن تقول لمَ كان يومك سيئا هكذا. هل أحرقت روزالي قهوتك؟ هل كانت الأسواق في اضطراب؟»

«لقد طُردت.» قال ديفِد بفم ممتلئ بالطعام، وظن جوليوس بأنه لم يسمع جيدا. رفع يديه مُنمًّا عن عدم فهم. أكمل ديفِد المضغ بهدوء، بلع، أخذ رشفة جين. «لقد سمعتني. لقد طُردت.»

«كيف هذا؟»

«لا ‹أنا آسف›؟»

«أنا آسف طبعا. أنت تعلم بأني كذلك. لكن ما السبب؟ أيمكننا نقْضُ ذلك؟»

«أطردوني لأنني مِثْلِيّ؟ آسف، ليس هذه المرة. طردوني لأنهم لا ينتجون أيّ مال. طردوا تسعة منا مرة واحدة.»

«كيف قرروا هذا؟ لماذا أنت؟»

«غير مهم. لا أعلم. ليست هنالك طريقة لنعرف. أكنتُ باهظًا؟ غير منتج؟ لا أظن ذلك. شخصية سيئة؟ أخبرني، لا.»

«ربما طردوك لأنك أفضل تأنُّقًا.»

«ربما.»

«أنا آسف.» عانق جوليوس ديفِد الذي كان لا يزال جالسا، من خلف. «لم تكن لدي أدنى فكرة، أيها المسكين. هذا أسوأ يوم. الأسوأ.» خطر ببال جوليوس بأنه لم يكن مسموحا له، الآن على الأقل، التساهل مع تعاسته الخاصة. فجأة، كان وقت العزم، أن يكون شجاعا. لم تكن لديه خبرة في الأمر، حتى الآن.

غمغم ديفِد شيئًا واحتسى مزيدا من الجين.

«كنت لأعرض عليك شرابا، لكنني أظنك اهتممت بنفسك بما يكفي اليوم.»

«لم أشرب كثيرا. اقتنيت هذه القنينة في طريقي إلى المنزل. أخذت جولة الخط الدائري السياحية. كانت مُهدّئة، وجميلة قليلا. ذكرتني بمتعات مانهاتن المراوغة.»

«هل أكلت شيئًا ما؟»

«الكثير من الفستق، وهذه الفطيرة. سأخلد للنوم الآن.»

«دعني أساعدك،» لكن ديفِد دفعه جانبا. «سيكون علينا الرّحيل، أتعلم،» قال، وهو يتوجه نحو بحر الملابس خلف باب غرفة النوم.

«الذهاب إلى أين؟»

«إن لم أحصل على عمل آخر حالا، سيكون علينا مغادرة هذه الشقة.» توقف، وتحدث ببطء ووضوح. «الكراء هنا باهظ الثمن. سيدة موك.»

«دعني أنظف سريعًا» أسرع جوليوس متجاوزًا رفيقه، بأطراف متمايلة، وضع الأقمصة على العلّاقات والجوارب والسراويل الداخلية والأقمصة القطنية في الأدراج، بينما كان ديفِد يراقب. رمى الأقمصة المبللة بالمناشف المبللة في سلة الملابس. وقف ديفِد نعسانًا، يفرك أنفه من حين لآخر. عندما انتهى، جذب جوليوس ديفِد إليه. «أنا جد آسف، أيها الضخم. كان عليك أن تتصل بي.»

أشاح ديفِد بيده.

«كنت في المنزل، كان عليك أن تتصل بي.»

«سأخلد للنوم، شربت الكثير من ذلك الجين.» تجشأ ديفِد بصمت وتوجه للحمام. بال والباب مفتوح.

تفاجأ جوليوس من أن ديفِد، سكرانا، كان يتحرك كرجل سمين. كان المشهد برمته كئيبا: رائحة زيت الهامبورغر والبطاطا المقلية تبعتهما إلى غرفة النوم. لم يستطع تخيل ديفِد من دون عمله. كان نوعا جديدا من العري، عريا استشفّ جوليوس إلزامية عدم العبوس نتيجة كشفه، لكنه بدل ذلك كان قد بدأ بالقلق: بشأن الفواتير، الكراء، مبالغ المطاعم والملابس. بشأن المقال غير المكتوب لذا مونيتور، بعض الآلاف من الدولارات هناك. «يمكننا دوما أن ننتقل إلى شارع بيت» قال، «نطرد قريب مارينا إن اضطررنا.»

ديفِد لم يجب. نزع سرواله، تعارك مع ربطة عنقه، تسلق إلى السرير مرتديا قميصه. وضع نظارته بحذر على الطاولة الجانبية وأدار ظهره لجوليوس الذي كان لا يزال واقفا وسط الغرفة.

«كي تمكنني مواساتك؟» سأل جوليوس. «مواساة صغيرة فقط؟»

«إن كنت تريد ذلك.» قال ديفِد، «لقد مررت بيوم سيّئ.»

الفصل الثالث والأربعون

انتهى

بعد وقت قصير من إعلان خطوبتها، وبعد وقت قصير من إصرارها على انضمام دانييل إليهم في الرابع من يوليو، ومباشرة بعد عودتها إلى نيويورك وإلى العمل، سلمت مارينا لوالدها المخطوطة المتواضعة الحجم والنهائية من كتابها، على صفحة العنوان طُبع: «أطفال الإمبراطور ليس لهم ملابس.» الصفحة التي تلت المقدمة البلهاء كانت حتما الإهداء، وهي أيضًا مُثيرة للغضب: «لوالديّ اللذين علّماني كلّ شيء،» ثم «وللودفيك، الذي علمني أكثر.» كان اندفاع مشاعر ابنته جليًا لموراي، لكنه لم يعذر الارتباك البسيط فيه. لم يبد منطقيا. كل شيء وأكثر. لم يكن للجملة معنى أبدا.

نقل قلقه بشأن الكلمات الأولى، لأنابيل ودانييل (بشكل منفصل)، مقاومته لقراءة الكتاب، لكن في قرارة نفسه، كان يعلم بأنه لم يرغب أبدًا في قراءته، كان سعيدا بقناعته بأنها لن تتمكن من إكماله. لم يستطع أن يخبر أحدا – ولا حتى لفرِدرك اليافع، الذي كانت مبادئه المجنونة والمُرهقة في تطرُّفها تمتعه، هاهو فتى صغير، يستطيع معارضة تولستوي – بأنه كان يتهرب، لبضعة أيام، من مهمة قراءة الكتاب لأنه شكّ بأنه لن يكون جيّدًا أبدا. هذا لم يكن كتخمينه بأنه سيضجره – بدا الموضوع تافها ومبهما كفاية

حتى أن مارينا كان عليها أن تنجز عملا جبارا حتى لا تضجره. بل بالأحرى، أدرك بأن قلقه حول قدرات مارينا الفكرية، حول كرامتها، تجمعت حول كومة الأوراق هذه كرائحة شديدة الرطوبة. تقليب الصفحات، قراءتها، قد تنظف الجو، لكن مع ذلك...

لأكثر من أسبوع، احتفظ موراي بالمخطوطة على الجانب الأعلى الأيسر من مكتبه، رِباطُ القرطاسيّة التي نسخت المخطوط لا يزال يُحيط بالأوراق. من حين لآخر، كان فرِدرك يسأله «هل قرأت ذاك عرضا؟» وإن لم يكن يدخن، كان موراي يشعل سيجارة مُجيبًا: «ليس تماما. مشغول جدا. كما تعلم.»

في المرة الرابعة أو الخامسة التي خاضا فيها هذا الحوار، سعل فْرِدرك قليلا ردًّا على جواب موراي وقال، «أظن بأن هذا سيعني الكثير لها.»

«سأقرأه حالما أستطيع»

«عندما كنتَ خارجا للغداء البارحة، جاءت وأطلّت عليه. لم تقل شيئًا، لكنني أعرف بأنها عرفت – أعرف بأنها تعرف – بأنه لم يُحرَّك من مكانه»

«إذًا فلنحرّك الشّيء اللعين.» وحمله موراي، مزق الرباط المطاطي، قلّب الصفحات، وحشره في الدرج السفلي. «لا يمكنني تحمل ضغط الجميع علي.» قال. «سيسبب هذا قراءة مزيفة.»

رفع فْرِدرك حاجبيه وانسحب، وهذا أيضا أغضب موراي. حاول أن يشرح لدانييل عندما كانا في شقتها وقت الغداء في اليوم الموالي. «أعلم بأن مارينا في انتظار حكمي،» قال. «لقد كانت تنتظره حياتها بأكملها، والآن، يبدو أنها لحظة الحقيقة. لا يمكنني أن أنطق كذبة– »

«ألا يمكنك حقا؟»

«ليس بشأن أمر بهذه الأهمية. ألاحظتِ بأنها لم تعطك نسخة؟ أنا والصديق الحميم فقط.»

«طبعا أعلم هذا. لكن ليس عليك أن تكون – أوّلًا، ما الذي يجعلك

تظن بأنك لن تكون فخورا؟ لقد كتبت كتابها على الأقل – لقد طال هذا طيلة حياتنا الناضجة.» مسدت دانييل كتفي موراي المتوترتين بأصابعها، ربتت عليه بكفيها الصغيرتين الباردتين. «هذا بنفسه – حسنا. حتى إن كانت لديك تحفظات، ستكون لديك إطراءات أيضا، وآنذاك، أراهن أنه، من دون الكذب أبدا، ستكون قادرا، أنت تعرف، على التأكيد على الجانب الإيجابي. إنها تريد سماع نقدك بحق، لا إطراءك فقط.»

عبس موراي.

«حسنا، في الغالب تريد إطراءات. لكن ليس إطراءات فقط، إنها أكبر من هذا.»

صمتا لوهلة، وتسرب زعيق منتصف النهار وضجيجه إلى الغرفة. بدت لوحات روثكو لموراي وكأنها تغلق عينيها.

«سأقول هذا ولن أكرره أبدا. ابنتي الوحيدة قد تبعت خطواتي، ليس هنالك مداهنة بخصوص هذا، وكتبت كتابا. لكن مجددا، كتبت ابنتي كتابًا عن ملابس الأطفال. كتابًا. عن ملابس الأطفال.»

«دعك من هذا. إنه عن رمزية ملابس الأطفال، كيف تعكس ثقافتنا. ليس فقط –»

«إنه كتاب عن ملابس الأطفال.» تنهّد. «وهذا يعني أنّ الخطوات التي تبعَتها صغيرة بشكل غريب وغير متوقّعة، أو أنها على الأقل تراها صغيرة، في جميع الأحوال، لقد فشلت بشكل كبير، على جميع الجبهات. أو أن هذا يعني بأن قدميها غير كبيرتين.»

«أمن اللازم أن يتعلق هذا بك، حبيبي؟»

«أقدامها الصغيرة لا تعنيني. ومع ذلك ليس بوسعها إلّا أن تخيّب الآمال.» توقف. «لا يجب أن أقول هذه الأمور لك. أنت صديقتها المفضلة. لا تريدين أن تعرفي بأن والدها العجوز الفظ يظن بأن كتابها قمامة.»

«لم تقرأه بعد. هل تجاوزت صفحة العنوان؟»

«الإهداء. إلى والديّ – هذا أنا – والحبيب. أو عليّ أن أقول الخطيب.»

«هل أنت قلق من أنه ربما قد خلق تغييرًا ما؟»

«في الكتاب أم الفتاة؟»

«كليهما، حقيقة. أنا أتساءل.»

تنهد موراي مجددا. «كيف يمكن للمرء أن يعرف؟ بشأن الكتاب.»

«لقد حثها على إتمامه. منحه العنوان. هي أخبرتني. أظن بأنه قرأه طيلة الكتابة.»

«لكنه لم يكتبه.»

«ألم يفعل؟ بمعناه الضيق لم يفعل لكن ...»» هزت دانييل كتفيها.

«تعتقدين بأنه شخصية سفينغالي[27] مبعوثة إلى الحياة.»

«أظنه نابوليون. وأظن بأنه عدوك. وأظن بأن مارينا هي حصان طروادة خاصته.»

«أكملي رجاء، صغيرتي. هذا الخلط اللذيذ لشخوص عسكرية. أنحن في حرب؟ لم أكن مدركا.»

«يريد شيئًا منك. لقد كان يتوق للقائك. أحب فكرة مارينا لأنها ابنتك، على الأقل جزئيا.»

«إذا فأنت تظنين بأن الحقيقة هي أنه يريد أن ينام معي.»

«لا أعلم ما إذا كان يريد إخضاعك وتحويلك، أو تحطيمك، لكن بطريقة مبهمة، أظن أن الأمر يدور حولك في النهاية. وليس مارينا.»

«أظنك قلت بأن الأمر لا يتعلق بي. كنت مصرة على ذلك.»

«لا تسخر مني.»

«لا أسخر منك، أبعد من ذلك.»

«لا ترى الخطر أليس كذلك؟»

«أي خطر من الممكن أن يكون؟ أو، صوغيها بطريقة أخرى: ما الذي

27) شخصية خيالية من رواية جورج دو موريي Tribly

يمكن أن يكون أكثر خطرا من هنا؟» أشار إلى السرير، وهما فيه، أشعة الصيف الساطعة عبر النافذة، ترسم شرائط ذهبية شاسعة على الأرض.

«انس الأمر إذا. لا تقل بأني لم أحذرك.»

«عندما تسقط السماء، أيتها الدجاجة الصغيرة؟»

ارتدت دانييل قميصا، عقدت ذراعيها «عليك أن تقرأ الكتاب.» قالت. «في أقرب وقت.»

إذا فموراي، بعد يومين، قرأ الكتاب. أخذه خارج الشقة في كيس تسوق بلاستيكي وأجلس نفسه في حانة بشارع أمستردام، بشرائح سمك وبطاطا وكأس ويسكي ومكث طيلة المساء في مخدعه المظلم الدبق حتى بلغ منتصفه، ثم جلس مساء اليوم الموالي حتى قلب الصفحة الأخيرة. مشاعره، وهو يجمع الصفحات معا، لف رباطهما المطاطي، ولفهما بالبلاستيك، كانت أقرب إلى الغضب، ولو أنها لم تكن مدعاة للغضب. لم يستطع فصل نفسه، لم يستطع أن يعرف تماما ما إذا كان سيجد الكتاب سيئا لو لم يتوقع بأنه سيكون كذلك. في مواقف معينة، أُعجب بسهولته، تلاعبها بالكلمات، وفكر بأنها تقدر على الكتابة حقا، يمكنها حتى أن تجد الاستعارة المناسبة من دون البحث مطولا. لكن هذا لم يكن هنا أو هناك في ضوء المحتوى. الكثير من الرغي الحلو، آراء مكررة ملتوية حول حبل من الحقائق غير معروفة، عن حجم سوق ملابس الأطفال في أمريكا الشمالية، أو حول أي عمر يرتدي فيه الأطفال فساتينهم القصيرة مقابل العمر الذي يمارسون فيه الجنس لأول مرة، أو القمامة التافهة، مدخل سوسيولوجي تافه، حول اختراع الطفولة في القرن التاسع عشر (كيف أنه قبل ذلك كانوا مجرد كبار مصغرين، كما تكشف البورتريهات) وكيف أننا الآن، كأُمّة، لا نريد أن ننضج أبدا. كان هذا تماما ما أراد أن يصرخ به لابنته: انضجي، انضجي. كانت هنالك مواضيع نهب الرأسمالية المتفشية، الأعمال الوحشية في البوسنة ورواندا، جبال الجليد الذائبة، مواضيع ناضجة يلتزم بها الكاتب: فيما ابنته منشغلة بالتحقيق في

ثمن معاطف الفرو في متاجر بيست وشركائه. وجد الكتاب بأكمله كصندوق هدايا مغلف بعناية، كفيض من الورق الأنيق والشرائط الذي عندما يُفتح، نجده فارغا. ربما غير فارغ تماما: بعض قطع الرّخام اللامعة الواهية الملفوفة أسفل الصندوق. هذا هو التشبيه الذي أعده لأنابيل، لدانييل، لفْرِدرك، إن كان مهتما.

لمارينا، احتاج لمقاربة ذكية. الثناء – عليه أن يبدأ بالثناء. لقد درّس بما فيه الكفاية ليفهم هذا. ومن ثم، بشكل مُحتال، الحقيقة. لم يستطع تجنب إخبارها بالحقيقة الكاملة، التي كانت ألّا تنشر الكتاب أبدًا. لم تكن هنالك طريقة ملطفة لتغليف وَقْع هذا، لكنه بشكل ما، يجب أن يخبرها بطريقة مناسبة حتى تأخذ برأيه. تدين لنفسها أكثر من هذا –هذه هي المقاربة. كانت قادرة على ما هو أكثر. ينتظرها مستقبل زاهر (ربما كانت هذه مبالغة – لقد كانت بعد كل شيء في الثلاثين من عمرها بلا كثير من الإنجازات لعرضها) فليس عليها تقويض سمعتها (غير الموجودة بعد) لأجل بعض الاهتمام فحسب. حالما يُنشر كتاب، كان سيخبرها، سيظل دوما الكتاب الأول.

أو الأخير. من المستحيل ألا يفكر، في المخدع، في الحانة، بتلك اللحظات قبل أن تعد النقود ويستلم المال، من المستحيل ألا يتذكر مخطوطته المخبأة، كتاب مشابه كما رآه، يسير على الخط الفاصل بين الجد والشهرة. أكثر نجاحا، إن كان محظوظا. لكنه يواجه بعض المخاطر نفسها. لن يكون هنالك شخص ليخبره بألا ينشره، لا قارئ يمكن الاعتماد على صراحته. بهذه الطريقة، واسى نفسه على الحقيقة القاسية التي يجب عليه إيصالها، كانت مارينا محظوظة بامتلاكها لقارئ يحبها، ويهتم كثيرا.

اتصل بها عند سيلي. كانت دوما عند سيلي الآن، واكتشف موراي بأنه قد اشتاق إليها، اهتماماتها الصغيرة، رائحة استيقاظها الحلوة. اشتاق لبعض الإحساس بالقلق الذي كانت تحمله معها، شعور بأنه كان ملزمًا بالارتقاء إلى معاييرها، يجب أن يكون الأسطورة. اكتسب هذا قليلا من دانييل، هذا

التملق الصامت والمميز، لكن مع دانييل كان الأمر مختلفا. دانييل في النهاية، غير دائمة، ليست العائلة. اتصل بمارينا عند سيلي ودعاها للغداء معه. حجز في مطعم سان دومينيكو، حيث أخذها الناشر الفضولي والشبق كل تلك السنوات التي مضت. في الصباح وعلى غير عادته حلق قبل الظهر، وكان حذرا من تشعيث شعره. سأل أنابيل عما يجب عليه أن يرتديه، واختارت لأجله معطفا وقميصا، كلاهما، في وقت مضى، هدية من مارينا له. (لا داعي للإشارة بأنه من دون أنابيل، ما كان ليتذكر هذا.) قلقت أنابيل من أنه سيُغضب مارينا، لكنه وعدها بأن يكون حذرا.

«لم تكن يومًا ديبلوماسيًا،» قالت أنابيل. «أتريدني أن أرافقك؟»

«ستشك في شيء ما، » قال، وضحك، لكنه في سيارة الأجرة، يداه كانتا ترتجفان قليلا. دانييل أيضا، جهزته: «رأيك يعني كل شيء لها،» قالت. «كن حذرا.»

«إن كان هذا صحيحا،» أجاب، «إذا فلن تتزوج ذلك الخطيب. لم تكن لتقول بأنه علّمها أكثر من كل شيء.»

«فتى صغير نكدي» قالت. «حاول أن تكون أبًا جيّدًا كما كنت قارئًا جيدًا.»

«سحقًا» قال لنفسه، مدخنا السيجارة الأخيرة قبل أن يقطع العتبة. مارينا كانت هناك سلفا، ولو أنها لم تره بعد. شعرها الأسود منسدل على وجهها وهي تقرأ لائحة الأطعمة. حتى من بعيد، عبر الزجاج، كان معجبا بتقاسيم ظهرها، أناقة ذراعها العارية الرفيعة على الطاولة. كانت، بلا شك، أحبَّ للتأمل من دانييل. أقل إثارة، ربما، لكن محبوبة. ما زال من الصعب التفكير بأن هذه البجعة السوداء كانت من صنعه.

وقفت عندما اقترب، وابتسمت ابتسامتها الكبيرة الخرقاء. «هل فكرت يوما، أبي، بأنني سآتي من مكتبي للقائك على الغداء؟ هل فكرت يوما بأنه سيكون لدي عمل؟»

«وكتاب، أيضا.» عانقها. «لقد نجحتِ.»

نظرتها المواربة كانت متواضعة، عرفه تواضُعًا زائفا لأنها كانت مثله، وتعاسَةُ ذلك التواضع الزائف هو أصعب شيء يمكن تحمله. قد يسهُل عليه أن يجعلها تغضب منه – تلوّح بالأطباق، حتى– من أن يشهد – أن يسبّب – تجريد دفاعاتها الحذرة.

لكنها كانت مسألة مبادئ، ومسؤولية أبوية، وسيقوم بها. بعد حديث حول ذا مونيتور، بعد بعض النقاش – السطحي – عن خطط الزفاف، بعد طلب المشروب الأول، قال «لقد قرأت كتابك.» توقف، استقامت، يعرف بأنها تفكر في أن توقفه قد طال، وهذا نذير شؤم. أراد أن يطمئنها، لكن لم يستطع. «هنالك أمور رائعة فيه،» قال «تكتبين بشكل جميل.»

«لكن؟» كانت ابتسامتها عريضة، وضيقة.» هنالك دوما ‹لكن›.»

«أنت على حق، هنالك دوما ‹لكن›. لأنني أظن بأنني قد ربيت فتاة تود أن تعرف الحقيقة.»

«أريد أن أعرف رأيك، نعم. يعني لي هذا الكثير.»

وهكذا أخبرها. حاول أن يبسط رأيه ما أمكن، لكن مجددا، ما كان مُهمًّا هو ألا تغادر مع انطباع شيّئ دون بعض التّرقيع...

«أتخبرني بأن عليّ ألا أنشر كتابي؟»

«أنا أقترح بأن بعض المراجعة لجعل فصل أو فصلين يستقلان وحدهما، يظهران في المجلات، قد تكون ذات جدوى أكبر وتبلّغ بشكل مقتضب ما تريدين قوله.»

«أنت تخبرني بأن عليّ ألا أنشر كتابي.»

أخذ موراي نفسا عميقا. «أنا أتحدث بصراحة معك لأنك ابنتي الوحيدة المحبوبة. إنه من الواضح لي بأنه لا يوجد كتاب في كتابك.»

«ما الذي يعنيه هذا؟»

«اعتبريني قديما، لكن في عالمي، كتاب – ليس فقط اعتمادًا على

الأشجار التي قُطعت لإنتاجه بل لأسباب عدة أخرى- يجب أن يبرر وجوده. يجب أن يكون له سبب للوجود. أنا فقط لا أرى واحدا هنا. أنا آسف.»

«أنت تقول بأنك تعتقد بأن محرري سيرفضه؟»

«لا، طبعا لا. لن يتردد.»

بدت مرتاحة لوهلة.

«أقول بأنه بالرغم من أنهم سيطبعونه بكل فرح، أعتقد بأن عليك إيجاد القوة الداخلية لمقاومة الإغراء. لا أظن بأنه يجب عليك السماح لهذا الكتاب بأن ينشر.»

«لأنك تظن بأنه غير ذي معنى؟»

رفع مورّاي كتفيه، مدد شفته السفلى. «الأمر واضح.» كان يتوق لسيجارة، لكنه ارتشف شرابه بدل ذلك. كانت وجبتاهما أمامهما، بالكاد مأكولة. وكأن الطعام، المطعم، قد سُحب بعيدا وهما يخوضان حوارهما في الفراغ.

لم ترفع مارينا صوتها. لكن الأصوات خرجت مخنوقة من فمها « إذا كنت تظن بأن المشروع سخيف، لِمَ لَمْ تقل هذا من قبل؟ كانت لديك سبع سنوات، أبي. إنه وقت طويل.»

تنهد موراي. كانت هنالك أجوبة عدّة لهذا، لا واحدة منها مُطرِية. ما بدا تحدّيًا صغيرا وغير محرج لفتاة في الثالثة والعشرين لكن لم يعد مناسبا لبالغة في الثلاثين. لقد توقف عن الإيمان منذ مدة بأنها ستكمله ولهذا لم يقلق بشأن عبثيته: لقد رأى المشروع كرمز بيكيتي لضيق مارينا الحتمي والأبديّ. لم يكن ليعرف حتى قرأ المخطوطة كم كان ليكون سخيفا كليّة. لم يحكم على الموضوع (ليس كلية) لكن على تناولها له. لكن ما قاله هو «لم تسألي قط عن رأيي في المشروع. لكنك سألت عن رأيي في الكتاب.»

مارينا، شاخصة إلى الأسفل – لا تواضعا زائفا الآن – هزّت رأسها. « فهمت،» قالت.

« لا تبك، ابنتي العزيزة. أرجوك لا تبك.»

«لست أبكي.» نظرت إليه مباشرة في عينيه، ولم يستطع أن يفهم تعابيرها تماما. «إنه فقط جد مثير للاهتمام بالنسبة لي، أبي.»

«ما هو؟»

«حذّرني لودو من أنك ستكون عدائيًا. كل هذا الوقت، قال بأنك لا تريدني فعلا أن أنجح في كتابتي، بأنك تريدني أن أكون ظلك. أخبرته بأن هذا سخيف. إنه جد مثير للاهتمام.»

«إنه حقا سخيف. لا أحد يريدك أن تنجحي أكثر مني.» راقب موراي بينما مارينا، بتركيز عميق، كانت تأكل. لم ترفع نظرها. في النهاية قال، «أكنت تريدينني أن أكذب؟ أكان هذا ليكون الأب الذي تحترمينه؟»

«آه، الاحترام.» قالت، والآن هنالك مرارة حتما في صوتها. بدا لموراي بأن للصوت لون: مُخْضَرّ. «كيف لي أن أنسى كلمة سر أسرة ثوايت؟ باستثناء أنه من غير الواضح لي، أبي، بأنك تَكِنّ الاحترام لأيّ كان. لا أظن بأنك تفعل.»

«أنت غاضبة.»

«طبعا أنا غاضبة. لمَ لا أكون؟»

«لست أُملي عليك ما تفعلين، أنا فقط أُخبرك بما كنت لأفعل. فقط.»

«لقد وضّحتَ نقطتك. أيمكننا أن نتحدث عن أمر آخر.»

تحملا صمتا مرهقا ومطولا، خلاله عرف موراي بأن كليهما يحارب رغبته في الحديث. ارتفعت همهمات الحوارات المحيطة مسموعة مجددا حولهما. أسقط نادل شوكة. هذا كان فحوى وجود المطاعم: القمع العمومي لمشاعر قوية. سألها موراي مجددا، بتدقيق أكبر، عن ذا مونيتور وتقدّمها، وبكلمات مقتضبة، أقرب إلى الهمس، أجابته. هكذا جرًّا نفسهما للقهوة، وخلالها. لم يكونا ليُشاهدا وهما يتناقشان، وكلاهما على خطأ ربما، كانا مدركين مجددا بأنهما مراقبان. مذيع برنامج إذاعي، رجل وسيم وغير مهم في

أربعينياته بصوت حاد كسكين زبدة وقميص بلون البحر الأطلسي، توقف بمحاذاة الطاولة ليحيّيهما. وضعَ راحة يده على كتف موراي، حدق بصراحة في مارينا، وبدا متحمسا لمعرفة أنها ابنته بدل أن تكون تلميذته، حتما لأن هذا، في عالم غريب ما، منحه أملا. مجاملاته المتمايلة وابتسامته فَلَحَتْ إلى حد ما في التخفيف من الحدة: مارينا لم تستطع مقاومة الابتسام لموراي بعد أن غادر الرجل الذي كان اسمه، لمتعتهما المشتركة، باز.

الفصل الرابع والأربعون

غريب

«الأمر لا يفاجئني، عليّ أن أقول. أخشى من أنه لا يفاجئني أبدا.»

بعد عودتها من الغداء، قميصها المموج بلا أكمام وذابل بفعل البؤس والحر، انغلقت على نفسها في مكتب لودفيك منتظرة عودته. حافية القدمين، ممددة على الأريكة الجلدية، فكرت في البكاء، لكنها قررت أن تحتفظ بذلك حتى يدفعها تنفيسها الحتمي عن سخطها لذلك. لم تحتج إلى الدموع لتعبر عن بؤسها لنفسها.

عندما جاء لودفيك أخيرا من غدائه المكلف كذلك – شيء بخصوص قسم التسويق والمسوّقين: أرادوا تنظيم مموّل شريك لحفلة الغداء – شراب مجاني مقابل إشارة في الدعوات – أخبرته مارينا بما قاله والدها. هنا حيث ادعى بأنه غير متفاجئ.

«ما الذي أخبرتك به أنا عن الكتاب؟»

«قلت بأنه يروق لك.»

«أكثر من ذلك. قلت بأنه عبقري. سيحقق نجاحا. صدقيني. والدك قد ضاعت بوصلته تماما.»

«لم يقل بأنه غير جيد. قال بأن عليّ ألا أنشره. لودو: لقد قال بأنه

تافه.»

«كم مرة عليّ أن أخبرك بأن حس والدك بأهميته الخاصة متعلق عميقا بأن يكبحك؟ سيفعل أي شيء لألّا يشعر كشيء قديم ويستغلك – أو في هذه الحالة – يعنفك – إنها ضرورة صغيرة في مشروعه.»

«تجعل الأمر يبدو وكأنه شرير عمدًا.»

«لا أقصد ذلك» عانقها وأدارت أنفها إلى عنقه الرفيع، وضع مريح وغريب في آن. شيء ما كان منحرفا في انحناءة ظهرها. «لا يعرف ما يفعل. يظن بأن نيته حسنة. لكنه شخص غاضب وعدائي.»

«لا أصدق–»

«أنا جاد. عليك أن تنفصلي عنه. عليك أن تتجاهلي هراءه – لأن ذلك هو ما عليه الأمر»

لامست مارينا عنق لودفيك بأنفها. كان يحمل رائحة المصبغة، لقد أرسل أقمصته للتنظيف.

«أتعدينني بهذا؟» قال.

«ماذا؟»

«بأنك ستنفصلين عنه.»

«لا أعلم حتى ما يعنيه هذا.»

«يعني بأن تعترفي بالحقيقة بشأنه. بأن تري بأنه ليس إلها أسطوريا عظيما، بل صحفيا متوسطا باعتداد معظّم وغريب بنفسه.» توقف لودو للتأكيد. «كتابك هو أهم كتاب أفكار وبحث من أي شيء أنتجه هو منذ أكثر من عشرين عاما.»

«حقّا لودو» أخذت مارينا نفسا عميقا، وحدّق أحدهما إلى الآخر في صمت. في النهاية نطقت «لا يجب على هذا أن يكون عذرًا لمهاجمة والدي. الأمر لا يخصه. لا أظن ذلك. إنه بشأن كتابي.»

«بالفعل تمامًا. وعليك أن تتعلمي تسمية الأشياء بمسمياتها.» الأمر

الذي أصرت مارينا بارتباك ما، بأنها ستفعل.

لاحقا، في حصة اليوغا، عندما حل وقت وضعية الشافاسانا، وضعية الجسد، وجدت مارينا نفسها تبكي أخيرا. انحدرت الدموع من زوايا عينيها المغلقتين وتدحرجت ساخنة إلى شعرها قرب أذنيها. بكت في صمت، شاكرة الأضواء الخافتة، الهمهمة الناعمة لصوت مدربها وهو يقود المجموعة عبر الاسترخاء. الحزن الذي شعرت به مارينا كان عواءً داخليا، وكأن عضوا من الأعضاء قد استؤصل منها. أهذا ما يعنيه النضوج، هذه الوحدة الواسعة؟ وكغضبها في المطعم – ذلك المكان الداكن الجميل الذي فَسَد في عينيها إلى الأبد – استطاعت أن تتحكم بشعورها، أن تدفعه إلى جهة واحدة، كما استطاعت أن تمسح الدموع قبل إنارة الأضواء، لكنها لم تكن تعرف إن كانت قوته ستهدأ يوما.

«كان الأمر سيئا داني،» قالت تلك الليلة على الهاتف. جلست على أرض المطبخ، قرب باب خدمة الشقة، بركبتيها إلى صدرها. هز لودفيك رأسه منزعجا وحمل كأس نبيذ وذهب لمشاهدة السي إن إن.

«ما الذي قاله؟» بدت دانييل كأنها تأكل شيئًا وهي تستمع إلى حكي مارينا حول الغداء. حاولت مارينا ألا تسمح لهذا بإزعاجها. ذكرها الأمر بحنقها عندما كانت تسمع تغير تنفس أبيها فتعلم بأنه يدخن وهو يتحدث على الهاتف. كانت هذه تشويشات أنانية: لصديقتها حتما القدرة على أن تستمع وتستمع فقط أثناء المدة القصيرة التي احتاجتها فيها مارينا.

«أنا جد آسفة،» قالت دانييل. «لا أكاد أصدق بأنه قد يفعل هذا.»

«قد يفعل، فقط.»

«تعلمين ما أقصد. أصدقك لكنه يبدو غير قابل للتصديق.»

«أعلم ذلك.»

«ما الذي ستفعلينه الآن؟»

«ما الذي تعنينه؟ سأرسل كتابي لمحرّري وهو من سيقرّر.»

«لمَ تظنين بأنه قال ذلك؟»

«لا أعلم، داني. لأنه حقير منكفئ على نفسه، هذا هو السبب. لأنه ليس ذلك النوع من الكتب التي قد يكتبها هو وبالتالي لا يرى جدوى منها.» تنهدت. «دعينا لا نتحدث عن هذا بعد الآن.»

«لكن أنت لا – أعني، أعلم بأنك غاضبة، لكن ألا تظنين بأنه أراد المساعدة؟»

«ما الذي يعنيه هذا؟»

«لا شيء. الأمر محزن. أنت وهو كنتما دوما قريبين.»

شخرت مارينا بأنفها. «ربما كان قُربًا زائفًا» قالت، مستشعرة مجدّدًا ولوهلة بالفراغ في صدرها. «يشير لودفيك إلى أنّ الجميع يفقدون الوهم المتعلق بوالديهم في وقت مبكر، لكن لأن المجتمع – أو الجزء الذي يعنينا على الأقل – يتفق مع أوهامي الأبوية، كنت قادرة على التعلق بها مُدّة أطول.»

«تلك فكرة.»

«ما الذي تعتقدينه؟»

«لا أعلم، ممم... أنا أتساءل فقط ما إذا كنت قد سمعت خطأ، أو أسأت الفهم أو ... لا أعلم. والدك يعشقك. لن يؤذيك عن عمد أبدا.»

«أنت من اعتدت معاكستي بشأن عبادتي له. ليس إلها، كنت تقولين.»

«لكنه رجل ذكي، يحمل أفضل مصالحك بداخله.»

«لا أظن بأن الأمر بهذه السهولة، في الحقيقة. أرى الأمور بشكل أوضح الآن.»

«هل أنت متأكدة؟»

«يجعلني الأمر أتساءل بشأن الزفاف. حول إقامته في ستوكبريدج. أعني، ربما علينا أن نختار مطعما هنا في المدينة وننتهي منه.»

«كيف هذا؟»

«هل أريده فعلا أن يقدمني للزواج، على ملكيته الخاصة؟ أتفهمين ما أقول؟ لست نسوية مجنونة، لكن في هذه الظروف...»

«لا أعلم،» ضحكت دانييل. «ربما تريدينه بالضبط أن يزوّجك.»

«هذا ليس مضحكا. لست كتابا قديما، أتعلمين.»

«متى أستطيع قراءة الكتاب، بالحديث عن هذا؟»

«قريبا.» تنازعت مارينا رغبتان، أرادتها ولم ترد لها أن تقرأ الكتاب في آن. أو، بصيغة أخرى، اهتمت ولم تهتم برأي دانييل. «عند جهوزه»

بعد مهلة، قالت دانييل، «أنا جد فخورة بك، تعلمين هذا. لقد نجحت.»

«لماذا أشعر بالتعاسة إذا؟»

«ليس اكتئاب ما بعد الحفل، كما في الجامعة،» قالت دانييل، «بل الأمر الحقيقي، ما بعد الولادة، الأمر الطبيعي.»

«لا شيء من هذا طبيعي،» قالت مارينا. «هذا أغرب وقت في حياتي حتى الآن.»

«غريب بشكل جيد، أم بشكل سيئ؟»

«غريب فقط.»

الفصل الخامس والأربعون

«موراي ثوايت: ملف»

بقلم فْرِدرك تاب.

أثبت المقال بأنه أكثر خداعا مما تصوره بوتي. كان مهووسا به: كل مساء لمدة أسبوعين، بعد مغادرته منزل أسرة ثوايت لأجل الرحلة الطويلة فوق الأرض نحو شارع بيت، وجد نفسه يفكر في أحداث وحوارات اليوم، متسائلا عما إذا كان عليه تنقيح مقاله في ضوء من اللطف أم القسوة. كتب المقال، باليد، عشرات المرات، منكفئا على الطاولة في شقة شارع بيت، عاري الصدر غالبا، دوما نصف متوقع لعودة ظهور جوليوس. لم يفكر في احتمالية نشره – مهما عناه هذا – لكنه ركز بدل ذلك على حقيقته. إن استطاع جعله حقيقيا كلية، إذا فستفرض قوته نشره: كما اعتادت أمه أن تقول دوما: الحقيقة ستظهر.

موراي ثوايتِ الذي أَمِلَ بوتي أنّه قد رسَمَه بدقّة في مقاله، كان معقّدًا جدًّا – لكنه وصل إلى مرحلة لم يعد عندها واثقًا من شيء. كان يعلم مثلا، بأن تورط موراي مع دانييل (لم يستطع فعليا تخيلهما ينامان معا، ولو أنه قد حاول، ومن يعلم إن كانت علاقة جسدية فعلية، وفي ماذا يهم هذا التفصيل؟ كانا متورطين، بغضِّ النظر، في تواصل حميمي غير لائق.) قد لونت مشاعره، ولم يستطع بوتي أن يحزر ما إذا كانت حيرته الأخلاقية قد غمرت كتابته.

عندما تأخر موراي في قراءة مخطوط مارينا – وابنته الوحيدة قد كتبت كتابًا – شعر بوتي بالغضب تجاه خاله طيلة الأسبوع، لكن بعد ذلك، عندما تطرق فعلًا لعملها، ألغى موراي ببساطة كل مواعيده حتى يكرس نفسه كليا له، الأمر الذي أرجع بعض الاحترام عند بوتي. ثم كانت هناك ردة فعل موراي، التي كان لبوتي رأيان بشأنها: أراد النجاح فقط لمارينا، لكنه شك أيضا بأن موراي لم يكن يبالغ عندما وصف الكتاب بالسخيف (كان موضوعا سخيفا، على كل حال) شك أيضا بأن لودفيك سيلي قد دعم حبيبته زورًا، وربما كانت له يد في تلطيخ المخطوطة أيضا.

عرف بوتي بأن الأمر غير منطقي، لكنه كان يميل إلى لوم لودفيك سيلي في أمور عدة – أكثر حتى من موراي ثوايت. الخال موراي، بعد كل شيء، دفع لبوتي مرات عدّة لم يعمل فيها، ووفر له نسخ مراجعات من كتب، وحتى – أوه المشروع المتخلى عنه منذ مدة – عرض أن يقرأ مقالاته ذاتية التعلم، إن وُجدت أيٌّ منها.

لكن الكتابة عن موراي، مرارا وتكرارا، صارت مشروع بوتي الأكثر استهلاكا. لم يكن هنالك وقت لكتب المكتبة السمينة ذات العناوين المؤنّبة، ناهيك عن مجلدات موسيل المستبدة التي تحدق فيه من رفّ كتب جوليوس. صار يفكر في موراي، كفكرة بدل أن يكون رجلا، وأحيانا كان الرجل يفاجئه، كشيء منسي ومعاد اكتشافه: رائحته، صدى صوته على الهاتف.

مع نهاية يوليو، خلُص إلى أن الكتابة عن موراي، بكل ضبابيتها، حلت محل الرجل في الغرفة، صارت أقوى منه. حان الوقت، أدرك بوتي، لتركه يذهب، لإرسال موراي هذا للعالم. شعر بحتمية الصدق، الصدق كليا، وهو يتخذ هذه الخطوة. لم يرد أن يُشعِر أي أحد بأنه كان منافقا أو مخادعا. يجب بالتحديد أن يتجاوز نواقص خاله. طبع النسخة الأخيرة من مقاله على حاسوبه، في شقة جوليوس، وأرسلها لنفسه، حتى يقدر على طبعها من كشك كينكو. بدا الأمر هكذا أكثر صدقا، مثلا، أن يطبعها في كينكو

بدل شقة الأسرة، بينما قد يرضون عن محتواها: لن يستخدم طابعتهم، كهرباءهم، ورقهم. ثم حضَّر ثلاث نسخ، ثم سامحا لنفسه ببعض التفاخر، ربطهم بأغلفة بلاستيكية، واحدة حمراء، واحدة خضراء عسكرية، وواحدة سوداء. كانت الحمراء لمارينا، لأنه أرادها أن تلاحظها، تلاحظه. الخضراء كانت لوالدته، لأنها بدت اللون الآمن، إعلانًا عن جدية محاولته. وكانت السوداء لموراي (ولأنابيل، طبعا، إن اختار مشاركتها) لأنه أراد، من بين جميع الأشياء، أن يكون مباشرا، كان مُهمًّا أن يعرف موراي ما كان بوتي يفعل. بدا الأسود تعيسا بشكل مناسب: عبّر عن الألم الذي كشف به عن ضربته.

للغرابة، سيتأمل لاحقا، لم يفكر بوتي في أن هذه الخطوة ستفقده عمله، وطبعا، علاقاته العائلية. لم يكن ليستطيع القول ما الذي فكر في أنه قد يحدث، لأنه لم يُضِع الوقت في تخيل النتائج. قام بما كان عليه أن يقوم به.

بفضول، اتصلت أمه أوّلًا. أرسل لها المقال بالبريد السريع، وهي، متفاجئة حتما من استعجال الأمر، قرأته دفعة واحدة. اتصلت به عند جوليوس، مساء. وجدته مستلقيا على ظهره فوق الأريكة.

«ماذا حدث لك بحق الجحيم، بوتي؟» سألت

«ما الذي تعنينه؟»

«حسنا، لم أقرأ كتاب موراي غير المنشور، لكنني أتوقع بأنه لم يكن ليريدني أن أفعل. هذا ليس ما وظفك لأجله، لا أظن: لعَضّ اليد التي أطعمتك. هل جننت بوتي؟ ما الذي حدث لك بحق الجحيم؟»

«لا شيء، أمي.» شرح بأن مارينا طلبت منه كشفا ثقافيا، وهذا ما كان عليه الأمر. لم يشرح بأنه لا يزال سرا يُخفي أمل كون هذا المقال قد يجعل مارينا تحبه. بالرغم من أنه كان يعرف أكثر مما كان يأمل، كان متأكدا، في خياله، بأنه إن نظرت تجاهه فقط، إن فهمت عقله، فلسوف تحبّه دون شكّ.

«سأتصل بخالك؟ هل رأى هذا؟»

«لقد أعطيته له. أشك في أنه قد قرأه. لقد أخذ وقتا طويلا في قراءة

مخطوط مارينا.»

«إنه رجل مشغول بوتي، إلهي. أتعلم، حان الوقت لتحزم هذا الهراء المجنون وتعود للدراسة. لقد أرسلوا بعض الأوراق من أوسويغو. وقد فتحتها. إنه وقت التسجيل. يمكنني أن أحرر الشيك غدا.»

«لقد تجاوزت ذلك منذ مدة أمي.»

«تجاوزت التعليم الجامعي؟ ما الذي يجب أن يعنيه هذا؟»

«لا أعلم كيف أشرح الأمر، ما عدا أن أقول بأني في منتصف الحياة. لكن في منتصفها فعلا. ليس هنالك مجال للعودة الآن.»

«أنت تفقد عقلك بوتي. هل عليّ أن آتي لآخذك؟»

«أنا شخص بالغ. أنا ناضج. أنا أعيش حياتي.»

تنهدت أمه. «ليس هنالك داع لأن ترفع صوتك علي،» قالت. «أظن بأن كل هذا حمق، لكنني أحبك بالقدر نفسه.»

«وأنا أيضا أحبك، أمي.»

«سيغضب كثيرا، أتعلم. أحيانا لا أظن بأني أعرف أخي جيدا، لكنني أعرف هذا القدر. يمكن أن يكون له مزاج جد سيئ. كان دوما يفعل. وما قمت به هو سيئ.»

«على أحدهم أن يقول الحقيقة. يجب على أحدهم أن ينعت الأمر بما هو عليه.»

«ما الذي يجعلك واثقا من أن هذه هي الحقيقة؟ ولمَ يجب أن تكون أنت، أتساءل؟ أتحاول أن تفسد حياتك؟»

«سيكون الأمر على ما يرام. سترين. سيكون الأمر على ما يرام.» كان معتادا على طمأنتها هكذا، ولو أن الفكرة التي عبرت باله هي أن الأمور قد لا تكون على ما يرام تماما.

اتصلت به مارينا بعد ساعتين. كان يقرأ إمرسون عندما اتصلت: هذا التضخم في الأنانية معهود عند بعض الناس حدّ أن علينا الاستنتاج بأن ضرورة

قوية في الطبيعة تساعد على ذلك، كالتي نراها في الانجذاب الجنسي. الحفاظ على النوع كان هو الهدف من هذه الضرورة التي أمّنتها الطبيعة مقابل كل الأخطار عن طريق شحن الرغبة عميقا، تحت تهديد فوضى وجرائم دائمة. تغرز الإنسانية إذًا جذورها عميقا في الضرورة الأساسية التي تجعل كل فرد يستمر في الصيرورة التي هو عليها.

«فْرِدرك،» قالت. «أهذه مزحة ما؟»

«إنه كشف حقيقي.»

«إنه لوم مجنون موجّه ضد والدي.»

«لا أراه هكذا أبدا. لم يكن هذا قصدي. ربما لم تكن اللكنة واضحة؟» فكر لوهلة. «لم أكتب لأجل النشر من قبل. فكرت في أن بمقدورك مساعدتي في تحريره.»

«لم تفكر فعلا في أنني سأنشر هذا، أليس كذلك؟»

«على أحدهم أن يقول الحقيقة. والناس الذين يفعلون، يتم معاقبتهم بالعادة. إنها ليست الطريقة المناسبة لخلق أصدقاء، أعلم هذا.»

«ما هي الحقيقة هنا، فْرِدرك؟ باستثناء كونك لا تستسيغ والدي؟»

«أنا في الحقيقة أستسيغه أحيانا كثيرا. لقد كان لطيفا معي، مثل هذا العمل. إنه ملف غير واضح.»

«غير واضح؟»

«ظننت بأنك من بين كل الناس ستتفهمين الأمر.»

«أتعني لأنني غاضبة منه الآن؟»

«لأنك ترينه.» جلس بوتي منكفئا على الأرض يمسك الهاتف بين كتفه ورأسه، متفحّصا أصابع قدميه وهو يتحدث. مرر أصابعه حولها كما لو كان يرسمها بقلم على ورقة. شعر بأن هذا كان يساعده على كبح غضبه. «أقرأه لودفيك؟» سأل.

«لقد فعل في الحقيقة.» قالت بصوت أشبه بصفير خافت، ساحبة

للهواء عبر أسنانها. «أُعلِمُك بأنك قد سببت أحد أكبر خلافاتنا على الإطلاق.»
«تشاجرتما بسببي؟»
«لديه فكرة بأن مقالك – لا أريد أن أدعوه بالمقال حتى– ليس، الحقيقة، لكنه حقيقة، حقيقتك. هذا ما يقوله. إنه يرى في الأمر صلاحية. يعتبر بأن على ذا مونيتور نشره، جعل الناس يتحدثون. إنها بداية، يقول.»
«وأنت لا تشاركينه الرأي؟»
« فْردِرك مرحبا؟ أنت تهاجم والدي بسبب مخطوطة يعمل عليها ولم يرها أحد. لم أرها أنا. لم ترها أمي. إنها سرية.»
«لقد كانت هناك في دولاب مكتبه. ما زالت هناك.»
«أنت فرد من العائلة. كان يثق بك. ألا تفهم الأمر؟ أنت مثل لودو تماما. ليس وكأنك لا تستطيع تدمير حياته، لكنك اخترت ألا تفعل، لأنك تهتم بشأنه، بشأن أسرتنا. ألم نكن لطيفين معك؟»
«للغاية.» حدد بوتي حواف قدميه أسرع وأسرع. «لا أظن بأن الأمر سيدمر حياته.»
«إنه يهتم بشأن هذا الكتاب أكثر من أي شيء. إنه مشروع حياته، وأنت قد هزأت به.»
«لم يكن لطيفا بشأن كتابك، كما أتذكر.»
«ليس لذلك أيّ علاقة بهذا.»
«أنت تسامحينه، وإن كنت تفعلين، فلأنه كان يؤمن بأنه كان يساعدك.»
«لم ينشر رأيه في مجلة. لقد أخذني للعشاء. وبلا إهانة، بوتي، لكنك بعيد كل البعد من أن تكون والدي. إن لديه الحق في آرائه.»
«وعن أسئلة الحياة الأساسية، ليست لديه أيّ آراء ليتحدث عنها،» قال بوتي، ممسكا قدميه كما لو كان يمنعها من الهرب بعيدا. «هذا ليس رأيا. إنها حقيقة.» توقف. «لا أحد أراد لتلك المخطوطة أن تكون عبقرية أكثر مني،

« قال، بهدوء. «لقد كان بطلي طيلة حياتي.»

«على الأقل لن يحتاج لمعرفة هذا أبدا، « قالت. «يمكن أن نضع حدًا لهذا الآن.»

«أوه لا،» قال بوتي. «إن لديه نسخته الخاصة.»

«هو ماذا؟»

«لقد أعطيته نسخة. تركتها له البارحة بعد الزوال عندما كنت ذاهبا للمنزل. اليوم أخبرني بأنه سيحاول قراءتها الليلة.» في الصمت الذي تلا هذا، تخيل بوتي مارينا وكأنها تحاول، كشيء من توم وجيري أو رود رانر، أن تجد طريقة لسرقة الملف من دون أن يقرأه موراي أبدا. «إنه يعلم بأنها لأجلك،» قال. «يعلم بأن آخرين يملكون نسخة.»

«أيعلم فحواها؟»

«لم أذكر، لا.»

لم يتصل موراي ثوايت ببوتي في منزل جوليوس ذلك المساء، بالرغم من أن بوتي قد سهر إلى الثانية والنصف صباحا متأهبا. لم يرغب في أن يمسك به وهو نائم. توقّع بوتي حدوث ذلك، ربما لأن الفرصة لم تسنح لموراي لقراءتها بعد، أو لم يشعر برغبة في ذلك، على كل حال. مثلما تجنّب قراءة كتاب مارينا طويلا. لكن بوتي صباح اليوم التالي وصل بعد التاسعة بدقائق، بكل المرح الذي أمكنه، فصادفه موراي في الرواق وطلب منه القدوم إلى المكتب والجلوس. بهذا عرف بوتي أنّه قرأ المقال.

بدا موراي صارما، لكن رحيمًا بشكل واضح: تمتم مطمْئنًا، اتّكأ، عقد ساقيه الطويلتين، أشعل سيجارة، تلاعب قليلا لبعض الوقت بقطعة ورق فضي من علبة السجائر، رماها في سلة المهملات، أخطأ. لم ينتبه بوتي في البداية بأن الكأس الذي كان موراي يرشف منه من حين لآخر كان ممتلئا بالويسكي. كان بوتي مدركا لعائقه الجسدي: لنظاراته التي تنزلق عن جسر

أنفه، لفخذيه العريضين الناتئين بغرابة، بعدم قدرته على الجلوس مرتاحا على الأريكة الصغيرة وسط أكوام الورق. على الأقل كان بمقدوره إسناد قدميه بحزم على الأرض، لكنّهما كانتا محشورتين في حذاء رياضي، ولم يكن بمقدورهما طمأنته.

«أنت شاب يافع» قال موراي، «وهو أمر جيّد. طموح. جاد. مستقل.»

حافظ بوتي على ملامحه جامدة، يومض من خلف نظّارته.

«لا تعتقد فيّ الكثير. ذلك دورك، دور جيلك، لكن كابن أختي، أقرب ما يمكن لابن لي، إنه يخصك بالتحديد أيضا.» دخّن، سعل قليلا، كان يقول هذا عمدا، يعذب بوتي. «مع الوقت، ستقوم بأشياء عظيمة،» قال، وفكر بوتي بأنه كان على صواب عندما طمأن والدته: سيكون الأمر على ما يرام. «أو أنك لن تفعل،» أكمل موراي. ثم توقف وغرز سيجارته وانحنى إلى الأمام حتى صار كُوعاه على ركبتيه وأدار عينيه إلى موراي فبدت نظرته شريرة، لمعة شريرة في انتفاخ وترهل وجه الرجل، تحت الحاجبين الكثين. «لكن كيف ستهرب بحق الجحيم، أيها التافه الصغير، يا قطعة الهراء الصغيرة؟ تتجسس على أوراقي هنا طيلة الوقت وتتغوط عليها؟ ما الذي كان يجري هنا طيلة الوقت تماما؟ مم؟» انحنى إلى الأمام «أخبرني؟»

«لا شيء سيدي.»

«لا شيء تماما. لا شيء مقارنة بالعمل الحقيقي. لقد دفعت لك راتب مَلِك، فتحَت لك زوجتي منزلنا، أخذتك ابنتي تحت ذراعها وهكذا تجازينا؟»

«لا، سيدي.»

«ما الذي يعنيه هذا بحق الجحيم؟ ولا تنادني سيدي، سحقا.»

«أنا جد شاكر. ما قمتم به لأجلي – لا أستطيع –«

«أوه فهمت. الأمر وما فيه أنه كان عليك يا ابنَ أختي العبث بأوراقي الخاصة في دُرجي وإسماع العالم اللعين رأيك المتعنّت عنّي؟ أتعلم ما أنت عليه؟ أنت هراء صغير، نكرة، لديك ذكاء عثة. أنت بقعة وسخة من تلك القرية، التي

هي نفسها بقعة وسخة. أنت لا شيء. وهل تعرف كيف أعرف؟ لأنني كنت مثلك. بحق الجحيم، لقد كنتُ أنتَ، باستثناء أنني لم أكن سمينًا. لكنني عرفت مكاني فابتعدت، عرفت ما عليّ تعلّمه فانكببت على نفسي وتركت فمي مُغلقًا وأنصتُّ وتعلّمت واشتغلت، أيها الحقير الصغير، اشتغلت حتى صنعت شيئًا من نفسي.» توقف، أخذ رشفة كبيرة من الويسكي. «وانتبَه الناس إليّ ليس لأنني رأس خراء متعثّر، لا، ليس لأنني كنت ابن أخ هذا أو ابن أخت ذاك، أو تملّقت أحدًا. انتبهوا إليّ لأنني قمت بواجبي واهتممت بشؤوني. طرحتُ حقائق، لا آراء. ليس لك الحق في حمل أيّ رأي حتى تعرف الحقائق.»

«مع كل احترامي سيدي–»

«الاحترام؟ أعتقد أن هذا تماما ما ينقصك.»

«رجاء، أريد فقط أن أقول بأن آرائي كانت مبنية على حقائق.»

«حقائق؟»

«مخطوطتك – كيف نعيش – إنها حقيقة.»

بدا موراي مصدوما، لكن لوهلة فحسب. جلس، وانحنى إلى الأمام مجددا، بدت يداه لبوتي عملاقتين. «حقيقة؟ حقيقة؟ الملاحظات الأولى لمشروع طويل الأمد، خربشات قد لا ترى النور أبدًا، أبدًا في صورتها الحالية؟ أتسمي هذا حقيقة؟ وإن عبثتُ في وَبِيل الهراء الذي تحمل معك وأخرجتُ مذكّرتك، أعتقد بأن ذلك سيشكل وثيقة عمومية؟»

«مخطوطة الكتاب موجودة. وإن توفيت غدا، سينشرها أحدهم.»

«سأحرص على ألا يفعلوا. لكن هذا ليس لُبّ الموضوع.»

«لقُرّائك، المخطوطة مهمة. أكثر أهمية لأنها غير منشورة. أنا فقط أخبر الناس بما هي عليه.»

«لا أيها الشاب. أنت تتغوط عليّ من علوٍّ شاهق. لا يبدو أنك تفهم، يمكنني أن أضع حدًّا لهذا حالًا. تلويحة من يدي تكفي لتتوقف أنت عن الوجود ببساطة.»

«أنا مطرود إذًا؟»

«الأمر يعني هذا: بالنسبة إليّ، وإلى الطبقة المثقّفة من هذه المدينة، وما يتوسّع عنها في شكل أُمّة، أنت غير موجود ولن توجد أبدًا.»

«ما الذي ستقوله لوالدتي؟»

«ما الذي ستقوله أنت لوالدتك؟»

بوتي، مخدّرًا، هزّ رأسه ببطء، ثم وقف ليغادر. لم يكن لديه شيء ليجمعه لكنه تظاهر بالبحث، كاسبا بعض الوقت. لم يتخيل أن الأمور ستُحوَّر لهذا. لكنه على كل حال، لم يتخيل ببساطة. كان متيقنا، متيقنا على الأقل من أن مارينا ستتمكن من نشر مقاله. لقد عمل جاهدا على جعله حقيقة. الباقي، فكر، سيجد مكانه، ما دام قد قاد نفسه بشرف. قبل أن يصل إلى الباب، قال «لعلمك، لودفيك سيلي ليس في صفك أليس كذلك؟ أتعلم بأنه يريد نشره؟»

«أهذا ما قاله؟»

«ليس مباشرة. لكنني وضعته بين يدي سلطة جيدة.»

«هراء.»

لكن بوتي ظن بأن موراي بدا مرتبكا، الأمر الذي أسعده بشكل طفولي. جعله الأمر يشعر كحيوان خادش، جعله يشعر بأنه يود أن يعض. «سؤال واحد سيدي؟ قبل أن أغادر؟»

«ماذا؟» موراي، واقفا، نظر مزمجرا. كان يشعل سيجارة أخرى، ولوح بعود الثقاب وكأنه كان يريد إضرام النار في ملابس بوتي، أو شعره.

«ألم تتركه هناك لأجلي؟»

«ما الذي تتحدث عنه؟»

«عليّ أن أقول إنني ظننتني أفعل فقط ما أردتَني أن أفعل. أتبع التعليمات تقريبا. لكنني استجبت بشكل مختلف لمخطوطتك مما كنتَ تأمل فيه.»

تحت حاجبيه الكثين، لم يقل موراي شيئًا، نفخ الدخان من أنفه كتنين. كاد بوتي أن يضحك، من جهة بسبب توتره، ومن جهة بسبب عبثيّة الموقف. كان ينتظر من موراي أن يبتسم، يربت على كتفه ويقول شيئًا من قبيل « كفانا من هذا السخف. لنعد إلى الأمور المهمة، حسنا؟» كان بوتي ليزعج قليلًا (لا أحد يحب أن يتم تجاهل مجهوده.) لكنه كان ليعيد النظام بكل فرح. حتى يسمح لهذا السيناريو بالانكشاف قال بوتي – ولو أنه بدا سخيفا وهو يتكلم –»لقد كنت دوما بطلي، أتعلم. لقد قلت ذلك في المقال.»

أطلق موراي شخيرا دفع خيوط دخان أخرى من أنفه. «أظن بأن عليك المغادرة،» قال، وتقدم نحو بوتي، دافعا إياه للتراجع إلى الممر. «الآن.»

الفصل السادس والأربعون

الأحمق في العش

قالت مارينا إنها بكت عندما قرأته، وأنها انفجرت في وجه بوتي عندما اتصل، لكنها شعرت بالأسف تجاهه، أيضا، فهو لم يكن يعرف ما كان يفعله. قالت مارينا أيضًا بأنها وسيلي قد خاضا أسوأ نقاش لهما – ربما قد قالت بأنه «أول نقاش حقيقي حتى» – وكان من الواضح بأن الخلاف ما زال قائما: إمكانية ظهور المقال ما زالت تلوح. فعلى كل حال، كان سيلي محرر ذا مونيتور، كان في هذا الشأن رئيس مارينا. قالت مارينا أيضا بأن أكثر جزء غير مريح بشأن الأمر كان شماتتها: «لقد فعل أبي هذا بي منذ أسبوع، والآن نُسيَ الأمر رسميًّا وكل شيء على ما يرام، ويفترض بي أن أتحمل الأمر. لكن بوتي قد أعطاه جُرعة من دوائه الخاص، ألم يفعل؟ إنه فعليا يقول لوالدي بألا ينشر كتابه. كتابه السري.»

«أظن بأنها ليست مجموعة وصفات بعد كل شيء،» قالت دانييل، لم يكن موراي ولا مارينا ليرياها مقال بوتي.

«وأمر آخر،» أكملت مارينا. «أمر آخر أستمر في التفكير فيه هو أن بوتي – فْرِدرك – غريب وأحيانا مخيف – الطريقة التي ينظر إليّ بها، لو ترينها – لكنه ليس أحمق أيضا، أتعلمين؟ إنه في الحقيقة يبدو جدّ ذكي، بالرغم من أن

مقاله غامض قليلا. غامض كما لو كان قد كتب بشيفرة للناس الذين سبق لهم قراءة المخطوطة ويعرفون والدي، وطبعا لا أحد رأى المخطوطة، لا حتى أنا. بوتي، كما تعلمين، سرقها من مكتب والدي. لكن المغزى هو أنني وجدت نفسي أتساءل عما إذا كان نقده صحيحا، وإذا كان موراي ثوايت ربما في هذا الكتاب يكشف نفسه ليكون، لا أعلم، أقل حكمة، أو مفكرا أقل أهمية – أعني، إنه يقول بأنه سطحي أيضا. وماذا لو كان على صواب؟»

«ألا تظنين بأن أحدا كان ليلاحظ هذا قبل الآن؟»

«يعتقد لودو بأن أبي سطحي، كناقد، وضيّق الأفق أيضا. كما يقول، إن الأمر لا يتداخل مع شعوره تجاهه، الأمر لا يتعلق بالرجل بل بأعماله.»

«وماذا عن سلطة لودو اللامبالية؟»

«كان لودو ليحبذ الإعجاب بأعمال أبي. يقول بأنه معجب بالأعمال القديمة، قبل أن يصير أبي كسولا.»

«والدك ليس كسولا.»

«ألا تظنين بأنني أعرفه أفضل منك؟»

«كل ما أعرفه، ممم. هو أن لودو أراد التعرف إليك لأنك كنت ابنة موراي. وقد تحدث مطولا عن كمية كرهه لموراي قبل ذلك.»

«ما الذي ترمين إليه؟»

«لا شيء. لكنني أظن بأن عليك أن تأخذي ما يقوله بشكل حذر قليلا. لا أعلم دوافعه، لكنها غير صريحة.»

«إن هذا هو زوجي المستقبلي الذي تتحدثين عنه.»

«أنا آسفة مارينا.»

«أنت واقعة في حبه منذ التقيته في سيدني، وستفعلين أي شيء لإفساد الأمر علي.»

«هذا مناف للعقل.»

ثم بكت مارينا، لكنها على الأقل لم تغلق الخط، وأقنعتها مارينا أخيرا

بأن عليهما اللقاء ومناقشة الأمور وجها لوجه. وقد التقتا في ساحة يونيون وتمشتا تحت الأشجار، ذهابا وإيابا، ذهابا وإيابا لأكثر من ساعة بينما أنصتت دانييل لمارينا وهي تتحدث عن صعوبة كونها ابنة أبيها، حول صعوبة المسألة بينما كان الناس دائما يحسدونها، وعن حقيقة عدم وجود شيء يمكن فعله لكنها لم تستطع أن تشعر بغير الحنق لأن مشاكلها كانت حقيقية لكن لا أحد يود تصديقها. عادت مارينا للمسألة التي لم تسهب في تحليلها على الهاتف، عما إذا كان بوتي على حق، وأدركت دانييل بأن سحر سيلي قد قلبها.

«فكري في الأمر: لا شيء أسوأ من الادعاء، والادعاء الزائف هو قعر البرميل. يكره والدي كتابي لأنه يعتقد بأن أهدافه تافهة ولا تناسب إلى حد ما طفلته، أي أن الأمر لا يتعلق بي بل به في الحقيقة، وهذه قصة أخرى. إنه كالوحش الذي أكل مانهاتن، يعتقد بأن كل شيء دوما يدور حوله.» تنهدت. «لكن مغزاي هو، أليس القيام بشيء سيّئ ودِعَائيّ أسوأ من القيام بشيء غير دِعَائيّ ولائق؟ لا أظنني فلوبير هنا، أو، لا أعلم، دكتور سبوك أو غلوريا ستاينم أو أيّ أحد، أصدر تصريحات مُدويّة. لكنه يعتقد ذلك. طيلة الوقت، إن صدقنا بوتي، فقد أُمسك بوالدي وهو يحاول تكرار الواضح. عش كريما. لا تفقد أعصابك. تقبل الجمال والحقيقة. فوق كل شيء، الحقيقة، هراء هراء هراء. رجاءً. إنه يكرر حِكمًا متعبة كما لو كانت أفكارا أصيلة. فقط لأنه يتخيل بأنه مفكر لا يعني بأنه يستطيع التحول إلى واحد فجأة.»

هنا، أصدرت دانييل صوتا عشوائيا. «يؤمن لودو بالفضح. هو دوما يقول – وهو محق للغاية – بأن أنبل شيء يمكن القيام به هو كتابة كتاب جيد، حول، لنقل، الجبن – دليل عملي بأسلوب عادي عن الجبن – بدل رواية حقيرة سيئة أخرى. أو الأسوأ، من مجلد بهي لفلسفة زائفة.» توقفت مارينا عن تأمل المتنزه وهي تقول هذا، ورفعت يديها في الهواء. غمغمت امرأة متشردة مستلقية على المقعد القريب، فزعة من الفورة.

«ما الذي تقولينه إذا؟»

«لا أعلم.» عادت مارينا للمشي مجددًا. «أقول بأن لا أحد فعل لأبي ما فعله بوتي. لا أحد ذكره بأنه فانٍ. إنه ينجو من القتل. وعلى ذلك أن يكون أمرا جيدا. أظن أن هذا ما أقوله.» توقفت مجددا، لبرهة. «لكنني لا أظن بأن المقال يجب أن ينشر. أنا ابنة والدي بحق الجحيم، ليس مقالا جيدا حتى. لكنني سعيدة لأن أبي قد قرأه. سعيدة لأبي، على المدى البعيد. غير سعيدة لبوتي.»

«لا. ما الذي حدث له؟» في الحقيقة، لم تحتج دانييل لأن تسأل عن بوتي أبدا. في حكي منحرف للأحداث، أخبر موراي دانييل، بنوع من الضحك الكاشف عن عدم راحته، بأنه طرد الفتى.

«آداب سيئة،» قال موراي. «هذا هو معقل الأمور. لا أعلم ما الذي حدث في واترتاون، لكنها لم تكن النشأة الاجتماعية كما يفهمها الأناس المتحضرون. الفتى غريب. جلس معنا لمدة طويلة. أكل طعامنا. أخذناه معنا. وجدت له مارينا مكانا ليعيش فيه. لقد وظفتُه بحق الجحيم، لأنه ابن أختي. وعندما كان على أنابيل العودة للعمل في الرابع من يوليو، وجدته منكفئا في منزلنا، وكل شيء مقلوب على رأسه. هذا ما قالته. كان علينا أن نعرف. المجنون في العش. لكننا ضحكنا بشأن الأمر فحسب. ثم شعر بالأحقية في التغوط علينا، أعني، التغوط علينا حقا. ذاك الصغير اللعين المثير للشفقة.» كان موراي غير مرتاح جسديا وهو يحكي، ضخما في شقّة دانييل، بالشكل نفسه الذي كانت فيه مارينا غير مستقرة خارج الأبواب.

«أنا جدّ آسفة» قالت دانييل.

«لماذا؟ لماذا تأسفين؟ أنا آسف لمعرفة كون فرد من لحمي ودمي معتل أو مريض عقليا. أو ربما متلازمة أسبيرجر المعروفة، ما الذي أعرفه؟ لكنه نكرة صغير ملعون في جميع الأحوال.»

«لقد كان يحاول التقرُّب إليك، ألا تظن ذلك؟»

«أهذا كيف تكسب أصدقاء وتؤثّر على الناس؟ اعذريني لردة فعلي

الضعيفة. أظنني ارتدت المدارس الخطأ.»

«لا»، قالت دانييل « أنت تعلم تمام العلم بأنه فعل.»

لم يسعد موراي لسماع هذا.

«أشعر بالأسف تجاه الفتى» حاولت دانييل أن تشرح. لاحقا، لم تحاول، مع مارينا، لأنها لم تعتقد بأن الأمر كان ذا معنى لأي منهما، الأب أو الفتاة. قالت لموراي، «إنه يافع وذكي وطموح، وهو من واترتاون. لقد كنت من كولومبوس بحق الجحيم، وذاك مكان أكثر تبشيرا من واترتاون. من لديه ليجذبه من هناك؟ لا أحد غيركم. أنتم تذكرته، أمله.»

«ولهذا يتغوط علينا.»

«لأن الأمر معقد. كلما أحبك أكثر، كلما قمت بالمزيد له، كلما كرهك أكثر أيضا.»

«إذا فهو حقير. لا يهم. لن أراه مجددا.»

«هل أختك تعلم؟»

«جودي؟ إنها ضيقة الأفق، كل ما تهتم به هو ما إذا كان سيعود إلى المنزل لتلك الجامعة البائسة في عيد العمال.»

«أسيفعل؟»

«لا أعلم. أشك في ذلك.»

«ألن تتحدث معه أبدا مجددا؟»

«جربيني بعد عقد من الزمن، لكن الآن سأقول لا.» لكنه لاحقا، بعد الويسكي، والعشاء، والجنس (كانت آنابيل في الريف، تقوم بالبستنة، وبالرغم من أن موراي رفض المبيت على أساس المبادئ، لأنه هو وأنابيل يتحدثان يوميا من سريريهما، لم يتلق أمرًا بالدخول، ولا اتصالا مباشرا) عندما ارتديا ملابسهما وذهبا إلى باحة السطح للاستمتاع بالمباني والقبة المخملية لليلة صيفية، قال موراي «وطبعا، كيف لي أن أمانع، هناك جزء صغير من عقلي يتساءل ما إذا كان الفتى على ما يرام. ما إذا كان الوحيد الشجاع كفاية والغبي

كفاية ليقول لي الحقيقة.»

«أنت تعلم بأن الأمور ليست هكذا. إنه غيران، إنه يتوقع العالم، و– »

«ولم ليس عليه ذلك؟ وإن كانت كومة خراء، لم عليه أن يمتنع عن قولها؟»

«إنها مخطوطتك السرية، المسودة الأولى.»

«إنه كتاب خيالي. الكتاب الذي أتمنى لو كنت قادرا على كتابته من طرف الرجل الذي أتمنى لو كنت عليه.»

«لدي احترام فائق للرجل الذي أنت عليه. وتعجبني قراءة كتبك.»

«أتظنين بأن أيًا منا يصل إلى أي مكان من دون تظاهر؟ من دون ادّعاءات أيضا؟ لولا ذاك لما خرج فرِدرك تاب نفسه من واترتاون حتى الآن.»

أشار موراي نحو نهر هادسون. متتبعة ذراعَه، كانت دانييل مجددا مشدوهة لروعة المدينة حولهما، عماراتها اللامعة وشوارعها المتشعبة، مزخرفة بالمصابيح الصغيرة الأمامية للمواصلات أبدية النشأة والنهاية. حتى البقع المظلمة، الأسقف المسطحة للبنايات الآجورية الحمراء والأبنية أقصى الجنوب والغرب، أو الفراغ الذي عرفت بأنه الملعب صباحا – حتى هذه القطع الناقصة كانت مهمة للنمط. أقصى الأسفل، ارتفعت مجموعة ناطحات سحاب، حية، ليلا، طمأنة تجاريّة متينة في خضم جنون نزوات المدينة.

«واترتاون،» قالت. «وربما كان الجميع ليكونوا الأسعد للأمر. وأنت غاضب بشأن الكتاب، وهو قد جعل الأمر أسوأ.»

«لن أنشره الآن.»

«إنه غير منته.»

«لا. أتوقع ببساطة أنني لن أنشره. لم أفعل هذا من قبل.»

«ما زال هناك طريق طويلة قبل إكماله.»

«إنها سخرية ذاتية، كما يقول. إنه زيف.»

«لا أصدق ذلك.»

«أرأيت الطائرة الصغيرة؟» ضوء لامع صغير، كفراشة نور، تهتز بين الناطحات اللامعة خلف نهاية الجزيرة. تلوح بين البنايات، ضوء يومض بين الأضواء. «يوما ما سآخذك في واحدة من تلك الأشياء. أو للقيام بجولة طائرة حوامة. إنها حفلة سائحين، لكن المنظر جذاب. أخذت بعض الأكراد الزائرين، قبل سنوات.»

«مانهاتن من أعلى؟»

«من الأفضل القيام بها ليلًا.»

بعد برهة، قالت دانييل، «أتظنه وحيدا؟ ابن أختك؟»

«كيف لي أن أعلم؟»

«لا يملك أصدقاء، وهو يحبّ مارينا.»

«إنها حبكة مثيرة للاهتمام أليس كذلك. الأشخاص الذين لا يهتمون بي يحبون ابنتي.»

«وصديقها الأقرب يحبك.»

«أو هكذا يبدو...»

لم تستطع دانييل تكرار أيٍّ من هذا لمارينا الواقفة الآن تنتظرها قُربَ الحلقة المرقطة عند سوق الفلّاحي الأسبوعيّن، لكنها أرادت أن تصرخ بأنها فهمت. شعرت أنها رأتهما، الوالد وابنته، كما لو كانت جمهورا وكانا لاعبين على المسرح، هذا الإحساس الغريب بالرؤية الذي امتلكته منذ بدأت علاقتها بموراي... شعور بأن عالمها انفتح أمامها كمخطوط مُنَار، وعرفت، شعرت، لمَ قالَ بوتي هذا أو ذاك، وما الذي كان يعنيه بذلك حقا، وعرفت أيضًا الرّقصة الدائرة بين موراي ومارينا كأنّها صمّمَتها بنفسها. تساءلت برهة عن مكان أنابيل في الرّقصة، لكنها طردت الفكرة. لم تكن لديها أيّ رغبة في تعويض أنابيل. وما رأته وعرفته كان يختلف – يا ليته كان يختلف في نوعه، في طبيعته البلورية – عمّا كان يحرّك المرأة الأخرى.

ماشيتين تحت الأشجار، في الظل الأخضر الرمادي، عندما بدا وكأن مارينا هدأت أخيرا وكانتا تستعدان للافتراق، سألت مارينا ما إذا كانت دانييل قد سمعت أخبار جوليوس.

«أظن أننا نواجه مشاكل. أرسل لي رسالة لأنه يريد حقا أن يكتب مقالا لأجلي. وأخبرته بأن يفعل لكنه لم يستطع إيجاد موضوع، لأنه مشغول بالحفلات. في الحقيقة، اقترحت عليه الكتابة عن حفلات وسط المدينة، تعرفين، مقالا ممتعا حول رمزيتها في العشرينات من العمر مقابل الثلاثينات، إذ يبدو بأن هناك نقلة ثقافية وجِيليّة. أليس هذا مثيرا للشفقة؟ لقد وافق على القيام بها – جوليوسنا يكتب بأسلوب سخيف كهذا. أقسم، كدت أبكي. عموما، الأمر وما فيه، فقد ديفِد عمله.»

«قلبي ينزف.»

«هذا ليس لطيفا.»

«كيف لي أن أهتم بشأن شخص لم ألتق به قط، رفض لقائي.»

«بمقدورك الاهتمام بجوليوس، صحيح؟»

«طبعا أهتم. ما الذي سيفعلانه؟»

«إذا لم يرتبا الأمور بسرعة، سيكون عليهما الانتقال، هكذا بدا الأمر.»

«يعودان لشقة جوليوس.»

«أظن ذلك.»

بعد بعض المشي الصامت. سألت دانييل «لكن ماذا عن قريبك؟»

«بوتي؟» هزت مارينا رأسها. «لا أعلم. لم أفكر في الأمر. قد يعود إلى المنزل في واترتاون.»

«واو. أتعتقدين ذلك فعلًا؟»

«حسنًا، لن يعود إلى منزل والدي، هذا أمر حتمي.»


أيلول

الفصل السابع والأربعون

الرجل المُفتقر إلى الأخلاق

أمضى بوتي اليوم الأخير من شهر آب، والذي كان يوم خميس، في مسح آثاره بجدٍّ من شقة شارع بيت. لم يكن متأكدًا كم كانت الشقة نظيفة أو وضيعة عندما انتقل إليها منذ شهرين، لكن جوليوس بدا شخصًا قذرًا وصعب الإرضاء، وقد احتاج بشدة لاسترجاع مال التأمين. سينتقل إلى شقة مشتركة في فورت غرين، بروكلين، وجدها في مجلة ذا فوياج آوت، حيث اقترح جوليوس على بوتي أن يبحث، عندما اتصل به - كان مهذبا على كل حال - ليخبره بأنه هو، جوليوس، يحتاج لاسترجاع الشقة وبأن بوتي عليه أن يُخليها. فرك بوتي ومسح وأزال الغبار، رمى أوراقه الإضافية، جمع بقايا حاجياته. شعر بأنه كان ملزما بشكل دائم بإبعاد نفسه. تمنى الجميع لو يذهب بعيدا. في ليلته الأخيرة، خرج لإحضار فطائر بوريتو وتاكيرا من دكّان على مبعَدة بضع مربعات سكنية. وعندما أحضرها إلى المنزل، جلس إلى الطاولة وترك رائحتها تغزو الغرفة. تناولها مرافقة بكأس ماء. كان يشتهي جعة لكنه لم يكن يملك مالًا إضافيا.

لقد وضع كتاب إمرسون سلفًا، غلافه ممزق الآن، في قعر حقيبته، مع بقية كتبه. تمكن بجهد كبير من إغلاقها ولم يرغب في إخراج ملابسه مجددا

على الأرض. بدل ذلك، حتى يستأنس وهو يأكل، التقط من رف جوليوس كتاب موسيل: الرجل المُفتقر إلى الأخلاق. من الواضح أنه كان ألمانيًا، وبالرغم من أنه لم يسمع به، عرف بأنه يعتبر عملا كلاسيكيا من الطريقة التي نشر بها: الصورة الضبابية المتهرية على الغلاف الأمامي، بالأبيض والأسود، أظهرت وجها عابسا أسود العينين. غير مميز، لكنه رغم ذلك بدا كما لو كان يطالب باهتمام بوتي – وبالتحديد بوتي. كان بوتي ليدّعي سابقا، مُمازحًا، بأن خاله هو الرجل المُفتقر إلى الأخلاق، لكن تعابير الرجل ومشاعره لوّحت بقوة إلى أن بوتي، في الحقيقة، كان هو ذاك الرجل. لقد صمد، شعر بصدمات قوية. لم يتحدث إلى أسرة ثوايت منذ أسابيع، وحتى مارينا اتصلت مرتين فقط منذ النقاش مع موراي، لتطمئن ما إذا كان بوتي على ما يرام. لا داعي للقول بأنه لم يكن كذلك، لكنه خلال تلك المرتين حاول التحدث بكل الحماس والغموض الذي بوسعه. لم يرد لمارينا أن تظن بأن لا شيء يجري في حياته. تظاهر لأمه، التي حثته طبعا على العودة على أنه يعمل بمقابل كبير (في مطعم، قال، الأمر الذي لم يكن غير صحيح كلية: لقد اشتغل كنادل لثلاثة أيام في مكان أنيق أسفل الجادة الخامسة، لكنه أسقط صينية ملأى بالأطباق في اليوم الثالث وأحدث ضجة كبيرة.) وبأنه كانت يبحث عن دروس في المدرسة الجديدة.

«وما هو هذا؟» صرخت. «لم أسمع بها من قبل.»

«إنها تحديدا للناس الذين يشبهونني. للناس الذين يدرسون ويعملون في الوقت نفسه.»

«كليّة مجتمعيّة إذا؟»

«تختلف عن ذلك. إنها مدرسة جيدة. اسألي أي أحد.»

«أود أن أعرف من في تلك المدينة لأسأل، الآن وأنا لا أتحدث حتى إلى خالك.»

«ليس عليك ألا تتحدثي معه، لعلمك.»

«لمَ سأرغب في الحديث معه؟ الطريقة التي عاملك بها. من دمه ولحمه.»

«رجاء، أمي.»

«لا أنكر بأن ما كتبته كان سيئا، أمرا سيئا لكتابته. لكن لا أحد سيقرأه، إذا فما الفرق الذي سيحدثه؟ أعني– »

«ماما. قد ينشرونه. ذا مونيتور. ما زالوا قد ينشرونه.»

«لا تكن سخيفا، بوتي. أتمنى ألا يفعلوا. أتوقع أن مارينا أعقل من هذا.»

لكنه لم يستطع الحديث عن مارينا مع أمه، رغم كل التوق، وليتحدث عن مارينا، فقط ليقول اسمها لأحد. غيَّر الموضوع، عائدا إلى المدرسة – «ربما سأتعلم الروسية، أمي»، «الروسية؟»، «وما المشكلة في ذلك؟» – وقام بما في وسعه ليُهدّئ قلقها.

كان في الحقيقة، على شفير توظيف مريح. شعر بأن أيلول يبدأ بفصل جديد من حياته، انطلاقة جديدة حتى لو لم يكن هنالك شخص آخر ليشهدها. كان يتحرك خارج الرادار: العباقرة العظماء يملكون أقصر السير، لا يعلم أقرباؤهم شيئًا عنهم. وكما كشف خاله، في لحظة من الحكمة «خذهم على حين غرة.» وجد هذه الغرفة في فورت غرين من دون أيّ مساعدة. وجد وكالة توظيف مؤقت ليسجل معها (ولو أنه لنكون صادقين، لقد كان جوليوس القذر الذي اقترح طريقة التوظيف المحتملة هذه، وأعطاه حتى اسم الوكالة.) والآن اختير ليبدأ العمل في شركة مالية وسط المدينة في اليوم الموالي لعيد العمال. لم يكن بوتي يكتب بسرعة على الحاسوب، لكنه أخذ اختبارات الوكالة وأخبروه بأنه جد دقيق مع الأرقام («السرعة مهمة، لكن الدقة هي ما يهم فعلا.» أعلمته الشقراء ذات الشعر المموج والخصلات الباهتة بذقن مدبب مُرتجف. «في ماذا ستفيد السرعة، من دون الدقة؟») وبأنه سيكون من السهل موضعته. لم يكن عليه ارتداء بذلة (حمدا لله، لأنه لم يكن يملك واحدة.) لكن يُنتظر منه ارتداء سترة وربطة عنق. لم يسأل بوتي عن الأحذية. عرف بأنهم يريدون حذاء ذا خيوط.

لكن كل ما كان يملكه هو حذاؤه الرياضي. حذاء التأنق لا يزال في واترتاون: كان يتصوره تماما، مقابل الجدار كما لو كان قد مشى فيهما، كشبح. أمه، بميلها لتقديس الأشياء لم تكن لتحركها. أما عن العمل نفسه، لم يكن يعرف تماما ما عليه فعله، لكنه سيتلقى أجرا، أكدت له السيدة الشقراء، نهاية كل أسبوع. أسبوع واحد يفصله فحسب عن يوم تسلم الأجر. كانت هذه الحياة الحقيقية، قال لنفسه. سيقوم بالأمر لوحده.

صباحا، عندما نقل الأشياء إلى الأسفل وحزمها، الحاسوب أيضا، على جانب الطريق، وكان يتساءل كيف سينقلها إلى الشارع، راقب سيارة أجرة تتوقف. خرج جوليوس نظيفا وطويلا، قميص بولو بلون الخزامى مكوي بعناية – وخلفه، رجل، خلف نظّارته، عينان ثاقبتان، ضبابيتان كعيني موسيل، الذي كان حتما رأس المخروط.

«بوتي، صحيح؟» جوليوس، المتمدن، مد يده، كما لو كان لقاءهما الأول. «سأجعل سيارة الأجرة تنتظرك.»

«شكرا.»

«من الصعب الحصول عليها هنا،» أكمل جولوس، بينما رأس المخروط يتلكأ خلفه، حاملا الحقائب. «ديفِد، هذا قريب مارينا– »

«فرِدرك.»

«صحيح. أعرف لقبك فقط، طبعا.»

نظر بوتي إلى ديفِد الذي كان بياضُ معصميه وأوّلُ ذراعيه شديدًا، وبدتا مكسوّتين بالزّغب ونحيلتين على نحو مريض. بدا ديفِد نفسه مريضًا. «ستنتقلان معًا إلى هنا؟» سأل بوتي.

«كلانا، فقط حتى، أنت تعلم، نجد مكانا آخر.» كان جوليوس لطيفا للغاية. «لمدة قصيرة فحسب.»

«جيد» شعر بوتي بأن عليه قول شيء ما عن مدى استمتاعه بالسكن هناك، لكنه لم يستطع دفع نفسه إلى الكذب بوقاحة. لم يستطع أن يدعي

حتى بأنها كانت شقة ماتعة. كانت فظيعة. «من الأفضل ألا أترك الرجل ينتظر.» أشار إلى سيارة الأجرة، الذي كان يقرأ عدد الأربعاء من جريدة ذا بوست. «شكرا مجددا،» قال، بدت إيجابية عموما وغير متملقة. وهو يضع حقيبة سفره، الحقائب والأكياس البلاستيكية في الكهف الرطب لصندوق الأمتعة، إلى جانب عجلة احتياطية مزيتة وزوجين من الأغصان الشريرة، راقب بوتي جوليوس وديفِد يختفيان مع متاعهما إلى ظلام الدَرَج. تراءى له، ربما خطأً، بأن جوليوس كان يمسك بيد ديفِد، يقوده إلى الطريق.

كانت رائحة الغرفة غريبة: رائحة عفن متلكئة، صادرة ربما من الخزانة. واسعة، عادية، كانت في الطابق العلوي لبناء حجري بني بشارع أكسفورد الغربي، بإطلالة على الأسطُح – وإن وقفت وأنفك إلى النافذة ونظرت نحو الأسفل – على حدائق مبعثرة وأسوار. كان اللون الليموني يتقشر ولوح الأرضية قد مسح من لمعانه حول مستطيل في الوسط حيث أُلقي سجاد منذ وقت طويل، أزرق باهتٌ، رآه عندما زار الشقة. في زاوية قرب النافذة، كانت الأخشاب عفنة بشكل سيء، سوداء وراشحة. ربما كانت هناك نبتة، لم يستطع التذكر. مشوَّهًا، كان باب الخزانة لا يُغلق، وتدلى بسخافة كشفة مهلهلة.

الحمام كان في الطابق نفسه، وغرفتا نوم أخريان، كلتاهما لامرأتين التقاهما بوتي في عجالة لكنه لم يكن بالضرورة ليتذكرهما في الشارع، واحدة تشتغل قابِلة، حذّرت من أنها ستعمل لساعات متأخرة، والأخرى طالبة من الهند في سنة تخرّجها ذات طِباع جادّة، بقيَ تخصّصها الأكاديميّ ومؤسّستها التعليميّة مجهولَين له. تذكر بأن المرأتين كانتا صغيرتين وداكنتين، واحدة سمينة بالأحرى من الخلف، والأخرى رفيعة، ضيقة، صغيرة. لا واحدة منهما جذّابة، الأمر الذي ناسَبَه.

بالأسفل، في الطابق الأوسط، تقع أكبر غرفتا نوم، إنّهما مأهولتان بالمستأجرَين الأقدم، اللذَين وضعا الإعلان واللذَين استجوباه: مدرب يوغا

طويل ورشيق يُدعى جو، بملامح رومانية وخصلات شعر فاخرة، كانت جدران غرفته مغلفة بالحبال والبكرات من كل الأشكال، كغرفة تعذيب من القرون الوسطى. كان لجو النافذة الواسعة المطلة على الشارع وكان فخورًا بتقديم غرفته، بينما مرافقه، إيرنيستو، رجل ضخم وداكن بخدين منتفخين ورأس حليق، لم يحصل بوتي منه على أيّ معلومات، لم يتطوع ليفتح الباب. كان بوتي على علم بأن غرفته تقع فوق غرفة إيرنيستو وتساءل ما إذا كانت حركاته ستكون مسموعة. ذكره إيرنيستو بماياكوفسكي، تبعًا لصورة رآها مرّة. تمنّى لو كان له شخص ليُسرّ له هذا، لكنه في هذه الحياة الجديدة المعتمدة على الذات، لم يكن يملك أحدا.

لم يكن بوتي طبعا يملك أي أثاث، ولا مالا ليقتني أيًّا منه. سرق غطاء من جوليوس حتى يصنع لحافا ينام عليه، وخلال الأشهر التي غادر فيها المنزل جمع بعض البطاقات البريدية – بيكيت وهو يدخن، لوحة لبو كلي اختارها بسبب عنوانها: «ارقص، أيها الوحش، على أغنيتي الناعمة.» وصورة لأفق مانهاتن ساعة الغسق – ألصقها على الجدران الصفراء. ما عدا هذا، لم يسجل أي تأثير شخصي على الغرفة. وضع حقائبه في الخزانة، مدّد وصْلات الحاسوب بنظام في الزاوية، في البداية فوق بقعة الماء، فوق الفوطة الزرقاء التي سرقها من جوليوس إلى جانب الغطاء، حتى أدرك بأن هذه هي الفوطة الوحيدة التي يملك فاستعادها. قلق بعد ذلك قليلا من تلامس الحاسوب مع بقعة الماء (لم تبد حديثة – لكن من كان يعلم مصدرها؟)، وانتهى به الأمر ناقلا الحاسوب إلى تجويف خلف الباب. كدّس مجموعة كتبه الصغيرة بشكل عمودي كبرج بجانب الحاسوب. كانت كُعُوبها أكثر الأشياء تعددًا للألوان في المكان. بدت الغرفة كما لو كانت قد أُفرغت من أجل حصة رقص، أو لكي تُصبغ. حتى ذرّات الغُبار بدت وكأنها لا يمكن أن تتجمع هنا.

كل شيء في وقته المناسب، أخبر بوتي نفسه. خارج الرادار. بداية جديدة. لم يكن يملك هاتفا. كان يملك مفاتيحه فحسب. جلس، عاقدا

ساقيه، وسط الرقعة الداكنة حيث كان السجاد، ونظر من النافذة: خط منخفض من الجدران الآجورية، تعلوها مداخن، غيمة خفيفة وحيدة، زوجا أغصان منتشرة، كالمشاهد على عرض ياباني، النور، النور المثالي، والسماء. أغلق عينيه، علّق رأسه. يستطيع أن يرى مارينا، ثم، في ومضات، ولو أنه لا يستطيع سماع صوتها. إن تاق إلى سماع صوتها فسيخسر رؤيتها: وكأن دماغه احتاج لأن يذكره بأنها وهم فحسب، بأنها لم تكن هناك فعلا. أحيانا كان موراي يتسرب إلى الصورة، وأحيانا أنابيل. لم يسمح للودفيك سيلي بالقدوم. لم يسمح لدانييل. آمن بأنه من دونهما، كانت الأمور لتأخذ منحى آخر. وجب توجيه اللوم لمكان آخر، شخص آخر لمَقتِه. فبالرغم من كل شيء، كان يحب أفراد أسرة ثوايت، كلهم، موراي بطريقته الخاصة يكاد أن يحبه الأكثر. حثّ خيال مارينا ألما خلف ضلوعه – كان هذا، لا بد أن يكون ألم القلب – ألمًا مبرّحًا. أذعن لخسارته – هذه هي الحياة الحقيقية، كان يعرف في أعماقه بأنها هكذا ستكون – وفي نفس الوقت، لم يذعن. كان الزفاف سيقام ذلك المساء. لا يمكن إيقافه، ومع ذلك لا يمكن إقامته. عيناه مغلقتان، راقبها وهي تتحرك، مشيتها الغريبة، النتأة الصبيانية في حلقها، الابتسامة. العينان البنفسجيتان. شعرها مقابل أذنها. تلك اليدان. كان يعرفها أكثر مما بوسعه الاعتراف. عرفها، مثلما شعر بأنه يعرف موراي أيضا، لكن أكثر. كانا من لحمه ودمه، كانا له، كانا يشملان عالمه كله. ضاعا، كل ما كان يرغب فيه قد ضاع. وما أرادهما أن يكونا عليه. الأمر مؤلم، لكنه أبقى عينيه مغلقتين واستمرّ في مراقبتهما يتحركان خلف جفنيه، جميلين، وسط غرفته الفارغة، في الضوء المثالي للنافذة الوحيدة.

الفصل الثامن والأربعون

الاستعداد

من المفترض أن يكون التجهيز لزفافك ممتعا، أبلغ المتع حتما وبمثابة متعة الزفاف نفسها. لكن قبل أربع أيام من الزفاف، كانت مارينا تعاني. ثوبها الجاهز من تصميم جيل ساندر كان بحاجة للتعديل. وامرأة إسبانية بعقصة شعر ضيقة وتورّم غريب أعلى أذنها اليمنى جلست تعبث عند ركبتي مارينا على السجاد الرمادي وفمها مملوء بالدبابيس. لقد تم قياس الثوب مرّة، لكن مارينا حتما بسبب الضغط قد خسرت باوندًا أو اثنين، والآن، في انعكاسها في المرأة، كانت ترى القماش مهلهلا عند ضلوعها، حيث يلزمه أن يحيطها، ثم ينسدل بخفة على وركيها، حيث يلزم أن يُنحت. كان الثوب المستقيم البسيط أزرق، لا أبيض، الأمر الذي بدا لمارينا انحرافا كافيا عن التقاليد، أزرق بارد مَشوب بخُضرة يُشار إليه عند المهتمين بزبد البحر. توصلت بالحذاء (كان الكعب العالي فضيا، وعاليا جدا، قلقت لوهلة بأن أحد الكعبين سيغرق في المرج ويعلق وهي تسير متأبطة ذراع والدها) وطلبت الزهور (زهور الليلك، في النهاية)، عرفت كيف سترتّب شعرها (مرفوعا إلى أعلى، لكن أقل ضيقا من مصففة ثوبها، بزهرة ليلك مدسوسة بين موجاته.) كان الطعام مجهزًا والمقاعد وبطاقات الأسماء حيث سيجلس المدعوون، حتى لا تفسد الضغائن

بينهم شيئًا، وحتى الديكور للعريشة قد تم إنهاؤه. لن يكون هنالك الكثير من المدعوين – فقط مائة – وقد تم تجهيز غرفهم، بستوكبريدج وبالنواحي.

في الحدث لن يتم تقديم أسرة لودفيك إطلاقا، بالرغم من أنه وضعها على الهاتف مع أمه، التي كانت لكنتها على مسامع مارينا بريطانية بالكامل، والتي كان صوتها، مرتجفا قليلا ونبرتها، لو كانت مارينا صريحة (الأمر الذي لم تكنه مع لودفيك)، باردة. كان الحوار قصيرا ورسميا: أسهبت مارينا فيه بأفضل لباقتها حول أمنيتها في أن تحضر حماتها المستقبلية وكم أنها تتوق للقائها، مقابل جواب لم تقل فيه السيدة سيلي غير كون أحداث غير سعيدة (غير محددة) قد حالت دون قدومها. توقفت مارينا للتفكير في أن حماتها قد تكون كابوسا، لكنها خَلُصت إلى أن المسافة بينهما كانت تعني بأن الأمر غير مهم كثيرا. لودفيك، أشار بشكل عابر إلى أنهما قد يذهبان لسيدني لأسبوع حال إطلاق المجلة.

«لا ترتاح الوالدة للطائرات،» قال، «ولا على الهاتف بحق. لكنها جد لطيفة. سترين.»

اكتفت مارينا بالابتسام.

معاناتها غير نابعة من مشاعر متوقعة. لم تكن تملك أيّ تحفظات بشأن زوجها المستقبلي، بالرغم من أن الجميع بدا وكأنه يفعل. لم تشعر بأي حقد تجاه حقيقة كون تنظيم الزفاف برمته قد وقع على عاتقها هي وأنابيل، حتى وهي تُعدّ لقِسْمها الخاص بالعدد الافتتاحي لذا مونيتور. فهمت أهمية التزام لودفيك وبأن عليه الآن، أكثر من أي وقت أن يُتمه. كان طموحه لا محالة جزءً من جاذبيته. يبدو بأن معاناتها تتجلى في أجزاء أخرى. ما عدا مع أنابيل: لم يكن لديها أي نزاع مع أمها. كانت أمها بصدق سعيدة لها، كما شعرت. لكنها من جهة أخرى كانت ستُقَدَّم للزواج من طرف رجل لم تسامحه بعدُ مرفقة بإشبينة ترشح معارضتها منها كرائحة. كان جوليوس يتلعثم عما إذا كان سيستطيع القدوم حتى بسبب انتقاله، وبسبب «التزامات» رأس

المخروط، فكيف لا يمكنها ألا تشعر بالإهانة بفعل هذا؟ ثم، في استذكار دفعها إلى القشعريرة، خافت، بلا تفسير، من أن قريبها غير المدعو عمدا، قد يقتحم عليهم المكان في اليوم الموعود وينفذ انتقاما ما. يضرم النار بالمنزل. يطلق النار على الوالد. يختطفها. كان الأمر جنونا، كما كانت تعرف، بأن تتلبّسها هذه المستحيلات الجامحة.

«ماما،» همست خلال مساء غير بعيد، واقفة عند باب غرفة نوم والديها، «انعتيني بالمجنونة، لكن ألن يطاردنا بوتي ويقتلنا؟ في يوم زفافي؟»

وخرجت أمها من خزانتها لتقول، بهمس أمومي مهدئ، «لا، لا عزيزتي، لا تكوني سخيفة. إطلاقا. أظنه حزينا فحسب، الفتى المسكين. إنه يعاني.» حاملة بلوزة على ذراعها، هزت رأسها بحزن. «الأمر وما فيه هو أن ذلك يبدو غريبا، كامتلاك سِنٍّ خارجة. متأكدة من أن الأمور ستُصلح مع الوقت، لكن الآن، علينا التعايش مع الأمر.»

«لكنه لن يحاول قتلنا؟»

«لا أظن ذلك عزيزتي. أعتقد بأن مقاله حول والدك هو أقصى ما يمكنه فعله.»

المقال. ذلك المقال: اليوم الماضي فقط، وهي تنتظر في مكتب لودو، لاحظت بأنه لا يزال موجودا، في طابور المقالات في حاسوبه. نسخ لودو المقال حتما – أو طبعته إيليزابيث، السكرتيرة أميرة التملق تلك، في الثامنة والأربعين، رفيعة ورزينة بشكل يدفع إلى التشاؤم، كانت دوما تنظر إلى مارينا كما لو كانت تشفق عليها. ورغم أنها ولودو لم يتحدثا عن المقال لأسابيع، فقد كانت حياتهما ترزح تحت ظله، وكان ممكنًا – وقد حدث بشكل طفيف مسبقًا – أن يعود للظهور مجددًا. من كان يحتاج إلى مشكلة قبل الزواج؟ بدل ذلك، عندما دخل (تنقر إيليزابيث برزانة وتمويه خلفها ككلب بودل مصفف الشعر) سألته مارينا عن حفلة الإطلاق – المقررة في الثالث عشر من أيلول – وراجَعا مجددا لائحة المشاهير المحليين الذين لم يجيبوا بعد. كان هذا ما يهم

لودو، في تلك المرحلة، أكثر من الزفاف، أحيانا كان يبدو وكأن لائحتي المدعوين تتداخلان. كان يهتم بشأن المشاهير، الموجودين فقط في لائحة الحفلة:» لا جواب من سكرتيرة سونتاغ[28].» تذمر « بالرغم من أن إليزابيث اتصلت بها مرتين. ألا تظنين بأن على أحدهم أن يجيب بحق الجحيم؟ بجواب نفي حتى؟ وبصراحة، يلزمها أن تكون هناك. بإمكاني جعلها مشهورة مجددا، إن سمحت لي. لكن على الأقل وافقت ريني زيلويغر[29].» ربما كان من الخطأ وضع الحدثين قريبين هكذا. لم تستطع مارينا تذكر السبب الذي جعل هذا يبدو مهما للغاية. الاستعجال في عاطفتهما، بلا شك. لكنها لم تتوقع العوائق، ولا غضبها الموجّه تجاه كل شيء تقريبًا ولا يمكنها السيطرة عليه.

في الأسبوع الأخير من آبْ، في هدوء المدينة، التقت سكُتْ، مُحرّر كتابها، وعبّر عن حماسه. سينشرونه في أيلول المقبل، سيُحدث جلبة عارمة («إنه مثير لكنه جاد،» استمر سكُتْ بالتكرار « هذه هي خطتي التسويقية: مثير لكن جاد. يمكننا نشر السلسلة الأولى في فوغ، أو ذا نيويوركر – ربما كليهما؟») سيسوّقون الكتاب، ويأخذونها في جولة، و» الموضوع أيضا مثالي للتلفاز» استمر، «ربما برنامج روزي، ربما أوبرا– هذا ما نفكر فيه.» سيكون عليها مع الوقت وضع إستراتيجية مع قسم التسويق، سيرغبون في «صورة غلاف رائعة» قال، «أنت خلابة. أنت مشهورة يافعة. لنستغل الأمر إلى أقصاه.» في المكتب، غمغمت، متحمسة، تلفُّها قشعريرة النجاح، لكنها ما إن عادت إلى الشارع حتى اصطدمت بحقيقة كون لودو الوحيد الذي كان ليسعد لها، وحتى هو كان مشغولا بأمور أخرى. لن تخبر والدها – ليس بعد على كل حال. الجُرح المفتوح لن يحتمل الأمر. لم يؤمن بها، أو بالكتاب، كان عليه على الأقل أن يحذرها من أن يتم التلاعب بها. كان بوسعها عرض المحادثة في عقلها، وحتما لم تحتج إلى خوضها، ومع ذلك فالتخيل وحده أغضبها، وهي

---

28) سوزان سونتاغ Susan Sontag (1933-2004) روائية، صانعة أفلام وناشطة أمريكية.

29) رينيه زيلويغر Renée Zellweger (1969) ممثلة أمريكية

تسير عائدة عبر برودواي وزحام تايمز سكوير المضطرب والنشط. سُيّاح آخر الصيف، كلهم مثقلون ومشدوهون، سراويلهم القصيرة الفضفاضة ترفرف كرايات، يسيرون الهوينى ويعلّقون كاميرات وحقائب، تحت النشاز المشع، متحمسين وتائهين، بينما سُعاة البريد الدرّاجون يتنقّلون خارجين وداخلين، مسرعين على الرصيف، والمحليون - ما زالوا كثيرين، حتى بعد الغداء نهاية آب، الساعة الأهدأ، جانبا الطريق مغموران بهم، كقطعان الماشية، في دبق التعب والعرق والنقانق - يثرثرون، يلوحون، يدفعون، يتناقشون كمغالاة ممثلين إضافيين في فيلم، غالبا ما أغضبوها. عندما قطعت المسافة إلى جهة تشيلسي الأهدأ، متسائلة ما إذا كانت ستلمح جوليوس مصادفة رفقة كوهين المتملص، فكرت مجددا في عناد موراي، متذكرة حوارهما في سان دومينيكو، كما لو كانت جزء من شركته الخاصة وكان إنتاجها ملكًا له ليتحكّم به، كما لو أنّه (هذا في الحقيقة هو ما كان عليه الأمر دوما، خطت خطوة عكس إشارة المرور، وبّخها زعيق سيارة أجرة)، لنكن جادين، لمَ لم تفكّر في الأمر من قبل؟ مارينا البنت المجتهدة، يده اليمنى، من الذي سيكمل عمله، حتى جمله إن تطلب الأمر، ولم يشك أبدا، لم يسأل، متى قد يفتح لها بعض المجال، لأنه - كان الأمر واضحا، لم احتاجت لودو ليريها هذا، وحتى عثرات المسكين بوتي تاب؟ - بالنسبة له، كل شيء يتعلق بموراي ثوايت، دوما. لم يكن هناك شخص آخر. واعتراها الحنق مجددا عند مصففة الثوب، جاثمة على حذائها العالي الفضي، يداها ممددتان إلى جانبيها، أيمكن أن تسمح له بتقديمها للزفاف، تساءلت. لكنها لن تسامح نفسها إن هي رفضته. ليس الآن. على الأمر أن يكون كما رتّبوا له، لكنها ستحتفظ دوما، دوما، في داخلها بذكرى حقدها الدفين، مذاقه الكيميائي، وسيصبغ ويتغذى على الزفاف وذكرياته، خفيًا لكن بعزم كحمّام حِمضيّ.

من دون أن نذكر بأن دانييل، أو جوليوس، صديقاها الأقرب قد اختفيا، ضاعا في أنانيتهما تجاه هذا، في أهم لحظة لمارينا. دانييل التي اتهمت

زوجها المستقبلي بكل التضليل، الدجل، لكن كانت مارينا تعرف بأن عليها غفرانها (المسكينة دانييل، بحبها الفاشل والسري، لا بد أن الأمر صعبٌ بعد كل شيء، أن تُحصَر وحيدة، أن تراقب مارينا سعيدة.) لكنها لم تقدر على ذلك بعد. إشبينتها: دانييل، يجب أن تعالج أيضًا جزءً من استعراض النية السيئة السري. بدا احتمالا لا يمكن التسامح معه رغم محاولات تراجع دانييل عن كلماتها القاسية، محاولات تغطيتها. لا عجب أن مارينا خافت من اقتحام بوتي: هذه الدراما المترابطة بدت مستحيلة التحكم أو الاحتواء: لا بد أن يكون هناك انفجار، أي انفجار، سواء أكان خاصتها أم لشخص آخر، في تلك اللحظة سيكون بوتي أكثر أمانًا، الأسهل تجاوزًا بين الجميع.

عندما وصلت إلى المنزل، حاولت أن تشرح هذا للودو، الذي انشغل شاردا بطبق السوشي، لكنها كانت مجروحة بالولاءات والإخلاصات ولم ترغب، فوق كل شيء، في أن تزعجه أو تنبهه إلى أن أولئك الذين يحوطونها لم يرحبوا به كلية، وعليه لم يفهم تماما ما كانت تحاول أن تقول فصرف الأمر بعناية كتوتر معهود. «لا تكوني سهلة القراءة عزيزتي.» قال بتلويحة من عصاه. «الأمر لا يشبهك. لديك أمور أهمّ للتركيز عليها الآن.»

الفصل التاسع والأربعون

المنزل مجدّدًا

استلقى ديفِد على اللحاف وعيناه مغلقتان. «لا أستطيع تصديق هذا،» قال.

«لا تستطيع تصديق ماذا؟»

«ما الذي تظن بأني أعنيه؟»

جلس جوليوس إلى الطاولة ويداه على خده. كانت الغرفة جد صغيرة، وخصوصا لشخصين، ومقارنة بمسكن ديفِد، فقد بدت حقيرة بشكل ساخر. «تفهم الآن لِمَ لَمْ أدعك أبدا إلى هنا» قال.

«ما لا أستطيع أن أفهمه هو لماذا عشت هنا أساسا. إنه مكان مقزز. ما الذي يعكس هذا المكان عنك؟»

«إنه جد رخيص.»

«المعايير، سيدة موك. أنت، من بين الجميع تحتاج لمعايير.»

«إنه جد رخيص، يمكننا تحمل تكاليفه. نستطيع المغادرة مجددا حالما نعود للغنى.»

«ما هو الأسوأ، أتظن، هذا المكان ونحن معا أم هذا المكان وحدك؟»

نفخ جوليوس. «لقد عشت هنا ست سنوات وحدي وبشكل مثالي.»

«لكن دون سعادة.»

هزّ جوليوس كتفيه. لم يكن متأكدا، في هذه المرحلة ما كانت تعنيه السعادة. ربما كان سعيدًا كل هذه السنوات من دون أن يعلم. صار أمرا محتملا للغاية.

«الآن هذا المكان يبدو غير سعيد. أتعلم، هنالك حيوانات تذهب وحدها للموت؟ لا أعلم أي نوع لكنها موجودة. المكان يبدو كمكان تذهب إليه إن كنت تريد أن تموت.»

«شكرًا جزيلًا.»

«صدقا. الجو هنا غريب.»

«ربما بسبب الفتى، قريب مارينا.»

«بارد»

هز جوليوس رأسه، لكنه شعر بالذنب للأمر. لم يعمل الفتى على افتعال أي شيء غير الذنب منذ اللقاء الأول المشؤوم. «سمعت بأنه ليس سيّئًا إلى ذاك الحدّ.»

«ممّن سمعت تمامًا؟»

«حسنا. إنه بارد.»

«أتريدني فعلا أن أذهب لهذا الزفاف؟ لا أظنني أستطيع مواجهة الأمر.»

«إنها واحدة من أعز أصدقائي. ربما أعزّهم جميعًا والأقدم.»

«أعلم أعلم. الفتاة البورجوازية الرائعة الواقفة في صف المقصف خلال اليوم الثاني من الجامعة. كل شيء سيكون لامعا ولائحة الضيوف الطويلة. أعلم أعلم.»

«لقد ذهبت إلى أحداث كثيرة لأجلك.» الآن، أكثر من أي وقت مضى، كان جوليوس على وعي بكل ما تنازل عنه - مُكرَهًا، في الحقيقة، لكن مع ذلك، هذا الزفاف غير قابل للنقاش.

«ما خطبك أنت وأصدقاؤك من الجامعة؟ وكأنك لم تتجاوزهم أبدا.»

«لم أحتج لذلك قط.»

«أهذه من إيجابيات أم سلبيات الذهاب إلى مدرسة مرموقة؟»

«منذ متى لم تكن جامعة يونيون مرموقة؟»

«ليس لها علاقة بالتعارف الاجتماعي والأغنياء المدللين.»

«ليست مدللة ديفِد. صدقني» لم يستطع المقاومة، « أن تخلط مارينا بالمدللين يعني بأنه ليست لديك أيّ فكرة عنها.»

«موقفي ثابت.»

«أنا أطلب منك هذا. وأن تقود السيارة، وعلينا أن نأخذها بعد ساعة. الزفاف على الساعة السادسة، والرحلة تستغرق ساعتين ونصف للوصول إلى هناك، وأريد أن أسجل دخولي إلى الفندق أولا.»

«أظنني قد تركت عمّال النّقل يأخذون بذلتي الرسمية. إنها في المخزن الآن – لا يمكنني الحصول عليها قبل الإثنين. أوبس. آسف.»

«إذًا فبذلتك السوداء العادية مناسبة.»

«مناسبة؟ لا أظن ذلك.»

«لقد حزمت الأمتعة لأجلك.» أشار جوليوس إلى الحقيبتين بجانب الباب. «كل شيء نحتاجه، بما فيها المرطب وحبات معطر الفم.»

ما زالت عينا ديفِد مغلقتين، يداه فوق رأسه. «كريما الحلاقة؟»

«معجون الأسنان أيضا.»

«قصة ما قبل النوم؟»

«هي كذلك»

«لا زلت غير متأكد إن كان بوسعي الذهاب. مجرد التفكير في الأمر يزعج معدتي. وكأن كل أصدقائك أعضاء لنادي مينسا أو شيء من هذا القبيل. وكأن عليك أن تنجح في اختبار لكي تنضمّ إلى النادي.»

«كان عليّ أن أدفعك للقائهم من قبل.»

«لماذا؟»

«ما كنت لتخاف، آنذاك. ربما كنت لتتوق للأمر.»

«لست خائفا. أعني، من هؤلاء الناس؟»

«والدها في الحقيقة جد مشهور، لعلمك.»

«في مجلات طموحة لا يقرأها أحد.»

«هل الأمر مهم؟ إنها صديقتي المقربة.»

«ألا يجعل هذا الأمر أسوأ؟ لقد حصلت على الكثير منك لوقت طويل. لا يمكنني تحمل الأمر بحق. وأنت ملكي الآن.»

«أنا لست ملك أحد. أيها السيد رجل، كما هو معلوم.»

«أنت لا تحبني.» جلس ديفِد، رسم ملامح حزينة، كوجه مهرج حزين. كان شعره أشعث بشكل مغر. «لو كنت تحبني، كنت لتعفيني من هذا. كنت لتبقى معي هنا.»

«تعال معي. على الأقل حتى ستوكبريدج. عليك أن تقود السيارة. سيكون الفندق جميلا – وعدَتني مارينا بذلك. ثمّ قرّر...»

وقف ديفِد « يجب عليه أن يكون أجمل من هذه الحفرة.»

«ربّت جوليوس على ذراعه متلاعبًا. «هذا منزلي. بكل تواضعه، وكل ذلك. إن كنت أنت تحبني، ستتحمل الأمر.»

«سأوصلك إلى ستوكبريدج.» تنهّد تنهيدة ضخمة وساخرة. «من كان ليظن أن الأمر سينتهي بي هكذا. سائق السيدة موك المتواضع، وحارسًا لكوخ الموك.»

«لست أمزح.» قال جوليوس، بصوت مازح. «لا أصدق بأنني حقا أفعل هذا.»

«أوه لا، أوه رجاء، سيدة موك، سامحيني.»

«لا يمكنني بحق ديفِد.» جوليوس أيضا كان واقفا، الشفة الرفيعة والعينان الناتئتان. كان لا يزال يحاول أن يتظاهر بأنه يمزح، فبالرغم من

أنهما معا يعرفان العكس، بدا التظاهر مُهمًّا. «إذًا لمَ لا تذهب لتلميع سيّارة البِنْتلي لكي ننطلق؟»

أصدر ديفِد صوتا بين شخير وضحكة، صوتًا غير مفهوم أزعج جوليوس أكثر، لكنه تحرك إلى الباب وحمل حقيبته حتى وهو يصدر الصوت وعرف جوليوس بأن هذه الخطوة الأولى، على الأقل، لقد ربح.

«ستحظى بوقت جيد، أعلم هذا.» قال وهو في الدرج المغلق، حيث علق الهواء القديم والعطن. ثم استدرك «أو وقتا مثيرا للاهتمام، على الأقل. أستطيع أن أعدك بوقت مثير للاهتمام. المثير هو أمر جيد، صحيح؟»

«أيعقل أن تعيش في عصر مثير للاهتمام؟ أذلك جيد؟ ظننتها لعنةً كونفوشيوسيّة، لا نِعْمة.»

«حسنا عزيزي.» مرّر جوليوس بسرعة ذراعه حول خصر ديفِد وهما يخرجان إلى الشارع لكنه سحبها حالا لأنه ظن بأنه أحس بديفِد وهو يجفل، لأنه كان يعرف بأن ديفِد لا يريد لحميميتهما أن تُرى. «لا قلق من تلك الناحية على الأقل. مهما كانت، عصرنا يكاد يكون مجرمًا في عدم إثارة الاهتمام. أكثر العصور رتابةً إطلاقا.»

«يمكننا أن نجعلها مثيرة سيدة موك،» قال ديفِد، باديا أكثر فرحا فجأة. «الخروج من هذا المكان فقط كبداية. انظر، الشمس تشع. انظر، لا يزال العالم هنا.»

«ليس سيئا لتلك الدرجة.»

«إنه كذلك. لا تتجهم، إنه كذلك. هنا في العالم الكبير، حتى ستوكبريدج تبدو ممكنة. إنه ذلك المكان، أقول لك، حيث تذهب الحيوانات لتموت»

الفصل الخمسون

السيّدة في الانتظار

بدا هذا الوقت وكأنه سيكون أسوأ من الرابع من يوليو. كانت الوحيدة التي ستمكث في المنزل خارج أفراد الأسرة – إلى جانب سيلي الذي لا يمكن حُسبانه في هذا السياق. غرفة العانسة طبعا، كالعادة. لكن هذا لم يكن التحدي. يكمن التحدي في ثقل الهواء. هي التي شعرت بأنها ترى بوضوح إلى حد الألم، شعرت بأن الحقيقة الجليّة مع موررّاي قد حرمتها (ليس عن طريق مساعدته أو أي شيء قام به، بل فقط بحضوره، وكأنه كان جزءً مفقودًا منها، كاستيعاب أفلاطوني مكرر ومكرر يوميا: كان هذا بحقّ هو الحب) شعرت الآن بأن ثقل المشاعر يقع كحجاب، كضباب خفيف. لم يكن هنالك أيّ تبادل للحديث على بساطته. للغرابة، لودفيك هو الوحيد الذي بدا على نفس الأمر، ذاته الكتومة في وجه الأزمات، ينسل إلى داخل وخارج الحوارات بحركاته التهكمية. كانت مارينا في فوضى. أمها، أنابيل القوية، كانت قد وقعت في تشويش صريح، مشغولة للغاية بالترتيب (أين هي باقات الزهور؟ الآن رجاء، الآن، ووضعيات الكراسي، في صفوفهما المعوجة قليلا، قبالة العريشة، وربط زوايا الخيمة نتيجة الجو المعتدل، والغيوم المنخفضة المتسارعة في السماء، أهناك أيضا شيء يمكن القيام به بخصوصها؟) حتى لم

تعد قادرة على الإنصات. مثَّلَتْ هي وابنتها لدانييل بشكل مكرر لوحة الطفل المتوسل، الحزين التابع في حضور أمها. هذه الرؤية، تكررت على المرج، في المطبخ، الحمام – دفعت دانييل للتفكير في حركية أسرة ثوايت، أو بالأحرى، كخدعة لوحة من لوحات فيشر، رؤية الشيء نفسه معكوسا. دوما ما رأت دانييل أنابيل كالغريبة المنبوذة، التي تهتم بزوجها وابنتها اللذين كان رباطهما العاطفي لا يفسح مكانًا لها. لكنها في هذا اليوم شعرت بأنها نُوّرت: ربما في الحقيقة، احتاج موراي ومارينا بشدة لأنابيل، رغبا في اهتمامها أكثر من أي شيء، وعندما لم ينالاه انقلب أحدهما إلى الآخر بحثًا عن العزاء لأن قوتها العارمة المغذية كانت مبعثرة على نطاق واسع – حول انسياب عوالمهم، تجهيز الزفاف، إنقاذ ديفوغن وآخرين كديفوغن، الكلمة الطيبة دوما، راحة اليد المُرَبِّتة على الكتف، المجهود المضاعف والمهم – فصارا نهمين للمزيد، موجهين هوائياتهما نحو السماء. بدت أنابيل لدانييل غير مهمة بينما في الحقيقة – صعدت مارينا الدّرَج خلف والدتها، ممسكة إياها من حاشية ثوبها– لقد كانت تجسيدًا للعائلة نفسها.

مما جعل دانييل فطنة. فوفق هذا المنطق، هي أيضا كانت عزاءً، لا فترة الراحة أو الإشباع النهائي الذي لطالما ظنّته. التفت إليها موراي لا كما تنحني الزهور للشمس لكن بالروح الصغيرة والآسفة للانحراف. لم يبد هذا ممكنا – كونهما شاركا عالمهما السري بين لوحات روثكو – أزعجها الأمر يوم الزفاف – حتى في خضم الماكياج، مصففة الشعر، إحضار المياه الغازية لمارينا، الضحك، كلاهما في الملابس الداخلية بعد أن أزالتا جواربهما الرفيعة وقررتا الاستمرار من دونها – حتى لم تعد تستطع التفكير في شيء آخر.

انسحب موراي من كل شيء. كان مكتبه خارج غرفة نومهما، وحتى في صباح زفاف مارينا حبس نفسه هناك، زاعما إنهاء عمود جريدة، أم ربما كان مقال مجلة. لم تكن مارينا متأكدة، لكنها أخبرت دانييل بأن عليهما ألا يزعجاه – لا حتى بشأن الشامبانيا والثلج، اللّذيْن كانتا مهمته – إلى حين بعد الزوال.

في وقت الغداء، أعدّ متعهّد الحفلات شطائر، وشرائح بطاطا، وبطيخًا، وليمونادة على عربة المطبخ، فهجم الجميع عليه ثم ابتعدوا حاملين حصَصَهم على أطباق ورقية إلى زوايا قصيّة. مارينا المغمورة بالخرافات فجأة، اختبأت في غرفة نومها حتى لا ترى لودفيك (الذي كان هو الآخر في سخرية من قواعد اللّياقة قد تم نقله، بناءً على طلب مارينا، إلى غرفة ضيوف مزدوجة أخرى) وأخبرت دانييل بأنها تحتاج لبعض الوقت بمفردها لتفكر. هكذا وجدت دانييل نفسها في العريشة الخارجيّة، حاملة جبنة الموزاريلا، والحبق، والطماطم على خبز إيطالي، ظهرها إلى المنزل، مدركة لتواجد النحل على الزجاج، وفي النهاية فحسب، فجأة، لانضمام موراي إليها.

«هل يُسمح لي بالانضمام؟»

«ربما ليست أفضل فكرة»

«ستستغرب أسرتي إن لم أغازلك ولو قليلا. عندي سمعة يجب المحافظة عليها.»

«أجد الأمر غريبا للغاية، فقط.»

«أنا بعيد عن الأمر.» جلس، على المقعد المقابل لها، بعيدا عنها ما أمكن. بدا كما لو أن بشرتها تحاول تحريك جسدها، إغلاق الهوة: التوق.

«من الصعب القيام بذلك عندما تكون الإشبينة الرئيسة. من واجبي التدخل.»

«فعلا.»

«لم أطلب الكثير أليس كذلك؟»

«ماذا تعنين بحق السماء؟ يمكنك أن تطلبي ما تريدين.»

«أريد الليلة. ليلة. أيّ واحدة. المهم كلها.»

«نعم. سيكون هذا... نعم.»

«سيكون عليك أن تكذب. لن ترغب في ذلك.»

نظر إليها عبر شعره، كفتى.

«يمكنك أن تقول بأن عليك السفر. حوار. نسيت، أحد ما ذكرك، عليك أن تذهب.»

«متى؟»

«قريبا.»

«لم الآن؟»

«لأنه.» تنهدت. لم تستطع أن تقول بأنها كانت عالقة مع خوف حبه لزوجته. في حوارهما، الطبيعي جدا، كانت سمة صارخة أن تحب زوجتك. تحدث عن الأمر بالعادة، وهي تحملت الأمر، معتبرة الأمر أساسيا لرجل متزوج منذ ثلاثين عاما. لكنه كان بطريقته الخاصة شخصا صادقا، كان هذا ما قدسته، فوق كل شيء، ما أرادته – وفي ظل هذا النور المتخيل الجديد، كان يعني كل كلمة كما كانت تُقال. مواهبها كقارئة فقط هي ما كانت على خطأ. «لأنني أريدك أن تفعل. ولم أسألك من قبل أي شيء مثل هذا. ولن أفعل مجددا أبدا.»

«لا تعدي كثيرا.» هو الآخر، تنهد. تمنت لو كانت تعرف تأويل تلك التنهيدة التي بدت فجأة مفتوحة لتأويلات عدة. بعضها ملائم لها. ثم قال، بانخفاض شديد «ألا تعلمين بعدُ أننا كلما حصلنا على المزيد رغبنا في المزيد؟»

فشعرت هي بغمرة سعادة.

وقف، ممسكًا طبقه غير الممسوس أمامه كعرض. مرّر يده عبر شعره، بطريقته الصبيانية. أرادت أن تقبله، نظرت إلى أسفل نحو بطيخها بدل ذلك.

«لدي محاضرة في شيكاغو الإثنين المقبل وقد تم تأجيلها.» قال، «عرفت هذا البارحة. إنها مسطرة على المفكرة. أنا رسميا خارج البلدة.»

«هل ستفعل ذلك؟»

«أنا رسميًّا خارج البلدة.» قال. وهو يغادر. «أتريدين بعض الفودكا في ليمونادتك حتى تساعدك على الاستمرار؟ يمكنني القيام بهذا بسهولة ولن

يلاحظ أحد.»

«سيكون هذا كل شيء» قالت، وهي تبلع كلمة « إلى الآن...»

الفصل الواحد والخمسون

«عهود – بقلم ليزا سولومون»

حصريا لجريدة نيويورك تايمز

عندما سارت العروس عبر الممر ممسكة ذراع والدها، علت الشهقات بين الحضور. ملفَّعة في مخمل بلون زبد البحر، كانت تحمل مجموعة زهور ليلك، وترتدي اثنتين أخريين مشبوكتين إلى شعرها الفاحم. ابتسامتها، علق أحد الضيوف، كانت كشمس ثانية بذلك المساء الصيفي العظيم. «لطالما كانت كذلك. شعاعا من الشمس»، العهود التي كتبها الزّوجان قُرئت بالتبادل على عتبات حديقة منزل الأسرة الصيفي غرب ماساتشوسيتس، تحت ولاية جوديث روهمر، قاضية محلية وصديقة قديمة للعائلة. أدمعت العروس بجلاء، وأمسك الزوجان بيدي بعضهما طيلة الوقت.

«يعكس الزفاف برمته أسلوب مارينا،» حسب شهادة الناقد جوليوس كلارك، الذي يعرفها منذ أيام الجامعة ببراون. «كلنا كنا نعلم بأنها إن تزوجت فستحتفل بالأمر بشكل أكثر جمالا من البقية. لقد كانت فتاة مرموقة طيلة حياتها.» صحفيةٌ ومؤلفة كتاب اقترب صدوره «ليس لأطفال الإمبراطور ملابس.» مارينا ثوايت، ثلاثون عاما، هي ابنة الصحفي المعروف موراي ثوايت وقد جذبت الانتباه منذ أيامها في الثانوية حينما كانت منظمة للحركة الوطنية لطلاب الثانوية المناهضين للتمييز العنصري وأحيانا عارضة

أزياء لمجلة إيل وسيفينتين.

زوجها، لودفيك سيلي، في السادسة والثلاثين – هو نفسه رجل مرموق، تم إدراجه الشهر الماضي في مقال مجلة نيويورك حول العزّاب المتوفرين – أقرّ قائلًا: «كان حبا من أول نظرة، بالنسبة لي» يكمل «التقينا عبر صديقة لها (دانييل مينكوف، مخرجة شرائط تلفزية وكانت أيضا الإشبينة الأولى)، وفي لحظة تعارفنا أيقنتُ أنها المنشودة.» كان هذا لقاءً عابرًا في متحف ذا ميتروبوليان «بصراحة، كان اللقاء على الطعام لا حول الفن» تضحك مارينا. أخذهما الأمر بعض الأسابيع ليلتقيا مجددا – في حفل عشاء تكريمي لوالد مارينا – لكنهما ما إن فعلا، في أيّار من هذا العام حتى تقدمت الأمور بسرعة.

«عرفنا أننا مقدران لبعضنا،» شرحت مارينا. «فما الداعي إذا للانتظار؟»

ومن باب السخرية لهذا الثنائي اليافع أن عليهما إحضار طفلهما الأول إلى الحياة بعد أسبوعين فقط: السيد سيلي، المنحدر من سيدني، أستراليا، انتقل لنيويورك سابقا هذا العام ليقود جديد منشورات ميترون الأسبوعية، ذا مونيتور، التي ستنطلق في التاسع عشر من أيلول. مارينا ثوايت هي المحررة الثقافية للمجلة. «الأمر جد حماسي أن نعمل معا على هذه الصحيفة الجديدة الرائعة.» تقول مارينا « ستفاجئ الناس بحق. لودو محرر خيالي.»

يرجع زوجها الإطراء «انضمت مارينا إلينا هذا الصيف، وقد قامت بعمل استثنائي. إنه فريق رفيع وأنا أظن بأن القراء سيتفاجؤون بالمجلة – إنها شيء جديد كليا.»

من المقرر أن تكون حفلة الإطلاق، مثل هذا الزفاف وأقل حصرية بقليل فحسب، واحدة من أهم مواعيد مذكرة هذا الخريف. «ستكون أكثر إثارة.» يعترف لودو. «أردنا لزفافنا أن يكون هادئا وحميميًا.»

والد العروس، موراي ثوايت (كاتب، آخر أعماله: عندما تغني السيدة

السمينة) لم ير بعد أيا من مقالات ذا مونيتور. «لقد سمعت عنها مع ذلك. ستكون مختلفة عن أي شيء آخر. ستكون رائعة.»

إن كان الزفاف أمرا يمكن الحكم انطلاقًا منه، فذلك حتما صحيح. الوجوه المألوفة للنخبة المثقفة لنيويورك وواشنطن احتست الشامبانيا وقضمت من فطائر الكافيار على العشب المتموج بينما عزفت فرقة موتزارت مقطوعة: ساعة الشفق. غمرت ضفادع الأشجار الحفلة بألحانها أيضًا، وبينما أرخى الليل أطرافه، تم توجيه الضيوف إلى موائد مزينة بشكل جذاب تحت خيمة كبيرة. عندما حان وقت تقطيع الحلوى، عادت السيدة ثوايت والسيد سيلي إلى مكانهما حيث نطقا بعهودهما وقبّلا بعضهما أمام الحشد المهلل.

ومع ذلك، لم يكن كل شيء غامر الأناقة والرزانة، حالما شرع الرقص، ركلت السيدة ثوايت حذاءها وخرجت إلى العشب، زوجها الأنيق، بربطة عنق مرتخية، لحقها مباشرة «هذا عظيم» قالت «من كان ليقول بأن الزواج يمكن أن يكون محرِّرا؟»

«إنها مسألة إيجاد المحرر المناسب» قال السيد سيلي مازحًا وهو يلُفّ عروسه على إيقاعات السامبا.

الفصل الثاني والخمسون

وقت النوم

لقد نجونا» استلقى موراي على السرير وعيناه مغلقتان. يداه موضوعتان خلف رأسه. «لقد نجحنا. دعيني أقل، لقد نجحتِ. قمتِ بكل شيء. برافو»

«ليس تماما. أنا سعيدة لأن كل شيء قد مرّ على ما يرام.»

« لا يزالون منهمكين بالتنظيف بالخارج. الرابعة والنصف.»

«هذا زفاف جيد»

«أبقي أحد ما؟ أما زال لدينا ضيوف بالجوار؟»

«أظن بأن دانييل قد غادرت مع جوليوس ورفيقه. أخبرتها بأن تبقى لكني أظن بأنها وجدت الأمر غريبا، أن تتناول الفطور معك ومعي. فيض من الآباء»

لم يفتح موراي عينيه. تخيلها في شقتها، الضوء على خدها. تنهد. «إنها فتاة لطيفة. تحب مارينا.»

«لم تكن تريدها أن تتزوج لودفيك مع ذلك.»

«من كان يريد ذلك؟»

«توقف عن الأمر. لم يكن أحد لينجح في اختباراتك. إنه يعشقها.»

«أيفعل؟ إنه شخص مراوغ.»

«هذا ما تعتقده دانييل.»

«شيء متكامل، هذا الذي اشتراه، أليس كذلك؟»

«اشتراه؟»

«فاز به. مثلما تشائين. ارتبط بمارينا وانتهى به المطاف بأن يكون قريبي في نهاية الأمر.»

«هذا في غاية الأنانية، حتى منك عزيزي.»

استقام موراي، فتح عينيه وبدأ بفك أزرار قميصه. «ليتني كنت أظن ذلك. إنه طموح جدا. ذلك المراوغ الأنيق، بأقمصته الضيقة. يريد أن يقوم بشيء عظيم، وصدقيني، سيكون التخلص مني جيدا كفاية. كلما اقترب أكثر، كلما صارت الصدمة أكثر فتكًا.»

«ما الذي تتحدث عنه؟»

«المقال. مقال الفتى.»

«ماذا بشأنه؟»

«لقد أخبرني بنفسه، الفتى، أخبرني بأن سيلي رغب في نشره. ربما لا يزال يرغب في ذلك. لست مجنونًا لعلمك.»

«أنا متأكدة من أنه كان يختلق ذلك فقط لينتقم منك. بوتي. فِردرك. الفتى المسكين. لقد كان يقدسك.»

«وكانت له طريقة غريبة لإظهار ذلك.»

خطت أنابيل خارج ثوبها ووقفت في ملابسها الداخلية، في حوض من الحرير. «إنهما يحبان بعضهما. الآن حان وقتهما.»

«ووقتي لم ينته بعد، حبيبتي.» لف موراي ذراعيه حول زوجته، حملها عن الأرض، خارج ثوبها، وألقاها، بضربة واحدة، على السرير.

«لا، لا أظن بأن الأمر كذلك.» قالت وضحكت «لكنها الرابعة والنصف صباحا.»

«أمامنا الأبديّة لننام. لمَ العجلة؟»

الفصل الثالث والخمسون

تايغر وودز[30]

استيقظت دانييل على أرض غرفة جوليوس وديفِد بالفندق، عند نهاية سريرهما، ملتفة في غطاء سريرهما، معرقة قليلًا، وفي ملابسها الداخلية. كانا لا يزالان نائمين، أحدهما يصدر شخيرا طفيفا وتدلت قدم جوليوس في الهواء خطرة قرب رأسها. شيء ما – ربما غطاء السرير أو السجاد القرمزي الباهت المطرز بأشكال كبيرة والقريب جدا من خدّها – كان يعبق برائحة عفنة. فكرت في المغادرة، الانسحاب بهدوء قبل أن يقوما من النوم، فقط لتتذكر بأنها عالقة في ستوكبريدج ومعتمدة على مساعدتهما. الجميع – أي مارينا وأنابيل – توقع منها البقاء في منزل الأسرة بعد مغادرة الزوجين الجديدين، في سيارتهما المزينة التي يقودها سائق خاص، نحو فندق أنيق بلينوكس. ربما تخيلا كذلك بأنها ستركب مع موراي وأنابيل في الكرسي الخلفي للسيارة عائدة معهما إلى المدينة، وتخوض في حوارات شيقة. لم يكن بمقدورها القيام بذلك. في الحمّام، تذكرت الليلة الماضية في ومضات: الاحتفال، الخطابات، الخلاف بين العروس والعريس عندما ظنا بأن لا أحد يراهما. كانت مارينا متوترة، غاضبة تقريبا، في بداية الحفلة – ظنت دانييل بأن الأمر يعود إلى موراي، إلى

30) تايغر وودز Tiger Woods (1975) لاعب غولف أمريكي محترف.

غرابتها مع والدها– وكان عليها ارتداء وجهها الاجتماعي، وراقبتها دانييل وهي تذوب تدريجيا في دورها، حتى صارت على الجمال المرتاح الذي كانته. بدا أن الخلاف على الدّرَج كان بخصوص المرأة من قسم الأناقة في مجلة التايمز. أكد سيلي بأن على مارينا ألا ترفضها.

«الأمر جيد لنذا مونيتور» كان يقول. «تذكري هذا.»

«إنه يوم زفافنا اللعين لودو. لا أريد أن أستمر في الحديث إلى تلك المجنونة ومذكرتها.»

«إنها ذا نيويرك تايمز»

«لا أهتم. من السيئ سلفا أنها هنا. دعها تراقب ما تريد. لا أريد التحدث إليها.»

عندئذ أظهرت دانييل نفسها، ألقت نكتة، وعرضت إلهاء الصحفية إن كانا يريدان ذلك.

«لقد طلبت خمس دقائق للحديث إلى مارينا.» قال سيلي، مضيقا شفتيه. بدت الوردة على طية صدره وكأنها انكمشت من سخطه. «ليس طلبًا كبيرًا.»

«يا إم» دانييل، خلافا لما يخالجها، اختارت أن تُهدّئ الأمور «خمس دقائق؟ من أجل سبق صحفي سلس لليلة زفافك؟ هيا، يمكنك القيام بهذا. من أجل لودو. من أجل الحب؟»

كانت النظرة التي رمقتها بها مارينا غريبة، وكأنما ظنت بأن دانييل كانت تسخر أو تطلق حُكمًا. وكأنما، فكرت دانييل في الحمّام، بأن مارينا قد ظنت بأن دانييل شهدت انكشاف ألوان سيلي الساخرة الحقيقية. بالنسبة له، حتى الزفاف كان يخص مسيرته. لم تفكر في الأمر آنذاك، ولربما كانت تعكس أفكارها فحسب. على أيّ حال، أعادت مارينا ترتيب ملامحها، تقدمت إلى الأمام مبتسمة وأتمت واجباتها تجاه الحب وتجاه ذا مونيتور.

أما عن المساء، كل ما كانت تتذكره، بلا شك، موراي. بعد حوارهما

وقت الغداء، بالكاد تبادلا أيّ كلمة، لكنها كانت تشعر به طيلة الوقت، كما لو كان يحمل إشارة إلكترونية، مدركة من بعيد لخبرته المخيفة في لا اهتمامه الواضح، في قدرته الممتازة على لعب الدور المطلوب. هو ومارينا، اثنان لا ثالث لهما.

وأيضًا، كان هنالك جوليوس، الضائع منذ زمن، الممسك قليلا فقط وبخجل يدَ رفيقه. بدا ديفِد جيدا. في الحقيقة، بدا ديفِد لدانييل غير ذي قيمة أبدًا، شاب – حتما أصغر – مهذب للغاية، وسيم كفاية، ممل قليلا من ويستشيستر، من نوع رجال الأعمال الذين كنت لتحييهم في أيام الجامعة بحماس في حانة السلطات بابتسامة صادقة حتى، لكنك لم تكن لتهتم أبدا بأكثر من ذلك، لأنك استشعرت – من الملابس، الأصدقاء، قصة الشعر، الشعبة (غالبا العلوم السياسية أو الاقتصاد) حتى من نبرة صوته – بأنه لم يكن يملك شيئًا مثيرا ليقوله. أحد أكثر صفاته المثيرة، بالنسبة لدانييل، كانت الدرجة التي بدا عليها عاديا، طبيعيا. مما قد يفسر ولو جزئيا انجذاب جوليوس، طبعا، أما عن قوة المسألة، سريّتها المطوّلة فقد حيّرت دانييل. لم يبد ديفِد عدائيا أبدا – «سمعت عنك كثيرًا» – قال، مادًّا يده الضعيفة عند تعارفهما – يكاد يكون غير ذي شأن. فضّل أن يبقى متحفظًا بشكل ودي. لاحظت بأنه لم يرقص، نوع خاص، وبدل ذلك جلس على الحافة بكأس بوربون بالثّلج وفي عينيه نظرة متسامحة ومرهقة، بينما دانييل تعانق جوليوس ثمّ رقصا أمامه. توقعت، آخذة الماضي بعين الاعتبار، بأن جوليوس يتملق رفيقه، يركز فوق كل شيء على ديفِد في هذا الاجتماع للأصدقاء القدامى الذين لا ينتمي إليهم، لكن جوليوس أثبت بشكل مفاجئ، على عادته، القسوة من هذه الناحية، وتخلى عن ديفِد لمُدد طويلة ليثرثر مع أناس لم يرهم لسنوات.

تانيا ريد مثلًا، لم تُعجَب دانييل بها أبدًا، واعتبر الجميع أن مرارتها نابعة من نقص ثقتها – لم تصدق دانييل عذرا كهذا «كلنا غير واثقين» كانت لتقول، «ومن ثم فإن بعض الناس مهذّب وبعضهم وقح.» كانت

عقيدة قوية لراندي مينكوف. ثم إن النجاح لم يجعل تانيا بارزة، بالرغم من ارتدائها ملابس أغلى واعتنائها بتسريحة شعرها (تسريحة جعلت رأسها أشبه برأس دبوس، ما دفع وجهها الضيّق الأشبه بحصان إلى التوازن بفقاعة بنية منتفخة تعلوه). وبعد أن أمضى جوليوس معها عشر دقائق يتفقد أحوال عملها (جريدة نيوزويك، عقد كتاب، دعوة للتدريس في جورجتاون)، وقفت دانييل وراقبت محاولات تانيا المتشنجة لتحريك جسدها بتوافق مع الموسيقى، هزٍّ وترنح غير عادي في بذلة حريرية بنفسجية، وهمست لجوليوس، حين عودته من الرقص، «ها هي امرأة بيضاء نحيلة تذهب»

جملة كررها جوليوس لديفِد الذي ضحك بحماس اعتبرته دانييل ميزوجينيًّا: شعرت بأنه كان يضحك على الشيء الخطأ. لكنه بدا معجبا بدانييل بعد ذلك/ وقام بمجهود أكبر ليتحاور.

لم يكن سعيدا مع ذلك بخصوص مشاركة غرفة الفندق. انخرط هو وجوليوس فيما يشبه الهمس، بعد أن طلبت دانييل من جولويس الخدمة. عرفت بأنها خدمة كبيرة – شكت في أنهما تصورا بقاءهما في فندق نيو إينغلاند القديمة الغاصة كاختباء رومانسي لا كحفلة نوم – لكنها لم تملك خيارًا آخر. بينما كان الرجلان يتناقشان، لمحت جوليوس يهز رأسه، وفي مرحلة بدا وكأنه يكاد يهز إصبعه. طبعا كان مرحّباً بها، طمأنها لاحقا. لم يكن في الأمر من خطب. وساعدها ديفِد على حمل أغراضها من الغرفة الصغيرة الزرقاء إلى سيارتهما الرمادية من ماركة غراند آن المنتظرة «جميلة وصديقة للميزانية»، قال ديفِد مدورا عينيه.

عندما خرجت من الحمام، مرتدية ملابس نظيفة وشعرها مبلل، وجدت ديفِد جالسا في السرير، صدره عار، ظهره مقابل رأس السرير الخشبي. كان يرتدي نظارات لم يرتدها الليلة التي سبقت. جولويس لا يزال نائما، تململ قليلا.

«يمكنني أن أوصلك إلى القطار إن أردت،» قال.

«الآن؟»

هز ديفِد كتفيه «لا وقت أفضل من الحاضر.»

«لا أعرف جدول المواعيد.»

« محطة أمتراك؟ سيكون جدولا عاديا.»

«إنه يوم الأحد كذلك.»

«ومع ذلك، في الصباح، أو الظهيرة، أنت تعلمين.»

«تريد أخذي الآن؟»

«يبدو أنه الوقت الأكثر ملائمة.»

كادت دانييل أن تتأثر. تعامَل بمَرح فريد حول الأمر، لكن كان واضحا لها أن ديفِد لن يقبل أيّ معارضة. أرادها أن تغادر قبل بدء اليوم – يومه مع جوليوس – «مهما ناسبك» قالت. لم تكن ستعارض – بعد كل شيء، لقد اقتحمت مهربهما الرومانسي غير مدعوّة – لكنها لن تنسى أيضا. لم يكن عليها أن تنسى، أدركت: الحدود قد أقيمت. كان يتم إعلامها ضمنيا بأن عليها ألا تقتحم هكذا مجددًا.

بَعُدت المحطة في ألباني حوالي الساعة. قاد ديفِد بسرعة والموسيقى مدارة – لحن ما جديد، مألوف جدا لكن دانييل لم تستطع تحديده. لم يكن يميل إلى الحديث تماما، لكن دانييل من حين لآخر كانت تصر.

«كيف يسير البحث عن عمل؟» سألت، في مرحلة ما.

رمَقها بنظرة، غير مصدّق أنها أثارت سؤالاً كهذا، من بين كل الأسئلة.

«جيد» قال.» أظن ذلك. أعني، من يعرف بصراحة؟ غير جيد، كوني لا أملك عملا.»

«لا»

لم يتطوع لقول المزيد. بعد مدة، قالت «كيف وجدت شقة جوليوس؟»

«محزنة» قال « مشهورة بحزنها، قاتلة بحزنها»

هزت رأسها « لم أذهب إلى هناك منذ مدة لكنها لطالما كانت كذلك»

«محزنة بشكل لا يمكن إنقاذه. غير صالحة للعيش البشري»

«حتمًا ليست بذلك السوء؟»

«رأيت المكتري البارحة صباحا. فتى طويل ممتلئ بنظارات ووجه مستدير في زاوية الشارع. بدا كما لو أنه بالكاد خرج من هناك حيا.»

«ذلك بوتي – فْردِرك – تاب. قريبُ مارينا. بدا كذلك لأسباب أخرى. لا شيء يتعلق بالشقة، أقسم على ذلك.»

«وتلك الأسباب هي؟»

«لم يتحدث جوليوس عن الأمر؟»

«من الصعب تصديق هذا لكن حياة بوتي تاب ليست موضوعا كبيرا في منزلنا»

«إنها قصة طويلة. من المفترض أن يكون في الزفاف، لكنه واجه أزمة.»

«مع مارينا؟»

«معهم جميعا.» الآن جاء دور دانييل في لعب دور الذي لا يودّ تبادل الحديث. «إنه مجرد فتى،» قالت. «فتى ذكي ومضطرب. كما كنّا جميعا.»

«تحدّثي عن نفسك.»

«لا تعتقد أنك كنت كذلك؟»

رمقها بنظرة صارمة. سقط الصمت مجددا.

«ما الذي تخصصت فيه في الجامعة؟» بادرَت مجدّدًا، بعد بعض الوقت.

«العلوم السياسية»

«ممم»

«لا بد أنك درست دراسات إنجليزية، صحيح؟»

«هل الأمر واضح لهذا الحد؟ كلنا كنا كذلك. إنجليزية وفلسفة. لا

أتذكر شيئًا.»

«ومن يتذكر الآن شيئًا...»

«حقًّا. أنظُرُ إلى الكتب على أرفُف مكتبتي، لقد قرأتُها حتمًا في وقت ما، لكنني لا أستطيع تذكر فعل ذلك، ولا أملك أدنى فكرة عمّا يمكن أن يكون موضوعها.»

«اقرئيها مجددًا إذًا»

تنهدت دانييل. «ليس الآن. ربما يومًا ما. أنظُرُ إليها وأتساءل مَن كُنت، أتعلم؟ مرّ وقت طويل. أنا في الثلاثين.»

«يجب أن ترمي تلك الكتب.»

«في القمامة؟»

«شيء كهذا»

«سيكون هذا تدنيسًا.»

«أتعلّقين ملابس لم ترتديها منذ عشر سنوات في خزانتك؟ أو تتركين أكياس معكرونة، أو معلبات فاصولياء في مطبخك؟»

لم تحتج دانييل للإجابة.

«ما الأمر بشأن الكتب؟ قابلتُ أناسًا عقلانيّين تمامًا، لكنهم يُجَنّون فجأة بخصوص كتبهم والاحتفاظ بها. من لديه وقت لهذا؟»

«أقيس حياتي بالكتب.»

«عليك أن تقيسي حياتك بالحياة. تصحيح: ليس عليك أن تقيسي حياتك. ما الداعي؟»

«جوليوس يقيس حياته أيضا.»

«لا أظن ذلك.»

«اعتاد على فعل هذا.»

«كلنا نتغير حمدا لله.»

دانييل، شاعرة ببعض الإهانة مكان جوليوس، أخذت نفسا عميقا.

«بالحديث عن الأمر. لقد اقتنيتَ له بذلة جديدة.»

«قبل أن أُطرد. نعم. جميلة. أليس كذلك؟ إيطالية.»

«الأكمام غير متآكلة. اشتقت إلى بذلة أغنيس بي القديمة، تلك يسميها توقيعه المميز، بذلته الوحيدة. لكنه يبدو جيدا في تلك الجديدة.»

«يبدو قليلا كتايغر وودز، ألا تعتقدين؟»

«لم يخطر ببالي من قبل.» فكرت دانييل لوهلة «أعتقد ذلك، قليلا.» مضغت شفتها. «أتتابع الغولف إذا؟»

«ألعبه كذلك.»

«واو. لا أظنني عرفت لاعب غولف من قبل.»

«أهو مضحك لهذه الدرجة؟»

«على الإطلاق – أنا فقط، لم أكن أعرف أناسا، أناسا يافعين يلعبون إلى الآن.»

لم يقل ديفِد شيئًا.

«أعلم، هذا يبدو غبيا. من الواضح أني لم أفكر في الأمر من قبل» غرقت السيارة بمكيف هوائها القوي ورائحة البلاستيك الجديدة في صمت يرتفع تلقائيا. فكرت دانييل في أن النضج، التزاوج، هو عملية النضج بعيدًا عن المرح، كبرمائي توقف عن التنفس بالطريقة نفسها: الضحك، ما كان يوما أمرا أساسيا، راحة متغيرة وكل ما يجعل العزلة والمعاناة والخوف متحملا، قد تم استبداله بالضرورة الملحة للاستقرار: فرح ظاهريٌّ، مطمئن وغير خائف، نضُج المرء ليخاف من النكات وقدرتها على الزعزعة. حيثما وجدت الضحكات هب هناك نسيم بارد. ما الذي جعل جوليوس بعد كل شيء يفيض مشاعرًا تجاه رجل أعمال محب للغولف؟ قبل عام، كان ليقهقه للمسألة. كلهم، ثلاثتهم: قبل عام، كانوا سيكونون مرتبطين لا محالة وكانوا ليظنوا بأنهم سيبقون كذلك للأبد. من المرجح أن الأمر كان أفضل هكذا – كلٌ منهم وجد رغبته القلبية – لكن أكانوا يضحكون كما كانوا يفعلون منذ سنوات عدة؟

هل سيضحكون يوما بتلك الطريقة مجددا، الآن، في عالم رصانة الكبار؟

وهما يسيران، مسرعين، على الطريق، راقبت ديفِد، حاولت بكل ما في وسعها ألا تبدو بأنها تفعل. لم يُعطِ انطباعًا بأنه كان يومًا شخصًا مرِحًا. بدا على هيئة رجل أعمال ولاعب غولف حتى وهو يرتدي سروالا قصيرا. من الصعب التصديق بأن هذا الشخص يصنع سعادة جوليوس. مهما كان ما لديها ضد لودفيك سيلي، لم تكن تراه نكرة. هو على الأقل كان يجعل مارينا تضحك، أو يلزمه ذلك. كان تجسيدا شريرا، بالرغم من أن لا أحد غيرها كان يرى ذلك، لكن في المقابل الأقصى، كان أهلًا للمجهود. وموراي، من جهة فقد كانت متحيزة، ومن أخرى، كان مضحكا. لطالما قالت مارينا، منذ البداية بأنه كان يجعلهم كلهم يضحكون. ميّالًا للسخافات.

كان الزفاف خاليا من السخافات. لا تلاكم، لا دموع غير متوقعة، كل الحوارات كانت في الجهة المناسبة للذوق الجيد، بما فيها خطابها. انتظرت أن يذكر أحد بوتي تاب – في البداية، عندما كانت مارينا ترتدي ملابسها، صعد أحد أعضاء معدّي الحفل إلى أعلى ليخبرهم بأن هناك فتى شابا عند الباب ففزعت مارينا بأنه قد يكون بوتي، لكنه كان فتى توصيل الزهور من كريت بارينغتون يحمل باقة فائضة بالتوليب البنفسجي أرسلها أصدقاء لأمّ مارينا من كاليفورنيا، موجّهة إلى مارينا وهوغو، «الزوجان السعيدان» – لا أحد دعا بوتي، ولا ذكروا والدته. كانا قريبَين مُهمّين لكن في غيابهما فقط. وحتى لو تواجدا، لما لاحظهما أحد، هو الشاب الصامت البائس، يتناول بنهم الحلوى جالسا إلى الطاولة ويحدق بهدوء في العروس، وهي، أمه، في مخيلة دانييل، مرتدية بلوزة، متوردة، غاضة قليلا وفي النهاية دامعة، تمسك منديلًا مخمليًا، تغمغم بمشاعر فياضة حول ابنة أخيها، روابط الدم وكل ما شاركته هي وموراي وهما يكبران. لا، زفاف مارينا المثالي كان أكثر فخامة منهما، لا يمكنهما القدوم أبدا، العوام في المأدبة. الفُرقة – العِداء العائلي – كان ضروريًا، على الأقل لتلك الغاية.

لا أحد يمكن مشاركة هذا معه أيضا. موراي، الأذن الممكنة الوحيدة، شعرت برغبة جارفة في أن تضحك لهذا. دانييل في سيارة ديفِد المكتراة اشتاقت للضحك بشدة لدرجة الاختناق، ضحك قوي لدرجة تكاد معها أن تبلل سروالها، أن تصفرّ، تنحني إلى أسفل، دموع مدفوعة من زوايا عينيها. عندما كانوا في الجامعة، خارجين للعشاء في مطعم إيطالي – لا بد أنه كان عيد ميلاد أحدهم – جوليوس، النظيف والرزين ضحك مرة بشدة حتى سقط عن كرسيه، زحف على يديه وركبتيه إلى خارج المطعم وتقلب بلا حيل على الممر المتسخ، آنذاك فقط استطاع التغلب على الضحك. أو مجددا، في عرض رقص جامعي مع مارينا، تملكتهما سخافة العرض حتى أنهما شخرتا في أماكنهما كخنازير بشكل مكرر وبلا هوادة حتى غادرتا المدرج تاركتين الباب يلطم وحده خلفهم. وسقطتا في هستيريا عالية في الطابق السفلي (في ذلك الوقت، لمحهما أستاذ فطاردهما ووبخهما، وطلب منهما كتابة ملاحظات اعتذار للراقصين) هل انتهى كل هذا؟ أكان هذا النوع من الضحك، هو نفسه، عدم نضج؟ شيئًا لا يقوم به الكبار، خصوصا الأزواج. شيء مفقود للأبد. كم هو محزن.

تركها ديفِد عند باب المحطة وقاد مسرعا. أدركت بأنه، بتعابير فرح تفوق أيّ تعابير صدرت منه، كان سعيدًا للتخلص منها، ووجدت نفسها تواجه ساعة وعشرين دقيقة في غرفة الانتظار القاحلة والشاحبة، رفقة بضع آلات بيع (حيث حصلت دانييل من إحداها، بعد تردد طويل، على قضيب قمح قديم ومهلهل ملفوف في ورق معدني أخضر) وأم متضايقة لاثنين، ملأ رضيعها الضخم وطفلها المترنح المكان بالهياج – منتحبين، صاخبين، متلكئين وصائحين – فكان من المستحيل قراءة الجريدة. في النهاية، التجأت دانييل إلى مقعد على طول المنصة في الظل هربا من الضجة، وتعجبت، في كآبتها الجديدة من حاجتها الغريبة للعزلة. قد تسقط هنا، أمام القطار ولا أحد سيعرف حتى أنها كانت هناك – في ألباني بحق الجحيم، وحيدة في يوم أحد نهاية أسبوع عيد العمال، تائهة تماما، عائدة إلى العمل الأخرق – وقع الاختيار على إنتاج

مشروع فيديو عمليات التجميل - والصمت الأصم لحياتها الوحيدة.

موراي، موراي، موراي. أخرجت الهاتف من جيبها، نظرت إليه، وضعته مجددا. تخيلته لا يزال نائما، ذراع أنابيل المتملكة حول صدره، النور الجميل الساقط على حافة السرير، المنزل هادئ أخيرًا بلذّة وسِريّة، كما لو كانا قد عادا إلى الجنة، إلى حياة بلا أطفال، يمكنهما التعري في أي مكان، المشي عاريين على العشب، إطعام بعضهما العنب والحلوى المعسلة في السرير، كإمبراطور روماني أخير وإمبراطورته. في أيّ سيناريو، صارت دانييل تفاهة غير ضرورية، مُتعة مُتعِبة. كانت هذه واحدة من تصوُّرَين غير متناقضين ويقينيّين معًا. احتفظت بهما في الوقت نفسه في بالها. في الأخرى - وكيف يعقل أن تكون كذلك؟ - كونه اكتشف متأخرا رفيقة روحه، نصفه الأفلاطوني الآخر، تاق إليها، في يقظته ونومه، وعندما كانت تدخل الغرفة، أو حتى المبنى، كان يشعر بذلك، ويتململ ليكون قريبًا منها. صوته الداخلي الذي لا يكاد يصمت، دومًا مستعد لصوتها ويتوق لأن يسمعها. أرادته أن يرغب فيها، حتى الآن، في السرير مع أنابيل، أن يريد الوصول إلى هاتفه، أن يرتب لتواصل: تواصلهما.

ومع ذلك، ربما لم يكن مُهمًّا أيُّ التصورَيْن صحيحٌ لأنه لن- كانت هذه حتما المسألة: لن يفعل - لن يحمل هاتفه. إذًا فالرغبة، سواء أكانت حقيقة أو تلفيقا - ومع ذلك في الواقع، حقيقتها غير المعروفة، كانت مهمة لها - كانت أكثر أهمية في النهاية. كيف ورطت نفسها في هذا الوضع؟ نفخ نسيم ساخن الأوراق والمخلفات على المنصة، وكأنه كان مشمئزا من ضعف دانييل. أي ترياق مضاد للسم سيعيدها إلى نفسها؟ حتى شقتها - لوحات روثكو، كالسرير، تنتظر، تنتظر - كانت مسممة، الآن. ستدير هاتفها، ستذهب مباشرة من محطة بِيْن نحو مكتبها، وتترك الابتهاج للآخرين. وبالرغم من أن رأس المخروط ذاك - لم يعجبها أكثر مما توقعت أنه سيفعل- تمنت أن يكون قادرا على جعل جوليوس، جولويس القديم المضحك، سعيدًا.

الفصل الرابع والخمسون

مساءً في المدينة

أمضيا وقتا جيدا، عموما، في ستوكبريدج. نهاية أسبوع منعزلة، بعيدة، قاطعها الزفاف ساعات قليلة نشِطة لكنّها جميلة. كان ديفِد ساحرا، وافق بلطف على وجود دانييل لليلة، أوصلها بكل نبل إلى ألباني صباحا. امتنع عن إعطاء ملاحظات حادة عن مارينا ودانييل – بالرغم من أنه لم يستطع أن يقاوم بعض السخرية الحقود من عهود الزّوجين، حول موراي («ذلك الديناصور الجاف العجوز، منظره يصرخ بالأحقيات. أنا متفاجئ لأنه لم يرتد ملابس ذات نقشة مخططة.») وببعض الحماس المحقق، حول لودفيك سيلي كذلك – حتى أنه ادعى بأنه استمتع بلقائهم أخيرا. صدقه جوليوس ولم يصدقه في آن، كان في نفس الوقت مطمئنا وخائب الظن. بدا حتما بأن التعايش، بدل أن يكون حالة نفسية، لجوليوس على الأقل، كان حالة من التناقض المستمر المزعج.

من الأشياء التي ناقشاها خلال نهاية ذلك الأسبوع، جوليوس وديفِد، علاقتهما: خاضا حوار «لنتحدث عنا.» بدأه ديفِد، في سياق الزفاف: ما هو الزواج على كل حال، إلى أي مدى يختلفان، عن مارينا ولودفيك؟ إنهما معا منذ مدة أطول، وقد صار الزواج المدني قانونيًا في فيرمونت، ومن هناك لم

يبق حتما سوى بضع خطوات فحسب – سيرغبان في ذلك؟

«حتما.» وافق ديفِد «لكن كيف؟»

«حسنا، لن أرتدي ثوب شيفون من جهة. لكن الأمر أشبه، أظن بأن العقلية المثليّة مُقارَبةٌ أكثر تعقيدًا للعلاقات.» قال هذا وهما يسترخيان على شرفة الفندق يراقبان زوجين – عريضي الأسفل، يرتديان سراويل قصيرة وبطيئين – يُخرِجان الحقائب من صندوق سيارتهما الليكسوس الكستنائية، ويبدو أنهما يتشاجران بما يشبه الهمس. «هكذا: لن ينتهي بنا الأمر هكذا لأننا نفرّق بين الحب والرغبة، أليس كذلك؟»

قلص ديفِد نظرته تجاه الزوجين. «إلهي. لن أرتدي أبدا تلك الخطوط،» قال. «أنت آمن من ذلك على الأقل.»

توقف جوليوس. مرّ الزوجان بمحاذاتهما إلى داخل الفندق، جاعلين الباب يصرّ لمدة طويلة غير ضرورية. «إذًا ما هي قواعدنا؟» سأل، ناظرا مجددا إلى الشارع، سحر نيو إينغلاند والسياح الآكلون للمثلجات.

«ما الذي تعنيه؟»

«الاحترام المتبادل، التسامح، المغفرة...»

«طبعا»

«ثم نحن نعلم، كما قلت، ألا نخلط الحب بالرغبة.»

«حتما.»

نظر جوليوس إلى ديفِد، الذي كان الآن يقلب نسخة من مجلة فانيتي فير متروكة على الشرفة من قبل زائر سابق. «أتسمعني حتى؟»

«الحب والرغبة،» كرر ديفِد، ناظرا إلى أعلى. «الزوجان المثليان الرائعان يعرفان الفرق حتما.»

«ونحن؟»

«نحن زوج مثلي رائع.»

تركا الأمر عند هذا، منتقلين بدل ذلك إلى صورة مارك والبيرغ الذي

شاهداه مؤخرا في فيلم كوكب القردة، فقط لأنهما وجداه معًا مثيرًا. فهم جوليوس بأنهما قد خاضا لحظة صراحة قوية، اعترافا بحاجاتهما، بالحاجة إلى لويس أو دايل. كان الأمر محمسا، محمسا جدا، أن يكون قادرا على الحديث ليس بشكل صريح لكن بوضوح عن شيء كان جد مشحون. شعر بالراحة، وتوقع بأن ديفِد أيضا قد شعر كذلك.

عندما عادا إلى نيويورك – إلى البحث المتعب عن عمل، إلى كوخ شارع بيت، الذي لن يتوقف ديفِد عن التذمر بشأنه – بدا من الأجدى التمسّك بتلك المحادثة، بذكرى كل ما يجعل هذا الارتباط بكلّ مشاحناته (الآن هناك قدْر مهم من المشاحنات) وبؤسه (هناك قدْر مهم من هذا أيضًا) قويًا ومميّزًا. لأن جوليوس، بلا شك كان يشعر بأنه مقموع. شعر بثقل ديفِد وحاجة ديفِد عليه. في حديثه إلى دانييل خلال الهاتف (وقد وجد نفسه يُرَكِّب رقم هاتف دانييل أكثر من مرة – اتضح بأنه طبعا لا يزال يحفظه عن ظهر قلب)، تأمل جوليوس نادما بأنه من دون عمل أو مال، لم يكن ديفِد الرجل المرح المحب الذي كان عليه. بمشاحناته، أثبت أنّه حادّ المزاج، ومتشائم.

في صباحٍ ما، تمدّد ديفِد فوق الأريكة، التي امتدّت إلى منتصف الغرفة. فيما جوليوس، الراغب في ارتداء ملابسه والتنظيم – قرّر أن يأخذ حاسوبه المحمول إلى المقهى للعمل، لأنه أراد أن يُكمل المقال لمارينا بأسرع ما يمكن – كان عليه أن يتخطّى مرارًا أطراف رفيقه الناتئة، عشرات المرّات على الأقل. أخيرًا، زمجر ديفِد: «اغرب عن وجهي، طيب؟»

«أحاول أن أتركك وحيدا، ولو أن رغبتك في البقاء وحيدا في شقة تكرهها أمر يتجاوز فهمي.»

شخر ديفِد.

«يمكنك أن تقوم وتخرج معي لتناول الفطور. يمكننا أن نجلس على شرفة مقهى تايم، عجة بياض البيض؟ قوة تشاي؟»

«قلت اغرب عن وجهي.»

وضح جوليوس يديه على خصره «إن لم تقم وتنظر إليّ فسأغادر لعلمك، سأرحل»

وقام ديفِد، غائما، شاحبا، عيناه مترعتان بالبؤس والنوم.

«الآن قف.» أمر جوليوس.

لم يتحرّك ديفِد.

«ستأتي للإفطار. قم»

«اغرب،» كرر ديفِد. لكنه وقف، ومن دون الاغتسال، ارتدى ملابسه، كتلة عرق وحملقة، تبع جوليوس خارج الباب. لم يتحدث ولم يذهب إلى الإفطار، لكنه بدل ذلك فصل نفسه بفظاظة وذهب لحمل الأثقال. قال بأن الحمام نفسه في شارع بيت كان مغزوًا بالصراصير ومتسخًا لا يمكن استعماله، وأصر على الاستحمام في الصالة التي كان يلتجئ إليها بشكل هوسي في الأسبوع الذي تلا عيد العمال، لثلاث ساعات وأحيانا أربع في اليوم. كما لو كانت له مواعيد. كما لو كان مدير المدربين، نوتيلوس نيرو. مع وصول مساء الجمعة، انفجر جوليوس: «أتظن بأنك ستجد عملا هناك؟ لربما ترى نفسك مدربا شخصيا مستقبليا؟» نادما على ذلك، اقترح عشاء في مطعمهما.

«مدفوعا من طرفك، سيدة موك؟» قال ديفِد.

«كدت أنتهي من هذا الأمر لمارينا، ولدي عمود لمجلة ذا فويس لإنجازه، وربما مقال لسلايت أيضا. أنا أنتظر سماع الأمر فحسب. ولهذا فنعم، مدفوعا من طرفي، في الحقيقة، نحتاج لمكافأة.» لقد مرت أسابيع فقط عن ستوكبريدج، لكنهما كانا يحتاجانها فعلا. هو كان يفعل. «وإن كنت فتى مطيعا. سآخذك لشراب بعد ذلك أيضا.»

لَيْتَهُما عادا إلى المنزل مباشرة بعد العشاء، كان كل شيء ليكون على ما يرام. طيب، لا على ما يرام، بل صالحا للعيش. المطعم- مطعمهما، الذي وإلى حدود الشهر الماضي كانا يزورانه كل أسبوع - استقبلهما بذراعين مفتوحين: الرئيس المضحك مقوس الساقين هرع إليهما بابتسامة على محياه الأشبه

بضفدعة، وإينجه، نادلتهما، الفتاة الطويلة الضخمة من برلين ذات حَلَق الأذن وصوت مارلين ديتريش الخلاب، همست لهما جهوريا «أين كنتما يا شباب؟ المشروبات على حساب المطعم لكما حسنا؟ لنرحب بعودتكما؟»

أشار ديفِد بحذر إلى أنهما كانا مسافرين خلال شهر آبْ إلى أوروبا، لا أقل، مما جعل إينجه تدير عينيها بشكل درامي وتهمس «جميل جدا. جميل للغاية.»

تناولا سلطة – فريسي مع اللحم المقدد – وتناولا شرائح لحم مقلية، كانت طلبية ديفِد المعتادة، وشربا كأسي ويسكي لكل قطعة وقنّينتين من البارولو الباهظ، والمطعم، بحميميته المعتادة، حيث الموائد مجتمعة ببعضها، غص وغمغم حولهما (مع ذلك فلا موسيقى، كان هذا أحد الأسباب التي جعلت ديفِد يحبه للغاية، هذا وطابع وسط أوروبا، حقبة منتصف القرن) وفي الوقت الذي وقع جولويس على بطاقة ائتمانه للمبلغ الذي رآه خياليا، كانا معًا يطفوان في مزاج جيد، ضاحك حتى، وكان جوليوس يفكر «هذا، هذا هو سبب كوننا معا، أعلم هذا. لأجل هذا.»

ولهذا اقترح الحانة على الجادة الأولى، حانة رزينة نسبيا بموائد غرانيتية وكراسي جِلديّة، تبدو متوهجة بفعل إضاءتها القرمزية، والجميع تحتها مُستحمّ في الدم، ممثلين إضافيين لأحد أفلام ستيفن كينغ. وذلك لم يكن مشكلة، كان ذلك المكان مثاليا، صادفا صديقا لديفِد، جان، فتى شمالي بلكنة سخيفة يعمل عارضا أحيانا– آنذاك، ظن جوليوس في غموض معتاد، بأنهما سينخرطان في جولة من تناوب تقليد اللّكنات السخيفة حينما يعودان إلى المنزل، تسلية عظيمة تسبق النوم لاستصغار معارفهم – في النهاية، جان كان من اقترح حوالي الساعة الواحدة التعمق في الجادة الثالثة، «أعنف» قال، «لكن أكثر متعة من هذا المكان الصاخب العادي». كان المكان أشبه بنادٍ، له حارس ليلي عند باب معدني، وتُجرّب لتدخُله حماسَ النزول إلى أسفل، كما لو إلى قبو، لتجد الجوّ ساخنًا وضيقًا ومزدحما بالرجال الراقصين، بعضهم

في حالة عُري تقريبا، صدور مثالية وعضلات كفاكهة طرية، إلى جانب آخرين كثيرين، أقل جاذبية، احتفظوا بقمصانهم. وجد جان طاولة لهم، نادى صديقا آخر له بلحية سوداء قصيرة، بين قزم وشيطان، بدا كما لو أن لبّ الأرض قد لفظه لكن صوته انبثق عاليا وحادا كصوت فتى. ارتدى طوقا جلديا فوق قميصه، وأراد جوليوس أن يخبره بأنه بدا سخيفا، أنّه بحجم حيوان أليف لأحدهم. لكنهم شربوا، ورقصوا، وفي الحمّام تعاطوا بعض الكوكايين بالدّور من الرجل الصغير، لم يكن متأكدا، أو ربما من أحد آخر. ما المهمّ حقًّا ما دام متوفّرًا؟ الموسيقى كانت جدّ عالية، مُلحّة ومستمرة، مثيرة بشكلها الخاص، تواتُر وزمجرة تتردد عبرك. في لحظة ما، لم يعلم متى، فكر جوليوس بأن رأسه سينبض هكذا صباحا، في لحظة صفو مفاجئة، كالفراغ في الأجمة الذي تتخلله الشمس فجأة، قوية وواضحة، فأدرك، رامقًا ديفِد، معرّقًا في الغرفة الزرقاء، بأنهما، كثنائي، قد انتهى أمرهما. اختفت الفكرة بالسرعة التي طرأت بها إليه، أمرٌ معروف وغير معروف في آن، مرفوض، لاحقا فقط سيتذكر أنه فكر فيها، ويتساءل ما إذا كانت الفكرة قد أذِنَت لما حدث لاحقا، أم سبّبَته.

ذهب إلى المشرب ليطلب جولة أخرى من المشروبات عندما رأى الرجل، لم يعرف اسمه قط. رجل نحيل لكن ذو عضلات بعينين سوداوَين، ربما يكبره بعشر سنوات، شعره طويل، شفتاه ممتلئتان وداكنتان كما لو كانتا مرسومتين. بدا متوسطيا، يونانيا ربما، أو إيطاليا، وعندما ابتسم قليلا، كان بمقدور جوليوس رؤية أن أحد أسنانه الأمامية كانت معوجة، وهذا، رأس سنه الناتئة، جعله فجأة أكثر الرؤى نورًا. وهو ينتظر المشروبات، نظر جوليوس مجددا، ومجددا، في كل مرة كان يصطدم فيها بالابتسامة، لمعان السن، العينان الداكنتان المثقلتان بالرموش كرموش غجري أو قرصان.

من هناك إلى مكان لقائهما في مخدع الحمام كانت مسألة ربع ساعة ربما: في الذكرى، الإشارات والتلميحات الصامتة التي اخترقت الحشد وثم مع ديفِد، جان والشيطان الهادئ حوله، كانت صعبة التصور. بدا من الخارق

التغزل بكل شجاعة على مرأى العين غير ملاحظ من طرف الآخرين، من طرف ديفِد بالتحديد، لكن جرعة الشراب، الموسيقى والحرارة قد خدرته ربما -هو، جوليوس- أكثر مما كان يتصور، وعندما اعتذر للذهاب للحمام، غير مدرك لذلك، لم يكن غير مراقب.

حتى لاحقا، سيعلم بأنها كانت واحدة من أكثر المغامرات إثارة في حياته، جسارتها، خطرها، غرابتها. رفيقه جالس إلى الطاولة في الجهة الأخرى من الجدار، بالكاد يبعد ثلاثين قدما، الحمام المظلم والقذر قليلا – بلا نوافذ، إسفلت بنفسجيّ، مقصورات معدنية كتلك التي في ثانوية يافعين قبيحة – جعلت الأمر أفضل، لا أسوأ. حتَّمت العجلة في لقائهما. كانا سريعين بشأن الأمر. كان جوليوس مشدودا حتى أنه في البداية لم يدرك بأن ديفِد كان في المقصورة، وراح يجرّهما معًا بشراسة إلى بهو الحمام، سراويلهما مفتوحة، وكان يلكم جوليوس فيما خاض الرجل الآخر ليرتب ملابسه مجدّدا، كان هنالك دم على ذقنه من شفة مجروحة، يسيل على ذقنه. جرحه ديفِد، ولكمه، وكان لا يزال يصرخ، ينفخُ كفيلٍ، وجوليوس يحاول الوصول إلى الباب لكن ديفِد لم يسمح له، كان ينقض عليه ويخدش ذراعيه، وصدره، ثم أمسك شعره، شعر جوليوس، وانبثق ألم حارق، محدّد وعلى جانب رأسه بالكامل في آن، وصعد صوت، صوت سيّئ أشبه بصوت ساحق، ثم شعر ببللٍ على فروة رأسه، كان دما، أكان ينزف؟ لأن ديفِد قد مزق حزمة من شعره من جذورها، ووضع جوليوس يديه ليحاول – يحاول حبس الألم، إن لم يكن دما، إن كان دمًا على فروة رأسه – لم يستطع أن يعرف ما إذا كان دما أم إحساسه فقط، آنذاك أدرك بأن الجدران كانت إسفلتية وبنفسجية، بنفسجية كباذنجان، لأن ديفِد ضربه بالحائط. كان هنالك أنبوب، أنبوب سمكرة مقابل ظهره يؤلمه، يورم كليتيه، والبنفسجي قبالة عينيه، ورأسه المتضرر، الرقعة الدبقة الخالية من الشعر ملتصقة بالجدار البارد، وأدرك أن الرجل الآخر، الرجل الجميل، قد غادر، لم يكن هنالك شخص آخر في الحمام – كيف يمكن هذا؟ – وما زال

خوار الفيل، لا يشبه صوت إنسان، لكنه ديفِد، كانت كلمات – «أيها اللعين أيها اللعين أيها اللعين» – وما زال يمزقه ويضربه عرض الحائط، ألم كليتيه يعلو أكثر، أسوأ من فروة رأسه، أو ربما لا، كيانه بأكمله في ألم، يعاني، ثم فتح ديفِد، كحيوان، فمه عريضا وعضّ. عض خد جوليوس، وسمع صوت ذلك، تمزق الجلد، الأسنان تخترق لحمه، لم يكن الأمر كما قد تتخيله، كان بطيئا بشكل مؤلم، سيئًا، غريبًا، بطيئا بشكل مروع، كما لو كان فريسة في الغابة، وجبة محجوزة قُدِّر لها أن تُؤكل حية.

تراجع ديفِد، بصق، تنفس. «أيها اللعين،» زمجر مجددا، ورأى جوليوس فرصته، رأى بأن الأمر لن ينتهي، وبكل ما أوتي من قوة وسرعة، ركل ديفِد بركبته في حجره وركله وهو يسقط ثم ترنح، وهو ينزف، ينزف، يبكي أيضا، بالكاد مدركا لذلك، مخاط ودموع تسيل على وجهه إلى فمه، يترنح بين الحرارة والضجيج والأجساد صاعدا الدَّرَج نحو الشارع.

شق طريقه بين العابرين، ابتعد عن الضوء كحشرة، غادر واختبأ في شقّته وأصابعه المرتجفة – مبللة، حمراء، كضوء الملهى منذ وقت بعيد – على خده المدمر.

لم ينته الأمر هنا، ولو أنه ظن بأن الأمر كذلك. نظر إلى نفسه في المرآة وراقب الجرح الذي كان لا يزال ينزف، عينه اليسرى سوداء ومتورمة، الرقعة الجرداء على صدغه تسيل، تخفق، بالكاد تعرف على وجهه. عُطَيل، ظل يفكر، الغضب كان هناك، كما توقع دوما، وهاهو، عليه وفيه، كان محظوظا لأنه لا يزال يسير، محظوظا لأنه في المنزل، العالم كله مقلوب، وينزف. كيف، تساءل، سيستمر بعد هذا؟ عندما وقف، مذهولا لصورته المشوهة (كيف أمكن أن يكون هو، جوليوس؟ كيف تحولت الأمور إلى ما هو عليه؟) سمع صوت سيارة تتوقف خارجا، رأى الضوء الأزرق والأحمر معكوسا على جدرانه، ونودي إلى الباب من قبل شرطي. ديفِد، الذي بدا وجهه شاحبا بانتصار مجنون، تلكأ في الخلفية محدّقًا إليه..

«هذا الشاب يدّعي بأنك تمتلك أغراضه-»

«لا أرى-»

«ابتعد سيدي، رجاء، ودعنا ندخل.»

«لكنني لا أرى -»

«أهناك أغراض تخص هذا الرجل في شقتك؟»

«طبعا هناك - إنه - إنه يعيش هنا»

«هو يقول سيدي بأنه يحتاج إلى الحماية ليأخذ ممتلكاته بأمان سيدي.»

«هذا سخيف. أنا لم - «

«يقول بأنك قد اعتديت عليه سيدي.»

«أنا اعتديت عليه؟»

«إذا كان بوسعك التراجع، سيدي، سأقف هنا فقط بينما يجمع هذا السيد أغراضه، سيدي. يقول بأنه لا يريد أن يرفع دعوى لكنه قلق بشأن سلامته سيدي.»

كان ديفِد يبتسم.

«سلامته؟ سلامته؟»

«لن نتأخر هنا سيدي. رجاءً ابق هادئا.»

ووقف جوليوس وظهره مقابل الباب المفتوح وصدر الشرطي السمين المخشخش غير بعيد منه، يده الغليظة المبرقعة تلاعب جراب المسدس، بينما بحث ديفِد بنظام بين أكوام الملابس والأوراق، حزم حقيبته بنظام، وكل هذا وهو يبتسم صامتا. ربما استغرق الأمر عشرين دقيقة، بدت للأبد، ونبضُ رأس جوليوس غدا أكبر وأقرب إلى زئير، زئير يشبه خوار ديفِد السابق. موضعَا الألم المختلفان يتسربان ويختلطان ببعضهما إلى زئير كوني غير متحمل. ظن بأنه قد يتقيأ، لكنه لم يفعل، انتظر وراقب هدوء ديفِد الغريب - القطة التي أكلت الكناري، الكريما، كل شيء تماما. أدرك جوليوس ذلك. حيث لم يكن

هناك ألم، كانت هنالك دغدغة. اندفاع الأدرينالين نحو الطيران، حتى عندما وقف جامدا – والشرطي، كذلك، ما عدا تنفسه العميق المنتفخ الذي جعل أوسمته ترتفع وتنخفض، وقف كذلك جامدا– شعر وكأن كل شيء، كل خلية وجزء منه يدور.

في النهاية، عندما غادرا، ديفِد، محتفظا بابتسامته غير المُوجهة، ليس لجوليوس، والشرطي الذي لم يحرك ملامحه الصغيرة الضيقة والإسمنتية. بدأ جوليوس في الارتجاف، حمى راقصة، بالكاد سمع الشرطي يقول «ليلة هادئة سيدي، شكرا على تعاونك. كنت لأزور الطوارئ لو كنت مكانك، من أجل ذلك الجرح.»

«لقد عضني،» همس جوليوس، لكن الشرطي لم يستدر، ولا ديفِد، وبينما راقب جوليوس الخصلات السوداء المنسدلة على مؤخر عنقه تختفي أسفل الدّرَج، شعر بغضب مفاجئ ساخن وألم، ورغبة مستمرة، وعرف بأنه لن يرى ديفِد كوهين مجددًا.

عندما أغلق باب الشقة، لامَس شروقٌ شاحبٌ أغراض الغرفة التافهة، طوال الجدار، وبعيدا سمع جوليوس صوت المدينة، انكشاف صباح السبت. اغتسل، وارتدى ملابسه، ببطء، متألما، وخرج للمشي نحو الطوارئ بسانت فينسينت، مسافة بعيدة لكنها كانت أقرب مكان يعرفه.

الفصل الخامس والخمسون

متزوّجان

ربما كان الأمر ليختلف لو كانا قد تزوجا بعد جلبة الإطلاق، قالت ذلك لدانييل. لكن الآن، مساء أحد، بعد أسبوع من الزفاف، شعرت كما لو كانت متزوجة لا برجل بل بمجلّة ذا مونيتور، أو بالأحرى أنّه هو من كان متزوجا بذا مونيتور، أمّا هي فلم تكن متزوجة أبدا، لأن الساعة قد تجاوزت التاسعة مساء وقد استعدّت للخروج منذ ساعات – لن يُرسَل العدد بكل مجده إلى الطبع حتى الثلاثاء مساء ومهمتها قد انتهت، لهذه المرة الأولى على الأقل، والمقالات لقسمها الخاص في العدد الثاني جاهزة أيضًا، لودو فقط من كان لديه تعديلات وعبث، وبصراحة هوس ليمارسه، لأن العدد قد انتهى، حتى بالنسبة له، لم يكن هناك شيء للقيام به، إنه مساء الأحد بحق الجحيم، نهاية الأسبوع، يوم العائلة، والقرارات النهائية يمكن اتخاذها صباح الإثنين، أو حتى الثلاثاء، مساء الثلاثاء حتى. هذا كان هوسه فقط، رغبته في التحكم، لقد كانت تعرف منذ البداية بأنه شخص يسعى للمثالية. أعجبت بمبادئه، وقعت في حبها في النهاية. لكن بصراحة، لقد انفجر في وجهها بقسوة عندما أعلنت بأنها ستذهب لزيارة والديها، بشكل فظ حتى عندما اقترحت أنّ عليه مرافقتها – كانت نبرته مختلفة، نبرة جديدة، مستاءة، لم تسمعها من قبل، أو

لم تسمعها موجهة إليها من قبل، هذا كان مؤكدا، والآن كانت تتساءل أهذا ما يعنيه أن تكون متزوجة؟ – وفي مسيرها نحو الشقة، شعرت كما لو كانت ترغب في البكاء، فعلا، النحيب فقط، لأنه في أيّ علاقة طبيعية كانا ليكونا في شهر عسلهما الآن، على شاطئ في تايلاند مثلا بدل إمضاء كل دقيقة وكل يوم وليلة في ذلك المكتب الغبي المخنوق بجدرانه الشاحبة ونوافذه الممتدة من الأرض إلى السقف مع السكرتيرة إليزابيث النزقة المتزمتة التي ما زالت تنظر إلى مارينا كما لو كانت حاملة للإيبولا، حتى وهي الآن بشكل رسمي وصريح السيدة سيلي (ولو أنها طبعا في الحقيقة قد احتفظت باسمها العائلي الخاص – لا شيء يمت للسياسة بصلة لكن ثوايت بدا اسما أفضل من سيلي، أليس كذلك؟)

«أوه دانييل» قالت، «هل سيكون الأمر على ما هو عليه كلّ أحد لعين؟ هل ارتكبت خطأ جسيما، ما الذي فعلته؟»

وقالت دانييل طبعا لا، وبأنهما كانتا تعرفان منذ البداية أن هذا الأسبوع سيكون صعبا، وكيف يمكن أن تلوميه لأنه يريد لكل شيء أن يكون مثاليًا، هذه هي لحظة الحسم، هذا الخميس ستحلّ اللحظة التي اشتغل لأجلها طيلة العام، ليس إطلاق المجلة فحسب، انطلاقه الأمريكي، رئيس طُهاتنا شهير في لندن. الأمر الذي كان عليها أن تعيد شرحه لمارينا لأنها لم تتذكر الإحالة، لكن المغزى هو أنّه بوسعه أن يكون المسيح عيسى في سيدني، لكنه في منطقة ذا غلوبال فيلاج بنيويورك لم يكن يعني شيئًا، ليس حتى يكشف معجزاته بمانهاتن، المكان الذي كان أبعد ما يمكن للنيويوركيين أن يهتموا به.

«عليه أن يبهرهم هذه المرة وإلا سيُفوّت فرصته.» قالت. «أنت تفهمين . »

تنهدت مارينا. «طبعا أتفهم، مبدئيا. وأنت تعلمين، قالت أمي بأنه ليس عليّ تضخيم الأمور وأن أكون واقعية. لكنه أسبوع، أتعلمين؟ لقد مر أسبوع فحسب.»

«انتظري فقط حتى تمسكي نسخة بين يديك، لا عددًا تجريبيًا، بل الحقيقي.»

«نعم، لا أكاد أقوى على الانتظار.» أدارت مارينا التلفاز موقفة الصوت. «ما الذي تفعلينه على كل حال؟» سألت، متمنية في نفس الوقت لو أنها لم تفعل. لم تكن دانييل المسكينة لتنتظر أحدا ليزورها في المنزل.

«أنا أنتظر قدوم جوليوس.»

«جوليوس! ما الذي حصل؟ أتركه ديفِد؟»

«أظن بأن الأمر أكثر تعقيدا من ذلك. اتصل بي هذا المساء، وأخبرني إلى حد ما بما وقع.»

«لِمَ لَمْ يتصل بي؟» كانوا ثلاثتهم مقربين دوما، لكنها عرفته في الأسبوع الأول من الجامعة، ودوما ما كانت تعتبره صديقها هي أوّلًا. لقد اتصل بها هي طيلة الصيف، لا دانييل.

«أنت عروس جديدة. لم يرد أن يقاطع نعمتك الزوجية بقصصه المؤلمة.»

«إلى أي حد هي مؤلمة؟»

«جد مؤلمة.» كررت دانييل على مسامعها القصة كما رواها جوليوس، بما فيها كلمات الممرضة في غرفة الطوارئ بمستشفى سانت فينسينت، التي حذّرته بأنّ خدّه رغم براعتها في التقطيب سيحمل ندبًا كبيرًا «إن كانت عضة كلب،» قالت، «فلابدّ من قتل الكلب. هل أنت متأكد من أنك لا تودّ رفع دعوى؟»

«ألا تعتقدين بأن عليه أن يفعل؟» سألت مارينا. «لا يمكن أن يترك شخص كهذا – لم يرق لي في الزفاف، وأنت؟ لا يمكن ترك شخص كهذا يعتقد بأن بإمكانه التملص من الأمر. أعني، ماذا لو فعلها مجددا؟ ما خطب هذا الشخص؟»

«سآكلك لأني أحبك كثيرا» قالت دانييل، «وقال جوليوس لا.»

«هذا ليس مضحكا.»

«إنه مضحك قليلا. لكن أعلم، الأمر سيئ جدًّا. السرياليّة هي تلك الأمور التي لا يمكن أن تتوقعي حدوثها لشخص تعرفينه. لا يمكنني أن أصدق بأنه نجا من ذلك. أعني، لقد كان صباح السبت. أين كنا نحن، أتعلمين، حينما كان ذلك يحدث؟ لقد رأيناهما، جوليوس وديفد وقت العشاء يوم الجمعة، لم يكن ذلك قد حدث بعد، والآن هو خائف على حياته منه؟ هذا يدعوكِ للتفكّر كثيرًا، أليس كذلك؟»

«أظن أن الأمر يشبه موت أحدهم» أجابت مارينا. «أتفهمين، فجأة. في لحظة هو هناك وفي اللحظة الأخرى يختفي، ولا تملكين أي طريقة لتجاوز الأمر. سريالي»

«أو هو حقيقي. إن كنت تعرفين ما أعني.» فكرت مارينا بأن دانييل كانت تتصرف بوقاحة غريبة تجاه الموضوع.

«متى سيأتي؟»

«ربما في النصف ساعة المقبلة. أملك قنينة ويسكي هنا، وأظن بأن بوسعنا التعامل مع الأمر معًا. بدا مخضوضا على الهاتف.»

«منذ متى تشربين الويسكي؟» سألت مارينا. ثم أضافت «لأقل لك، لم لا آتي أنا أيضا؟ لن يعود لودو قبل مرور قرنٍ كامل. متى كانت آخر مرة اجتمعنا فيها نحن الثلاثة فقط؟»

ظنت بأنها استشعرت لحظة تردد على الخط، وحاولت ألا تخضع للغضب قبل أن تقول دانييل بصوت جد متحمس «طبعا. هده فكرة رائعة. تعالي.»

«إلا إذا كنتما تنويان الثرثرة بشأن زفافي طيلة الليل؟»

«لا تكوني سخيفة. تعالي الآن.»

لا أحد منهم استطاع تذكر آخر مرة اجتمعوا، ثلاثتهم فقط. تسلقوا سرير دانييل الفائق النظافة (لا قبل أن يزيلوا بحذر أحذيتهم).

«أنت تضعين أغطيتك الجيدة.» لاحظت مارينا «مناسبة خاصة؟»

«جائزة تعزية.» ردت دانييل. «أمثالنا الذين لا حياة غرامية لهم يجب أن يجعلوا الذهاب إلى السرير كمكافأة ما.»

«أقدر على مبادلة حياتي الغرامية بهذه الأغطية في أي وقت.» قال جوليوس.

«الأمر سيئ، أليس كذلك؟ أيؤلمك الآن؟»

«سبع عشرة غُرزة،» قال. «لقد أعطوني الكودين في المشفى البارحة، لهذا فأنا أحتمل. لكن نحو نهاية الجرعة سينبض الألم.»

«تريّث مع ذلك الويسكي.»

«أوه، ارْتَخي يا صديقتي. أحتاج مهدئا جيدا في هذه اللحظة.»

«أسينمو شعرك بشكل عادي؟» سألت دانييل.

«ظاهريا. لكن ليس قبل التسكع حول المدينة لأشهر كفرانكشتاين بحفرة في رأسي.»

«أظن أنه يجعلك تبدو مثيرا.»

«رائع. سكرتير مؤقت مثير. ما لا يريده أحد قط.»

«ستعود إلى العمل المؤقت؟»

«سأتصل بالوكالة غدا. الأمر سخيف لكنني بحاجة للمال. حتى بعد أن طُرد من العمل، كان ديفِد يغطي نفقات الكراء. الماما والبابا كما تعلمان.»

«أتظن بأنه قد ذهب إلى لارشمونت؟»

«سكارسديل، في الحقيقة. مختلفة تماما عزيزتي. كيف لي أن أعلم؟»

«سكارسديل؟ أنت تمزح. سكارسديل؟ كيف يمكن أن يكون هذا حقيقيا؟»

«عليه أن يذهب إلى السجن، هناك حيث يجب أن يذهب. من يظنّ نفسه بتصرفه ذلك؟»

«الأحقية،» قالت دانييل. «إن الأمر متعلق بحس من الأحقية، ألا

تظنان؟»

«ما الذي لا يتعلق بذلك، في الحقيقة؟» قال جوليوس.

«ما الذي تعنيه؟»

«أعني أن الأحقية، تلك الهدية السرية، تفسر كل شيء يفعله أي أحد هذه الأيام. أريد أن أعرف كيف غابت عنّي دروس الأحقية هذه. أهو أمر غربي؟ داني، اشرحي لي الأمر.»

«لقد شعرتُ أنه من حقك أن تفعل ما فعلت في حمّام الحانة تلك،» قالت مارينا.

«من حقي؟ لقد شعرت بالضرورة. لكن بالضبط، معرفة كوني لم يكن من حقي هو ما جعل الأمر مثيرا.»

«كلنا نملك حس الأحقية.» قالت دانييل «بالمقارنة، نحن محظوظون لأننا لا نعرف بأنا ولدنا كذلك.»

«أنعرف أحدا ليس كذلك؟»

«تعنين شخصيا؟ هذا سخيف. طبعا نعرف»

بعد لحظة، قالت دانييل «قريبك، مارينا، قريبك، بوتي. لا يشعر بالأحقية، أظن بأنه من العدل قول هذا.»

«ما الذي حدث له؟»

«ذهب لبروكلين، صحيح؟ المسكين.»

«هُزّ مؤخرتك. هذا صحيح. ترك عنوانًا موجها لفورت غرين لكن لا رقم هاتف.»

«أتساءل كيف سيتدبر الأمر؟»

«لقد أحلته لوكالة التوظيف المؤقت.» أجاب جوليوس «هذا ويسكي جيد...»

«إنه نفس النوع الذي يشربه والدي، أكنت تعرفين ذلك داني؟»

«لم أكن أعرف، لا.»

«ليست هناك أنواع أخرى، « قال جوليوس.

«كان يحبك إيم» أكملت دانييل.

«ربما لا يزال» أضاف جوليوس.

«ما الذي عليّ أن أفعله بشأن الأمر؟ كما يقول لودو، على الحب أن يكون متبادلا، وعندما لا يكون، عندما يكون من جهة واحدة، إنه مجرد نرجسية، ليس ذنبي إن كان يحبني. لم أشجعه على الأمر.»

«لا أحد قال بأنك فعلت. لكنه في وضع محزن الآن. ربما عليك الاتصال به.»

«قال جوليوس بأنه لم يترك رقم هاتف. وأنا آسفة لكنني لن أمشي كل المسافة إلى فورت غرين فقط لأتفقد إن كان يأكل جيدا.»

«لا. لكنّ أحدًا...»

«إذًا، لم لا تحتملين الأمر داني؟ يمكنك أن تجعلي منه مشروعك. يمكنك حتى أن تصوري فيلما عنه: تقدمُ مهاجر، أو المتعلم الذاتي في نيويورك.»

«حسنا، إن لم يكن أحد آخر سيفعل، فربما عليّ ذلك. لكنني الشخص الوحيد في الغرفة الأقل ارتباطا به. جوليوس، لقد سكن في شقتك على الأقل.»

«لقاءاتي به كانت كلها –» توقف جوليوس. «غير سعيدة. أتساءل إن كان قد نحسني، أو نحس مسكني. تعترفين بأن هنالك شيئًا غريبا بشأنه.»

«لا أرى ذلك أبدا.» قالت دانييل. «بائس نعم. مخيف لا. لسبب ما أنتما تُكنّان عداء له. فكرا فيما يعنيه أن تكونا يافعين، إنّه مجرّد فتى عالق هنا بلا روابط، والآن لا أصدقاء. من تظنان بأنه يتحدث إليه، كلّ يوم؟»

«لماذا تهتمين حتى؟»

«لا أعلم. إنه يحزنني. أشعر أحيانا وكأنني هو، أو هو أنا. أو كان بإمكاني أن أكون هو. أيبدو هذا سخيفا؟»

«قليلا.»

«جوليوس، كان من الأمكن أن يكون أنت. الأمر مختلف لمارينا. لكن أنت أو أنا؟»

«خائفا على حياتي قد أكون.» وضع جوليوس يده بشكل درامي على ضماده. «لكني لم أكن يوما سمينا.»

«إنه ليس سمينا» قالت دانييل. «مُمتلئ قليلًا»، استدارت نحو مارينا «ألا تظّنين بأن والدك قد كان مثل بوتي تمامًا عندما كان يافعا؟ أعني، إنه من القرية، هناك، و...»

«لأكُن صريحة، لا أظن بأن والدي كان كذلك أبدا. لقد حاول تدمير والدي. يريد تدميره. ليس وكأن هذا مهم لأي منكما، لكنه أمر كبير جدا في أسرتنا.»

«حتما هو كذلك.»

«أوه رجاء داني، لا تستخدمي تلك النبرة.»

«أيّ نبرة؟»

«نبرة التعالي المعالجة. أكره عندما تفعلين ذلك.»

«فتيات فتيات، لنترك اللقاء حلوا»

«قصيرا وحلوا. يجدر بي الذهاب. قال لودو بأنه سيتصل بي قبل مغادرة المكتب، لكنه قد ينسى، وأريد أن أكون هناك عندما يعود.»

«الزوجة اللطيفة الصغيرة، تعتنين بالأهل والمنزل؟»

«بالكاد، إنه الوقت الوحيد الذي يسعني رؤيته فيه هذه الأيام.»

«لن يدوم الأمر» قالت دانييل «هذا الأسبوع فقط»

«اهتم بخدك جولز. من كان ليعلم بأنه مجنون؟»

«مجنون؟ لا أعلم.»

«مجنون،» قالت مارينا بحزم «هنالك مغزى لكل شيء، أليس كذلك، مهما بلغ غضبك، وأنت تعرف بأنك تقوم بالأمر الخطأ، فتمسك أعصابك، تمسك أعصابك فحسب. إنه خيار، أن تستسلم للغضب هكذا هو الجنون

بعينه»

«طيب،» علقت دانييل «بإمكانك القول بأنه أمسك الأمور بشكل آخر.»

«هذا ليس مضحكا.»

«أجده مضحكا للغاية،» أجاب جوليوس. «حتى وإن كان يلامس موضِعًا مؤلما.»

الفصل السادس والخمسون

لم أفش السر

بعد أن غادرت مارينا، استلقى جوليوس على سرير دانييل وأغلق عينيه. «لم لا يمكنني العيش هنا؟ قال، «المكان أجمل بكثير من شارع بيت.»

«إن حصلت على عمل حقيقي،» أجابت «سيمكنك تحمل مصاريف المكان»

«الآن وقد تنمرت على مارينا حتى صارت لها وظيفة، ثم زوَّجتِها أيضا، ستشرعين في الاشتغال علي أليس كذلك؟» تنهد. «من الذي يشتغل عليك، أوّد أن أعرف؟»

«ما الذي تعنيه؟»

«الأغطية،» قال، مُمَرّرًا يديه على اللحاف «ممم، الويسكي، لا أعلم، هناك أمر مختلف بشأن المكان، يكاد يعبق برائحة السجائر، ولو أنه من الممكن أن يكون بسبب جيرانك»

«لم تأت إلى هنا منذ زمن بعيد.»

«وهناك أمر مختلف بشأنك» غمز بكسل تجاهها، عينه المزرقّة منتفخة وقد شَرَعَتْ في الاصفرار. «ظننت مارينا بأنك تحبين لودفيك، لكنني عرفت في الزفاف بأنه لا يعجبك.» توقف «لم يعجبك ديفِد كذلك صحيح؟

ليس وكأن الأمر مهم الآن.»

«في الغالب ظننت بأنه لم يرد أن يتم إزعاجه.»

«لا. لم يكن لودفيك سيلي إذًا؟»

«ما الذي يجعلك تعتقد بأن هنالك أي شخص؟»

«أرجوك دانييل مينكوف. منذ متى يعرف أحدنا الآخر؟»

أرادت دانييل وبشدة إخباره، هو من دون الجميع، كان ليتفهم، كان ليشعر بالفرح والحماس لأجلها. لو كان يمارس مواهب تعاطفه المتقطع، كان ليرى الجانب الآخر، حمى الانتظار، الانتظار الدائم، الهرب من الاتزان وضبط النفس مقابل حالة من النهم المستمر. الحمى – اللذة السيئة التي لا توصف – للموقف برمته. لكن جوليوس لم يكن كتوما، وإن أخبرته بأي شيء، سيكون عليها في النهاية أن تخبره بمن، وبمجرد ما إن تخبره، سينتهي كل شيء. عرفت أنه لن يكون بمقدوره المقاومة. ليته كان بوسعها أن تخبر أحدا، بأنه غدًا الإثنين، لِليلة واحدة فقط، سيبقى، بأنها خططت لإحضار الزهور، وقنينة من النبيذ الممتاز، وطلبت الطعام من مطعم فرنسي ستحضره هذا المساء، وفكرت حتى في الفطور، بأنها ستشتري المعجنات والتوت والكريما وعصير البرتقال الطري، وقد تخيلت سلفا مرات عدّة الأحداث المثالية لمسائهما، ليلتهما غير المقاطعة، استيقاظهما معا. لجلويوس، قالت فقط «في أحلامك، هنالك أحد، أو ربما عليّ أن أقول في أحلامي، فقط في أحلامي.» وضحكت، بمرارة طفيفة، لأنه أحيانا – كما في هذا الأسبوع الماضي، عندما لم تره مرة، تحدثت إليه بالفعل يوميا، لكن آمالها في رؤيته ارتفعت وتحطمت مرات عدّة – بدا وكأن هذه العاطفة المحتدمة، علاقتهما التي كانت قد تكون في ظل ظروف أخرى مثالية، قد وجدت بالفعل في أحلامها فقط.

الفصل السابع والخمسون

التزام مؤثّر

خلال كل هذه السنين، كل المغامرات، لم يفعل هذا من قبل. لم يحزم حقيبته ويتصل بالليموزين، يركبها إلى المطار فقط ليركب سيارة أجرة ويعود إلى المدينة. خطط للأمر برمته، كان يحمل هاتفه معه، سيتصل بها متأخرا، حوالي الحادية عشرة. سيقول بأنه لم يكن متأكدا أين سيضعونه - حدث هذا من قبل مرات عدّة - وبأنه سيكون هنالك عشاء كبير سيستمر إلى منتصف الليل، حتى لا تفاجأ إذا ما اتصل من المطعم. حتى أنه فكر في العشاء - عشاء كان قد حدث في شيكاغو منذ سنتين - كان سيعيد وصفه إن تطلب الأمر. المطعم، ديكوره، ترتيب الكراسي. لم يكن الأمر صعبا. حمدا لله بأن ذكرى مثل هذه المشاهد كانت قوية.

بدا الأمر غريبًا. لم يكن من جهة ما كاذبًا. ربما مُمَثّلٌ، نعم، وبارع أيضًا. مذنب في مناسبات عدة، بذنوب إغفال، مؤمن عظيم بأن ما لا تعرفه لن يضُرّك (مقولة يعلم بأن عليه أن يُشفى منها بعد خيانة ابن أخته الأخيرة: آنذاك، ليته كان يعلم ما كان سيحصل لو أنه صادف مقال فرِدرك منشورًا أوّل مرّة؟ تضمّ تقنيته هذه تغييرًا طفيفًا في الحقائق في سبيل تهدئة الأوضاع). للأمانة، أنابيل لم تسأل. كرامتها، كرامته، كرامتهما معًا كانت

مبنية على الثقة، ثقةٌ تعني لكليهما أمرا مختلفا قليلا (تعريفه للثقة، حسب زوجته، كانت معرفتها بأنها محبوبة وللأبد – آه، حتى الآن – وبأنه في نهاية اليوم سيعود إلى المنزل مخلصا ليريح رأسه قرب رأسها. بينما كان مدركا أحيانا بأن فهْمها غير المُعلن للثّقة ربما كان أكثر صرامة من فهمه هو) لكن مع ذلك، فقد كانت قيمة عائلية مشتركة تسير على ما يرام. لم يبحث عميقا في حياتها المنفصلة، لم يرغب في لقاء ديفوغن المشهور (ولو أنه فعل في الصيف من دون قصد) ولا الزبائن الآخرين الذين كانوا يطغون بكل ثقلهم وحماسهم على ثروة زوجته الملائكية. عرف بأن هذا تبرير: لم يكن هنالك مقارنة صادقة بين أسرارها الواقعية وأسراره. الهدف كان تهديء مشاعره التي لم يكن لها معنى غير الذنب.

لم يشعر بالأمر قويا في الليموزين إلى لاغاريا، رحلة كان فيها شبه مقتنع بكذبته. لكنه في سيارة الأجرة عائدا أدراجه – سيّارة عادية وذات رائحة عطنة كان يهتزّ فيها بألم وبسرعة فوق حفَر الطريق كلّها – عانى من التمزق. لم يكن الأوان قد فات لإعادة توجيه السائق، لم يفت الوقت للعودة إلى سنترال بارك الغربي، حيث ستجده أنابيل حين عودتها مساء، ليخبرها متخففا بأن كل شيء قد ألغي في اللحظة الأخيرة. لكنه رغم كل شيء، لم يرغب في ذلك فعلا. مزيدا من الحياة، المزيد: أراد الأمر، وفي باله، إلى جانب الهيمنة ومشاهد الأمان المنزلي، كان منظر بشرة دانييل النضرة، خداها المتوردان، حيث اعتادت شُعيرات داكنةٌ ضالة على التجوال هاربة من الكرمة الكبيرة المتموجة لشعرها. كان يتصور لوحات روثكو، المنظر من النافذة ناحية الجنوب، وقت الغروب، الأبراج اللامعة في سماء مذهبة – كان التواجد في شقتها كالركوب في سفينة عالية على علوّ طوابق عدة من الأرض. شعر دوما وهو هناك بأن المرء يقدر على البقاء بأشياء قليلة، بأن كل بهرجة حياته الناضجة كانت عبثية وغير ضرورية. الوصول إلى مبناها بحقيبة مرتبة لليلة واحدة، بباقة جاربارا اقتنتاها من الدكّان الكوريّ عند الزاوية، في الساعة الثانية مساء الإثنين ليجدها تبتسم،

بغرابة قليلا، عند الباب حينما خرج من المصعد، رأسها مُنحنٍ بخجل، شعرها جامح، فتاة بحق، بكل سحر وخجل الصغر – ذلك الخجل اللذيذ– يجب أن يسترجع، أن يحرر إلى روح أصغر وأكثر حرية، وإن كان بشكل خارق يستطيع ترك شخصيته الرصينة العظيمة جانبا ربما لتنتظر في الرواق كمعطف على علاقة، لكن غير متنازل عنها ومُستعادَة دومًا. فكر في تعدد الأمر، كل تلك الأشياء التي هو عليها، وهو بالنسبة لها، دانييل – الصحفي المشهور، الزوج، أب صديقتها المقربة، المعلم المحتمل، الجسد العجوز والضعيف – كل هذه الأشياء ممزقة بفعل رغبتهما المشتركة التي جعلت منه مجرد مراهق في هذه السفينة المسافرة عبر الزمن، سفينة محميّة لا تضايقها أشباح شخصيّاته. شديدة الغواية، تركته هذه الحالة متشوقا دوما لكسبها من جديد: لم لا يمكنه البقاء في هذه الشقّة الصّغيرة، بين ذراعي هذه المرأة الشابة الجميلة للأبد؟ لكنه لم يكن غبيا كفاية حتى لا يعلم بأن جزء كبيرا من إغرائه كان نابعا بالتحديد من خطيئته. أحب الأمر، أحبها، ولم يكن قادرا على التفكير في خسارته، فقط لأنه كان دوما يخسره، فقط ليجده – أكثر لذة – متجددا المرة المقبلة.

«فكرت في أن نذهب في جولتنا هذا المساء» قال. « لقد حجزته للغروب.»

«أيّ جولة؟»

«جولة المروحية،» أجاب. «أتذكرين؟ لنرى كل شيء من أعلى. ما رأيك؟»

«أكره الطيران.»

«أتظنين بأنه خطير؟»

«مروحية؟ تبدو جد خطرة بالنسبة لي. كل ما يبقيك عاليا هو مجرد شفرات حائمة، كمروحية سقف.»

«ستتذكرينه طوال حياتك.»

«أوه حتما. عندما سنهوي ناحية الضفة الغربية سأتذكر كم استمتعت بالأمر.»

«لنخرج للعشاء إذن،» قال. «ثم فكري في ذلك. لديك كل المساء لتقرري. متأكد من أنك ستتخذين القرار الأصح.»

«البقاء على الأرض هو دوما القرار الحكيم.»

«حقا؟» رفع حاجبا. «لطالما شعرت بالعكس تماما. أكثر. أعلى. أسرع.»

رغم توترها – هي الأخرى ساحرة، سمحت له بأن يمسك يدها، كيد طفل ناعمة وترتجف قليلًا – ذهبا. متهربين من المراوح، تسلقا المقطورة الزجاجية المتحركة للمروحية من الجهة الغربية لمدرج الإقلاع، بعد السابعة بقليل، ثم غلّفهما زئير وعظمة الرحلة، ارتفعت المروحيّة مترنحة إلى أعلى مباشرة قبل الانحراف جانبًا ثم انطلقت. حاول أن يحادثها، أن يقول «كان روثكو ليحب هذا، ربما كان لينقذه.» لكن صوته ضاع في الضجيج وبالكاد نظرت إليه بملامح تخفي ذعرا، عيناها متسعتان وشعرها يطفو متمردا، وهما يعلوان إلى أفق السماء اللامع عبر بداية صيف متأخر، غروب مسموم لروثكو، ذهبي، زهري، أبيض، بنفسجي، وأزرق باهت، وفوق النهر الرقراق، حول المباني الكبيرة التي بدأ ظل الليل يسقط عليها، حائمين حول تمثال الحرية الغامز وعائدين إلى رأس الجزيرة، كانت الأضواء تلمع في كل مكان، حشرات ضوء لامتناهية عبر انحسار النهار. غرقت الشمس في الأفق الغربي وهم يحومون بمحاذاة الضفة الشرقية نحو الشمال، وهي لا تزال متمسكة بيده بضيق، لكن النظرة المتسعة لعينيها كانت الآن كدهشة طفولية بدلا من الخوف، وعندما استدارت وابتسمت له، بتآمر – كانا متآمرين، هذا ما كانا عليه – كان، حتى في أعمق أعماق رئتيه، وأسلاك المروحية المخيفة أمام قدميه، في أعماق قلبه، كان ممتلئا بسعادة لم يعشها من قبل قط.

على العشاء – طلبت ضلوع حمل، وبطاطا مشوية في الفرن وجهزت

السبانخ بنفسها - بقي صامتا لمدة طويلة. نسي، ثم تذكر الذنب الذي يقترفه.

«ما الذي تفكر فيه؟» سألت بابتسامة تافهة ساطعة.

«كنت فقط أفكر في خطابي وكيف قد مر. المتخيل، الذي أنا بصدد تقديمه الآن.»

«ستتصل بها لاحقا.»

«عليّ ذلك.»

«ما الذي ستقوله لها؟»

«لا تقلقي. سأنزل إلى البهو. أو الدّرَج. لا يهم.»

«لكنك تفكر في الأمر.»

هز كتفيه.

«ألست نادما؟»

«لا ندم، عزيزتي. لا أندم أبدا. إنه مضيعة فقط.»

لكن الطيف استقر عليهما، بشكل غير مباشر، واندثر فقط عندما قامت دانييل لتضع بعض الموسيقى، سوبرانو إسباني لجوزيف كانتالوب، نبرتها المعذبة تطفو، انسجامهما الطفيف يتردد في الغرفة، كما ليذكرهما معا بأن الجمال والخسارة مرتبطان للأبد.

الفصل الثامن والخمسون

الصباح الموالي

صباحا، عندما استيقظا متأخرين، لكليهما عادة الاستيقاظ مبكرًا، وضعت دانييل المعجنات في الفرن، وذهبت لتستحم. سينعمان على الأقل بالجزء الأفضل من اليوم، لم يكن عليه التواجد في لاغارديا من أجل سيارة الليموزين قبل الثالثة بعد الظهر. كانت تخطط لأخذ نزهة – أيمكنهما التمشي آمنين في مانهاتن السفلى؟ مارينا ولودو سيكونان حتما مختفيين في مكتب المجلة بلا مقاطعة، لكن موراي كان معروفا، يمكنه أن يصادف أي أحد قد يتحدث عن اللقاء لأنابيل – حينها سمعته يصرخ. أول ما خطر في بالها وهي تسارع في تنشيف نفسها والخروج إليه كان بأنه قد أصيب بأزمة قلبية، بأنه سيكون عليها الاتصال بالإسعاف، بأن كل شيء سيفضح. لكنها عندما ظهرت، كان واقفا بمحاذاة النافذة، في سرواله الداخلي القصير، صدره المكسو بالشيب عارٍ وهو ينظر إلى أسفل مانهاتن – كانت ستمزح بشأن وقوفه عاريا، حينما رأت ما كان يشير إليه «انظري إلى ذلك» قال، «هنالك حريق هائل. لا بد أنها قنبلة ما عالية في المبنى.»

أمسكت بآلة التحكم وأشارت بها نحو التلفاز، ثم عاشا الساعة المقبلة يراقبان من النافذة – المنظر واضح أمامهما بشكل كامل ومخيف – ويراقبان

الشاشة، كما لو كانا في نفس الوقت في مانهاتن وفي أي مكان آخر على الأرض، كولومبوس حتى، وكل شيء كانا يريانه بدا حقيقيا إلى حد ما على التلفاز لأن ما كانا يريانه بعينيهما لم يكن قابلا للتصديق. فكرت دانييل في لحظة ما من الموقف الضبابي بأن الأمر أشبه بالساحرات اللاتي لا يمكن تصويرهن – كان هذا دوما اعتقادا راسخا في عادات طفولتها – وبهذه الطريقة كنت تعرف بأنهن ساحرات، وقياسًا، ما كان يحدث خارج النافذة كان يمكن اعتباره سحرا، خدعة ضوئية ما، تكاد تكون ساخرة، عبثية، لو لم تكن تُصور – تصويرها هو ضمان لواقعيتها، العالم كان يرى هذا، والبنتاغون أيضًا، وهكذا كان بوسعك أن تعرف بأنه حقيقي فعلا. كانت صافرات الإنذار على الشاشة تتردد خارج النافذة. ضجيج التلفاز كان أكثر تحملا، أكثر طمأنة لأنه كان محجوزا في علبة صغيرة، لأنه على عكس الصافرات والصراخ والعويل النابع من أحشاء المدينة خارجا، بوسعك أن تتخيل على الأقل أن بمقدورك إطفاؤه. أفضل من أن يكونا موجودين معا، لخلق وَهْم قدرتهما، لو أرادا، في أن يوقفا الكارثة.

أخذهما الأمر مدة طويلة قبل أن يرتديا ملابسهما. وقفا يراقبان، عاريين، مشدوهين. اسودت المعجنات من الأطراف وتصلبت عن غير قصد. لكن الأمر لم يكن مهما، لم يكونا جائعين.

«عليّ أن أتصل بها» كان أول ما قاله موراي بعد صمت طويل جعلهما معا يتفاجآن من صوته.

«طبعا عليك ذلك.» أجابت دانييل.

«يمكنني أن أخرج إن أردت.»

«ما الذي ستخبرها به؟ أستقول لها بأنك هنا؟»

«لا أعلم»

حاول أن يتصل من الرواق، لكن الخطوط كلها كانت مشغولة.

«يمكنك أن تحاول من هاتفي.» اقترحت. « قد ينجح ذلك.»

«سيكون عليّ – ستعرف – سيظهر الرقم على الهاتف.»

شرح التلفاز بأن خطوط الطيران في البلد بأكمله متوقفة، بأن الخطوط من أوروبا قد عادت إلى الأطلسي. بأن لا أحد سيغادر لأي مكان. فكرت دانييل بأن موراي قد يبكي.

«أنا في شيكاغو» قال مرتديًا قميصه وسرواله الداخلي وجواربه السوداء، جالسًا على حافة السرير، موجهًا نظرته إليها، بل إلى شاشة التلفاز «لا أحد يتحرك. من المفترض أني في شيكاغو»

«يمكنك أن تبقى معي،» اقترحت. «إلى حين، أنت تعلم، قدومك من شيكاغو.»

«إنها تحاول حتما الاتصال بي هناك الآن.»

«ستتصل بهاتفك المحمول. لا يمكنك الوصول. لا أحد بوسعه ذلك.» ذهبت إلى النافذة، انحنت على الزجاج وأطلت إلى أسفل الشارع. « هناك العشرات من الناس خارجا – الشوارع – حسنا. ربما علينا أن نخرج.»

«لماذا؟»

«هكذا. لا أعلم. يبدو من غير المعقول أن نبقى محجوزين هنا.»

«عليّ أن أذهب إلى المنزل.»

«ما الذي تعنيه؟»

كان واقفًا الآن. ارتدى سرواله، حزم حزامه. كان من المريح لها، أدركت دانييل: هي التي كانت سعيدة لضعفه، لم ترده ضعيفا هذا الصباح. أرادته أن يرتدي حذاءه.

«أنابيل» قال.

«نعم لكنك في شيكاغو، أتذكر؟» فهمت دانييل ما كان يريد أن يخبرها، لكن التفكير في الأمر كان مروعا.

«ربما عليّ ألا أكون كذلك»

«أستخبرها؟ لا يمكنك إخبارها.» لوهلة، ظنت بأنها رأت طريقا جديدا، طريقا يمكن لها ولموراي أن يكونا معا رسميا، سيخبر أنابيل،

سيفترقان، سيكون طبيعيا ومناسبا. لكنها بسرعة عرفت أن الأمر سخيف، سيخبرها فقط لأنه أراد وبشدة أن يذهب إلى المنزل إليها. لقد اتخذ خياره.

«يمكنني أن أسير إلى أعلى المدينة» قال. «إنه يبعد بضع أميال فقط... إنها ربما الطريقة الوحيدة للوصول إلى هناك.» رتب شعره بأصابعه عشوائيا. كان لا يزال فوضويا. لم يحلق، شعيراته الفضية تلمع قليلا تحت الشمس الساطعة. «ولا تسأليني عما سأخبرها لأني لن أستطيع إخبارك.»

عضّت شفتها.

«مهما قلت، لن تذكرني فيه. لقاء عبثي في المطار. أي شيء» قالت، «وليس عليك أن تذهب.»

نظرا إلى النافذة معا والدخان الأسود لا يزال موجودا حيث كان المبنيان من قبل.

«أنا آسف،» قال. «هل ستكونين بخير؟» سؤال لم يكن له أي جواب ممكن. مذهولة، كادت أن تضحك.

قبّلها قبل أن يغادر، قبلة محتشمة أخيرة. كان خده قاسيا، وخدها رطبا، تملكها شعور أن كل شيء، بشرتها كلها صارت إحساسا لا يُحتمل. قال بأنه آسف مجددًا، وذهب. ولوقتٍ مديد لم تُدرك مروره، وقفت قبالة النافذة، أصابعها على الزجاج تنظر إلى أسفل – لم تره وهو يذهب، كما لو كان قد اختفى – لكنها راقبت الناس مرتبكين يغطّيهم الغبار، بعضهم يبكي، صاعدين من الشوارع، الكثير منهم، مثل لاجئي حرب، فكرت، متذكرة صورة فيتنام الشهيرة، الفتاة الصغيرة العارية هاربة من الفتيل، تصرخ، ويداها مرتفعتان بغرابة إلى جانبيها، وعلى التلفاز خلفها كانوا يتحدثون عن الطائرات، تخيل حجمهما، كان كل شيء جد كبير وغير قابل للتحمل وأرادت الآن أن تطفئه، أن تطفئ كل شيء فحسب – ثم ركلت حذاءها و تنورتها المنكمشة، تسلقت إلى سريرها الجميل ورفعت الغطاء – قطن ناعم للغاية، جد جميل، أغطية موراي المميزة، كانت تحمل رائحته – فوق رأسها، كما

اعتادت أن تفعل وهي صغيرة، وفكرت بأن عليها أن تبكي، فكرت بأنها ربما ستبكي، لكن كما انتابتها مشاعر جارفة قبل دقائق فحسب، هي الآن مخدرة، لم تشعر بشيء، لا شيء إطلاقا، يمكنك أن تبتر أحد أطرافها ولن يكون للأمر أهمية. لقد رأت الطائرة الثانية، كسهم لامع، وانفجاره، جميل بغرابة مقابل الزُّرقة السماويّة، والدخان في كل مكان، ورأت الناس يقفزون من أعلى، بقع في السماء، عرفت ماهيتها من التلفاز فقط، من الحقيقة الكبيرة على الشاشة، رأت المباني تتحول إلى غبار، يمكنها أن تشمها حتى في الداخل والنوافذ مغلقة، رائحة دخان الأسبست ووقود الغازولين، طائرة رفيعة، خط الدخان الخارج منها، لقد رأت هذا وتُركت للأبد، لأنها في ضوء كل هذا لم تكن مهمة، عليك أن تتخذ القرار المناسب، عليك أن تبقى على الأرض – لكن إلهي، سماء ليلة أمس كانت بهية، الألوان، الأضواء، الأبراج، وبعد أن تخلت عن خوفها، سعادة الموقف – عليك أن تبقى على الأرض ولم يكن هناك أي داع للشعور بأي شيء. لم يكن هنالك شيء لتشعر به لأنك لم تكن ذا قيمة لأي أحد، قلبك، أم كانت شجاعتك، أو كلاهما، قد أخذا منك، انتزعا منك، هذه هي الكلمة، والسيدة الإسبانية التي كانت تغني ليلة البارحة، لقد عرفت، عرفت طيلة الوقت، والآن لم يكن هنالك شيء غير الألم وهكذا ستبقى الأمور، إلى الأبد.

الفصل التاسع والخمسون

ذا مونيتور

في مساء الثلاثاء، اتخذ لودو قرار إلغاء حفلة الإطلاق، جمع في المكتب كل من قرّروا القدوم وبقوا – وقد كان عددا مفاجئاً نظرًا للظروف – وتحدث بلباقة حول أهمية بقاء الجميع مع من يحبون بدل البقاء في مكتب، وضع الأمر في السياق، وكان من الصعب معرفة سيرورة الأمور من هنا، لكن المهم كان أن يتأكد الجميع من أن عائلاتهم وأصدقائهم في أمان، وإن لم يكن أي شخص كذلك معاذ الله، فذا مونيتور ستكون هناك لمساندتهم وهم طبعًا يملكون وقتا كافيا للاجتماع وإعادة التنظيم، لم يكن واضحا متى سينطلقون – في الحقيقة لم يكن بوسعهم التواصل مع المطبعة في بروكلين، لهذا فلم يكن بوسعهم طبع العدد في كل الأحوال، هكذا كانت الأمور – لكن لا شيء ليقلقوا بشأنه، لأنهم فريق، فريق قوي، ومستعد للمحن.

في سرية مكتبه، وضع رأسه بين يديه على المكتب وقال لمارينا «لقد قضي علينا تماما.»

«انتهى كل شيء.» هو كل ما استطاعت قوله. كان التلفاز في الزاوية، سي إن إن والصوت مخفوض. كانوا يعرضون مجددًا ومجددا نفس الصور التي كانت تبث طيلة الصباح، مقاطعةً بالوجوه القلقة والمتحمسة «الآن

ماذا؟»

تمدد لودو في كرسيه. الآن فقط لاحظت كم كان يبدو مشدوها، عيناه الجميلتان محاطتان كما لو بفحم، بشرته شاحبة مصفرة. كان بوسعها رؤية عرق دموي ينبض تحت البشرة الرفيعة لصدغه. لم ينم بشكل كاف منذ ما قبل الزفاف.

«اللعنة عليّ إن كنت أعرف.»

«كنت رائعا. قلت كل الأمور المناسبة. يبدو وكأن العالم قد توقف.»

«لقد فعل.» أعاد ترتيب بعض الأوراق على مكتبه. غلاف المجلة الذي كان سيكون، بالعنوان مكتوبًا بحروف كبيرة سوداء والرمز – ساهم في تصميمه – للعين التي ترى كل شيء، موجودا فوق كومة، بألوانه القرمزية، البرتقالية والصفراء، غروب شمس، صورة خلابة لغروب شمس، كانت الفكرة بأنهم ينفجرون فوق المشهد، ينيرون الحقائق، ومختلفين في الصور عن الآخرين، يبدو ذلك متجاوزا وبائسا، كعمل فني مهجور لطفل.

«ما الذي علينا فعله؟ الآن أعني؟ أنت وأنا؟» جلست على حافة المكتب، ومدت يدها للتربيت على شعره.

«علينا أن نخرج إلى الشوارع. أن نسير إلى وسط المدينة، نرى الأمر.»

«لأننا صحفيان؟»

«أو لأنه التاريخ. لأنه لا يمكن أن تسيري إلى المنزل والتظاهر بأنه لم يحدث.»

«أصحيح، أتعتقد، بما يقوله الجميع – كل أولئك الناس على التلفاز– بأن لا شيء سيبقى على ما كان مجددا؟»

لودفيك لم يجب. ارتدى معطفه، محاولا حمل أكمامه المرتفعة على عدم الانحسار إلى ذراعيه. ثم بدأ في ترتيب الأوراق، واضعا بعضها في حقيبته ليأخذها إلى المنزل. كما لو كان يوما عاديا.

«هل تظن أننا سنميّز بعض الضحايا؟»

لم يجب.

«من الصعب أن أصدق بأننا لن نفعل. أناس ذهبتُ إلى الجامعة معهم، أو آباؤهم... أظن بأن والدة ذاك الفتى ديفوغن تعمل في البرجين.»

«من؟»

«ديفوغن. الفتى الذي لطالما قلقت أمي بشأنه. صانع الحرائق، أتذكر؟»

«صانع الحرائق؟»

«نعم. أمه. غرفة البريد، إنها تدير غرفة البريد في واحدة من تلك الشركات المماثلة.»

«قد لا يكون ذلك في الأبراج. وسط مانهاتن فسيح بصورة مفاجئة.»

«حوالي خمسون ألفا في تلك البنايات، لودو. لا بد أن نعرف أحدا.»

لاحقا، من الشقة، سارا إلى ساحة يونيون، حيث بدأت الوقفات الاحتجاجية، شموع مضاءة متجمعة حتى قبل المغيب. احتشد الناس وتجمهروا كما لو في قوالب، كما لو أن أطرافهم لم يكن بوسعها التحرك أسرع، كثير منهم صار أشكالا بشرية بفعل عناقاتهم، كجرحى يسيرون: امرأتان تسندان ثالثة مغشيًّا عليها بينهما؛ رجل يحمل طفلا داكنا متزعزعا إلى خصره؛ رجلان حليقان شابان يمسكان ببعضهما من العنق، ورأساهما يتلامسان كالتوائم السيامية بفعل الحزن. الملصقات، غليظة ومستمرة كأوراق شجر جامحة، كلها بصور فوتوغرافية، ملتقطة بعفوية في زفاف، على شاطئ، في نزهة، والتماساتها بيضاء ناصعة في الغروب، وأناس يحومون في صمت، وجوههم مبللة، يتطلعون إليها. مارينا أيضا، باكية وهما يسيران، توقفت لتقرأ حفنة من التفاصيل («مفقود مفقود مفقود» تملك وشما على شكل نجمة أسفل ظهرها: ترتدي صليبا ذهبيا وقرطين متدليين؛ لديه ثلاث ندبات جذري على شكل دموع على خده الأيسر؛ لُمِحَ آخر مرة يرتدي قميصا أبيض وربطة عنق عليها فيلة»)، وأكملت المسير.

«هذا مخز» غمغم لودو، وهما يقتربان من جذع شجرة كاد أن يُغطى بالأوراق بالكامل. «هذه خلاعة جماع الأموات.»

«ما الذي تعنيه؟»

«ما الذي تظنينه؟» انفجر. «لقد ماتوا كلهم. طبعا لقد ماتوا. حسنا، ربما خمسة عشر أو عشرون، أو حتى مائة منهم قد يُستخرجون من هذه الفوضى. لكن ما جدوى التظاهر بأنهم جميعا سيعودون إلى المنزل، بأنهم كلهم ضائعون في مانهاتن في دوار ما بعد الصدمة؟ كلهم موتى لعينون يا مارينا. موتى.»

«أخْفِظ صوتك.» رأت امرأتين وشابًّا يحدّقون فيه ويحركون رؤوسهم.

«هذا ما يجب أن ننجز قصة الغلاف حوله، هذا.» أكمل، في فورة غضب جلية. «حول أنه في هذا البلد، الجميع يريد نهاية سعيدة. لدرجة التضليل، وكأنِ إلصاق هذه الملصقات سيلغي، أو يصلح أو يغير ما حدث للتو. من سيقول لهم: اذهبوا إلى المنزل وواجهوا الحقائق. ابنك، أمك، قريبتك، قد ماتوا، غبار، ذهبوا. لم يبق شيء؟»

«لا نعلم ذلك.»

«ألا نعلم؟ لنواجه الحقائق هنا.»

«أعلم بأنك متضايق عزيزي، لكن هذا ليس المكان المناسب.»

«لكنها أرض الأكاذيب هنا، أليس كذلك؟ ولا أحد سيقول هذا. ولن نقول نحن هذا، لأننا لا نملك مجلة لعينة.»

«سنفعل. لا تكن سخيفا. كلنا غاضبون. لقد كان يوما صعبا. غير قابل للتصديق. علينا أن نذهب إلى المنزل الآن.»

«تظنين بأننا سنفعل لأن الأسبوع المقبل قد يكون وقتا مناسبا للإطلاق؟ أو الشهر المقبل؟ أو ربما العام المقبل؟ انسي الأمر، لا تخدعي نفسك. لقد انفجرت الفقاعة، الآن. انتهى الأمر. لقد انتهينا.»

«علينا فقط أن ننتظر ونرى.»

«افعلي ذلك إن أردت. أفضل أن أرى وأنتظر. وما أراه هو ما يحدث.

أعدك بذلك.»

قادته مارينا بعيدا، ممانعا وبطيئا، تململ في عناقها. هي، صارمة وعطوفة في نفس الوقت، عرفت موجة صبر بها وفهمت من نظرات الناس المتعاطفة حولهما بأن الناس ظنوه كان يعلق ملصقا، بأن واحدا من الوجوه الضائعة المبتسمة على الحاجز ينتمي إليه – أُمٌّ ربما؟ أخت أو أخ؟ زوجة؟ – بأنه كان يحاول أن يُفرغ حزنه في حضنها بهدوء.

الفصل الستون

في المنزل

في ذلك اليوم الفظيع، انتظرت ابنها أن يتصل بها رغم أنها عرفت بسرعة - أحدهم قالها على التلفاز- بأنه لا يستطيع... كانت الخطوط مشغولة، الخطوط مقطوعة، الإشارات فوق الأبراج مُطفأة، شيء من هذا القبيل. كانت في موقف سيارات المدرسة عندما سمعت الخبر، تلتقط أوراق الواجبات من صندوق السيارة لأجل قسمها الثاني. جاءت زميلتُها جوان مسرعة وأخبرتها، وابنُها بوتي كان أول ما فكرت فيه. ألغيت الدراسة في واترتاون، لكن حتى بعد أن غادر الأطفال كلهم، بقيت في غرفة الأساتذة لبرهة وشاهدت التلفاز. جعلها الأمر تعرق، تلك الصور، وبمجرد أن سقطت الأبراج عرضوها مجددا ومجددا، نفس المشاهد، بدت السماء زرقاء ناصعة فيها – كان الجو مشمسا في واترتاون أيضا، ولو أن الحدث بدا كما لو أنّه وقع في مكان آخر من الأرض.

استمرت في التساؤل عما إذا كان من الغريب أم المطمئن كيف أن النهار استمر طبيعيا، بالرغم من أن لا أحد عرف مكان الرئيس (شمال داكوتا؟) وحتى نائب الرئيس فقد كان يختبئ في مكان ما – في مكان آمن، قالوا على التلفاز، وجوان التي لطالما كانت صريحة بشأن آرائها قالت «مكان آمن،

هذه كذبة. كنعش مثلا، ما رأيكم في هذا كمكان آمن؟» – كررت ذلك مرات عدة حتى أخبرها هال سبيد الذي كان يدرس الفيزياء للصغار بأن تتوقف لأنه ينم عن عدم احترام في ظل الأزمة، مهما كانت آراؤها السياسية. طلبت جوان من جودي الغداء في المطعم بالساحة، لكنها آنذاك قالت بأنه ربما عليها أن تكون في المنزل، لأن بوتي قد يحاول الوصول إليها، وسيعلم بأنها قلقة طبعا، لم تكن سخيفة وكانت تعرف بأن نيويورك مكان كبير، لكن مع ذلك، لنكن صادقين، كان الوضع مقلقًا وكل ما أرادته هو سماع صوته ومعرفة أنه على ما يرام.

كان المنزل ساكنا، ما كان فظيعًا – بشكل ما، حتى أشعة الشمس المشعة المنعكسة عبر النافذة على طاولة المطبخ، جد هادئة ولطيفة، كانت فظيعة آنذاك – فكرت في إدارة التلفاز ولم تستطع المقاومة، عليك أن تعرف أليس كذلك؟ فتحت علبة معجنات بطعم الدجاج وأعدّت شطيرة لحم – بالمايونيز وشرائح الخيار، بالشكل الذي تحبه – لكنها وجدت نفسها غير قادرة على أكل الكثير، الأمر الذي لم يشكل مفاجأة، لأنها كانت تنتظر. في حوالي الثالثة رن الهاتف، وقبل أن تجيب شعرت بالارتياح، لكنها كانت سارة فحسب، تتصل من خليج أليكساندريا لتسأل إن كان بوتي قد اتصل بعد وهل هو على ما يرام؟ هل رغبَت من سارة القدوم؟ ربما، مع الأطفال، فكارثة كهذه تجعلك ترغب في أن تكون بين أناس يعانون ما تعاني وحسب، أليس كذلك؟

«لمَ لا ننتظر ونتحدث لاحقا، عندما أكون قد تكلمت معه،» قالت، «فمن يعلم، لن تتأخر الهواتف في العودة إلى العمل». وعندما أغلقت الخط فكرت، سحقا، سأجرب فحسب، ما الذي سأخسر، واتصلت بالرقم الذي عندها والعائد إلى تلك الشقة المُكتراة في مكانٍ ما وسط المدينة، حتمًا لم يكن قرب الأبراج، قال من قبل بأنه في الجهة المقابلة من الجزيرة، كانت متأكدة. لمفاجأتها، اتصل الخط في المحاولة الأولى، لكن المجيب الآلي أجابها، بصوت الفتى الآخر فيها، طبعا، صديق مارينا الذي كان هذا مسكنه، فلم يفلح هذا.

ربما كانت تلك هي المرة الأولى التي شعرت فيها فعلا بالخوف، لأنها فكرت فيه خارجا في الشارع بمكان ما، بدل أن يكون مختبئًا بعيدا بالداخل في مأمن، لكن هذا كان سخيفا لأن الجميع طبعا بالخارج هناك، ليرى بعضهم بعضًا وليتفقدوا العالم وأنّه لا يزال صامدًا.

لأن على الحياة أن تستمر، أرغمت نفسها على ركوب السيارة والذهاب إلى موعد مُصَفّف الشعر في الساعة الرابعة. كانت دولي متحمسة بشأن الأمر برمته، بطريقتها الغريبة الغامضة، وهي تقلّم عند مؤخر عنق جودي. بدت غريبة في ثوبها الوردي قرب أذن جودي اليسرى، هزت رأسها وقالت «سيئ، أليس كذلك؟ سيّئ جدًا. إنّهم أولئك العرب.» قالت، ناطقةً اسمَهم العيرب. «أختي ليلي، تقطن في بافالو، تقول بأنهم في كل مكان هناك، ويعيشون كما لو كانوا لا يزالون في بلدانهم العربيّة. لا يعرفون الإنجليزية ليتحدثوا بها. قُبّعاتهم، وتقاليدهم برمتها. قد يقتلون كل واحد منا إن استطاعوا، أليس كذلك؟»

«حتما كذلك،» وافقت جودي، ولو أنها عرفت بأن مشاعر دولي تجاه الأجانب كانت جد مختلفة، جوان لم تعد تقص شعرها عند دولي بعد الآن لذلك السبب، بالرغم من أنها كانت أفضل مصففات الشعر في واترتاون.

كانت جودي في المنزل في الساعة السادسة، بشعر يبدو مضحكا قليلا (لم ينجزوا تموج الشعر اليوم، أجلت الأمر إلى المرة المقبلة. بشكل ما، لم تستطع مواجهة الأمر) لكن أفضل فحسب عن ما كان عليه، وفخورة بنفسها للاحتفاظ بالموعد بالرغم مما يجري، فأيّ نفع للقلق بخصوص أمور لا يمكنك القيام بشيء حيالها؟

وقبل السابعة بقليل اتصلت مجددا بالرقم، وأجاب ذلك الشاب – جوليوس كلارك، ستتذكر ذلك الاسم وقال بأنه لم يكن يعرف شيئًا عن ابنها بوتي، (وجدت الأمر غريبا قليلا بأن ينادي ابنها بوتي، لأن بوتي عموما لم يكن يستسيغ ذلك) بأنه انتقل إلى بروكلين لكن لم يترك رقم هاتف حسب علم جوليوس. تذكرت الآن، قال شيئًا بشأن الانتقال، لكنها فكرت بأن الأمر لن

يكون سريعا. كان يشتغل في مطعم أيضا، الآن فقط، لكنها لم تكن لتتذكر اسمه. مكسيكي ربما؟ آبسكيل آند مكسيكان، طعام رفيع، ظنت أنه قال. عرقي حتما. لقد تفاجأت.

قال جوليوس بأنه لم يكن يعرف شيئًا عن هذا. بأنه أعطى جوليوس رقم وكالة توظيف مؤقت، لكنه لا يعلم إن كان قد تواصل معها. طبعا، يملك الرقم، وأعطاه لها. كان آسفا لأنه لم يكن مفيدا أكثر، لكنهما لم يكونا يعرفان بعضهما كثيرا.«من يعرف؟» سألت، محاولة أن تبدو نشيطة بدل حزينة.

«أنا آسف سيدتي،» قال – كان مهذبا، قال سيدتي– « لكنني لا أحمل أيّ فكرة.»

حاولت أن تهدئ من روعها، بعد ذلك. كان تحاول ترتيب أفكارها، فقط لأن بوسعها الاتصال بنيويورك لا يعني بأنهم يستطيعون الاتصال إلى خارج المدينة، أليس كذلك؟ لأن الأمور أحيانا كانت تجري هكذا، صحيح؟ اتصلت بالوكالة التي أعطاها جوليوس كلارك، حتى توقن بأنها قد فعلت كل ما في وسعها، لكن كل ما توصلت إليه هو مجيب آلي. آنذاك اتصلت بسارة لأنها لم تقدر على الانتظار وحدها، وقالت سارة بأنها ستأتي، لكن غدا، بعد المدرسة، لأن الأطفال كانوا على وشك أخذ حمامهم والنوم.

«لا تقلقي كثيرا، أمي،» قالت. «لأن بوتي سيتصل. على الأقل تعرفين بأنه ليس هناك، من بين كل الأمكنة، في ذلك الوقت صباحا. يحدث أن يكون أنانيًا، أنا متأكدة من أنه لا يفكر حتى في أنك قلقة. أيمكنك أن تتخيلي كيف هي الأمور هناك، أعني، كفيلم يوم الاستقلال، صحيح؟ هو في الغالب مع أشخاص آخرين، تعلمين، أصدقاء، يحاولون أن يشعروا بتحسن بشأن كل شيء. متأكدة أنه سيتصل غدا، إن لم يقدر على الاتصال اليوم..»

الأمر الذي جعلها تشعر بقليل من التحسن. كانت سارة محقّة، في كل الأحوال: على الأقل هي تعلم بأنه لم يكن هناك. كان المطعم بمكان آخر، ألم يقُل الجادة الخامسة؟ أذلك بعيد جدا؟ على الأقل غير قريب – إلى جانب

ذلك، لا نادل سيعمل في ذلك الوقت. لكنه إن كان مع أصدقاء، فمن هم؟ لم تستطع تصور كيف صارت حياة ابنها سرًّا منغلقًا عليها. بينما كان قبل أسابيع فقط، يقطن مع موراي وكانت تعلم – حسن، تعلم إلى حد ما، لكن مع ذلك – ما كان يفعله كل يوم.

لكنه لم يتصل طيلة الليلة، ولم يتصل صباحا، وعندما عادت إلى المنزل من المدرسة، حيث كانت كل الحصص قد أمضيت في الحديث عن الكارثة، طبعا، لم يترك أيّ رسالة. وقالت لسارة عندما جاءت، بأن أسوأ ما في الأمر هو حتميّة الانتظار فقط. من يستطيع أن يفلح في ذلك؟ عندما كان بيرت مريضا وُجِد الكثير من الانتظار، في المستشفيات وبالمنزل، وكانت تكره الأمر آنذاك، كرهت الضعف ومضيعة الوقت، لكن هذا بدا أسوأ، بشكل ما، لأنها كانت تعلم كم أن القلق سخيف، لكن ما الذي بوسعها أن تفعل؟ أيمكنها أن ترغم نفسها على الخروج فعلا، من دون أن يكون هنالك أحد لرفع الهاتف، في النهاية قامت برحلتها إلى المتجر (احتاجت للحليب، والخبز وبعض البضائع) بينما جهزت سارة منزل اللعب في الباحة الخلفية للأطفال.

يوم الخميس، استسلمت واتصلت بموراي. لم تكن متأكدة من منهما عليه أن يكون نادما، وعليه حاولت تصفية الجو منذ البداية.

«أعلم بأننا غير متفاهمين موراي،» قالت. «لكنك أخي الوحيد وعلينا أن نتجاوز الأمر. ارتكب ابني بوتي أمرًا غبيًا، وقد كان نادما عليه طيلة الوقت، لكنه مجرد فتى، وما زلت أعتقد بأنه لم يكن عليك أن تكون قاسيا عليه لتلك الدرجة.»

«جودي، لقد كنت أنوي الاتصال بك. كل هذا–»

«أعلم. كارثة كهذه، تجعلك تفكر. لا يجب على العائلات أن تختلف. ليس سليما. وأحتاج لمساعدتك.»

«مساعدة؟»

«لم أسمع منه، موراي. لقد مر يومان ولم يتصل. الأمر ربما سخيف

مني – سيبقى الفتيان فتيانا، وسارة تقول بأنه فقط لا يفكر، لكنه كل ما يشغل بالي.»

«أوه إلهي»

«أيمكنك أن تجده لأجلي؟ موراي، رجاء؟»

«طبعا جودز. لكن لا أعلم كيف.»

«لا يوجد أي رقم هاتف. هذه هي المشكلة. ذلك الفتى جوليان، لقد أعطاني عنوانا – أملك العنوان. الظاهر أنه في مكان يسمى فورت غرين. أتعلم أين يقع؟ في مكان ما في بروكلين؟»

«متأكد بأنه في وسعنا العثور عليه.»

«حسنا، إذا لم يمانع أحدكم – أعلم بأن الأمر غريب، نظرًا لكل شيء، أنت تعلم، كل شيء. لكن ثمانيةً وأربعين ساعة قد مرت ولم أسمع كلمة.» شعرت بأنها على وشك البكاء.

«لا تعتقدين فعلا بأن...»

«طبعا لا. طبعا لا. أعني، فورت غرين هذه، ليست قريبة صحيح؟»

«ليست قريبة.»

«إذا فليس وكأن... لكن الأم تقلق، موراي. أنت تعلم. اسأل أنابيل.»

«أعلم بأنك تفعلين. لا تقلقي بشأن الأمر جودي. أنا متأكد من أنه على ما يرام، لكن واحدا منا سيذهب ليتفقده. لأخبرك شيئًا: سأجعل مارينا تفعل ذلك. سيوقدون نارا لأجل الأمر. ألن يكون هذا مناسبا؟»

«مهما تطلب الأمر، أتعلم؟ لأنه بوسعي أن آتي إلى هناك، إن تطلب الأمر.»

«لا تكوني سخيفة جودز. هذا آخر ما يريده أي أحد. الناس يأتون في أفواج هنا، في حافلات، قطارات، أي وسيلة ممكنة – ليساعدوا في رفع الأنقاض. للبحث عن ناجين. تعلمين.»

«أخبرني موراي: أيمكنك شم الأمر؟ كيف هي الرائحة بحق السماء؟»

«نحن بعيدون للغاية هنا. سأذهب غدا. أنا بصدد كتابة شيء ما. لكن مارينا قد ذهبت. أظن بأن الرائحة جد قوية، اعتمادا على الهواء. أنت تعلمين، الريح. كغبار محروق، في الغالب، وبعض الأشياء الأخرى، الوقود. وأشياء أخرى. أنت تعلمين. الكثير من الغبار.»

«لكن الرائحة ستعبق كالموت، أليس كذلك؟ قريبا، إن لم تكن سلفا؟ قبر كبير كذلك، ستعبق منه رائحة الموت دون شك.»

الفصل الواحد والستون

فورت غرين

عندما ذهبت مارينا وجوليوس معًا إلى المنزل بفورت غرين، وقفا على الدرج لدقيقتين أو ثلاث بعد أن قرعا الجرس. جوليوس، الذي صارت عينه الآن صفراء وخضراء، لاعب الضماد على خده.

«لا أحد هنا،» قال. «إنه وقت الغداء في يوم الجمعة. من سيكون بالمنزل الجمعة وقت الغداء؟ قد تهزّ مؤخرتك في العمل غالبا، العمل المؤقت، فهمتِ؟ لقد أعطيته الرقم.»

مطّت مارينا شفتيها وقرعت الجرس مجدّدًا، لوقت طويل، كان بوسعهما سماع الجرس يرن في البهو.

«هذه منازل رائعة،» قال جوليوس، وهو يُطلّ من خلال زجاج الباب الضبابي. «لو أملك مليونا، لاشتريتُ هذه الزبالة وأصلحتها. عاجلا أم آجلا، ستصير قيمتها باهظة»

«أنا متأكدة من أنه قد أُصلح سلفًا،» أجابت مارينا. «ألا ترى؟ المجمع السكني السفلي، يبدو كأنّه كلّه قد أُصلح.»

استمر جوليوس في التحديق في الدّرَج السفليّ. «أظننا قد أيقظنا أحدا،» قال. «يبدو كقاتل بفأس.»

الرجل الذي فتح الباب كان يحمل زغبًا أكثر على فكيه السمينتين منه على رأسه. كان كتفاه كاللحم المدخن، مستديرين، قاسيين، وضيقتين مقابل قميصه الحقير. «ما الذي تريدانه؟» كانت له لكنة واضحة.

مارينا بكل سحرها، شرحت بشأن بوتي، وكيف أنهما أكيدان من أنه على ما يرام لكنهما أرادا أن يتأكدا.

«ليس هنا الآن.»

«هل أنت متأكد؟»

«غرفتي تقع تحت غرفته. قد تعتقدان بأن المنزل قوي لكن كل مراوح التسخين مفتوحة. عندما يضرط الفتى أسمع أنا ذلك.»

«إذا لا تدعنا نزعجك أكثر من هذا – سمعته من الثلاثاء صحيح؟»

فرك الرجل عنقه المدقق، متظاهرا بالتفكير «لا أعلم،» قال. «لم أفكر في الأمر. لكنني لم أسمع منه منذ بضعة أيام.»

«منذ الطائرات؟ أسمعت منه منذ أن ضربت الطائرات؟»

«لا أعلم.»

طلبا رؤية الغرفة. «أنت تعلم، إن كانت هناك جريدة الأربعاء في القمامة، فلن يكون علينا القلق بشأنه.»

«صحيح» نظر الرجل إليهما بعين شك. وكأنه عرف من أن عليه منعهما من الدخول – من باب المبدأ ربما، ولو أنه لم يبد رجلا ذا مبادئ– لكنه لم يهتم.

«أنا قريبته،» كررت مارينا.» أمه – عمتي – جد قلقة.»

«الباب مقفل.» قال. «الباب إلى غرفته.»

«ألا تملك مجموعة مفاتيح رئيسية في مكان ما؟» سأل جوليوس.

هز الرجل رأسه مجيبا، بدا أبله تقريبا، الآن، وأشار لهما بالدخول. هاجمت رائحة عرقه المشبع بالثوم مارينا حينما مرت بمحاذاته.

كان الدرج رثًّا، وغير نظيف. التغليف المطاطي مُقشّرٌ عن الدرجات،

ومجموعة حصى تطقطق تحت أقدامهم. طُلِيَ الجبس غير المتساوي منذ وقت طويل بلون أزرق سماوي لامع، ربما من أجل إضفاء الحماس وسهولة التنظيف، لكنه كان واضحا أن أحدا لم يرفع ممسحة مبللة إلى الجدران منذ سنوات، وكانت مبقعة ومتسخة. الرواق في الأعلى بلا نوافذ وسيّئ الإضاءة. يتسرّب ضوء النهار فقط من تحت أبواب الغرَف المغلقة. توقف الرجل في الطابق الثاني، طلب منهما الانتظار، وانسحب إلى إحدى الغرف بالخلف بطريقة مختلسة حتى لا يريا ما بداخلها، مغلقا الباب خلفه. ثم عاد إلى الظهور حاملا مجموعة مفاتيح معلقة في حزام من قماش.

«يجب عليّ ألّا أفعل هذا،» قال، رافعا كتفيه إلى أعلى وهو يقودهما إلى طابق آخر. «من حق الناس أن ينعموا بخصوصيتهم.»

كان الطابق العلوي أقل اتساعًا وأكثر ضيقا من الطابق السفلي، لكن باب الحمام كان مفتوحا، على الأقل. لاحظت مارينا بأن أحدًا قد وضع نبتة عنكبوتية على حافة النافذة، كانت ستائر الحمام مخططة بألوان بهيجة، واختيرت لتناسب سجاد الحمام، لم يكن الأمر سيئا.

سلبت غرفة بوتي أنفاسهم جميعا. لم يكن هناك شيء ليستنتجوا منه: كومة أغطية منكمشة تحت النافذة، حاسوب غير مستخدم على الأرض في الزاوية، إلى جانب بعض الكتب، بعض البطاقات البريدية البئيسة معلقة عشوائيا على الجدار. كان هنالك فنجان متسخ، وطبق مغطى بما بدا كصلصة طماطم. نصف رغيف من الخبز المكور في كيس بلاستيكي احتفظ بها مع بعض العلب، فوقها ملعقة وفاتحة علب وضعت بعناية. ذهبت مارينا للإطلال من النافذة على الأسقف، ثم عادت. لم تكن هنالك جرائد، بل لم تكن هنالك سلة مهملات حيث كان من الممكن أن توضع فيها.

«ربما غادر؟» اقترح جوليوس، راكلا الأغطية «هذه ملكي.» قال، ومشيرا إلى ممسحة معلقة على مقبض الخزانة، «وتلك أيضا. قريبك لص.»

وقف الرجل الكبير وسط الغرفة وذراعاه متدليان إلى جانبيه. كانتا

قصيرتين، وثخينتين. «حسنا.» قال.

فتحت مارينا الخزانة. وُضِعَت حقائب بوتي على الأرض بالداخل، متقيئة ما بداخلها: ملابس داخليّة، جوارب غير متطابقة، بعض القمصان المنكمشة، الرِجلان المتدليان لزوج جينز.

«لم يذهب،» ردت. «هو فقط لا يملك شيئًا.» هزت رأسها. «أشعر بالأسف الشديد.»

«ليست غلطتك.»

«كان بوسعي أن أحاول إقناع والدي بالاحتفاظ به. أظنني كنت جد غاضبة.»

«هل انتهيتما الآن؟» حرك الرجل المفاتيح بضع مرات. «هو ليس هنا.»

«لا»، وافقت مارينا على ما هو واضح. «لكن شكرا.»

مجددا على العتبات التفتت إلى جوليوس «الآن ماذا؟»

«ربما هو في العمل، لم لا نتصل بالوكالة؟»

«لكن ماذا لو لم يكن هناك؟»

«آنذاك نفكر في الخطوة المقبلة. ربما يأكل شطيرة عند أحد المتاجر وسط المدينة. فقط لأنه ليس هنا وأن غرفته كئيبة – لا يعني هذا شيئًا.»

«يبدو فقط... لا أعلم. منبوذا. الغرفة. كانت محزنة.»

«كان ينام على الأرض إذا. هنالك أقدار أسوأ.»

«وإن لم نستطع إيجاده؟ أنتصل بالشرطة؟»

«اهدئي. أنت تستبقين الأحداث.» لف ذراعه حول كتفها، وسارا عائدين إلى الشارع، الذي كان لا يزال مضاء بشكل كان في الآن ذاته متمدنا وبئيسًا. في طريقهما إلى قطار الأنفاق، مرا بجانب محطة إطفاء حجرية قصيرة مغطاة بشارة حداد سوداء، بالخارج وضع الناس باقات زهور، في الغالب صفراء، وأصدرت مارينا صوتا حزينا صغيرا.

«جوليوس،» قالت. «أخبرت لودو مباشرةً بعد أن حدث الأمر، أخبرته بأننا ملزمون بمعرفة أحدهم. فكّرتُ في الآباء والأصدقاء أو أيّ شخص درسنا معه، وفكّرتُ في أُمّ ذلك الصبي الذي تمثّله والدتي أيضًا، و...»

«وهي على ما يرام صحيح؟»

«لا. هذا ما في الأمر. ليست بخير. إنها مفقودة. كانت في الطابق المائة وواحد، أو شيء كهذا، ولا أحد سمع منها.»

«واو. كم عمر الفتى؟»

«إنها فوضى عارمة، إلهي، إنها فوضى لأنه في الرابعة عشرة، ولا أب في الصورة، فقط زوج الأم هذا الذي كان سبب كل المشاكل. تقول أمي بأنه يتصرف كما لو تعرض لطلق نار، يسير في المكان صامتا تماما وبالكاد يتنفس. اعتاد على الحياكة للبقاء هادئا - غريب، أعلم - لكن أمي تقول بأنه لا يستطيع حتى فعل ذلك، بالرغم من أن أصابعه تتحرك، كما لو كانت تملك حياة لوحدها. لا يقول شيئًا. لكن الأصابع تتحرك طيلة الوقت. تنهدت. «إذا فأنت تعلم، هي تُعتبر مفقودة، لكن إلهي، جوليوس، الأمر رهيب.»

«إنه رهيب فعلا.» وافق وضمّها إليه حتى دغدغ طوقه أذنها. «الأمر برمته رهيب. لكن ليست له أيّ علاقة بهز مؤخرتك. أعدك.»

شهقت قليلا، ربتت على شفتها وخدها بمحرمة من جيب سروالها. «هل أنفي أحمر؟» قالت. ثم أضافت «تصوّر أنني حينما وضعت هذه المحرمة الورقية في جيبي، كان العالم مكانا مختلفا تماما؟» وأخيرا، بصوت أصغر: «علينا أن نجده. تعلم ذلك صحيح؟ علينا أن نجده.»

عندما اتصل جوليوس بالوكالة، لم يعطوه أيّ معلومات. «أنا جد آسفة، لكن الأمر يخالف سياستنا،» قالت المرأة. «حتى وإن كنت مسجلا معنا. على الطلب أن يكون رسميا. أنت تعلم، عبر الشرطة. أيمكنك حمل الشرطة على فعل ذلك؟»

«ماذا، إلى جانب الخمسة آلاف شخص الآخرين؟» انفجر. «ألا تظنين

بأن لديهم أمورًا كافية ليقلقوا بشأنها الآن؟»

«أنا آسفة،» قالت مجددا، بندم واضح.«أعلم بأنها أوقات عصيبة.»

لكنه بعد ذلك ذهب إلى مكتبهم، رفقة مارينا، قبل الخامسة بقليل، والمرأة الوحيدة التي كانت هنالك لم تكن السكرتيرة بل شخصا أرفع، شخصًا بأنف صغير مكور في الخمسينيات ترتدي بذلة حمراء أنيقة. عرفها جوليوس.

«غادر الجميع،» قالت. «أظن بأن عليك العودة يوم الإثنين. سيكون الطاقم بأكمله هنا، أخيرًا. بعض الأشخاص غائبون طيلة الأسبوع.» تنهدت.

«لكن الآمر لا يستطيع الانتظار إلى الإثنين.» ردت مارينا،» أنا جد آسفة، لكنه فعلا لا يمكن.»

أنصتت المرأة إلى قصتهما، وهزت رأسها، ونظرت مليًا إلى جوليوس. «حسنا،» قالت « لقد اشتغلت معك. أتذكر الاسم. إنه اسم أول غير معتاد. الوفاء، الوفاء صحيح؟ من المفترض أن تبدأ الخميس المقبل. ثلاثة أشهر. التوصيات عليك دائما مرتفعة.» توقفت. «ذلك جرح سيء هناك على خدك.»

هز كتفيه، بألم. ربما تظن أنّه بسبب ما حدث للبُرجَين.

في النهاية، وافقت على التفقد لأجلهما، ونعم، فردِرك تاب كان قد تم توظيفه مباشرة بعد عيد الاستقلال، بدءً من الثلاثاء، توظيفًا لأسبوعين، شركة مالية بشارع سيدار. كانت ساعات عمله اعتيادية، من التاسعة للخامسة، خمسة أيام. «هناك ملاحظة في الملف.» قالت، «لعلمك، الآن أتذكر ماري وهي تتحدث عنه. قَدُمَ الجمعة الماضية حاملًا جدول عمله وطلب أن يتم الدفع له حالا. قالت بأنه كان متأزما فعلا، وشعرت بالأسف لأجله فكتبت الشيك من حساب المبالغ الصغيرة، الأمر الذي يخالف سياسة الشركة كليةً. كان بوسعي تسريحها لذلك. لكنها كانت صريحة على الأقل، تحدثنا عن الأمر، والآن أعتقد بأنها تفهم كم من المهم هو ذلك. قال بأنه لن يكون قادرا على الأكل طيلة الأسبوع، أو دفع بطاقة قطار الأنفاق. فتى شاب، قالت، يبدو جادا.»

«يا إلهي،» قالت مارينا.

«هل اتصلت الشركة، هل اتصل أي أحد ليقول بأنه لم يأت للعمل أو أي شيء؟»

«تعني هذا الأسبوع؟ لا أظن حتى بأنهم يشتغلون. أتعلم أين يقع شارع سيدار؟»

«ليس تماما.»

قامت لتريهم على خريطة لمانهاتن كانت ملتصقة على الجدار قرب مكتب الاستقبال.»إنه يبعد بضع مربعات سكنية فقط،» قالت. «أنا متأكدة من أن كل النوافذ قد انفجرت، الغبار السام في كل مكان. لا كهرباء، ربما لا ماء أيضا. لا أحد يعمل هناك الآن.» عندما كانا بصدد المغادرة ابتسمت لهم ابتسامة حزينة. «حظا سعيدا،» علقت. «كلنا نحتاجه هذه الأيام.»

«حتى إن كان يعمل في مكتب يبعد مجمعين سكنيين، ليس هنالك أي سبب يدفعه إلى الذهاب إلى الطابق السفلي» علق جوليوس، بمجرد أن وقفا في المصعد. «ليست محطة توقف قطاره. ثمّ ألم يهوي البرج الأول في حوالي التاسعة إلا عشرا، صحيح؟ هذا يعني بأنه ما لم يكن هناك باكرا، كان ليكون في الحي بعد الواقعة. كانوا يخبرون الناس بأن يخرجوا من هناك. كان ليخرج، يسير أعلى المدينة، أو يعود إلى بروكلين. الكثير من الناس ساروا إلى بروكلين ذلك اليوم.»

«الآن ماذا، تظن أنّ أقدام الحشود على جسر بروكلين قد دهسته؟»

«تمزحين، لكنه قد يكون في المشفى بساق مكسورة أو شيء كهذا. بسيطة»

«ما الذي سأخبر والدي به؟ ما الذي سنقوله للعمة جودي؟»

«ليست نهاية العالم لعلمك. سيظهر في مكان ما، الحياة هكذا.»

«هكذا كانت. لكنني لم أعد أعرف كيف يجري أي شيء بعد الآن.»

«أوافقك،» قال ملامسًا خدّه. «أنا خائف على حياتي، ولا أعرف إلى أين ستؤول الأمور.»

الفصل الثاني والستون

وحي كلاريون

مساء الخميس، أخذ بوتي حمامه الأول منذ أيام، في حوض استحمام بلاستيكي بغرفته بكلاريون الواقعة نصف ميل عن محطة حافلات ميامي. أطلق المياه الباردة نسبيًا، لأن الجو كان حارا بالخارج. لم يكن للحمام نوافذ أيضا، فكان يخسر الحرارة. كان دبقًا لأيام، ومتسخا، لأنه كان يملك فقط ما كان يرتديه صباح الثلاثاء، قميصه المزرر المخطط من الإخوة بروكس، سرواله القماشي، الآن مصبوغ بالكاتشاب والدهن، الجوارب السوداء، جد دبقة وغارقة في العرق كما لو لن تنشف أبدًا. على الحافلة، بينما كبُرَت لحيته وامتدّت إلى رأسه، كان مدركا لعطانته، وكأن كل شعرة من جسده كانت مغلّفة بالقذارة وتبعث بهدوء تلك الرائحة منه إلى الهواء بين الكراسي. بشكل مضحك جعله حرا، أكثر حضورا مما شعر به منذ أسابيع، وكأن كل راكب سيعترف بأن بوتي تاب موجود بفعل رائحته، وعندما كان على رجل عجوز، رجل صغير أسود بقبعة لباد على رأسه، أن يجلس أمامه لمدة، مرغما، حرك أنفه اللامع ووضع أصابعه وقايةً على أنفه، شعر بوتي في نفس الوقت بالحرج والفخر. لم يكن من قبل قط واعيًا لتركه أيّ انطباع.

لم يستيقظ ذاك الصباح، طبعنا، مع أيّ نية للذهاب إلى أي مكان

عدا مكاتب ريدينغ ولوكوود، حيث كان قد أمضى سلفا جزء مهما من الأسبوع يتفقد مجاميع أعمدة لا متناهية من الأرقام مستعملا آلة حاسبة صغيرة تطبع كل شيء على شريط لاصق كلما استمر. مهمته، بمجرد أن يتفقد المجموع، كانت أن يلصق القطعة المناسبة من الشريط على الوثيقة يدويا ويرجعها إلى رئيسته، امرأة رفيعة بشعر أشقر ناعم ورائحة قوية من العطر والسجائر. لم يكن عمل ضرائب، لكنه نيق وسريع الإضجار، والمكتب – لم يمض من قبل وقتا في مكتب قط، ليس كهذا– بدا له غير صحي، يتنفس الجميع هواء مكررا مرتفعين عن الأرض. في الأيام القليلة الأولى، كان متعجلا، لكنه صار من الواضح أن رئيسته، مورين لم تكن تهتم بوقت قدومه، ما دام في النهاية قد نقل كل الأوراق من داخل الصندوق إلى خارجه، بملصقاتها معلقة بنظام. رغم ثِخنها، صارت أصابعه رشيقة على الآلة الحاسبة، وصار قادرا على إنهاء العمل أسرع مما كانت تعرف، الأمر الذي ترك له وقتا فارغا. قرأ موسيل خلال ساعة الغداء، منكفئا على مكتبه، بكيس دوريتوس. كان يقتني الحجم الأكبر في المتجر نهاية المجمع ليوفر المال، مع قنينة لترين من الكولا، واحتفظ بهذين بمحاذاة قدميه. كانت الكولا دافئة دوما، وثم تدريجيًا مطفية، حتى تصير في النهاية كعصير مسموم، مضغوطا ربما من إطارات سيارات مغلفة بالسكر، أو من نبتة مجهولة مميتة في الأمازون. كان يقرأ موسيل ويأتي متأخرا للعمل، متأخرا لأن قطار الأنفاق الذي كان يكرهه كان أقل ازدحاما بعد مرور قطار التاسعة.

في ذلك الصباح، كان جد متأخر. كان عليه النزول من قطارين على التوالي بعد محطة واحدة لأنه جدّ مزدحم، وقد جعل قلبه يضرب وأنفاسه تنقطع. لزِمه مجهود كبير ليبلغ القطار الثالث، وحتى آنذاك، استطاع أن يتحمله حتى صاروا في المياه (كان يكره عبور الماء، شعر كما لو كان يحس بالثقل يضغط على النفق، العربة نفسها)، استطاع تحمله لأنه كان يعرف بأنه ملزم بذلك، وترجل في شارع وايتهال، معرقًا ولاهثا وهو يصعد من المستوى

الأرضي، ليسير آنذاك بقيّة الطريق. كان عارا، لم يتأخر من قبل كل هذا، كانت التاسعة وعشر دقائق، لكنه سيكون هناك على التاسعة وخمس وعشرين أو التاسعة والنصف، وموربن قد غادرت لسيجارتها الأولى أسفل الشارع، ولهذا فإن لم تره في الحقيقة، فلن تعرف أبدا بأنه قد تأخر.

شيء ما كان خاطئا على الأرض. الهواء، الدخان، الشمس، السماء الصافية قد حجبت بالدخان، محيط من الدخان الأسود، عال في السماء ومستمر في الزحف. كان الناس يصرخون ويشيرون، واستدار فرأى، أعلى فوق كل المباني، رأس البرجين، والنيران، واستطاع أن يشم. لم يستطع ترتيب أنفاسه لأنه كان يلهث على كل حال، لكن هذا، ما كان هذا؟ لم يستطع فهمه. نهاية العالم. إشارة من الرب. سأل رجلا في بذلة، بأحذية باهظة سوداء، لا تشبه فردتي حذائه اللتين تركهما في المنزل، من جلد أفضل وألمع – وجد نفسه ينظر في الغالب إلى الأحذية – وأخبره الرجل عن الطائرتين، لا واحدة بل اثنتين، والثانية، حسنا، الناس هنا قد رأوها – ألم يسمعها بوتي؟ أكان تحت الأرض؟ – حسنا. مكان أفضل ليكون فيه، قال الرجل، لأن هذا أشبه بالمعركة الأخيرة. هناك أناس عالقون، قال، لم يستطيعوا الهبوط. الناس حتما يموتون بفعل الدخان. أتى رجل آخر إليهم، ربطة عنقه مرتخية، عيناه جاحظتان، رجل في خمسينياته بلحية بيضاء مربية، «إنهم يقفزون. سمعت أنهم يقفزون.»

وقال الرجل الأول، «من لن يفعل. إلهي، إلهي. ألم تكن لتقفز؟»

آنذاك بدأ بوتي في المشي. كان يحمل موسيل في حقيبة بلاستيكية، أصابعه مبللة من مسكتها، ونظارته كانت تحمل ضبابا أو غبارا أو شيئًا ما. لكنه أرخى ربطة عنقه وفتح الزر العلوي وهو يمشي إلى أعلى المدينة.

شعر بانجذاب للذهاب ورؤية المباني عن قرب، لكنها أخافته، الكثير من الموت أرعبه، أكثر مما أغراه، والدخان أخافه أكثر. غير قادر على التنفس، ولج إلى شارع ناسو، ثم لافاييت. كان هنالك الكثير من الناس في الشوارع،

على طول الطريق، في النهاية أخفض رأسه، عيناه على قدميه، فردتا حذائه المغلف الأبيض، واحدة أمام أخرى. سار الناس جميعهم في الاتجاه نفسه، كممثلي فيلم إضافيين محشورين في الشوارع، يصطدمون ببعضهم عن غير قصد، بغرابة كوفد عظيم، كنهر بطيء، حيث يتوقف الأفراد كالصخور لبعض الوقت ويتركون الماء، المشاة الآخرين، ينسابون بصمت حولهم. لم يرغب في أن يعرف. كان في شارع كانال عندما سقط البرج الأول. عندما صرخ الجميع وصعقوا، توقف، استدار، نظر: احتل الدخان والغبار العالم. نظر بعيدا، نحو الأرض.

لأنه لم يكن رفقة أحد، لم يتحدث لأحد، لكنه راقب وحيدا، شعر وكأنه لم يكن يحدث حقيقة، وكأنه حلم يقظة قد يقدر على الهروب منه إن حاول كفاية. في الحشد، شعر بوحدة عارمة، أكثر مما فعل من قبل. لم يشعر بصلة مع الأوجه، الأصوات التي أتته كما لو من بعيد. كان رجلا في بلد مجهول، فكر، وأحيانا بدت الصرخات لا كالكلمات بل كالضجيج، صوتها وغضبها. حكاية تُحكى لغبي. الرأس مطأطأ. اندفع عبر الحشد الواقف، النهر حوله متجمد بينما هو، بغرابة، يسير.

في جيب سرواله، كان يحمل كل نقوده، ما تبقى من مال الشيك الذي أعطته تلك السيدة اللطيفة في الوكالة بصورة لا مشروعة. وهو يسير إلى الشمال، تحت السماء الصافية واللامعة، في مشهد صادم أشبه بالرتابة – كلما ابتعد، كلما اصطبغت الشوارع بطابع العطلة، مكبوحة وغير عادية، وكأن موت ملك محبوب قد أُعلِن للتو والمواطنون على الرغم من حزنهم، قد فوجئوا بتحررهم من رتابتهم – حاصرته الأفكار. خمد الزئير في رأسه للمرة الأولى منذ أسابيع، أُدير زر في عقله، لم يستطع منعها من التهاطل. كان الجنون قد غمره حتى فكر في أن مارينا قد تحبه يوما، ستحبه يوما. لقد اختارت الكنغر، والمسألة قد قُرِّرت: لم تكن لطافتها يوما ذات معنى، لم تعن شيئًا قط. منذ الرحلة الأولى إلى المدينة – سألته آنذاك حتما، لإرضاء مفاهيم أمها حول اللباقة

– إلى عمولة ذا مونيتور – مدفوعة، في الحقيقة، من قبل دانييل اللطيفة الغريبة، التي لطخت أخلاقياتُها الفاسدة روحًا طيبةً للغاية – لم تكن هنالك أيّ خصال من مارينا في تصرفاتها. لأن مارينا – كان بوسع الجميع رؤية ذلك – كانت دوما متعلقة بوالدها. حتى عندما انقلبت عليه، أو زعمت ذلك. كما كن جميعا، النساء بلا استثناء والرجال أيضا. حتى لودفيك سيلي كان دوما، بلا وعي منه، مستعبدا. وهنا حتما حيث كانت عظمة الرجل قابعة. كيف فشل بوتي في فهم ذلك؟ لأن هذا طبعا كان يؤكد، كان يحدد خسارته سلفا، وكثيرًا من المسائل كانت على المحك بالنسبة له في ذلك. حتى الآن: هذا، نهاية العالم كما كان يعرفه، كما عرفه، غيرت كل شيء. أبراج بابل تنهار. نهاية الرموز الخاطئة. وموراي، الذي وجدت عظمته لا في كلماته وتصرفاته بل ببساطة في قدرته على إقناع الناس بتلك العظمة، بدءً بنفسه طبعا، موراي الذي كان إمبراطورا في ميدان التظاهر هذا، أرض ممتدة من أوسويغو إلى قلب ميشيغان وما بعدها – موراي حتما أيضا، موراي فوق كل شيء، ستتم الإطاحة به.

لكن بوتي لم يرغب في أن يتم سحقه تحت الرمز المنهار ولا أن يُسقط من قبل الحطام البركاني وسط المدينة. كانت غرائزه للبقاء أقوى بكثير، حمدا لله، من اندفاعه المتلصص. كان بوسعه أن يشهد الأمر من أي مكان.

من أي مكان: حيث ارتعب يوما من أن هذه المدينة العملاقة ستتركه بلا هدف، ذرة تائهة في الأثير، وحيث كان قد رأى من قبل الرعب المطلق من هذا اللا معنى، الآن وفجأة رأى أن قدره قاده إلى هنا. أخذه قدره من على قطارين هذا الصباح، رفعه إلى أعلى بشارع وايتوال، أراه الذرات المحلقة، المتفككة، نهاية الحياة، كل أولئك الناس المرتبطين بالحب، والعادة والعمل والمعنى، مربوطين إلى معنى انفجر فجأة، لأنه عكس ما تخيل، الارتباط، أن يكون معروفا، لم يكن يحميك. بل العكس: هذا حتما، كان معنى إمرسون الذي فهمه عن قصد خطأ لوقت طويل: العباقرة يملكون أقصر السِّيَر، حتى أقاربهم لا يعرفون شيئًا عنهم. وهو لم يكن قط معروفا بحقّ، لكنه ظنّ أن

سوء المعرفة هذا يمكن العمل عليه، تحسينه. لكن طبعا، اللا استقرار، بالتحديد أن يحوم كذرة، غير مرتبط، حماس الجهل التام لم يكن شيئًا يجب الخوف منه. كان المغزى من كل شيء. أن يكون غير مرتبط إطلاقًا. بلا سياق. أن يكون معتمدا على نفسه بحق وكلية. أخيرًا.

هذا، الآن، كان نقطة تحوله. فكّر وهو يستدير غربا نحو الجادة الرابعة. لقد مُنح – قدره – الفرصة الغالية في أن يبدأ من جديد، ألّا يكون كما كان. لأنه على حد علم الجميع، هو ليس كذلك. كان هذا صحيحا لعشر أيام طبعا، لكنه لم يكن قد انتبه للأمر، كحيوان طليق من قفصه لا يعرف معنى الحرية، لا يركض منذ البداية. لم يفهم الأمر إلى الآن. سمع وهو يمشي، رغمًا عنه. قيل عشرات الآلاف. ربما الناس في الأبراج، على الطائرات، لكن البعض أيضا، في الحشود، في الشوارع بالأسفل وبالقرب، حيث كان يجب أن يكون، لو أبقاه القدر. لكن من سيذهب للبحث (أتذهب مارينا الجميلة للبحث يا ترى؟ أو أمه التعيسة فقط؟)، سيكون كما لو كان هناك، عند أقدام الأبراج، اختفى، سحق، بوتي تاب المحتقر يصادف قدره الأبكم.

هيئة الميناء كانت مغلقة عندما وصل، بدون أي أنباء عن إعادة فتحها. كان الحشد عارما بالخارج والناس يستمرون في الوصول محاولين الذهاب إلى بيوتهم لنيوجيرسي أو شمال الولاية، ويصادفون أولئك الخائبين سلفا. بوتي مفصولا عن القلق – لم يكن يملك منزلا للذهاب إليه، لا مكان يجب أن يتواجد فيه، لقد توقف عن الوجود بشكل غريب – راقب بهدوء. امرأة بمحاذاته، ذات شعر باه، داكنة، بذلتها الطاووسية الزرقاء ذابلة، حذاءها الرياضي، تحت جواربها، أبيض ناصع، فتحت فمها كبجعة وشرعت بالبكاء.

امرأة أخرى، أكبر سنا، بدينة، شائبة، ذكرت بوتي بوالدته، وضعت ذراعها حول كتفي المرأة المنتحبة. «لا عليك.» تنهدت. «اسمعي، اسمعي، لا تقلقي. جميعنا على القارب نفسه. لكن أولادك على ما يرام وأنت على ما يرام

وهذا ما يهم. سنصل جميعا إلى هناك في الوقت.»

في النهاية، أمضى ليلة الثلاثاء في سنترال بارك. لم يكن وحيدا. لم يكن المكان مخيفًا (تذكر مجددا تحذيرات والدته الرهيبة قبل سنوات، جثة تحت الجسر)، بل بدا كقصة مغامرات، أو كشيء خارج من روايات الخيال العلمي التي كان يقرأها وهو في الثالثة عشر أحيانا. كان يحمل معه شطيرة اللحم بالشوفان، على كل حال، وقنينة كولا كبيرة، وعلبة صغيرة من بسكويت أوريو للحفاظ على نفسيته عالية، رغم الموقف، تذكر الرجل في المتجر أن يضع مخلل الشبت الذي مضغه بوتي مُصدرا ضجيجا وقت الغروب تحت شجرة على حافة شيس ميدو، كان هذا حتما دليلا على أن هذا العالم الجديد الغريب كان مجاورا للقديم. لا آنذاك، بل سيناريو ما بعد الكارثة. شعر بالبرد ليلا – كان يرتدي قميصه فقط ولا يحمل غطاء أبدا: لم يفكر في أنه سيبقى خارج البيت ذلك اليوم – ونام مُنكفئًا على نفسه. صباحا، رغم غلائه، كافأ نفسه بفطور عجة بيض في مطعم، وثمانية أكواب من القهوة، جلس منكمشًا في مخدعه الأزرق، يقرأ موسيل، ببطء، بتثاقل، حتى تبددت آخر رعشة ولم يعد يشعر بالبرد. آنذاك كان وقت الغداء، وطلب حساء. كان التلفاز مُدارًا في المطعم طيلة الوقت، ومع انطباعاته المشوّشة عن فيينا، وخطط حزب الملك، ظهرت صورٌ محبّبة لرجُل يُدعى محمد عطا وشريك شاب – وسيم وسعيد – عند صرّاف آلي، الليلة التي سبقت فحسب. ليلة الإثنين، كانوا لا يزالون يخططون، كل شيء كان في أذهانهم آنذاك ولم يُطلَق له العنان إلى العالم، كانت فكرة رائعة ومخيفة: يمكنك أن تصنع شيئًا داخل رأسك، على نفس القدر من الضخامة والتدمير، وأن تبصقه في الواقع، تجعله يتحقق. يمكنك – لأجل الشر، لكن إن كان لأجل الشر فلماذا ليس لأجل الخير إذًا؟ – تغيير العالم. كم بدا العم موراي سخيفا مقابل هذا، كم بدت خلافات أسرته مثيرة للشفقة، كم بدت الحياة التي، هو بوتي، كان يعيشها، مثيرة للشفقة

أمضى الليلة الثانية بهيئة الميناء لأن إشاعة كانت قد خرجت تفيد

بأنه سيفتح قريبا. لم ينم بعد - باستثناء بضع ساعات متكئا على وركيه، لكنه مع ذلك، وبنشاط، بحكم تواجد الشرطة، كان يقرأ كتابه بصبر - مُدركًا أنه بمجرد صعوده إلى الحافلة سيملك كل الوقت. رجل أكبر يرتدي معطفا، رياضيٌ ذابلٌ في منتصف العمر - لا يزال شعره ذهبيا لكن محمرا، وثخينا، ثخينا في أصابعه، عنقه، صدره العريض - عرض التدخين على بوتي مرتين، وتساءل بوتي، في المرة الثانية، عما إذا كان الرجل قد نسي أم أنها مراودة متكتمة.

«كتاب جيد؟» سأل الرجل، المرة الثانية، لكن بوتي احتفظ بعينيه على الصفحة وهز رأسه، ولم ينظر إلى أعلى مجددا لمدة طويلة.

اختار ميامي لأن المحطة حينما فتحت على الخامسة، كانت تلك هي الرحلة الأولى والأبعد التي يمكن للمرء أخذها، وكانت عند التأمل وجهة دافئة لجسده المتألم. دفع نقدا، أخذ ثلاث فطائر (اثنتان مغطستان في العسل وواحدة مرشوشة بالسكر ومحشوة بمربى الفراولة) ومزيدًا من الكولا ووجد لنفسه مقعدا حالما سمح لهم بالصعود. انطلقت الحافلة على السابعة، منطلقة في رحلتها التي ستدوم تسعا وعشرين ساعة، مجددا نحو مكانٍ مختلف وأفضل حتما.

لكنه في تلك الساعة، مساء الجمعة، في حوض الحمام البلاستيكي لنذا كلاريون، شعر فعلا بأنها بداية جديدة. تأبين. قرر أن يتخذ اسما جديدا، أن يتخلص من أحزان الاسم القديم. أولريش كان متوفرا، طبعا، اقتباس لموسيل، غير بعيد عن فِردرك، لكنه بالمقارنة غير مغر بالاختزال. أما عن اللقب، لم يهتم من قبل بتاب: من كان ليريد أو ليفعل؟ كان من المغري أن يتخذ ثوايت، شعر بالأحقية لاستخدامه، شعر بأن بوسعه استخدامه فيما يجب استخدامه فيه. لكنه مجددا، لم يكن جديدا كفاية. نيو: ها هو اسم. أولريش نيو. ماذا كان يعرف؟ كيف يكون جديدًا.

قام من الماء المتسخ ونشف نفسه بمناشف كلاريون الرديئة. تطلّب

منه ثلاثة مناشف كاملة لإنجاز المهمة، يا له من ترف، أن يملك ثلاث مناشف. يا له من ترف، أن يملك غرفة بسرير – جد كبير – تلفاز، ماء جارٍ. كان هناك سجاد تحت قدميه، خشن. لكنها كانت أفضل غرفة حصل عليها منذ أشهر. سيجد عملا، سيستمر في التعلم، سينتظر وقته ويقوم من الرماد، كطائر فينيق، أكثر قوة مما سبق. هل سيتعرفون، هل ستتعرف هي، عليه آنذاك؟ قد تكون آنذاك مستعدة لرؤيته، للتعرف على معدنه. أو بالأحرى، كيف سيكون آنذاك. فأولريش مدرك بأنه كان في بداية طريق طويل – طريق طويل وساخن، استشعر ذلك رغم مكيف هواء ذا كلاريون – لكنه أخيرا سيكون بلا علاقات، متخففا – الطريق الصحيح. طريق إلى أعلى جبل غير معروف الآن بعد: القوة، أو الاكتشاف، أو الحقيقة، أو الثلاثة معا. طريقه الخاص.

وقف غير خجِلٍ أمام النافذة في شمس زوال ميامي، المناشف على الأرض خلفه، والنغم الناحب لمكيف الهواء، راقب سيارة توروس قديمة زرقاء تركن أمام الموقف، راقب ولدين أسودين في مثل عمره يخرجان، يسيران نحو الباب الأمامي الزجاجي. كانا بالنسبة له كالبرجين المنهارين، سينما تخصه وحده. كل شيء مرتبط بالتحكم. سيشكل أولريش الحقيقة داخل رأسه وعندما يحين الوقت المناسب، سيضعها، سيجعلهم جميعا أخيرا يفهمون، سيأخذهم على حين غرة.

لن يترك أثرًا، في إعادة البعث هذا، لكن هذا كان ملائما، ملائما جدا. سيكون قدوته الخاصة، القدوة التي لم يجدها قط. سيكون كل شيء على ما يرام.

تشرين الثاني

الفصل الثالث والستون

دفن الميت (1)

رتّبت جودي خدمة الجنائز للأسبوع الذي يسبق عيد الشكر لأنه، كما أخبرت جوان، كانت بحاجة ماسة إلى ختام لهذا. ولأنها لم ترغبْ في إفساد عيد الشكر وعيد الميلاد بعد ذلك لأجل أطفال سارة، ليس أكثر مما سيكونان مُفْسَدَينِ على كل حال. كل شيء قد ضاع إلى الأبد، لكنه لم يكن مسموحا لك قول ذلك. ذهبَت إلى نيويورك، ذهبَت إلى ذلك المكان، ظنت أن الزيارة قد تساعد، لكن الحفرة الكبيرة مكانَ البُرجَين بدت كتشخيص لحزنها. التقت أقارب آخرين، لكنهم في الغالب بدوا مختلفين عنها، يصعب الحديث إليهم، ربما لأن ذلك المكان المَهول كان معروفا لهم، كانوا يعرفون لم كان أزواجهم وبناتهم وإخوتهم هناك: لم يكن حظا عابرا ومروعا بل إحساسا باردا بالأحقية. لم تلتق بهم، لكنها شعرت بارتباط بعائلات أسر السياح، أو الأجانب في دوامات رحلات العمل: كيف يمكن للحظ، القدر، الله، أن يكون منحازا بكل الشر ضد أسرتي؟ لم أسرتي؟ أمّا عن أخيها مورّاي وأسرته، فكيف لها ألّا تلومهم؟ تلك البنت الغِرّة قاسية القلب التي أحبّها ابنها، وأبيها المتوحش الذي لجأ إليه، لن تتحدث بالسوء عنه بصوت عال لكنه كان دوما كذلك، كبرياء بحجم منزل، جعلته أُمّهما كذلك منذ البداية، غذّته على القُبَل والكريما الحُلوة، ابنها الأول، حُبّ القلب، ليس سوى قمامة مقرفة إن سمحَت لنفسها باستعادة الذكريات، كان مثل عِجلٍ سَمين، لكنه الآن دفع بابن أخته عِوضًا

عنه إلى المذبحة. غرور موراي قتل بوتي، لم يكن هناك تفسير آخر، ولم يكن واضحا لها في أعماق قلبها إن كانت ستسامحه يوما: حياته بأكملها، والآن حياتها. لقد أخذ منها حب قلبها هي، أغلى ما تملك.

أخذت عبارة شاهدة قبر بوتي من قبر أقدم، في الجهة الأخرى من المقبرة، ولم تمانع تكرارها لأنها كانت حقيقيّة جدًّا: «هنا لا توجد حياة، بل قطعة من الطفولة رُميَت بعيدا.» كان كل شيء قبالته، وخاله ليتجاوزه، كان له مستقبل.

لكنها لم تكن كأخيها، أنانية لتدير ظهرها في مشاكلها، أن تتظاهر بأنهما لم يكونا إخوة. لا يمكنك الهرب من ذلك، مهما حاولت. لهذا فعندما سأل إن كان بوسعهم القدوم، وافقت، بوسعهم القدوم غير مُسَامَحين: كانوا، إلى جانب سارة وتوم والأطفال، كل ما تبقى لها من العائلة الآن.

وسيكون وداعا ملائما لواترتاون. كانت ستنهي العام في المدرسة، لأنها لم تكن شخصا مستسلما، لم تكن يومًا كذلك (أخذت موسما واحدا عُطلة في أيّامه الأخيرة، وبعد ذلك سمعت أمورًا سيّئة عن الأستاذ البديل، فتى متخرّج للتو كان يتلعثم ولا يستطيع الحفاظ على النظام)، لكنها قررت سلفا، مع سارة، لا يمكنها البقاء في المنزل، ستضعه رهنا للبيع في الربيع، كم من شبح يمكن للمرء أن يعيش رفقته، رغم حبها لهما أكثر من أي شيء؟

حذاؤه. كم مرة منذ ذلك اليوم حملت فردتي حذاء التأنق واحدة في كل يد إلى صدرها؟ لم يكن بوسعها تلميعهما، ولو أنهما كانا في حاجة لذلك، لأن هذا يعني تغطية الأسطح التي لامستها يداه. تلاعبت بالشرائط، تحدثت إليها – كان جنونا، لكن ما الذي كانت تملكه منه؟ وذاك كل ما سيدفنون، كل ما بقي، لأن التنقيب حتى الآن لم يكشف عن أثر. بعض الأحذية، صخرة، قطعة من الطفولة رميت بعيدا. زارت الغرفة المعزولة في بروكلين، ليس مع موراي بل مع أنابيل، التي كانت جد لطيفة، حذرة، صوتها الناعم العالي مرة يهدئ ومرة يزعج، وبكت لرؤية ما صار عليه بوتي: ينام على الأرض، في كومة

أغطية مستعارة، ربما لا يأكل، أو بالكاد، بضع ممتلكاتٍ شاهدٌ هزيل وغير كاف على حياته القصيرة.

حزَمَتا حقائبه، وضعَتا الكتب والبطاقات في كيس تسوق ورقي، وحشرتا الحاسوب في صندوق كرتون، مغلفا بالأغطية والمنشفة. في البداية فكرت في التخلص منه، لأن أنابيل، بحكم عملها، قد تعرف شخصا يافعا يحتاجه، لكن خطر ببالها لاحقا بأنه ربما ترك شيئًا قد يخبرها، قد يكشف لها، ما الذي صار عليه، في هذه الرحلة الغريبة والوحيدة التي سار فيها مقدرا له على نحو مهلك، منذ أشهر. حتى وإن احتفظت به، فإنها لم تجد الشجاعة لتشغيله، تركته موضّبًا في الصندوق على أرضية غرفة نوم واترتاون. دعاها أنابيل وموراي للبقاء عندهما خلال الرحلة، لكنها رفضت، وذهبت بدل ذلك إلى فندق في الجهة الغربية البعيدة، مكان لم تشعر فيه بالراحة الكاملة. مع ذلك فقد كان الخيار الأصح، ولم تكن ستتركهم يمكثون في منزلها أيضا عندما يأتون. حجزت لهم غرفًا في نُزُل ذا هامتون إين في البلدة. كان الأمر كجنازة بيرت: نفس الفصل، وثلاثتهم قادمون، أنابيل، موراي، مارينا. كان الزوج الجديد مسافرا – هل كان بريطانيًا؟ – الأمر الذي بدا غريبا قليلا، الآن، لكن من هي لتقول ذلك؟ ثم مجددا، كان الأمر كبيرت من نواح عدة. كان بوتي فتى آنذاك، كصخرة لها، هادئا وقويا. كان هو السبب الذي جعلها تستيقظ كل صباح، السبب الذي جعلها تغسل وجهها. لم تشعر بذلك تجاه أحد. والآن، إن لم تكن حذرة، فستفقد البوصلة، ستنسى، ليس فقط لِمَ تعيش، بل كيف.

الفصل الرابع والستون

دفن الميت (2)

كانت مارينا خائفة من الذهاب لواترتاون.الأمر برمته كان غير قابل للتصديق، في غاية العبثية، - بيكيتي، أخبرت جوليوس - وواترتاون، مقلب قمامة، بدا في قمة السريالية. لكن ربما كان هذا ملائما: أنهم سيشهدون دفن بقايا قريبها الغريب المضطرب عاثر الحظ («كان حظا غبيا. حظا سيئا غبيا» كرر لودو مرات عدّة لمحاولة ترويض إحساسها بالذنب. «لو ربحت اليانصيب، هل ستنظرين حولك بحثًا عن شخص تلومينه؟») في ذلك المكان الغريب العاثر، تذكّرت مقبرة البلدة حيث جاءت لجنازة عمّها: قريبة من وسط المدينة بغرابة، بمحل أطعمة سريعة - كي إف سِي، أليس كذلك؟ - مقابل الباب. حقل صخور مكشوفة ومتروكة - أراها والدها قبري جديها- وسماء كبيرة باردة طبعا، بوتي لن يكون هناك. سيدفنون فكرته، لأن ذلك هو كل ما تبقى. كان هذا لأجل العمة جودي. عندما طلب والد مارينا منها الذهاب اعترضت قليلا، حول فظاعة الأمر، قال بشفتين ضيقتين، «قومي بذلك لأجل عمتك جودي» آنذاك، الذنب هو ما كان يتحدث. كانت تعلم أنه قد تخلله، لأنه قد فعل معها أيضا. لكنها لم تعرف عمتها جيدا من قبل، ولم يكن من الممكن تخيلها وهي تتحدث معها بشأن هذا. عندما رأتها في نيويورك، منذ أسابيع،

بدت جودي أصغر، ملابسها مرتخية، رأسها المستدير متمايل على عنقها الغريب وتراءت في الآن ذاته عجوزًا يافعة أكثر مما كانت مارينا تتذكر، كأن شيئًا، شيئًا أساسيا قد أزيل. كان قد أزيل فعلا.

كانت مارينا غاضبة من لودو لتواجده في لندن وليس بجانبها في الطريق إلى واترتاون. لكنها عرفت بأنه لا يملك خيارا. كان يقابَل من أجل عمل في جريدة هناك، لزمه الذهاب. لم تكن مسألة دخل فحسب – يمكن لوالديها المساعدة لبعض الوقت – بل لأجل سيرته طبعا. قال هذا بعد أيام فقط من الأحداث «لن يرغبوا في الأجانب هنا الآن. آن وقت الاتصال بمعارفي في بريطانيا. لا يمكنني فقدان زخمي، هنا، أتفهمين؟»

«وماذا عني؟» سألت.

«ماذا عنك؟» أجاب. «أي زخم تملكينه لتفقديه؟ لا زلت ابنة والدك أليس كذلك؟»

لم تعرف كيف تتحمل ذلك. ما بدا أنه يقصد كان جد بشع – جعله جد بشع – حتى تفكر فيه. لكنها قررت بأن كلامه كان نابعا من مكان مرتبك مشبع بالألم، فسامحته، واسته حتى. كانت تحبه، أليس كذلك؟

وكان جد واضح، بعد وقت غير طويل، بأنها لا تملك خيارا، وبأنهما سيستقران في الجهة الأخرى للأطلسي. لم يكن بوسعها الشروع في التفكير في ذلك: أدركت أنها لا ترغب في الذهاب. لا يمكنها ترك مانهاتن، خصوصا الآن. لكن ذا مونيتور، كما توقع لودو، لن توجد، ليس الآن على الأقل. وفقا لميرتون، كل مئات الآلاف المخسورة كان من الأفضل إلغاؤها: لا أحد يرغب بشيء كهذا في هذا العالم الجديد، شيء طائش ساخر. قال لودو بأن ميرتون جعل الأمر يبدو كمجلة موضة كان يلغيها، بدل مجلة ثقافية متطرفة. لكن حتى لودو، المناظر المحنك، لم يكن بوسعه إقناعه ليغير رأيه، فكانت هذه هي نهاية الأمر. لا شيء من زعزعة نيويورك، لا شيء من الثورة. باتت الثورة الحقيقية في مكان آخر.

عرفت مارينا كم كان ظن لودو خائبا الآن، وكم كان غاضبا: لقد سافر من أستراليا لهذا، اشتغل ليل نهار لأشهر حتى يخلق تقريبا من الفراغ هذه المجلة التي كانت، كما كان يعلم، لتصنع سمعته العالمية مرة وللأبد. فكر في سيناريوهات عدة خلال الإعداد، بما فيها العكس، لكن لا أحد منها كان بهذا السوء. ما كان بوسع أحد توقعها. لم يتحدث عن الأمر مع أحد غير مارينا، ولها بشح قليل – لكنهما معا كانا يعرفان بأن موت بوتي جعل المُحادثات الحُرّة مستحيلة، غير أخلاقية ربما – لكن كآبته ظهرت على وجهه، صوته. كان ينفجر في وجهها، يخبرها بأن ملابسها تبدو سيئة، يتحدث بالسوء عن والدها – الذي سببت تعاسة الأمة إحياءً لشهرته، لأن موراي أعطى آراءه في الصحافة، على التلفاز، على أثير ما كان لودو يدعوه «الراديو البغيض» – وحتى عن أصدقائها.

أصدقاؤها: لودو لم يعد يحب دانييل بعد الآن. إن كان قد فعل من قبل قط، ربما لأنها كانت من لم تتحمل الأمر الأكثر من بينهم، وشعر بأن لديها السبب الأقل. في الأيام التي تلت الحادي عشر من سبتمبر، كان على مارينا وجوليوس أن يسحباها حرفيا من سريرها: تحدثوا ثلاثتهم طبعا ليلة الثلاثاء، ليطمئنوا، لكنهم حينما توقفوا ليروها أول مرة، زوال الأربعاء، كان من الواضح أنها لم تخرج إلى الشارع منذ الواقعة، شعرها وملابسها شعثاء، عيناها غائرتان وصغيرتان. وقف ثلاثتهم إلى نافذتها ونظروا إلى الحفرة في السماء، في الهواء الصافي، وأرادت دانييل مباشرة العودة إلى السرير. ربما، قالت مارينا للودو، ربما رؤية كل شيء يحدث بجلاء كان أكثر صدمة، بالرغم من البعد. لكن لودو فكر بأن المشكلة كانت الانغماس الذاتي. منذ ذاك، صارت دانييل غريبة، متهربة، كانت تذهب للعلاج النفسي، تتناول مضادات الاكتئاب، الآن، بلا شك كنصف سكان المدينة. لكن أكثر من ذلك، شعرت مارينا بأنها قد فقدتها، بأن دانييل التي عرفتها منذ الأزل قد تبخرت، وما تبقى هو كيان مسطح مقتضب الكلمات. لم تتصل دانييل قط بمارينا هذه الأيام،

وعندما كانت مارينا تتصل، كانت حواراتهما متكلفة ومختصرة، تطاولت مارينا – فكرت في أن الأمر قد يكون جيدا لكليهما – وطلبت من دانييل إن كان بوسعها مرافقتها لتأبين بوتي. بعد كل شيء، دانييل كانت دوما تحمل الهم لأجله، وبدت أنها ترى من خلال شخصيته الوحيدة المضايقة لروح مجروحة وتائقة، حاولت مساعدته، أو على الأقل حثت مارينا على ذلك. لكن دانييل لوت شفتها فيما بدا كسخرية وقالت «لا أظنني أنتمي إلى هناك، أليس كذلك؟ إنها ليست حفلة، بل جنازة» وعندما حاولت مارينا أن تفتح فمها للرد، أكملت: «على كل حال لا أظنني سأكون هنا.»

«أين ستذهبين؟»

«لا أعلم. بعيدًا. أظنني بحاجة إلى الابتعاد.»

كانت مارينا مذهولة من الحوار برمّته، من برودته. أكثر صدمة من وفاة بوتي، الأمر الذي صدمها جزئيا وفي الغالب كفكرة بدل ألم غائر – لم تستطع أن تصدق أنه لا يزال هناك، في بروكلين في مكان ما، لا يتحدث إلى أيٍّ منهم – شعرت أنها فقدت صديقًا. «لا يمكنك أن تشعر بحزن مماثل تجاه شخص بالكاد عرفته،» قال لودو بشأن بوتي، «حتى وإن كان من الأسرة. تشعرين بالذنب: هذا مختلف، هذا أمر داخلي، بئيس لكن غير شخصي إلى حد ما. لكن بشأن دانييل، عليك فقط أن تأملي أنها مع الدواء، أو بالأحرى، بعد الدواء، ستعود إلى سابق عهدها. بالرغم من أن الجميع كان يتساءل لمَ على أي شيء أن يعود إلى ما كان عليه من قبل، وكيف له ذلك».

كان جوليوس هو نفسه، على الأقل، أو بالأحرى، عاد جوليوس لما كان عليه، إلى حد ما. منح مارينا أملا. بدا بالرغم من كل شيء أكثر تجاوزا لمرحلة رأس المخروط – أكثر سخرية. إن كان ذلك ممكنا. وما زال لا يعرف ما كان يفعله، مضيّعا مواهبه عبثا، كتلك المقالة عن النوادي الليلة التي أعاد بيعها لمجلة ذا إنترفيو. الندبة على خده، لا تزال طرية نسبيا، منحته سحنة وسيمة أمتعته عندما لم تكن تضايقه. قال بأنه من الواضح أنها جعلته أكثر

ظهورا – علق الرجال عليها، كما لو كانت سمة جمال – لكنه في أيام أخرى كان يعترف بأنه لا يصدق أنه سيبدو دوما هكذا، سيحمل ندبة ديفِد عليه، علامة.

«فكري في الأمر» قال وهما جالسان يحتسيان القهوة في بداية تشرين الثاني «لا تعتبر نفسك خائفًا. تنسى وتظن بأن بوسعك الاستمرار فيما كنت عليه. لكن الجميع يراك، ويرون شخصا مختلفا، والناس الذين يعرفون القصة يرونك مختلفا بشكل خاص، وهذا غير لطيف. ثم يذكّرونك، مرارا وتكرارا، وآنذاك، أظن، في النهاية تتغير، من الخارج إلى الداخل، عليك أن تتشربه بشكل ما.»

«الأمر ككتابي، قليلا.» قالت مارينا. «غيّر الملابس، تُغيِّر الشخص. يبدو سخيفا لكنها الحقيقة.»

«إم،» رد جوليوس ببعض الامتعاض، «ندبة على وجهك ليست كقميص قطني جديد أو زوجي حذاء رعاة البقر. ليست اختيارية.»

«لا، لم أقصد الأمر على ذلك النحو.» قالت، لكنها لاحظت أنه لا يزال ممتعضا.

وافق على القدوم معها إلى واترتاون، شكرا له. لأنه شعر بالذنب أيضا: في نفس المساء بستارباكس، أخبرها عن حادثة لويس، وعن نعت بوتي بالسمين.

«كنتَ منتشيًا، كنتَ سكرانا. لم يكن الأمر لطيفا لكن عليك مسامحة نفسك» قالت.

«لقد انتهى به الأمر في ذلك المنزل الرديء لأنني طردته خارج شارع بيت، أتذكرين؟»

«عزيزي،» قالت مارينا « شارع بيت هو منزل رديء.»

«شكرا.»

«إنه كذلك. هدفنا للعام المقبل سيكون نقلك إلى شقة لائقة»

«وجعلي أحصل على عمل لائق أيضا؟»

«أنا عاطلة بنفسي، أتذكر.»

«بكتاب سيصدر قريبا، شكرا جزيلا.»

«حسنا، لكن...»

«سيغير ذلك كل شيء، الأمر مهم.»

«أو سيتزلق إلى محلات الكتب وخارجها بسرعة. ولن يغير أي شيء.»

رفع جوليوس حاجبا.

«لست أتصرف بكبر أتعلم. الأمر ممكن، يحدث طيلة الوقت. إن حصلت على مراجعة سيئة في مجلة تايمز، تلك هي النهاية.»

«ما زال الطريق طويلا – ماذا، سبتمبر العام المقبل؟ ألا يمكنك أن تكوني متحمسة للأمر؟»

«أحيانا أتساءل بشأنك أنت جوليوس. أخلاقيا، أعني، مرحبا؟ أين كنت؟ الآن يبدو وكأنها معجزة أن تبقى حتى سبتمبر المقبل.»

«أوه، توقفي.»

«أنا جادة. إن حصل لودو على عمل ببريطانيا، آنذاك من يعلم أين سأكون، أو ماذا سأكون، آنذاك. وإن بقينا في مانهاتن، يمكن أن يحدث أمر آخر، قنبلة وسخة، أي شيء، بام.»

«لن تعيشي هكذا، بهذه العقلية. لأني لن أتسكع معك بعد الآن. أعني، آنذاك اذهبي للعيش في ميشيغان مع والدي.»

«أو في واترتاون نيويورك؟»

في هذه المرحلة تبادلا النظرات ووقعا في صمت قصير.

«أتظنين،» نطق جوليوس «بأنه ربما شخص أفضل منا لأنه مات؟»

«تعني بالطريقة التي مات بها؟»

«لأنه كان بئيسًا، والآن هو ميت. بينما نحن – حسنا، الصورة الشاملة للأمور، لنواجه ذلك، هي أننا كنا دوما محظوظين لعينين، واستمرينا.»

«أعلم بأن دانييل تظنه شخصا أفضل.»

«أقالت ذلك؟»

«انطلاقا من كيفية تحدُّثها. ‹كرامة›، ‹طموح›، ‹نزاهة›. أنت تعلم.»

«إنها تقدس المراهقة، ذلك من شيمها. أنت تعرفين، ممزقةً بين الأفكار الكبرى والاحتفال. لطالما كانت كذلك.»

«ألم نكن جميعا؟»

«لا لا» ضحك جوليوس. «أردنا فقط حفلة الأفكار الكبرى. ومن المحبّذ أن نُقيمها. لا نرى أي تناقض.»

«ثقيلوا الأرواح فقط من يعانون لأجل الفن. هذا ما يقوله لودو. في غاية التنازل.»

ضحكا، بنوع من الإحراج.

«أيؤمن بذلك حقا؟»

«لا يؤمن بالمعاناة، لا،»

«وكأن المعاناة اختيار؟»

«أيّا كان.» وقفت مارينا، واضعة كؤوسهما في سلة المهملات وخرجا مجددا إلى البرد.

الفصل الخامس والستون

دفن الميت (3)

كان يوم خدمة التأبين، الجمعة، 17 تشرين الثاني، صافيا وباردا. استيقظ موراي باكرا، رغم ظلمة غرفة الفندق، اغتسل وارتدى ملابسه دون أن يزعج أنابيل، وخرج للتنزه. المشهد، من ذا هامبتون، خارج الطريق العام، لم يكن مشجّعًا: مكان ناءٍ. كان للطريق علامات صقيع الشتاء، الإسفلت الملحي الأبيض على حوافه، بقايا نفايات مبتلة على طول الرصيف. العلامات المشعة الكبيرة للسلاسل وفرت اللون الوحيد: الأقواس المذهبة، الجرس المتدلي، ابتسامة الكولونيل المبتهجة. حتى في الصباح الباكر، غطى حفيف الرياح الهواء، كموسيقى خلفية. كان موراي الماشي الوحيد في المكان.

طاروا إلى سيراكروز مساء الأمس، مع مارينا وصديقها، ثم قادوا ساعة شمالا في الظلام. اتصل بجودي عندما وصلوا، لكنه لم يذهب لرؤيتها: كانت مع سارة وتوم، الذين كانا يضعان الأطفال في السرير، ولم تَدْعُه. تناولوا العشاء، شيئًا ناتئًا غير صالح للأكل، بمطعم في الجهة المقابلة من الموقف، في مخدع تحت مصباح تيفاني مزيف، قدّمته فتاة من الثانوية مرقطة بابتسامة حادة مخيفة وشق ذقن واضح. كان جوليوس في غاية التوقد بشأن الأمر برمته «لطالما آمنت بأن عليك احترام هذه المطاعم، في أسلوبها. أعني، ما الذي

كان متوفرا هنا قبل بينيفان وأبلبيز؟ ربما لا شيء.»

«ليس كثيرا»، رد موراي، مسترجعًا النّزهات النادرة إلى منزل المشاوي في صغره، حماس كوكتيل الجمبري أو الشمام على الثلج.

«إذا فلا بد أن هذا جيد، صحيح؟ لا يتظاهرون بما يخالف حقيقتهم»

«سافرت طويلا حتى أهرب من هذا،» قال موراي «وأراهن على أنك فعلت أيضا.»

«وكذلك فعل فْرِدرك،» قالت أنابيل، وصمت جميعهم لوهلة.

«من سيأتي غدا؟» سألت مارينا.

«لا أعلم،» أجاب موراي. لم يكن يعرف شيئًا عن حياة أخته، الأمر الذي بدا الآن فقط ولوهلة قصيرة فاضحا.

في الصباح، متمشيا على جانب الطريق بين محطات الوقود، محلات الوجبات السريعة، وبعض الفنادق الأخرى (قف! هنا غُرَف بـ 9, 39 في الليلة فقط) طريق قاسية من الحصى والحشائش تحت قدميه، حاول موراي أن يتخيل بأن ذكرى بوتي تنتمي إلى هنا بكل سلام، لكنه لم يقدر. تذكر الفتى إلى طاولة عشائه، بمكتبه، يحاول جاهدا، ومع ذلك غير مجهز لذلك الوجود. مسألة ثقة، لا شك. كان ليتعلم مع الوقت كيف يكون قويًا كفاية، قوة لم يكن عليها، شعر موراي بالأحقية في اعتقاد هذا لأن قصة الفتى انتهت، لا تغييرات ممكنة أو بدايات جديدة. احمَرَّ أنف موراي، في الريح، وكان يشعر بأذنيه كأنّهما مقبضين محترقين على جانبَي رأسه. القوة هي القيام بما يجب القيام به. لا ندم. لا مضيعة، لا استسلاما. استسلم الفتى، مرات عدّة. من يعلم ما الذي دار في رأسه، لكن مهما كان، فقد قتله. فكر موراي لوقت طويل في الأمر: كان الفتى يشتغل بعيدًا عن المجمعين السكنيين. لم يكن في المكتب قبل أن يُضرَب البرجان – قالت مورين المشرفة عليه، أي أنه لكي يسحق، كان عليه أن يقترب، عمدا، منجذبا للرعب. لا بد أنه كان يراقب الأمر عند السفح نفسه، لا بد أنه ذهب ووقف وبقي. هذا كان، لفتى مثله، شذوذه الخاص.

شعر بإعجاب حسود، لكن ذلك كان أمرًا مختلفا. لا أحد ظن بأن الأبراج ستسقط، طبعا، لكن مع ذلك، الكثير من الواقفين – معظمهم – قد نجوا. لن يشعر موراي بالمسؤولية لشيء لم تكن له علاقة به. في أيّ لحظة، كان بوسع الفتى أن يستدير ويبتعد. رجال الإطفاء والشرطة كانوا سيحاولون إنقاذه. بدل ذلك، لقد سلم نفسه للنيران. كان الأمر إغريقيا.

بوسعك التحكم فيما تشاء، إن أردت. تملك ما يشبه رجل تأمين، يحسب باستمرار الاحتمالات. أكان كافيا؟ أكان مثمرا؟ هل كانت الفوائد تتجاوز المخاطر؟ الكثيرون لم يهتموا – ضرب من ضروب الغباء وجده موراي نقصا في الرؤية، أو الهدف. كل من قال بأنه استيقظ ووجد نفسه في مكان لطالما أراد أن يكون فيه كان يكذب: وكل من كان يؤمن بشخص مثل هذا كان غبيا. الأمر برمته مسألة إرادة.

سار إلى المنزل، في يوم الحادي عشر. وأخذ حماما وذهب إلى مكتبه وجلس ينتظر، مدركا أنه في مجهوداته التأمينية قد أساء الحساب. رغبته في أن يكون مع أنابيل كانت خارج مجال الشك: كانت حياته. استطاع الوصول إلى مارينا على الهاتف، لاحقا مساءً، ولم يذكر شيكاغو لها. لم يبد أنها تتذكر الأمر حتى. عادت أنابيل أخيرا إلى المنزل قرابة الثامنة، متعبة وشاحبة، مع الفتى، ديفوغن، خلفها. أمضت اليوم معه، كما بدا، كانت أمه مفقودة، انطلقت أمه من هارلم نحو العمل في البرج الشمالي على الساعة 06:45 ذلك الصباح. على خلاف الآخرين، لم تتصل بأسرتها، لم تتحدث حتى إلى زوجها بعد ذلك. الأمر الذي شجعهم على الأمل – ربما هي عالقة في مكان ما، خارجة للتسوق، أو حتى في مركز التسوق في الطابق تحت أرضي، تشتري كعكة، ربما ستظهر، فجأة، من قطار الأنفاق، بابتسامتها المتعبة، معطفها المطري الطويل الأخضر مغبر قليلا. ساعدت أنابيل ديفوغن على صنع ملصقات، بصورة لأمه في حفلة عيد ميلادها الأخير، بقميص أسود وذهبي لامع، شعرها المجعد القصير يلمع تحت الضوء، النمش الصبياني على خديها ظاهر. في الصورة،

كانت تبتسم ابتسامة عريضة، أسنانها تلمع، ولأن ديفوغن هو من أخذ الصورة، عيناها المتغضنتان كشفتا عن حب، واهتمام، وأمل أيضا. أو هذا ما شعرته أنابيل، وأخبرت موراي به، باكية، في السرير تلك الليلة. ساعدت ديفوغن على صنع الملصقات (ت.م: 12 دجنبر 1968، العلامات المميزة: نمش، ندبة حرق على المعصم الأيمن، إلخ.) وساعدته بعدها على تعليقها وسط المدينة، أقرب ما يمكن، ولهذا تأخرا في الدخول. اتصلا بالمستشفيات لكنهما لم يستطيعا الوصول. كانت خطة الصباح هي أن يعودا إلى وسط المدينة ومحاولة إيجادها.

«لم أكن أتوقع رؤيتك حبيبي» قالت لموراي، وهي بين ذراعيه. عانقها لمدة طويلة، مدركا لأن الفتى يترصد خلفهما، ينظر إلى الأرض، الجدار، أي مكان غيرهما، يداه تتحركان كطائر في الظل. «كيف وصلت إلى هنا؟»

«إنها قصة طويلة،» قال. «سأخبرك لاحقا.» بعد ذلك وبمجهود غير معتاد، أعد لهم عجة بيض على خبز محمص وشرائح طماطم، وجلسا في صمت مطبق وسريالي، ثلاثتهم، في غرفة الطعام، ملامح الفتى بدت في قلق مكبوح، وأنابيل تحدق باستمرار إلى الجدار، كما لو أن لا شيء بقي منهم غير هياكلهم.

في السرير حاول أن يقول شيئًا، لكن أنابيل أسكتته. «أنا فقط سعيدة لأنك هنا. يعني لي ذلك كل شيء أنك هنا الآن. عانقني أكثر. لا تتحدث.»

وفي الصباح، حاول مجددا الشرح، عندما كان ديفوغن لا يزال نائما في الغرفة التي كانت لبوني، فقالت «لا. اخترت أن تأتي إلى المنزل. هذا كل ما أحتاج لمعرفته.»

«لكنني لم، عليك أن تعرفي، أبدا–»

«ربما يوما ما، حسنا؟ لكن ليس الآن. ما يهمّ الآن هو أنك هنا. البارحة صباحا، صلّيت. تذمّرتُ على كل حال واشتكيتُ لمَ لستَ في المنزل، لأنه في وقت كهذا عليك أن تكون في المنزل. كنتُ غاضبة. ثم جئت إلى

المنزل! فكانت مُعجزة. فكَّر في ديفوغن المسكين. لقد كان يصلّي لأجل لا شيء إلى الآن.»

«ولهذا يجب على المرء ألّا يؤمن،» قال موراي. «لا جواب لمعضلة العدالة الإلهية.»

«قد تكون أمّه في المشفى بينما نحن نتحدث.»

«قد تكون كذلك.»

ثم مر ديفوغن إلى المطبخ، مرتديا نفس ملابس البارحة، وحذاءه الرياضي، ومعطفه. كانت يداه في جيوبه. أشار إلى موراي، غمغم، «صباح الخير سيدي»

«موراي رجاء. نادني موراي.»

«علينا أن نذهب.» نفضت أنابيل فتات الكعك من يديها في المغسلة. «أمامنا يوم طويل. عليك أن تأكل. خذ كعكة. قليلة الدسم مع زبيب. قد تحتوي على مكسرات – لا تعاني من حساسية ضد المكسرات؟» حملت الكعكة إلى أعلى، وبعد برهة، أخرج ديفوغن يديه من جيبه لقبولها. نظر إليها كما لو كانت صخرة، ثم أرخى يده، إلى جانبه.

«سنراك لاحقا حبيبي،» توجهت لموراي، «أو سأراك. قد تأتي أورورا اليوم – يعتمد الأمر، ربما، على المواصلات. لكني سآتي عندما أقدر. أحبك» ثم قبلته على فمه، قبلة متملكة، وعرف بأنها بهذه الطريقة كانت تقول ما كانت تريد أن تقوله.

بعد أن ذهبا، انتظر لوهلة ثم اتصل برقم دانييل. أجابه المجيب، فترك رسالة، معتذرا على ذهابه السيئ، وطالبا منها أن تتصل لتعلمه ما إذا كانت على ما يرام. ترك نسخة أخرى من نفس الكلام على هاتفها المحمول. لكنه لم يسمع شيئًا ومع مضي الساعات، بدأ بالقلق بشأنها. اتصل مجددا ومجددا، ولو أنه في المرة الثالثة لم يترك رسالة. في الأيام التي تلت، كان يختنق بصمتها، أكثر أثرا من أي كلمات، وبالرغم من أنه، في الوقت الذي وصلت فيه

رسالتها، على هاتفه المحمول، بعد أسبوع: «رجاء أيمكنك تركي وشأني.» - لم يكن متفاجئا، ولا طليقًا. وجد نفسه، مهووسًا بشكل غير صحي. أكثر مما كان عليه عندما كانا عشيقين، فكر فيها، سمع ضحكتها، استدار، ظانا بأنه قد لمحها، في الشارع. جلس إلى مكتبه، متظاهرا بكتابة المقالات حول الأحداث - وبالفعل، كان قد كتب مقالات عدّة، فجأة، نودي عليه لمنح توجيهات أخلاقية أو قيمية، ليوضح الطريق لليبراليين الضائعين والخائفين عبر الإنذارات الغاضبة وجلد الذات لتلك الأسابيع المضطربة القبيحة - بينما في الأصل كان يحدق في الجدار، يكرر اسمها مرارا وتكرارا داخل رأسه. كما لو كانت تقف مباشرة أمامه، لا تحجب عنه رؤيته فحسب بل تجعل من المستحيل عليه أن يراها كلية. لم يقدر على تقبل أنه لن يراها أبدا، لم يستطع تصديق أنه عندما كان يملك الكثير، الكثير من الأمور المهمة ليفكر فيها، كان بوسعها بلا أهميتها الساحرة، أن تسيطر على عقله كلية. لكنها بعد أن تركت رسالتها، لم يتصل بها. كان صارما. جمع من محادثة مع مارينا بأن دانييل قد دخلت في حالة اكتئاب، أنها غائبة بشكل سيئ، وكاد هذا أن يدفعه إلى الإذعان، لكن كانت له كرامته أيضا، وبينما كان يكتب لها رسائل إلكترونية يوميا، لم يرسلها، احتفظ بها بدل ذلك في ملف «الإرسال لاحقا»

وكل هذا وهو ينتظر من أنابيل أن تسأل عن ليلة العاشر. أحيانا بدا وكأن هذا كان عقابه، أن يتساءل دوما ما الذي كانت تعتقده، أو تعرفه، أو تتخيله. حتى أكثر الحوارات عادية كانت، كما شعر، متخللة بصمتها، فرضها للصمت، على المسألة، لكنه لم يستطع تحديد أي استياء ولا حقد. لم تنفجر في وجهه، أو تنظر إليه بارتياب، أو توبخه. بقيت كما هي، وربما أكثر تفهما، رغم شرود ذهنها. جعله هذا يرغب في أن يخبرها بالحقيقة كاملة، في لحظات، متأخرة ليلا، بويسكي بجانبه، كان يتخيل تقبلها الهادئ له، لقصته، عناقها المحب، غفرانها. لكنه في هذا أيضا، بقي صارما، مدركا لأن الرؤيا المسالمة ستكون مجرد خيال. لم يفصح عن أي شيء.

وهي من جهتها بقيت مشغولة. أوضحت الأيام والأسابيع بأن أم ديفوغن لن تظهر، بأنها كانت حيث كان عليها أن تكون، في الطابق الـ 101 من البرج الشمالي، بين أولئك المساكين الذين شهد هو ودانييل اختيارهم بين جحيم وآخر، كتشريع بيزنطي ما. في النهاية ربما، سيتم التعرف على خاتم، أو جزء من عظم، أو ربما لا شيء. وكان الفتى، كما وصفت أنابيل، مستنزفا من كل صراع، مجمدا ومنصاعا الآن، ولو أنه لم يكن من الواضح ما إذا كان هذا استعدادا لانقضاض غضب جديد وأكثر تدميرا. عُثر على قريب، في وايت بلاينز، قد يأخذه، قد يأخذ شظايا حياته ونفسه ويبدأ مجددا، إن كان أمر كهذا ممكنا. لقد انسحب زوج الأم سلفا، أزيل، مع اختفاء أم ديفوغن، من المشهد. راقب موراي أنابيل تبكي على هذا الفتى، روحه الضائعة، وتبكي أيضا على بوتي.

لأن أنابيل هي التي أخذت هذا العبء بشكل كبير، أيضًا، في مساعدة جودي للتفاوض مع المستشفيات والسجلات، لأخذ أغراضه، لزيارة الحفرة الدخانية وسط المدينة حيث اختفى ابنها الوحيد. طالب الجمهور بموراي. أمامه الكثير من الكتابة والحديث ليقوم به. قام بصياغة حل وسط عقلاني رغم أنه لم يمتد بعيدا كأولئك الذين ادعوا بأن أمريكا تستحق ما حدث لها. مع ذلك ذكَّر بلطف زملاءه المتألمين بالعذابات المستمرة للضفة الغربية، أو الساكنة المتزايدة من المسلمين الشباب المحرومين حول العالم. حاجج بأنه لأجل الفهم بدل العنف العامي، أوصى السياسات بشكل قاطع بعدم الاسترضاء بل إعادة التنظيم المثمر، إعادة ترتيب لأولويات سياسة أمريكا الخارجية التي قد تؤثر في توازن المشاعر المضادة لأمريكا في العالم، مع التوفير للولايات المتحدة في الآن نفسه، شركاء شرق أوسطيين وآسيويين ممكنين. لم يكن يعارض غزو أفغانستان، لكنه انتقد طرقها. تشبث بصرامة بالحريات المدنية، حقوق الإنسان، السيادة الدولية. لم يقم بهذا في الصحافة المكتوبة فحسب، على الراديو، في ندوات على السي إن إن، لكن لاحقا أيضا في حوار

تلفزيوني مطول، متأخر ليلا، حيث وجد نفسه، بكأس مخفي لويسكي على ثلج بجانبه، مذهولا لوهلة أمام محاوره، متصنع ثقيل، أشقر وعجوز، يتعجب بلكنة جنوبية من التأوهات وعلامات الترقيم الحادة، «ما أريد أن أعرفه، موراي – واعذرني على تدخّلي الشخصي هنا – هو كيف تمكنت من البقاء مثقفا، منفصلا عن كل شيء، عندما سرقت منك هذه المأساة كما أظن، قريبك؟ هل أنا محق في قولي بأن هؤلاء الأشرار قد قتلوا ابن أختك الوحيد؟» أومض، منتبهًا لذلك، متذكرا في تلك اللحظة، وميض بوتي المتوالي، تنحنح، ثم أحني رأسه الفضي – حركة قد تفهم كاحترام، تنازل، أو حيرة أمام التطفل التام لمحاوره – وقال «بعض الأشياء هي أمور عائلية. إنها خسارة لا توصف. وخسارتنا واحدة من الآلاف.» بعد ذلك، كتب الناس بشأن الأمر. عبّر صحفيون آخرون عن دهشتهم بأن هذه المأساة لم تجعل منه صقرا، لم تتركه متعطشا للدم، ورأوا هنا، رغم الشريط السياسي، علامة على نزاهة الرجل غير المتزعزعة، وموراي لم يستطع مقاومة عدم الانتباه لسخرية كون وفاة بوتي قد منحته نبلا أعظم، أهمية – كان يعلم أن الأمر خاطئ – كرجل عدالة، غير متزحزح بسهام الأزمة. لكن ربما، كان قادرا على رؤية الأمر، كان بوسع بوتي على الأقل أن يكون فخورا بخاله.

أما عن الكتاب: انتظر. فكر، قبل الأحداث، بأنه قد يتخلى عنه، لكنه الآن رأى أن ذلك مجرد خوف رجل صغير. كان خائفا، بينما تجلى الآن بكل وضوح وبلا شك بأنه حتى إن كانت كلماته غير عبقرية، كانت صادقة، وعميقة، أكثر من كلمات معظم الرجال والنساء المحيطين به. كانت جيدة كفاية. وكان قد نودي لكتابتها. من يعلم، ربما قد يهدي الكتاب لابن أخته. كان يأخذ ملاحظات، خلال الأسابيع، مدركا بأن المأساة ستعيد تشكيل محاولته: كيف تعيش كان سؤالا آخر الآن. أكثر إلحاحا، أقل قابلية للإجابة. سيبدأ مجددا، وسيكتب، كان يعلم، كتابا أفضل بسببه.

بالعودة إلى الفندق، وجد أسرته – أنابيل، مارينا: كانتا أسرته. كل

ما له- على الفطور وجوليوس، غريب المظهر دوما، لكن الآن أشد غرابة، بالرقعة الصلعاء على خط شعره، حيث ينبت زغب جديد، والتشوه الطري لخده، ندبة قرصان على وجهه الصبياني. في غرابته، وضع مرهمًا على شعره كقنفذ، لكن موراي تجنب التعليق لأنه فكر بأنه في سن الثلاثين، ولو أنه لا يبدو كذلك، لا يمكن معاملة أصدقاء مارينا كالأطفال (فكر ثم طرد الفكرة، في بطن دانييل المسطح الشاحب، في كيف كانت عظمة وركها تنتأ عندما تستلقي.) كانوا كلهم صامتين، رماديين كالنهار، بغيومه العالية المتحركة.

«أنحن جاهزون؟» سأل.

أخذت أنابيل يد مارينا من على طاولة الخشب المزيفة، ولاحظ موراي بأن ابنته كانت تبكي. عيناها القزحيتان كانتا مغلفتين بحمرة ومنتفختين، زينتها مخربة قليلا. تذكرها فجأة صغيرة، في الثالثة، جالسة على ركبته، تهرُّبها الدافئ، شعرها الأسود يلتصق في خصلات حريرية على وجهه، الضحكة العالية المجلجلة: سعادة بسيطة. سبب بوتي بهجة غامرة لجودي، قبل أن يصير منتفخا، ومتجهما وغاضبا من العالم لكل ما لم يمنحه. كانَ، شعر موراي أخيرًا، خسارةً لا توصف بحقّ، وعيناه امتلأتا، أخيرًا وآخرًا، بالدموع.

لكنه كبح جماح دموعه. لا فائدة من الإسراف في المشاعر. كان يُنتظر منه القيام بما هو أكبر من الشعور، وإن كسر ذلك الحاجز وسمح به، قد يفقد نفسه كلية. لم تطلب منه جودي الحديث في التأبين - عرف بأنها كانت تلومه، كيف له ألا يعرف؟ نظر إلى مارينا، أدرك بأنه هو أيضا، لو كان مكانها، لفعل نفس الشيء - لكنه كان مستعدا، إن استدعى الأمر. كتب بضع كلمات على بطاقة فهرس حملها في جيبه: «جنازة بيرت، طموح بوتي. المقال. النزاهة.» إن تحدث، هنا من بين كل الأماكن كان سيقول الحقيقة كاملة. ليس وكأن أحدا كان سيهتم بسماعها، ما عدا بوتي نفسه، الذي لا يمكن أن يكون حاضرا. أراد أن يخبر قصة افتراقهما، كيف شعر بأنه قد تمت خيانته، وفي غمرة ضعفه، خان الفتى بالمقابل. لا يمكن إلغاء الأمر، لن يقوم خلال

القص بتحمل مسؤولية وفاة بوتي (اختار الفتى طريقه الخاص: كان موراي واضحا في هذا) لكنه أراد أن يجعل الحقيقة معروفة. كانت الحقيقة هي كل ما يجب على الجميع التشبث به.

الكنيسة – كنيسة سانت بول، وسط المدينة، كنيسة طفولته، متوارية عن الأنظار، مقصوراتها المشمعة وهواؤها المغبر، رائحة الرطوبة لم تتغير طيلة هذه السنوات – كانت أكثر امتلاء مما توقع. تقع غير بعيد عن المربع الرئيسي، بعشبها الأجرد ومقاعدها المتداعية، ودعامتها التذكارية الرخامية. الكنيسة كبيرة ومهملة كأنّها تؤكّد على كآبة البلدة: من المستحيل ألا تشعر، في وسط المدينة، بأن كل آمال واترتاون قد ضاعت. الكنيسة مع ذلك استمرت، ممتلئة بصورة مفاجئة ذلك اليوم. لا الفتيان من الثانوية، زملاء قسم بوتي القدامى، وبعضهم من الدفعة الحالية، كلهم يرتدون أفضل ملابسهم سيئة القياس، بعضهم يتبعهم آباؤهم، لا الأساتذة فقط، أفواج جودي القدامى، وعائلاتهم، لكنّ وجوهًا غير متوقعة من ماضيه الغابر، سوزان صديقة جودي، حمراء الشعر، القادمة من كينكستون، أونتاريو، وآخرون من دائرة صديقات جودي – مارغريت، وإليانور، كانت جميلة والآن شاحبة، متهدلة حتى، بعنق متغضن، ورُوز الغريبة الصغيرة، أصغر سنًا أيضًا، وزوجها الصغير، فيتو، الذي كان يملك متجر الشراب في الحافة الشرقية للبلدة، ورثه من والده فيتو الأكبر. كان فيتو في الصف نفسه لموراي، بحجم نابوليون، عالي الصوت آنذاك، غائبًا دوما، لكنه الآن أصلع وحزين، عيناه الإيطاليتان منتفختين وحكيمتين بغرابة. رأى موراي فتاة شابة تدفع كرسيا متحركا قديما لم يتعرف في البداية على أنها السيدة روبينسون، صديقة أمه المقربة، أم لستة أبناء، اثنان فقدا في فيتنام، الآن حتما في تسعينياتها، رأسها يلمع بين شعرها الخفيف المتناثر وأذنيها الكبيرتين المحشوّتين بآلات سمع. رأى أيضا معارف من شبابه استمرّوا حتما كمعارف لجودي، يحيُّون بعضهم طُوال هذه السنين في المتجر أو في البريد: ليستر هولمز وبيتي، إيد بايلي وابنته كما

اتضح، وجاك جاكسون، كان يوما فاره الشقرة وكان يرافق موراي في صغره للإمساك بالضفادع في النهر القريب من المنزل.

وقفت جودي عند باب الكنيسة، بكل وقارها في ملابس الحداد، وحيَّت الجميع بأسمائهم، كما لو كانت تعزيهم. «شكرا على قدومك. شكرا على قدومك» كررت هامسة، لكل منهم. كان توم مع الأطفال بالخارج، تركهم يركضون حتى اللحظة الأخيرة، لكن سارة وقفت إلى جانب أمها، يداها متدليتان، منديل في قبضتها، ثوبها الأسود مثل كيس ووجهها غمامة من حزن. لم يقف موراي معهما، لم يُدع لذلك. منح أخته وابنة أخته عناقا، رأى شفتي جودي تضيقان قليلا، كخيط مجذوب، ثم قاد أنابيل ومارينا وجوليوس الغريب (ما الذي كان ذلك الفتى يفعله هنا؟ كيف صار جزء من المناسبة؟) إلى مقصورة في المقدمة إلى اليمين. استقروا، كان من المغري الاستدارة ومراقبة البقية وهم يَصِلون، لكنه قاوم ذلك الإغراء كذلك. لم تكن هذه لعبة بيوي هوكي أو مباراة المدرسة. هذا كان حفل تأبين.

الموقر مانسفيلد، المعروف لدى البعض (لا لموراي) بيلي، عمَّد فْرِدرك، وأكده. كما قال – وبدا أن هنالك دموعا في عينيه، صوته تحشرج حتما– بأنه لم يتوقع أبدا أن يدفنه. ارتعشت ركبتا موراي بفعل كل التأملات الدينية. لم يستطع ألا يفكر في أن هذا خطأ: لم يكن بوبي يُدفن، مجرد أغراض ستُلقى في مكانه. شيء يحمل اسمه، لكن ليس دفينة بوبي الحقيقية.

تحدثت جودي لاحقا، حول نعمة الحياة ونعمة عيشها، ومعها ادّعت – غير صادقة تماما، شعر موراي– بأن ابنها كان منعما. تحدثت عن وعده، طموحه، كيف بدا مؤخرا كما لو فقد طريقه «لكن فقدان الطريق جزء من النضج» قالت – هي التي، ما عدا الجامعة في بينغامتون، لم تعش أبعد من سيراكروز طيلة حياتها، وكان ذاك لثلاث سنوات في بدايات عشرينياتها، كانت جد متعلقة بالطريق المعروف فلم تعترف بآخر – «ولا تتوقع بأن عليك أن تدفع حياتك في المقابل»، بدت مرارتها، حاولت ترتيب أفكارها «لا بد أن

للسماء مغزى ما» قالت، وأصدر الحضور بعض الغمغمة الموافقة. «لكني لم أكتشفها بعد. أعلم بأن بوتي كان صريحا، محبا، قويًا، ومقدَّرا له القيام بأشياء عظيمة» ابتعدت عن مكبر الصوت ورتبت نفسها «وأرغب في أن أحاول الحرص على أن تستمر روحه في العالم»

لاحظ موراي رؤوسا تهز حوله، المصلون في موافقة كاملة. لكن ما الذي عنته؟ ما الذي يعنيه أن تبقي على روحه حية؟ روحه قد تغيرت، جرثومة، فاصولياء. لا تعني شيئًا.

تحدثت سارة، وفتاة من المدرسة كانت تدرس معه في أوسويغو تُدعى إيلين. ثمّ مُدرّسة صديقة – أكانت جوان؟ – ثم الكاهن الذي رفع يديه وبَسَط كفّيه، في مثل تلك الحركات الكنسيّة التي كانت تزعج موراي كثيرا. قام بكل ما وَسِعه للبقاء في مقعده، بينما بيلي مانفيلد السخيف في غطائه الأبيض الطويل تلاعب حول النعش وقرأ بعض الصلوات. كانت مارينا وأنابيل جامدتين، جوليوس كان يقضم أظافره. وموراي في توق إلى سيجارة. لم يتحدث، لم ترغب جودي منه أن يتحدث. حزينا طبعا، لكن المغزى كان كونها خائفة من الحقيقة، من الحياة نفسها، كما كانت دوما: حتى الآن، عندما حدث الأسوأ – ما الذي يمكن أن يكون أسوأ من فقدان طفلك؟ – كانت لا تزال خائفة، مشبعة بالخوف، ومشبعة بالندم.

هذا ليس كذلك. ليس له. قام بواجبه، وما إن ينتهي هذا، سيذهبون. تمنى أن يقول الحقيقة هنا، لكن لم يرغب بها أحد، هي من بين الجميع، أرادته أن يكذب ويقول بأن الخطأ خطؤه، حتى يكون لها شخص لتلومه، حتى تفهم الأمر. لم يتوقع من حياته الماضية أن تكون هنا هكذا غير ملموسة، مثل صندوق غير مفتوح لخمس وأربعين عاما، بعض الأجزاء متداعية طبعا (أذن السيدة روبينسون، صلعة فيتو) لكن كل شيء هناك، ككبسولة زمن، نفس الروائح، نفس النور الشاحب، نفس الإحساس بالاختناق في مؤخر حلقه، نفس الرعشة في ركبته، غريزة الهروب قويّة حدّ أنْ

كان لها مذاق، مذاق مر. هذا ما شعره بوتي، أيضا، عرف موراي ذلك فجأة، أحس به بصدق، الحاجة إلى الهرب من هذا المكان القبيح، كانا متشابهين إلى حد ما. وحاول موراي المساعدة، وفشل، وشعر في لحظة أنه، كلاهما، كانا معا روحا واحدة، وأن ما كان يدفن في واترتاون كان تلك الروح، ذلك التحقق الغريب المستحيل حتى يستديروا مجددا إلى العالم الكبير: في وجه الموت، مزيدا من الحياة، دوما، المزيد.

قليلون ذهبوا إلى المقبرة، ربما لأن ذلك كان من اللياقة، لكن ربما لأنه كان زائفا. لكنهم ذهبوا، وقفوا هناك، بعد مزيد من الصلوات، وأنزلوا النعش إلى حفرته المظلمة الرطبة، بعد رمزية رمي الزهور والتراب (ما هي الرمزية هنا تحديدا؟) عانق موراي أخته جيدا، قبل خدها المبلل، ونظر إلى عينيها كما لو كان يقول بأنه آسف، لا بشكل نادم بل بذلك الوجه الصادق من التفهم، يتفهم بصدق عمق تعاستها، ثم وقف جانبا ليراقب أنابيل، تهمس بلطف، ممسكة يد جودي الكبيرة، تقوم دومًا بما هو مناسب، شكر الله على وجود أنابيل (رغم أنه لا يؤمن). ثم مارينا، فيما بدا له كانفجار عظيم، تهاوت بين يدي جودي، سيل من الدموع قائلة: «أنا جد آسفة» كما لو كانت هي نفسها من طُعنت بخنجر الغدر. كان ذلك بالنسبة له غير ملائم، لكنّه أحسّ أنّ جودي – فيما شَعْرُ مارينا في وجهها، ودموعها تهمي وأنفها يسيل، ويدي جودي المرتديتين قفّازًا تعانقان ظَهْرَ مارينا المرتجف – شعر بأن جودي كانت مبتهجة، محصّنة بشكل ضدّ هذا كلّه.

مع هذه الدراما الصغيرة الملعوبة، لاحظ موراي أن الوحش الجديد الذي صار جوليوس عليه قد أدار ظهره وصار يتنزه بين القبور، يداه معلقتان إلى ظهره، ينحني لقراءة الشواهد وثم يسير بهدوء. كسائح، كان كسائح يزور الموت. ندبة وجه جوليوس مخيفة وشعره سخيف، بزغبه اللامع، لكن معطف الثوب الطويل الأخضر كان جيدا، على الأقل من الخلف، منحه سنحة رسمية. ربما آنذاك كان رمزًا: أُرسل إلى الجنازة تعويضا، تعويضا عن

لودفيك طبعا، لكن لشيء أكبر أيضا. كانوا كلهم ممثلين، وسيّاحا، من عالم آخر. يمكن معرفتهم من معاطفهم فحسب.

الفصل السادس والستون

دفن الميت (4)

لن تستوعبي ذلك حتى يحدث لكِ: أنْ تجدي نفسك في شقّتك نفسها، حيث عشتِ وقتًا طويلًا وكلّ شيء على ما هو عليه، ثم يبدو لكِ كمكان لم تعرفيه إلّا في كابوس؛ أنّ لوحات روثكو ستبدو كما لو كانت تنزف من الجدار؛ أنّ النور – كثير من النور – قد يجرحك؛ أن تجدي أطرافك أثقل من أن تُرفع، والطعام جاف كالغبار، أجفّ من أن يُأكل؛ أن تكوني جدّ باردة، باردت كما لو كنتِ ميّتة. ولا يمكنكِ الاتصال به، بالرغم من أنه استمر في الاتصال، كما لو كان يسخر منكِ، من الجهة المقابلة للنهر العظيم – نهر استيكس أليس كذلك؟ غادرَ إلى أرض الأحياء، وتركَكِ لتراقبي كل شيء يحترق ويتهاوى. ما زال بوسعك شمّه، بعد كل تلك الأسابيع، على أغطيتك وعلى أريكتك مهما غسلتها، وفي شعرك أيضا. ليس بوسعك الإجابة على الهاتف، ليس عليه بل على الجميع، ولا تستطيعين القراءة، حاولت قليلا لكنّكِ لم تستطيعي الذهاب إلى العمل كذلك. فما لا يعلمه أحد ولا يمكن أن يعلمه، طبعا، هو أنك وجدت نصفك الآخر، تكملتك الأفلاطونية ثم جوهرك – لقد كان هو جوهرها، ولو أنها لم تستطع فهم سرعة حدوث هذا، وكماله – تمزقت أجزاءً، تاركة جرحا عميقا متقيحا، فتحة ممزقة من اللحم، لا أحد بوسعه

رؤيتها ولا يمكنكِ أبدا الحديث عنها. والعالم، بالرغم من الكوارث العظمى، أو ربما بسببها، استمر برزانة، تشهدين هيجان المواطنين من النافذة، وعندما تتواجدين في الشارع (فقط حينما كنت مضطرة لذلك)، كانوا يتدافعون ويصطدمون بك كما لو أن لا جرحك فحسب بل أنت أيضا كنت غير مرئية، كما لو كان من الأفضل لو اختفيت. مع هذا، إن سأل أحدهم، كنت لتوافقي بصدر رحب. كان الأمر سخيفا. وبشكل ما، بعد أيام، أو حتى أسابيع من هذا، وكل شيء يوجع طيلة الوقت، وعدم قدرتك على التحمل – من كان بوسعه تحمل أمر كهذا؟ – وجدت نفسك على الساعة الثالثة صباحا، ولو أنك لم تكوني لتستطيعي تحديد أي يوم كان، واقفة على سجاد الحمام الأبيض الذي شرع يصير رماديا، في قميص ممزق وأقدم سراويلك القطنية، بردانة، لأن قدميك كانتا عاريتين، أصابع أقدامك الصغيرة التّعِسة تتحرك كحشرات على السجاد – كاد أن يكون الوضع مضحكا، كل شيء كاد أن يكون مضحكا، المأساة هي أنه ما عاد مضحكا بعد الآن – وعلى المغسلة أمامك هناك كأس مملوء عن آخره بالويسكي (الويسكي الذي يُحبّه، طبعا، لكنه لم يعد في حاجة إليه بعد الآن، أو أنه لن يعود لاسترداده، وحقيقة كونك ما زلت لا تحبين مذاقه، عند الكأس الثانية لا تعود مهمّة)

أمضت بعض الوقت سلفا – كان وقتا معتما– تحدق في انعكاسها، تراقبه، تكشف عن مسامها، الشُّعيرات الضائعة لحواجبها، الزغبة الطويلة غير المسحوبة على ذقنها. اهتمت بإزالتها، أيضا، كما لو كان لذلك أيّ أهمية. رفعت خدها لترى أنه، كما قالت هي يوما، كالخزف، غير متجعد أو مترهل. كان خدا مثاليا، مثاليا لكن غير ذي فائدة. كم من مرة وقفت وحدقت، منذ الطفولة، معتقدة بأنها هكذا ستعرف نفسها أفضل، أو متمنية أنها ستجد نفسها فجأة متغيرة، فجأة أكثر جمالا، وكم كان مخيّبا، حتى الآن، أن تجد الوجه نفسه، يعني شيئًا ما لأحدٍ ما، ويفكر في نفس الأشياء كالعادة، الآن فقط بلا أي أحد لتخبره أو تعني له شيئًا، إشارة بلا موعظة، قناع. كان أمامها

على حافة المغسلة صحن فنجان صغير، دون فنجانه (أعطته لها جدتها، كوب سبود يحمل نقشات مهور صغيرة عليه، تحطم منذ وقت طويل)، حيث كانت قد جمعت أقراصا، أقراص نوم، أقراص ألم، أدويتها المخزنة لسنوات عدة بالإضافة إلى المزيد من الأدوية الحديثة، حبوبا من قناني وحبوبًا مزالة من التغليف المعدني، هرم صغير من الأقراص متجمع بلا تفكير تقريبا، لأن جزء من عقلها مستعد لأخذها والجزء الآخر يتعجب بشكل منفصل يكاد يكون مستمتعا.(الجزء نفسه ربما، هو الذي رأى أصابعها كيرقات)، وتفاهة الأمر برمته، سخفها، والفاشلة التي صارتها. ذلك الجزء، الجزء المنفصل، راقب الدموع تنهمر من عينيها المحمرتين (يا له من ضوء خافت في هذا الحمام – سيكون عليها تغييره، حتى تبدو أقلّ قُبحًا) وسخر، وفكر كم من الواضح أن هذه مجرد سخرية مجنونة. أهذا يجعلها تقليدا ساخرا؟ هل يتخشع البعض عند انتحارهم في اللحظة؟ ما الذي كان يعنيه أنها لم تستطع إسكات هذا الصوت، لم تستطع المراقبة؟ وإن لم يكن بوسعها المراقبة، أكان بوسعها فعلا أن تضع حبة في فمها – جربي، واحدة فقط – وتبتلعها؟ بدا أنها تستطيع، دون تجنب ملامح الاستياء، كان لا يزال مذاق الويسكي، كشيء يصلح لتنظيف الأثاث. أبوسعها القيام بذلك عشر مرات؟ أيمكنها القيام به سبعا وثلاثين مرة بعدد الأقراص في الصحن؟ لا، لم تتوقع أنه يمكنها ذلك. نظرت مجددا إلى أصابع رجليها، تتحرك بحقد، ابتلعت حبة أخرى – مجرد تيلينول 3، هذا، احتفظت به من علاج ضرس العقل منذ ثلاث سنوات، تعرفت عليه لأنه كان قرص حصان كبير، خدش حلقها عند نزوله – ومعه، جرعة كبيرة من الويسكي، ونظرت إلى وجهها وفكرت في سخافة الأمر برمته، وإن رآها أي أحد، سيسخر منها بلا رحمة، لكونها سخيفة كفاية للوقوع في وضع كهذا، للتصرف بهذه الطريقة. إن كانت هي نفسها تعرف بأنها سخيفة، إذا فليس هناك من عذر. شربت المزيد، نظرت مجددا. عينها اليسرى كانت أقرب من اللازم من أنفها. لطالما كانت كذلك. لم يكن بوسعها إصلاح الأمر. كانت عين

أمها، عين راندي مينكوف، بهالاتها السوداء الأولية، تنبض بخفة عبر ضباب الشراب الخالص.

والدتها. راندي مينكوف. سهلة السخرية، أيضا، لكن دائمة الإشراق والشجاعة، وحتما قد مرت بهذا أو أكثر. لا يمكنك إخبارها عن ذلك ولا يمكنك المراهنة على أنها ستملك اللياقة لألّا تسأل – في الحقيقة، ستسأل، حتما. لكن التهرب منها ممكن. والأهم، ستأتي. ستأتي الآن وتهتم بك وتأخذك بعيدا، وربما تدفعك للجنون، دوما ما دفعتك للجنون، لكنك كنت تدفعين نفسك لذلك على كل حال، قد لا يكون قدومها فكرة سيئة.

قد تفاجئك. كانت مفاجئة حتى وهي متوقَّعة. راندي مينكوف – وكانت ترغب في القدوم وإخراجك، كانت تريدك أن تتنفسي هواء أفضل، قالت، غير مدركة على الأرجح (لكن من كان ليخبرها؟) أنك بالكاد تتنفسين على الإطلاق، أنك بالكاد حية. في البدء قلقت بشأن الجمرة الخبيثة – يمكن أن تنتقل بفعل جريدة الصباح، حتى جراثيم مميتة – ثم صارت قلقة من الهواء. لم تصدق بأنهم كانوا يقولون الحقيقة عن سلامته – في الغالب لم يكونوا يفعلون، لكن ما الذي بوسعك أن تقومي به، وكونك لست وسطه فهذا ليس سيئا – وأرادت أن تنقذك. ولو أنها لم تفكر يوما بأنك ستكونين قريبة من تلك الأبراج، لم تتمكن من الحديث معك ليومين بعدها وعاشت الموقف برمته كملكة الدراما التي هي عليها، كما لو اختفيت ويعاد البحث عنك، بفعل معجزة من بين الرماد، أسهبت في الحديث عن أن كوارث كهذه تعلم المرء ما هو الحب – أخبري هذا لوالدة فِردرك تاب، المخلوقة المسكينة المحطمة – وأرادت بحق أن تساعد

إذًا. أخذت دانييل رشفة أخرى من لاغوفين من باب الاحتياط، وحملته معها خارج الحمام لتشعر بالأمان، وجلست على حافة سريرها تنظر إلى السماء المنسية لكن المعتادة – كيف كان شكلها من قبل؟ كيف كان شكل أي شيء؟ لكن هذه كانت ميلودراما: وجهها المتعب، عينها الأقرب، لم تتغير

قط – واتصلت دانييل مينكوف بوالدتها.

«أمي،» قالت، بصوت خافت بدا لها أيضا ساخرًا وحقيقيًا في آن، تماما كتلك الدقائق في الحمام « أمي» قالت «أعلم بأن الوقت متأخر لكنني أحتاجك لأن تأتي.»

ولم تسأل راندي مينكوف، قالت فقط «عرفتها، صغيرتي، عرفت بأن الأمور لم تكن على ما يرام.» وصدمت دانييل بكلمة صغيرتي التي قالتها أمها، بدت مبالغا فيها، ربما، كيف لأمها أن تكون مبالغة لهذه الدرجة؟ كان جوليوس ليحب الأمر. ثم قالت «سآتي قريبا، فتاتي الصغيرة، سآتي حالا.» واتصلت مجددا بعد عشر دقائق تقول بأنها وجدت طائرة على الساعة الحادية عشرة، وبغرض الاستعداد، وضعت دانييل أصابعها داخل حلقها، كان مقززا، وكان الويسكي يحرق صعودا، وخرج قرص الحصان غير ممس تقريبا لكن الحبات الأخرى، أينما تلاشت، الصغيرة، لم تخرج، ثم انتابها عياء شديد وكان عليها أن تذهب للنوم – يا له من يوم كئيب وفارغ تشرق شمسه – وحينما استيقظت كانت أمها تتصل من التاكسي على هاتفها المحمول الجديد لتخبرها بأنها ستكون هناك خلال عشرين دقيقة. حان وقت رمي تلك الأقراص في دورة المياه وغسل الكأس، رغم أنها كانت تشعر بالسوء – كأن الموت زحف عليها، كما يقولون في كولومبوس – لترتدي بعض الملابس وحتى لكي تغسل ذاك الوجه من دون النظر إليه.

وبعد ثلاثة أيام كانتا في ساوث بيتش. اتصلت راندي عبر صديق طالبة خدمة وحصلت على مكان في شقة فندق على الشاطئ، علاج لما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، جد فاخر – عصارة برتقال وصحن برتقال في المطبخ حينما وصلتا، وغطاء من الموسلين الشفاف بإيحاءات استوائية في غرفة النوم – وتواجدت شقتهما فوق مطعم كان يعزف بوب مارلي في الثامنة صباحا، التجربة برمتها عاميّة، قرمزية وسريالية، وكان كما لو أن دانييل ولدت من جديد، عارية، كل شيء إلى الآن قد انمحى. استلقيتا، عاريتي

القدمين ومدهونتين بالزيت، على مناشف الفندق المكشكشة فوق الرمل الأبيض، تراقبان السيّاح الذين لم يمنعهم ما حدث في نيويورك من المجيء (أعدادهم أقل من الأعوام السابقة) يمرحون حولهما، يحملون أوشامًا على ظهورهم وكواحلهم، الكثير منهم بأجساد سمينة. راندي تحت الظل الواسع لقُبّعة الشمس، سألت «هل ستعودين؟»

«أعود؟»

«ليس عليك ذلك» قالت. «لا أفهم كيف يمكنك العودة للعيش هناك»

«والسبب؟»

«لأنه ليس آمنا، وأنت تعلمين ذلك. هذه البداية فقط.»

«البداية؟»

«البداية فقط لنيويورك، خصوصا. كل أفراد الشرطة الذين أرسلوهم – ما زالوا لم يتمكنوا من إيقاف شخص عازم بحق. قنبلة وسخة، هذا ما يسمونها، وهذا ما يتحدث عنه الناس.»

«أي ناس؟»

«أوه توقفي عن الأمر، داني. هذه ليست مزحة، انظري، لقد كاد ذلك أن يمزقك. يمكنك – يمكنك القدوم إلى هنا، يمكنك البقاء معي لبعض الوقت»

«هنا؟» أشارت دانييل إلى الرمل، الماء.

«ليس على الشاطئ طبعا لا. رجاء، يمكنك القدوم رفقتي. ابقي معي.»

«لا أستطيع العيش معك أمي،» رمقت دانييل أمها. «لا تنظري هكذا، أعلم بأنك ستهتمين بي. لكني في الثلاثين من عمري»

«ثم؟»

«ولدي عمل»

«يمكنك الحصول عليه في مكان آخر. يمكنك الحصول على عمل مختلف.»

«أحب عملي.» قالت هذا وفكرت بأن ذلك صحيح.

«حسنا، إذا لم لا تذهبين إلى أستراليا، أن تصنعي ذلك البرنامج الآن؟ إنه وقت جيد للذهاب إلى أستراليا. بوسعي القدوم معك، التأكد من أنك على ما يرام.»

«لا يريدون ذلك البرنامج. أنهاه نيكي، منذ أشهر»

أصدرت راندي صوتا مستاء من حلقها. «تجعلينني أرغب في سيجارة،» ردّت «بعد كل تلك السنوات»

«إذا احصلي على واحدة»

«ألا تفهمين؟»

«أفهم ماذا؟»

«لقد اتصلتِ بي لأنك احتجتِ إليّ.»

راقبت دانييل فتاتين – مراهقتين ربما – عاليتين بفعل حذاء الكعب العالي المنزلق في الرمل، بالكاد حذرتين. كانتا ترتديان ملابس سباحة رفيعة، ومجوهرات في سرتيهما، وكان لإحداهما رموش مزيفة ملصقة حول العينين الزرقاوين الأشبه بعيني دمية. بدتا متصنّعتين – كريم الأساس، كحل، شفتان كبيرتان مبللتان. كان للفتاة صاحبة الرموش وشم لسفينة راسية صغيرة على مؤخرتها المكسوة بالبثور. كانت تضحك وتنزلق حينما مرتا بمحاذاة دانييل، ضحكة كبيرة مجلجلة.

«أتسمعينني؟»

«آسفة»

«أنا فقط أخبرك بما أفكر فيه. لا زلت أمك»

«طبعا سأعود.» كان هذا صحيحًا أيضا. لكن ما زال أمامها فيلم حول عمليات التجميل وشفط الدهون لتُنجزه. بدا، عند التفكير فيه

سخيفا، لكنه لم يكن كذلك. بحلول وقت عرضه، سيكون الناس قد تعبوا من التراجيديات العُظمى، وسيكونون مستعدّين لمشاهدته مجدّدًا، لمُتابعة كوارث الناس الصّغيرة.

وقفت راندي ونفضت عنها الرمل «سأدخل،» قالت « لا أعلم لمَ كل هذا إنْ كنتِ لن تستمعي إليّ»

«أنا شاكرة أمي، بحق»

انحنت راندي وقبّلت مُقدّمَ رأس دانييل الذي يعتمر قُبّعة شمس نيوز كافي التي أخذتها حال وصولهما. تساءلت راندي إلى أي مدى تشك والدتها – ليس من، بل أن هنالك أمرا، شخصا، ألمًا سريًّا – لأن راندي لم تسأل عن الأمر. ثم، ربما كانت تعتقد بأن الحزن نابع عن زواج مارينا من لودفيك سيلي. أو بخصوص فِردرك تاب. بوتي.

راقبت دانييل أمها تصنع طريقها على الشاطئ، تحاول التوازن في الماء. صغيرة وصامدة، وقفت في المياه الضحلة، انحنى كوعاها، اليدان ممدّدتان أمامها، كما لو كانت تربّت على الموجة اللطيفة. كان رباطها يقطع كتفيها المكسوين بالنمش، نهداها الصلبان، لم يكن بوسعهما الحركة، بطنها متدلّ في تمرّد تحت مشدّها. احتفظت بالقبعة ونظّارتها. عرفت دانييل أنها لم تكن لتبتعد كثيرا قبل أن تعود، ساقاها يلمعان بالقطرات، حركاتها نشطة عمدا. لوحت راندي، لوحت دانييل في المقابل، تحية صغيرة، ثم استلقت مجددا وأغلقت عينيها. أرادت بشدة أن تخبر أحدا حول كل شيء، حوله، حول كل شيء قاد لذلك اليوم واليوم نفسه. أرادت أن تخبر والدتها، أن تجعل والدتها تهتم بها، أن تحوطها بذراعيها، تُقَبّلها بشكل أفضل، كما كانت قُبَل الطفولة تنفع. كيف يمكن ألّا تعلم أمها عن هذا، عن أكثر التغييرات حساسية، عن الفوّهة المحدقة بداخلها؟ تخيلت، لبضع دقائق، الكلمات التي قد تستخدم، الحوار الذي قد تخوضانه، لكنها لم تستطع، حتى في عقلها، أن تجعله يسير كما ترغب. فأيقنت بأنها لن تنطق بالأمر عاليا أبدا. ربما لا شيء من هذا كان

حقيقياً – مستلقية هنا، شبه عارية، على الرمل الساخن، هاهي متلاشية، مولودة من جديد، مع والدتها الشجاعة، تحميها ولو بعمى، مع فرصة بداية جديدة، نسيان جديد: وهذا كل ما كان لديها الآن. كانت أشعة الشمس وردية داكنة عبر جفنيها، وتابعت الكائنات الصغيرة الشفافة – ما هي؟ – وهي تسبح في كل مكان عبر مجال رؤيتها. اعتادت فعل هذا وهي طفلة، الاستلقاء في الشمس أمام المسبح، في النادي الريفي بكولومبس، تشعر بالماء يتبخر من بشرتها وتراقب المسرحية من داخل الجفنين. كان مريحا. كان يجعل كل شيء يبدو بعيدا جدا. ظنت بأن راندي ربما كانت على صواب، فكرت أنه ربما ليس عليها أن تعود. لكنها كانت مدركة لكونها ستفعل، لأنها لم ترغب في الذهاب إلى أي مكان آخر، أو لا تملك أي مكان آخر للذهاب إليه. أيقنت أن حياتها – مستقبلها – كان هناك.

لاحقا، قبيل الغروب، ذهبت دانييل وراندي في نزهة. ارتدتا تنانيرهما المكشكشة الفاقعة وأخفافًا، كما لو كانتا تحتفلان بشيء ما. توجهتا إلى الداخل، مبتعدتين عن كورنيش البحر، العضلات والبطون والبشرة الذهبية. كان المطعم تحت شقتهما يعزف فرانك سيناترا عندما غادرتا، ونادل وحيد في الباحة أشار إليهما كما لو كان يتوقع زباءن كُثُر: كان المطعم صاخبا لكن غير محبوب.

بدا الحَيّ في آخر الشاطئ غير متكافئ مع ما قبله، كبلدة رائدة تنتهي حواف طرقاتها إلى حدائق. كان الشارع بعد مربع سكني واحد مكتظا، كل متجر مضاء ومفتوح على الشارع، دكاكين ملابس باهرة ومقاهٍ. والشارع الثاني كان مرقشا بفنادق صغيرة، حديثة التجديد، ومطاعم، أهدأ، لكن أسفل إلى اليمين كان بوسعهما رؤية الأضواء الفلورية متجمعة خارج سوق رثّ، ومقلاة سمك وسط صف من واجهات المتاجر المهملة. المجمع بعدها، أبعد ما تمشيتا، كان سكنيا، مخيفا في هدوئه ونوره الخافت. لم يبدُ أيّ من المنازل مأهولًا، وأضواء قليلة باهتة كانت مضاءة خلف الستائر، ذلك النور الصغير

الذي تضيئه لتطرد اللصوص.

«هَلّا عُدنا؟» اقترحت راندي. «ربما نحصل على شراب في أحد تلك الأماكن؟»

«ولم لا؟»

لوازم عشائهما – سلطة وسلطة فواكه، لأجل حمية راندي الدائمة– كانت فوق منضدة المطبخ إلى جانب عصارة البرتقال. سيتعشون مع سيناترا، مزحت راندي.

لكن أوّلا، اختارت راندي مكانا لكوكتيل، حديقة مطعم لواحد من الفنادق الصغيرة، مغطاة بأوراق النخيل، مبقعة بأنوار الجنيات. نسيم مغازل حرك الأوراق، دافعا الشمعة على مائدتهما المعدنية المحبوكة.

«المكان جميل، عزيزتي، أليس كذلك؟» قالت راندي. «يبدو مميّزًا فحسب.»

«فعلًا. إنها مكافأة حقيقية. شكرا أمي.»

«أنا سعيدة لأننا حصلنا على هذا الوقت. صغيرتي» رشفت من كأسها الكبير اللامع المملوء بالفواكه «لم ننعم بهذا منذ سنوات.»

«لا»

«سيغار والدك. سيفعل»

«لا تشمتي»

«أنا لا أشمت. لكني لا أستطيع المقاومة وأنا سعيدة.» توقفت. «بإمكانك دوما العودة إلى كولومبوس إن كنت تفضلين. سأتفهم ذلك.»

«سأعود إلى المنزل، أمي. حالما كنت جاهزة. دعينا لا نتحدث عن الأمر مجددا.»

صمتتا. شعرت دانييل بأنه صمتٌ مُحبّب. مرت سحلية صغيرة فوق الصخور المعبدة، ورجل، على بعد عدة طاولات، انفجر ضاحكا.

استدارت دانييل لتنظر إليه. كان سمينا، بهالة من الخصلات

الطفولية. بدا بطنه كما لو كان سيهرب من سرواله المنقش، قطعة ملابس بكمين قصيرين، نتأت منها ذراعاه الممتلئتان منها كجوارب ملأى بالرمل. له شَفَة عُليا طويلة، وكان جدّ محمرّ، لكن من الصعب تحديد أكان ذاك تأثير الشمس، أم الشراب، أم العاطفة. قد يكون ألمانيا، فكرت. هذا يناسب فكرتها عنهم.

شيء خلفه أثار انتباهها. حركة. حركة معينة أشبه بدفع النظارة فوق جسر الأنف. انحناءة يد معينة. كان يقف في الظلام قرب مدخل الردهة، مرتديا بذلة، سوداء ورمادية طفيفة، وطوقًا مستديرًا قصيرًا. لا خصلات، رأسه يكاد يكون حليقا، وأرفع، لكن لا بد أن يكون هو.

نظرت مجددا إلى أمها، التي كانت تبتسم قليلا لنفسها، تشرب من كأسها مجددا «أمي»، قالت. «سأعود بعد قليل حسنا؟»

لكنه كان قد ذهب، حينما وصلت الدّرَج. ولجت إلى الداخل، متجاوزة حوض الأسماك الكبير الفقاعي بلون غسول الفم وأسماكه البنفسجية، نحو مكتب الاستقبال. رجل آخر في بذلة يعبث بهدوء عند الاستقبال. كان أكبر، لاتينيا، وسيما.

«معذرة،» قالت. «أظنني رأيت للتو صديقا لي. ربما يعمل هنا؟ فْردِرك؟ فْرِدرك تاب؟»

توقف الرجل عن الانشغال ونظر إليها بارتياب

«لقد رأيته للتو. في زي رسمي. فتى شاب، نظارات؟ فْرِدرك؟»

«لا أعلم، آنسة. فْرِدرك؟ لا أظن أن بيننا أيّ أحد يُدعى فْرِدرك»

«بوتي ربما؟ أحيانا يناديه الناس بوتي»

تنحنح الرجل بخفة «لا آنسة. ليس في هذا الفندق»

أراحت دانييل يديها مسطحتين على المنضدة العالية إلى الصدر. كان الحجر الأسود باردا «إذا لا بد أن له اسما آخر» أضافت «لكني رأيته للتو»

كان الرجل يحرك رأسه للتو حينما عبر بوتي تاب الرّدهة – لا بد أن

يكون هو – حاملًا إبريقًا معدنيًا معرّقًا مملوءا بالماء. مُطأطئ الرّأس، وكلتا يديه على الإبريق، كما لو كان مركّزا كلّ طاقته على ألّا ينسكب.

«بوتي؟»

لم يتوقف لخطوة، ربما تعثر قليلا، صَعُب التكهن.

«بوتي تاب؟»

كل ما فعله كان أن مشى بسرعة.

تبعته عائدة إلى الخارج، انتظرت في العتبة العليا حتى انتهى من إفراغ الماء لطاولة الرجل السمين. أرادت أن ترى عينيه. عندما اقترب، قالت مجددا، بصوت يكاد يعلو الهمس، «بوتي تاب. ما الذي تفعله هنا؟»

«أولريش،» أجاب، ممسكا الإبريق. لم ينظر إليها.

«الجميع يعتقد بأنك ميت.»

لم يقل شيئًا.

«أمك المسكينة. الأمر مدمر. أظن بأن مارينا متواجدة الآن في جنازتك»

تململ، آنذاك. كاد أن ينظر إليها. لكنه لم يفعل. «أهي على ما يرام؟»

«هذا وصف نسبي. ما الذي تفعله بحق الجحيم؟»

استدار إليها أخيرا. عيناه، خلف نظارته الثخينة، كانت عدستاها كبيرتين ومبلّلتين قليلا «اتركيني وشأني رجاء.»

«لكن أسرتك – الجميع– كيف أمكنك؟»

«كيف أمكنني ماذا؟»

«أن تدَعهم يعتقدون بأنك ميت»

نظر إلى الإبريق، كما لو أن شيئًا مُهمًّا كان يطفو هناك. «أنا فقط،» تنفّس «باقٍ. أقوم بما عليّ القيام به حتى أنجو. لن تفهمي الأمر.»

«جربني»

«لا. فْردِرك غير موجود. وبالنسبة لي، بالنسبة لأولريش، أنت غير

موجودة. لست ملزما بشرح أي شيء.»

«في الحقيقة، أظنك مُلزم بذلك.»

كان غاضبا الآن، استطاعت ملاحظة ذلك. كاد يبصق عليها «احتجتُ لأن أذهب. كنت لأكون ميتا، لولا ذلك. احتجت – لم أفعل أي شيء خاطئ. لو كنت قتلت نفسي بدل ذلك، إذًا كنت سأكون ميتا بالفعل. ربما كان ذلك ليكون أفضل. أسترتاحين آنذاك؟»

«لا،» قالت. أرادت أن تقول بأنها تفهم ذلك، على الأقل، لكنه لم يكن ينظر إليها. مدت يدها ولمست ذراعه، لكنه جفل، تراجع، وتحرك الماء في الإبريق، مزعزعا قطع الثلج.

«لست الشخص نفسه،» قال. «اسمي أولريش،» وقف أكثر استقامة، تحدث بصرامة: «أعتذر لسوء الفهم. وآسف بشأن صديقك.»

«أنا أيضا،» شعرت به كجرح آخر بليغ، جرح غير ظاهر. كم يحتاج الأمر من جروح لينتهي؟ أيها سيكون النفخة المميتة؟ أنقذ ما يمكن إنقاذه، فكرت. «أتظنني لا أعلم؟» قالت. «ما يعنيه الأمر؟ موراي – لقد أحببته أيضا، بالقدر الذي فعلته. ربما أكثر.»

«أعلم.» هز كتفيه، قليلا، «لكنه لم يكن الشخص الذي ظننته، أليس كذلك؟»

«لا أعرف ذلك حتى. لست متأكدة ما إذا كنت أعرف ما أنا عليه.»

بوتي – أولريش – نظر إليها لوهلة. أمسك إبريق الماء. لم يحمل وجهه أي تعبير واضح. «إذًا فقد حدث لنا جميعا،» قال « قد تخبرنا مارينا بأننا نحتاج فقط إلى تغيير ملابسنا» أشار إلى بذلته الرمادية.

«ربما كذلك.»

«سأذهب الآن،» قال. «لدي عمل للقيام به.» توقف. «سُعدتُ للقائك،» أضاف، كما لو لم يلتقيا من قبل، كما لو كان يعنيها فعلا. «وبالتوفيق.»

«ما كان هذا؟» سألت راندي، عند عودتها إلى الطاولة، إلى شرابها الجميل، والقشعريرة تعلو ذراعيها بفعل النسيم البارد.

«مجرد شخص ظننت أني أعرفه» هزت دانييل رأسها.

«الأمر مضحك هكذا، هذا المكان. كدت أقسم بأن لورين هوتون مر بجانبي عندما كنت غائبة. خارج الممر. ذلك من أعنيه، أليس كذلك – ذاك الشخص بالفلجة الكبيرة بين أسنانه؟ ربما يصغرني قليلا؟»

«أجل.» راقبت دانييل بوتي من زاوية عينها، وهو يتحرك بين الطاولات. كان هنالك مزيد من الزبائن الآن، يطلبون الطعام، وكان المكان أكثر ضجة، رؤوس تتحاور بتردّد بين النباتات فيما بوتي، أو فردِرك، أو أولريش، لم يرفع عينيه نحوها حتى مرّة واحدة. لا يزال مرتبكا قليلًا جسديًا، لكنه مع ذلك تغيّر كثيرا، يكاد يكون وسيما بطوقه القصير، وشعره المقلم القصير. فكرت في أن أحدا سيحبه، مع الوقت. هي أيضا، لذاك السبب. فكرت في أمه، وفي حزنها العميق الذي لا يوصف، مدت يدها لتأخذ يد أمها.

كانت يدا صغيرة، كيدها، لكن أكثر رفاعة ومعرّقة وأجفّ. أحجار خواتم أمها المزيفة انغرزت في راحة دانييل وهي تتمسك بيد راندي بشدة، كانت مؤلمة، لكن دانييل لم تبالي.

الفصل السابع والستون

خذهم على حين غرّة

بعد أن تركها، جملتان كانتا تدوران بباله طيلة الليل، في العمل، وفي غرفته، وفي الشارع. كانتا دوما بباله الآن، لكن اليوم أكثر حدة، لأنه تمنى لو أنه قالهما بصوت عال لها. ربما كانت لتفهم آنذاك. ربما فهمت على كل حال، ولو أنها في الغالب لم تكن لتفعل. هي من بين الجميع. الأكثر شبها به. فيم كان يهم؟ هل ستقول شيئًا؟ لم ينته الأمر برمته: سينتقل فقط، الآن. إن قالت شيئًا، من سيصدقها؟ ما الذي فعله وكان خاطئا؟

حينما عاد إلى غرفته، شرع في حزم أشيائه القليلة في حقيبته النايلون الخضراء العسكرية التي اشتراها احتياطا. فكر في أخذ حمام، مرة أخيرة في الحوض البلاستيكي الذي صار يحبه، لكن الوقت لم يكن كافيا. ترك كتاب موسيل، الجزء الأول، وراءه على الطاولة الجانبية، لشخص آخر ليكتشفه، ودّع غلافه المضروب الضبابي. مرر يديه بخفة على سطح التلفاز، المنضدة، غطاء السرير المرقش الاصطناعي. أخيرا، حافة النافذة: تجاوز الوقت منتصف الليل، وكان موقف السيارات ساكنا، المنظر، بمصابيحه الأزازة، هادئا كلوحة. في الخارج على الحصى، تنفس عميقا، مدركا لانحناء ظله الأسود، المتولد عن النور الاصطناعي خلفه. سيتذكر رائحة الهواء، هنا، وكيف كان النسيم

يلاعب بشرته بجلاء. سيحمل رسالته معه، رفقة الرسائل الأخرى.

هذه المرّة، كان مستعدًّا. هذا الشّخص المتحرّك هو ما يصير إليه: كان شيئًا، أيضًا، رجلًا، يومًا ما، صاحب قيم. أولريش نيو. «العظماء يملكون أقصر السّيَر،» أخبر نفسه، و«خُذهم على حين غرّة». نعم، سيفعل.



كلير مسعود روائيّة أمريكية من أصول جزائرية. حازت على زمالتي Guggenheim و Radcliffe وعلى جائزة Strauss Living Award من الأكاديمية الأمريكية للفنون والآداب، ووصلت مرّتين إلى نهائيات جائزة PEN/Faulkner Award. كتبت ستّة أعمال روائية من بينها "المرأة في الطابق العلوي" و"أطفال الإمبراطور" و"الفتاة التي تحترق". تهتمّ في رواياتها بالحيوات التي لا تجري وفق ما خُطّط لها، والقصص التي يشكّلها الناس لأنفسهم كي يُكملوا حياتهم وعلاقاتهم بعد ذلك.



سلمى وُعمرو، مدوّنة ومترجمة وقاصة من المغرب. حاصلة على الإجازة في الأدب الإنجليزي. تُجيد الفرنسية والإنجليزية والألمانية، إلى جانب لغتها الأم العربية. شاركت في مجموعات قصصيّة جماعيّة صادرة عن ملتقيات أدبية في المغرب: "شتلات زعرور" و"موكب الهزارات". كُرِّمَت بالمرتبة الثانية في مسابقة القصة القصيرة في ملتقى خنيفرة للقصة 2016.

أطفال الإمبراطور

«أوه فهمت. الأمر وما فيه أنه كان عليك يا ابن أختي العبث بأوراقي الخاصة في دُرجي وإسماع العالم اللعين رأيك المتعنّت عنّي؟ أتعلم ما أنت عليه؟ أنت هراء صغير، نكرة، لديك ذكاء عثة. أنت بقعة وسخة من تلك القرية، التي هي نفسها بقعة وسخة. أنت لا شيء. وهل تعرف كيف أعرف؟ لأنني كنت مثلك. بحق الجحيم، لقد كنتُ أنت، باستثناء أنني لم أكن سمينًا. لكنني عرفت مكاني فابتعدت. عرفت ما عليّ تعلّمه فانكببت على نفسي وتركت فمي مُغلقًا وأنصتُّ وتعلّمت واشتغلت، أيها الحقير الصغير، اشتغلت حتى صنعت شيئًا من نفسي.»

موراي ثوايت، ناقد شهير غادر قريته صغيرًا فتعلّم واجتهد حتى نال مكانة مرموقة في الوسط الثقافي الرّفيع في نيويورك، ولم يعُد إلى قريته أبدًا. تعتني به زوجته المتفانية، وابنته الوحيدة التي يؤمن سرًا أنها فاشلة في الكتابة. هذا هو الحال حتى مجيء بوتي تاب، هاربًا من القرية إلى خاله موراي الذي يرى فيه شخصيّة أسطوريّة يتطلع إليها بكلّ تقدير. وفيما يرى موراي في ابن أخته بذرة تستحقّ الاعتناء، فيُسكنه بيته، يتكشّف لبوتي زيف خاله من خلال تقليب أوراق مكتبه والاقتراب أكثر فأكثر منه، فيقرّر تعريته تمامًا أمام وسطه الثقافيّ الرّفيع، والانسلاخ من هذه العائلة.

«ممتع.. تتلبّس الشخصيات فوارق آسرة حيث تسخر مسعود وتتحدى مفاهيم المجتمع الجاهزة حول الثقافة، الطبقية والحراك الاجتماعي. تكفّل كتابتها المتقدة والغنية قراءة مبهجة»

يو إس إيه توداي

«لقد ألفت مسعود كوميديا أخلاق، هجاءً للصحافة والطموح المغلوط، ودراما متقضّية ومثيرة حول الحياة الحضرية المرتبكة.»

جريدة وال ستريت

القائمة الطويلة لجائزة مان بوكر 2006

Cover artwork: Holiday Crowd at Grand Central Terminal, New York City, c.1920 (b/w photo), American Photographer, (20th century) / Royal Geographical Society, London, UK / Bridgeman Images
Cover design: Diana Chamma



